فتح البيان

في مقاصد القرآن

تفسير سلفي أثري خالٍ من الإسرائيليات والجدليات المذهبية والك..
يغني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف

السيد الإمام العلامة الملك المؤيد من الله الباري
أبي الطيب "صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري"
"١٢٤٨ - ١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدّم له وراجعه
خادم العلم
عبد الله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء الخامس عشر



١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية المطبعة العصرية

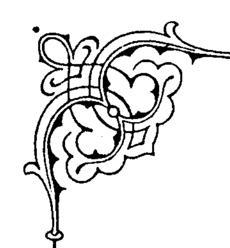
بيروت - ص. ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

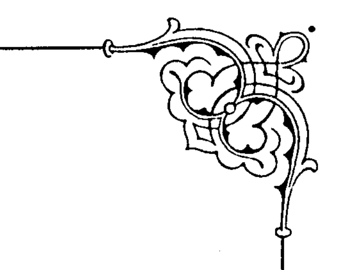
صيدا - ص. ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE


فتح البيان
في مقاصد القرآن



الجزء الخامس عشر
بسم الله الرحمن الرحيم
ويشتمل على:
سورة المرسلات.
سورة عم.
سورة النازعات.
سورة عبس.
سورة التكوير.
سورة الأنفطار.
سورة المطففين.
سورة الأنشقاق.
سورة البروج.
سورة الطارق.
سورة اعلى.
سورة الغاشية.
سورة الفجر.
سورة البلد.
سورة الشمس.
سورة الليل.
سورة الضحى.
سورة ألم نشرح.
سورة التين.
سورة اقرأ.
سورة القدر.
سورة لم يكن.
سورة الزلزلة.
سورة العاديات.
سورة القارعة.
سورة التكاثر.
سورة العصر.
سورة الهمزة.
سورة الفيل.
سورة قريش.
سورة أرأيت.
سورة الكوثر.
سورة الكافرون.
سورة النصر.
سورة تبت.
سورة الاخلاص.
سورة الفلق.
سورة الناس.





بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المرسلات

هي خمسون آية وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر

قال قتادة إلا آية منها وهي قوله: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾ فإنها مدنية وروي هذا عن ابن عباس.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: «بينما نحن مع النبي صلى الله عليه وسلم في غار بمنى إذ نزلت سورة ﴿والمرسلات عرفاً﴾ فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه. وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم اقتلوها فابتدرناها فذهبت فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقت شركم كما وقيتم شرها».

وأخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عباس أن أم الفضل سمعته وهو يقرأ والمرسلات عرفاً فقالت: «يا بني لقد ذكرتني بقراءتك هذه السورة إنها آخر ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها في المغرب».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾

﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ قال جمهور المفسرين هي الرياح ، روي عن ابن مسعود قال إنه الريح وقيل هي الملائكة ، وبه قال مقاتل وأبو صالح والكلبي ، وقال أبو هريرة : هي الملائكة أرسلت بالعرف ، وعن ابن مسعود مثله ، وقيل هم الأنبياء .

فعلى الأول أقسم سبحانه بالرياح المرسلة لما يأمرها به كما في قوله ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ وقوله ﴿ ويرسل الرياح ﴾ وغير ذلك وعلى الثاني أقسم سبحانه بالملائكة المرسلة لوحيه وأمره ونهيه ، وعلى الثالث أقسم برسله المرسلة إلى عباده لتبليغ شرائعه ، وقيل المراد بالمرسلات السحاب لما فيها من نقمة ونعمة [1] .

وإنتصاب (عرفاً) إما على أنه مفعول لأجله أي المرسلات لأجل العرف وهو ضد النكر أو على أنه حال بمعنى متتابعة يتبع بعضها بعضاً كعرف

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالمرسلات عُرفاً ، وقد ترسل عرفاً الملائكة ، وترسل كذلك الرياح ، ولا دلالة تدل على أن المعني بذلك أحد الحزبين دون الآخر ، وقد عم جل ثناؤه بإقسامه بكل ما كانت صفته ما وصف ، فكل من كانت صفته كذلك ، فداخل في قسمه ذلك ، ملكاً أو ريحاً أو رسولاً من بني آدم مرسلاً . وقال ابن كثير : والأظهر أن المرسلات : هي الرياح ، كما قال تعالى : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ وقال تعالى : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ وهكذا العاصفات هي الرياح ، يقال : عصفت الرياح : إذا هبت بتصويت ، وكذا الناشرات : هي الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء كما يشاء الرب عز وجل .

الفرس ، تقول العرب سار الناس إلى فلان عرفاً واحداً إذا توجهوا إليه ، وهم على فلان كعرف الضبع إذا تألبوا عليه ، أو على أنه مصدر كأنه قال والمرسلات إرسالاً أي متتابعة ، أو على أنه منصوب بنزع الخافض أي والمرسلات بالعرف ، قرأ الجمهور (عرفاً) بسكون الراء ، وقرأ عيسى بن عمر بضمها .

﴿ فالعاصفات عصفاً ﴾ وهي الرياح الشديدة الهبوب ، وقال القرطبي : بغير اختلاف ، يقال عصف بالشيء إذا أباده وأهلكه ، وناقة عصوف أي تعصف براكبها فتمضي كأنها ريح في السرعة ، ويقال عصفت الحرب بالقوم إذا ذهبت بهم ، وقيل هي الملائكة الموكلون بالريح ، يعصفون بها ، وقيل يعصفون بروح الكافر ، وقيل هي الآيات المهلكة كالزلازل ونحوها ، وقال ابن مسعود هي الريح ، وعن علي قال هي الرياح ، وبه قال ابن عباس .

﴿ والناشرات نشراً ﴾ يعني الرياح تأتي بالمطر وهي تنشر السحاب نشراً ، قال ابن مسعود هي الريح أو الملائكة الموكلون بالسحاب ينشرونها أو ينشرون أجنحتهم في الجو عند النزول بالوحي ، أو هي الأمطار لأنها تنشر النبات ، وقال الضحاك : يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بني آدم ، قال الربيع : أنه البعث للقيامة ينشر الأرواح وجاء بالواو هنا لأنه إستئناف قسم آخر .

﴿ فالفارقات فرقاً ﴾ يعني الملائكة تأتي بما يفرق بين الحق والباطل ، والحلال والحرام وقال مجاهد هي الريح تفرق بين السحاب فتبدده ، وروي عنه أنها آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل ، وقيل هي الرسل فرقوا بين ما أمر الله به ونهى عنه ، وبه قال الحسن قال ابن عباس هي الملائكة فرقت بين الحق والباطل .

﴿ فالملقيات ذكراً ﴾ هي الملائكة قال القرطبي : بإجماع أي تلقي الوحي إلى الأنبياء ، وقيل هو جبريل وسمي بإسم الجمع تعظيماً له ، وقيل هي الرسل

يلقون إلى أممهم ما أنزل الله عليهم ، قاله قطرب ، قال ابن عباس : فالملقيات ذكراً قال بالتنزيل .

قرأ الجمهور ملقيات بسكون اللام وتخفيف القاف إسم فاعل .

وقرأ ابن عباس بفتح اللام وتشديد القاف من التلقية وهي إيصال الكلام إلى المخاطب .

أقسم سبحانه بصفات خمسة موصوفها محذوف فجعله بعضهم الرياح في الكل ، وبعضهم جعله الملائكة في الكل ، وبعضهم غاير فجعله تارة الرياح وتارة الملائكة ، وجعل الجلال المحلي الصفات الثلاث الأول لموصوف واحد وهو الرياح ، وجعل الرابعة لموصوف ثان وهو الآيات وجعل الخامسة لموصوف ثالث وهو الملائكة ، ولم يسلك هذه الطريق غيره من المفسرين .

وعبارة النهر : ولما كان للمقسم به موصوفات قد حذفت وأقيمت صفاتها مقامها وقع الخلاف في تلك الموصوفات ، والذي يظهر أن المقسم به شيئآن ، ولذلك جاء العطف بالواو في ﴿ والناشرات ﴾ والعطف بالواو يشعر بالتغاير ، وأما العطف بالفاء إذا كان في الصفات فيدل على أنها راجعة لموصوف واحد :

وإذا تقرر هذا فالظاهر أنه أقسم أولاً بالرياح ويدل عليه عطف الصفة بالفاء ، والقسم الثاني فيه ترق إلى أشرف من المقسم به الأول وهم الملائكة ، ويكون قوله (فالفارقات ، فالملقيات) من صفاتهم وإلقاؤهم للذكر وهو ما أنزل الله تعالى صحيح إسناده إليهم .

وما ذكر من اختلاف المفسرين في المراد بهذه الأوصاف ينبغي أن يحمل على التمثيل لا على التعيين ، والراجح أن الأوصاف الثلاثة الأول للرياح ، والرابع والخامس للملائكة ، وهو الذي اختاره الزجاج والقاضي وغيرهما .

﴿ عذراً أو نذراً ﴾ انتصابها على البدل من ﴿ ذكراً ﴾ أو على المفعولية والعامل فيهما المصدر المنون كما في قوله تعالى ﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة

يتيماً ﴾ أو على المفعول لأجله أي للإعذار والإنذار ، أو على الحال بالتأويل المعروف أي معذرين أو منذرين .

قرأ الجمهور بإسكان الذال فيهما ، وقريء بضمها وبسكونها في (عذراً) وضمها في نذراً .

وقرأ الجمهور عذراً أو نذراً على العطف بأو ، وقرىء بالواو .

والمعنى أن الملائكة تلقي الوحي إعذاراً من الله إلى خلقه وإنذاراً من عذابه ، كذا قال الفراء ، وقيل عذراً للمحقين ونذراً للمبطلين .

قال أبو علي الفارسي : يجوز أن يكون العذر والنذر بالتثقيل جمع عاذر وناذر كقوله ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ فيكون نصباً على الحال من الإلقاء أي يلقون الذكر في حال العذر والإنذار ، قال المبرد هما بالتثقيل جمع والواحد عذير ونذير ، وقيل الإعذار محو الإساءة ، والإنذار التخويف ، والأول أظهر .

ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال ﴿ إنما توعدون لواقع ﴾ أي ان الذي توعدونه من مجيء الساعة والبعث كائن لا محالة ما إسم الموصول ، والقاعدة أنها إذا كانت كذلك ترسم مفصولة من أن ورسمت هنا موصولة بها إتباعاً لرسم المصحف الإمام .

ثم بين سبحانه متى يقع ذلك فقال ﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ أي محي نورها وذهب ضوؤها يقال طمس الشيء إذا درس وذهب أثره ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ أي فتحت وشقت ومثله قوله ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ أي قلعت من مكانها بسرعة ، يقال نسفت الشيء وأنسفته إذا أخذته بسرعة ، وقال الكلبي سويت بالأرض ، والعرب تقول نسفت الناقة الكلأ إذا رعته ، وقيل جعلته كالحب الذي ينسف بالمنسف ، ومنه قوله ﴿ وبست الجبال بسّا ﴾ والأول أولى ، قال المبرد : نسفت قلعت من مواضعها .

وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ
نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى
قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾

﴿ وإذا الرسل أقتت ﴾ الهمزة بدل من الـواو المضمومـة ، وكل واو انضمت وكانت ضمتها لازمة يجوز إبدالها بالهمزة ، وقد قرىء بالواو ، والوقت الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر إليه .

والمعنى جعل لها وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم كما في قوله سبحانه ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ وقيل هذا في الدنيا أي جمعت الرسل لميقاتها الذي ضرب لها في إنزال العذاب بمن كذبها ، والأول أولى ، قال أبو علي الفارسي أي جعل يوم الدين والفصل لها وقتاً ، وقيل أقتت أرسلت لأوقات معلومة على ما علم الله به .

﴿ لأي يوم أجلت ﴾ هذا الإستفهام للتعظيم والتعجيب ، أي لأي يوم عظيم تعجب العباد منه لشدته ومزيد أهواله ضرب لهم الأجل لجمعهم ، والجملة مقول قول مقدر هو جواب لإذا أو في محل نصب على الحال من الضمير في أقتت ، قال الزجاج المراد بهذا التأقيت تبيين الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم .

ثم بـيّن هذا اليوم فقال ﴿ ليوم الفصل ﴾ قال قتادة يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة والنار ، ثم أتبع ذلك تعظيماً وتهويلاً فقال ﴿ وما أدراك ما يوم الفصل ﴾ أي وما أعلمك بيوم الفصل يعني أنه أمر بديع هائل لا يقادر قدره ، وما مبتدأ وأدراك خبره أو العكس كما اختاره سيبويه .

ثم ذكر حال الذين كذبوا بذلك اليوم فقال ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أي ويل لهم في ذلك اليوم الهائل ، قال الزمخشري ويل أصله مصدر ساد مسد فعله لكنه عدل به إلى الرفع للدلالة على الثبات .

قلت : سوغ الإبتداء به كونه دعاء لا ما ذكره الزمخشري ، ويجوز ويلاً بالنصب ولكنه لم يقرأ به ، والويل الهلاك أو هو إسم واد في جهنم ، قال ابن مسعود يسيل فيه صديد أهل النار فجعل للمكذبين .

وكررت هذه الآية في هذه السورة عشر مرات لأنه قسم الويل بينهم على قدر تكذيبهم ، فإن لكل مكذب بشيء عذاباً سوى تكذيبه بشيء آخر ، ورب شيء كذب به هو أعظم جرماً من التكذيب بغيره ، فيقسم له من الويل على قدر ذلك التكذيب .

وقال الكرخي : التكرار في مقام الترغيب والترهيب مستحسن لا سيما إذا تغيرت الآيات السابقة على المرات المكررة كما هنا .

ذكر سبحانه ما فعل بالكفار من الأمم الخالية فقال ﴿ ألم نهلك الأولين ﴾ أخبر سبحانه بإهلاك الكفار من الأمم الماضية من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم كقوم نوح وعاد وثمود ، قال مقاتل يعني بالعذاب في الدنيا حين كذبوا رسلهم ، والإستفهام إنكاري وهو داخل على نفي ، ونفي النفي إثبات ، ويعبر عنه بالإستفهام التقريري والمراد به طلب الإقرار بما بعد النفي .

﴿ ثم نتبعهم الآخرين ﴾ يعني كفار مكة ومن وافقهم حين كذبوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، قرأ الجمهور نتبعهم بالرفع على الإستئناف أي ثم نحن نتبعهم ، كذا قدره أبو البقاء ، وقال ليس بمعطوف لأن العطف يوجب أن يكون المعنى أهلكنا الأولين ثم أتبعناهم الآخرين في الهلاك ، وليس كذلك لأن إهلاك الآخرين لم يقع بعد ، ويدل على الرفع قراءة ابن مسعود ﴿ثم سنتبعهم الآخرين ﴾ بسين التنفيس .

وقرىء بالجزم عطفاً على نهلك ، قال شهاب الدين على جعل الفعل معطوفاً على مجموع الجملة من قوله ألم نهلك ، والمراد بالآخرين حينئذ قوم شعيب ولوط وموسى ، وبالأولين قوم نوح وعاد وثمود .

﴿ كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ أي مثل ذلك الفعل الفظيع نفعل بهم ، يريد من يهلكه فيما بعد ، والكاف في موضع نصب على النعت لمصدر محذوف أي مثل ذلك الإهلاك نفعل بكل مشرك إما في الدنيا أو في الآخرة .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أي ويل يوم ذلك الإهلاك للمكذبين بكتب الله ورسله ، قيل والويل الأول لعذاب الآخرة وهذا لعذاب الدنيا، والتكرير للتوكيد شائع في كلام العرب .

﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ أي ضعيف حقير قذر منتن ذليل وهو النطفة ، قال ابن عباس مهين ضعيف ، هذا نوع آخر من تخويف الكفار . ونظيره قوله سبحانه ﴿ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ .

﴿ فجعلناه في قرار مكين ﴾ أي مكان حريز وهو الرحم يحفظ فيه المني من الآفات المفسدة له كالهواء ﴿ إلى قدر معلوم ﴾ أي إلى مقدار قدره الله تعالى للولادة وهو مدة الحمل وهو تسعة أشهر أو ما فوقها أو ما دونها ، وقيل إلى أن يصور .

﴿ فقدرنا ﴾ قرأ الجمهور بالتخفيف من القدرة ويدل عليه ﴿ فنعم القادرون ﴾ وقرىء بالتشديد من التقدير ، وهو موافق لقوله ﴿ من نطفة خلقه فقدره ﴾ قال الكسائي والفراء وهما لغتان بمعنى قدرت كذا وقدرته ﴿ فنعم القادرون ﴾ أي نعم المقدرون نحن ، قيل المعنى قدرناه قصيراً أو طويلاً ، وقيل قدرنا أي ملكنا .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بقدرتنا على ذلك أو على الإعادة وبنعمة الفطرة .

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٨) انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤)﴾

ثم بين لهم بديع صنعه وعظيم قدرته ليعتبروا فقال ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتا ﴾ معنى الكفت في اللغة الضم والجمع ، ويقال كفت الشيء إذا ضمه وجمعه ، ومن هذا يقال للجراب والقدر كفت ، والكفات بالكسر الموضع الذي يكفت فيه شيء أي يضم ، ذكره المختار والقاموس ، وقال المحلي : مصدر كفت وفيه نظر لأن كفت من باب ضرب ، فالحق أنه إسم مكان وقيل جمع كافت كصيام وقيام، وقيل مصدر كالكتاب والحساب .

وقال الأخفش : كفاتا جمع كافتة والأرض يراد بها الجمع فنعتت بالجمع . وقال الخليل : التكفت تقليب الشيء ظهراً لبطن أو بطنا لظهر ، ويقال إنكفت القوم إلى منازلهم أي ذهبوا .

والمعنى ألم نجعل الأرض ضامة للأحياء على ظهرها ، والأموات في بطنها ، تضمهم وتجمعهم قال الفراء يريد تكفتهم أحياء على ظهرها في دورهم ومنازلهم ، وتكفتهم أمواتاً في بطنها أي تحوزهم ، وهو معنى قوله ﴿ أحياء وأمواتاً ﴾ والتنكير فيهما للتفخيم أي تكفت أحياء لا يعدون وأمواتاً لا يحصرون ، وقال أبو عبيدة : (كفاتاً) أوعية ، وقيل معنى جعلها كفاتاً أنه يدفن فيها ما يخرج من الإنسان من الفضلات ، وقال ابن عباس : (كفاتاً) كنا .

وقال الأخفش وأبو عبيدة : الأحياء والأموات وصفان للأرض أي

الأرض منقسمة إلى حي وهو الذي ينبت ، وإلى ميت وهو الذي لا ينبت .

قال الفراء : إنتصاب أحياء وأمواتاً لوقوع الكفات عليه أي ألم نجعل الأرض كفات أحياء وأموات ، فإذا نون نصب ما بعده ، وقيل نصباً على الحال من الأرض أي منها كذا ومنها كذا ، وقيل هو مصدر نعت به للمبالغة .

﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات﴾ أي جبالاً مرتفعات طوالاً ، والرواسي الثوابت ، والشامخات الطوال وكل عال فهو شامخ ، وقال ابن عباس : جبالاً مشرفات وقيل ثوابت عاليات .

﴿ وأسقيناكم ماء فراتاً﴾ أي عذباً قاله ابن عباس ، والفرات الماء العذب يشرب منه ويسقى به ، قال مقاتل : وهذا كله أعجب من البعث ، روي أن في الأرض من الجنة سيحان وجيحان والفرات والنيل كلها من أنهار الجنة ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ بما أنعمنا عليهم من نعمنا التي هذه من جملتها .

﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾ في الدنيا يقول لهم ذلك خزنة جهنم توبيخاً وتقريعاً أي سيروا إليه من العذاب ، وهو عذاب النار .

﴿ انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾ أي إلى ظل من دخان جهنم قد سطع ثم افترق ثلاث فرق يكونون فيه حتى يفرغ من الحساب ، وهذا شأن الدخان العظيم إذا ارتفع تشعب شعباً .

قرأ الجمهور انطلقوا في الموضعين على صيغة الأمر على التأكيد ، وقرىء بصيغة الماضي في الثاني أي لما أمروا بالإنطلاق امتثلوا ذلك فانطلقوا، وقيل المراد بالظل هنا هو السرادق ، وهو لسان من النار تحيط بهم ثم تتشعب ثلاث شعب فتظلهم حتى يفرغ من حسابهم ثم يصيرون إلى النار ، وقيل هو الظل من يحموم كما في قوله ﴿ في سموم وحميم ، وظل من يحموم﴾ على ما تقدم ، وقيل أن الشعب الثلاث هي الضريع والزقوم والغسلين لأنها أوصاف النار .

ثم وصف سبحانه هذا الظل تهكماً بهم فقال ﴿ لا ظليل ﴾ كنين يظلهم من حر ذلك اليوم ، وهذا تهكم بهم ورد لما أوهمه لفظ الظل ﴿ ولا يغني ﴾ أي لا يرد عنهم شيئاً ﴿ من اللهب ﴾ أي النار ، قال الكلبي لا يرد حر جهنم عنكم .

ثم وصف سبحانه النار فقال ﴿ إنها ترمي بشرر كالقصر ﴾ العظيم أي كل شررة من شررها التي ترمي بها كالقصر من القصور في عظمها ، والشرر ما تطاير من النار متفرقاً ، والقصر البناء العظيم ، وقيل القصر جمع قصرة ساكنة الصاد مثل جمر وجمرة وتمر وتمرة وهي الواحدة من جزل الحطب الغليظ ، قال سعيد بن جبير والضحاك وهي أصول الشجر العظام ، وقيل أعناقه .

قرأ الجمهور كالقصر بإسكان الصاد وهو واحد القصور كما تقدم ، وقرىء بفتحها أي أعناق النخل والقصرة العنق جمعه قصر وقصرات ، وقال قتادة : أعناق الإبل .

وقرأ سعيد بن جبير : بكسر القاف وفتح الصاد وهي جمع أيضاً لقصرة مثل بدر وبدرة وقصع قصعة .

وقرأ الجمهور بشرر بفتح الشين ، وقرأ ابن عباس وابن مقسم شرار بكسرها مع ألف بين الراءين ، وقرأ عيسى كذلك إلا أنه بفتح الشين وهي لغات ، قال ابن عباس قصر النخل يعني الأعناق ، وعنه قال كانت العرب في الجاهلية تقول اقصروا لنا الحطب فيقطع على قدر الذراع والذراعين ، وقال ابن مسعود : إنها ليست كالشجر والجبال ، ولكنها مثل المدائن والحصون .

ثم شبه الشرر باعتبار لونه فقال ﴿ كأنه جمالة صفر ﴾ قرأ حمزه والكسائي وحفص جمالة جمع جمل ، وقرأ الجمهور جمالات بكسر الجيم وهي جمع جمال وهي الإبل أو جمع جمالة ، وقرىء بضم الجيم وهي حبال السفن ، قال ابن عباس : جمالات صفر قطع النحاس .

عن عبد الرحمن بن عابس قال : « سمعت ابن عباس يسأل عن قوله ﴿ بشر ر كالقصر ﴾ قال كنا نرفع الخشب بقدر ثلاثة أذرع أو أقل فنرفعه للشتاء فنسميه القصر ، قال وسمعته يسأل عن قوله ﴿ كأنه جمالات صفر ﴾ قال حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال » .

ولفظ البخاري « كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك فنرفعه للشتاء فنسميه القصر ﴿ كأنه جمالات صفر ﴾ حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال» وعنه قال هي الإبل.

قال الواحدي الصفر معناها السود في قول المفسرين ، قال الفراء الصفر سود الإبل لا يرى أسود من الإبل إلا وهو مشرب صفرة لذلك سمت العرب سود الإبل صفراً ، قيل والشرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السود .

قيل وهذا القول محال في اللغة أن يكون شيء يشوبه شيء قليل فينسب كله إلى ذلك الشائب فالعجب لمن قال بهذا وقد قال تعالى ﴿ جمالات صفر ﴾ وأجيب بأن وجهه أن النار خلقت من النور فهي مضيئة، فلما خلق الله جهنم هي موضع النار حشى ذلك الموضع بتلك النار وبعث اليها سلطانه وغضبه فاسودت من سلطانه وإزدادت سواداً وصارت أشد سواداً من كل شيء فيكون شررها أسود لأنه من نار سوداء .

قلت هذا الجواب البارد لا يدفع ما قاله القائل لأن كلامه باعتبار ما وقع في الكتاب العزيز هنا من وصفها بكونها صفراً ، فلو كان الأمر كما ذكره المجيب من اسوداد النار واسوداد شررها لقال الله تعالى كأنها جمالات سود ، ولكن إذا كانت العرب تسمى الأسود أصفر لم يبق إشكال لأن القرآن نزل بلغتهم ، وقد نقل الثقات عنهم ذلك ويدل عليه الحديث في صفة جهنم وفي آخره « فهي سوداء مظلمة » فكان ما في القرآن هنا وارداً على هذا الإستعمال العربي ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ لرسل الله وآياته .

هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ أي لا يتكلمون ، قرأ الجمهور برفع يوم على أنه خبر لإسم الإشارة ، وقرأ زيد بن علي والأعرج والأعمش وغيرهم بالفتح على البناء لإضافته إلى الفعل ومحله الرفع على الخبرية ، وقيل هو منصوب على الظرفية .

قال الواحدي قال المفسرون : في يوم القيامة مواقف ففي بعضها يتكلمون وفي بعضها يختم على أفواههم فلا يتكلمون ، وقد قدمنا الجمع بهذا في غير موضع ، وقيل إن هذا إشارة إلى وقت دخولهم النار وهم عند ذلك لا ينطقون لأن مواقف السؤال والحساب قد انقضت ، وقال الحسن لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون ، والإشارة بهذا إلى ما تقدم من الوعيد كأنه قيل هذا العقاب المذكور كائن يوم لا ينطقون .

وعن عكرمة قال : « سأل نافع بن الأزرق : ابن عباس عن قوله ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ و ﴿ لا تسمع لهم إلاّ همساً ﴾ و ﴿ أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ ، و ﴿ هاؤم إقرأوا كتابيه ﴾ فقال له ويحك هل سألت عن هذا أحداً قبلي؟ قال لا قال أما إنك لو كنت سألت هلكت . أليس قال الله ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ قال بلى ، قال فإن لكل مقدار يوم من

هذه الأيام لوناً من الألوان » .

﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ قرأ الجمهور يؤذن على البناء للمفعول ، وقرأ زيد بن علي لا يأذن على البناء للفاعل أي لا يأذن الله لهم أي لا يكون لهم إذن من الله فيكون لهم اعتذار من غير أن يجعلِ الإعتذار مسبباً عن الأذن كما لو نصب ، قال الفراء الفاء في ﴿ فيعتذرون ﴾ نسق على يؤذن وأجيز ذلك لأن أواخر الكلام بالنون ولو قال فيعتذروا لم يوافق الآيات ، وقد قال ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ بالنصب والكل صواب ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بما دعتهم إليه الرسل وأنذرتهم عاقبته .

﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ﴾ أي ويقال لهم هذا يوم الفصل الذي يفصل فيه بين الخلائق ، ويتميز فيه الحق من الباطل ، والخطاب في ﴿ جمعناكم ﴾ للكفار في زمن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم والمراد بالأولين كفار الأمم الماضية .

﴿ فإن كان لكم كيد ﴾ أي إن قدرتم على حيلة في دفع العذاب عنكم الآن ﴿فيكيدون﴾ أي فافعلوها ، وهذا تقريع لهم وتهكم وتوبيخ قال مقاتل يقول إن كان لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم ، وقيل المعنى فإن قدرتم على حرب فحاربون ، وقيل إن هذا من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيكون كقول هود ﴿ فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴾ ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بالبعث لأنه قد ظهر لهم عجزهم وبطلان ما كانوا عليه في الدنيا .

ثم لما ذكر سبحانه في سورة الدهر أحوال الكفار في الآخرة على سبيل الإختصار وأطنب في أحوال المؤمنين فيها ، ذكر في هذه السورة أحوال الكفار على سبيل الإطناب، وأحوال المؤمنين على سبيل الإيجاز فوقع بذلك التعادل بين السورتين فقال ﴿ إن المتقين في ظلال وعيون ﴾ أي في ظلال الأشجار وظلال القصور لا كالظل الذي للكفار من الدخان ومن النار كما تقدم، قال المحلي أي تكاثف أشجار ، وعبارة الكازروني أي تحت أشجار .

قرأ الجمهور ﴿ في ظلال ﴾ وقرىء في ظل جمع ظلة ، قال مقاتل والكلبي :المراد بالمتقين الذين يتقون الشرك بالله لأن السورة من أولها إلى آخرها في تقريع الكفار على كفرهم .

قال الرازي: فيجب أن تكون هذه الآية مذكورة لهذا الغرض وإلّا لتفككت السورة في نظمها وترتيبها ، وإنما يتم النظم بأن يكون هذا الوعد حاصلاً للمؤمنين بسبب إيمانهم ، لأنه لما تقدم وعيد الكافر بسبب كفره وجب أن يقرن ذلك بوعد المؤمن بسبب إيمانه حتى يصير ذلك سبباً في الزجر عن الكفر ، فأما أن يقرن به وعد المؤمن بسبب طاعته فلا يليق بالنظر ، كذا قال .

والمراد بالعيون الأنهار أي نابعة من ماء وعسل ولبن وخمر كما قال تعالى ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ إلخ .

﴿ وفواكه مما يشتهون ﴾ المراد بالفواكه ما يتفكه به مما تطلبه أنفسهم وتستدعيه شهواتهم فمتى اشتهوا فاكهة وجدوها حاضرة فليست فاكهة الجنة مقيدة بوقت دون وقت كما في أنواع فاكهة الدنيا .

﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ أي يقال لهم ذلك ، والقائل لهم الملائكة إكراماً لهم ، أو يقال لهم من قبل الله ، فالجملة مقدرة بالقول والباء للسببية أي بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة.

﴿ إنا كذلك ﴾ أي مثل ذلك الجزاء العظيم ﴿ نجزي المحسنين ﴾ في أعمالهم وعقائدهم ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ حيث صاروا في شقاء عظيم وصار المؤمنون في نعيم مقيم .

﴿ كلوا وتمتعوا ﴾ خطاب للكفار أي الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم ذلك تذكيراً لهم بحالهم في الدنيا أو يقال لهم هذا في الدنيا ، وانما قال ﴿ قليلاً ﴾ لأن متاع الدنيا وزمانه قليل لأنه زائل مع قصر مدته في مقابلة مدة الآخرة ، وذلك إلى منتهى آجالهم .

قال بعض العلماء التمتع بالدنيا من أفعال الكافرين ، والسعي لها من أفعال الظالمين والاطمئنان اليها من أفعال الكاذبين ، والسكون فيها على حد الاذن والأخذ منها على قدر الحاجة من أفعال عوام المؤمنين ، والاعراض عنها من أفعال الزاهدين ، وأهل الحقيقة أجل خطراً من أن يؤثر فيهم حب الدنيا وبغضها وجمعها وتركها .

﴿ إنكم مجرمون ﴾ أي المشركون بالله ، وهذا وإن كان في اللفظ أمر فهو في المعنى تهديد وزجر عظيم ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ حيث عرضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل .

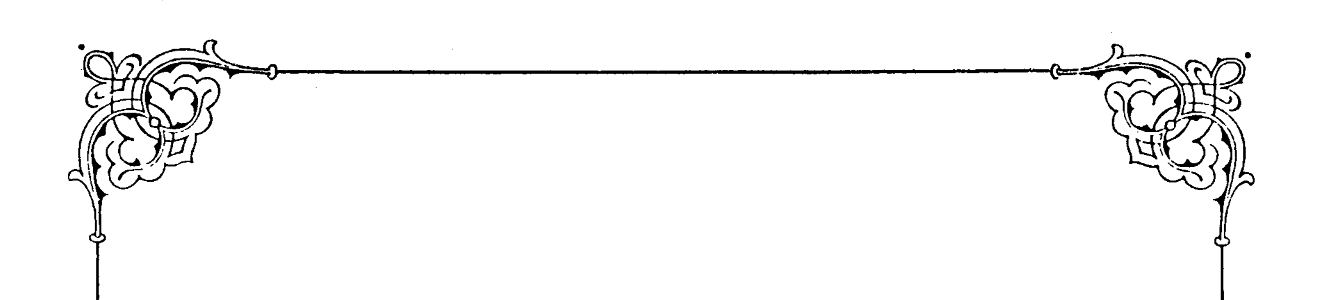
﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي لهؤلاء المجرمين من أي قائل كان ﴿ اركعوا لا يركعون ﴾ أي وإذا أمروا بالصلاة لا يصلون ، قال مقاتل : « نزلت في ثقيف امتنعوا من الصلاة بعد أن أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بها فقالوا لا ننحني فإنها سبة علينا فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود» وقيل إنما يقال لهم ذلك في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون في الدنيا لله سبحانه ، قاله ابن عباس[١] .

وفي هذه الآية دليل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، وسميت الصلاة باسم جزئها وهو الركوع ، وخص هذا الجزء لأنه يقال على الخضوع والطاعة ، ولأنه خاص بصلاة المسلمين ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بأوامر الله سبحانه ونواهيه .

﴿ فبأي حديث بعده ﴾ أي بعد القرآن ﴿ يؤمنون ﴾ أي يصدقون إذا لم

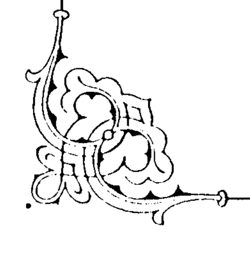
(١) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٨١ : هكذا ذكره الثعلبي، قال: وأخرجه أبو داود ٢٢٢/٣، وأحمد ٢١٨/٤ وابن أبي شيبة، والطبراني، من رواية الحسن عن عثمان بن أبي العاص به، وأتم منه. قلت: وفيه عنعنة الحسن.

يؤمنوا به ، مع أنه آية مبصرة ومعجزة باهرة من بين الكتب السماوية ، قرأ الجمهور يؤمنون بالتحتية على الغيبة ، وقرأ ابن عامر في رواية عنه ويعقوب بالفوقية على الخطاب .



سورة عمّ

كذا في الخازن والخطيب ، وتسمى سورة التساؤل وسورة النبأ ، وهي أربعون آية وقيل إحدى وأربعون آية وهي مكيّة عند الجميع ، وقال ابن عباس نزلت بمكة ، وعن ابن الزبير ومثله .





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾

﴿ عم يتساءلون ﴾ أصله عن ما، فأدغمت النون في الميم لأن الميم تشاركها في الغنة ، كذا قال الزجاج ، وحذفت الألف ليتميز الخبر عن الاستفهام ، وكذلك فيم وبم ، ونحو ذلك ، والمعنى عن أي شيء يسأل بعضهم بعضاً .

قرأ الجمهور: عمّ بحذف الألف لما ذكرنا، وقرىء بإثباتها، ولكنه قليل لا يجوز إلا للضرورة، وقرىء بهاء السكت عوضاً عن الألف ، قال الزجاج : اللفظ لفظ الاستفهام والمعنى تفخيم القصة ، كما تقول أي شيء تريد ، إذا عظمت شأنه .

قال الشهاب : وهذا الاستفهام لا يمكن حمله على حقيقته لأن المطلوب به لا بد أن يكون مجهولاً عند الطالب ، فلذا جعل مجازاً عن الفخامة، لأنه ورد على طريق مخاطبات العرب فالاستفهام بالنسبة إلى الناس .

وقال في النهر : هذا الاستفهام فيه تفخيم وتهويل وتقرير وتعجيب .

قال الواحدي قال المفسرون: « لما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخبرهم بتوحيد الله والبعث بعد الموت وتلا عليهم القرآن، جعلوا يتساءلون بينهم ، يقولون ماذا جاء به محمد ، وما الذي أتى به ؟ فأنزل الله عمّ يتسآءلون »[1] قال الفراء التساؤل هو أن يسأل بعضهم بعضاً كالتقابل ، وقد

(١) روى ابن جرير الطبري سبب النزول هذا عن الحسن ٣٠/١ وأورده السيوطي في «الدر» ٣٠٥/٦ وزاد نسبته لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن الحسن.

يستعمل أيضاً في أن يتحدثوا بهِ وإن لم يكن بينهم سؤال . قال تعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ وهذا يدل على أنه التحدث . ومناسبتها لما قبلها ظاهرة لما ذكر في قوله : ﴿ فبأي حديث بعده ﴾ أي بعد هذا الحديث وهو القرآن وكانوا يتجادلون فيه ويتساءلون عنه فقال : ﴿ عمَّ يتساءلون ﴾

ثم ذكر سبحانه تساؤلهم عما ذا وبينه فقال : ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ أورده سبحانه أولاً على طريقة الاستفهام مبهماً لتتوجه إليه أذهانهم ، وتلتفت إليه أفهامهم ، ثم بينه بما يفيد تعظيمه وتفخيمه ، كأنه قيل عن أي شيء يتساءلون ، هل أخبركم به ، ثم قيل بطريق الجواب ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ على منهاج قوله : ﴿ لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار ﴾ وإنما كان ذلك النبأ أي القرآن عظيماً لأنه ينبىء عن التوحيد وتصديق الرسول ، ووقوع البعث والنشور .

وقال الضحاك : يعني نبأ يوم القيامة وكذا قال قتادة .

وقد استدل على أن النبأ هو القرآنبقوله الآتي : ﴿الذي هم فيه مختلفون﴾ فإنهم اختلفوا في القرآن فجعله بعضهم سحراً وبعضهم شعراً وبعضهم كهانه وبعضهم قال هو أساطير الأولين ، وأما البعث فقد اتفق الكفار إذ ذاك على إنكاره ، ويمكن أن يقال أنه قد وقع الاختلاف في البعث في الجملة فصدق به المؤمنون ، وكذب به الكافرون ، فقد وقع الخلاف فيه من هذه الحيثية وإن لم يقع الاختلاف فيه بين الكفار أنفسهم على التسليم والتنزل .

ومما يدل على أنه القرآن قوله سبحانه : ﴿ قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ﴾ ومما يدل على أنه البعث أنه أكثر ما كان يستنكره المشركون وتأباه عقولهم السخيفة .

وأيضاً فطوائف الكفار قد وقع الاختلاف بينهم في البعث فأثبتت النصارى المعاد الروحاني ، وأثبتت طائفة من اليهود المعاد الجسماني ، وفي

التوراة التصريح بلفظ الجنة باللغة العبرانية بلفظ جنعيذا بجيم مفتوحة ثم نون ساكنة ثم عين مهملة مكسورة ثم تحتية ساكنة ثم ذال معجمة بعدها ألف ، وفي الإنجيل في مواضع كثيرة التصريح بالمعاد ، وأنه يكون فيه النعيم للمطيعين ، والعذاب للعاصين .

وقد كان بعض طوائف كفار العرب ينكر المعاد كما حكى الله عنه بقوله : ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما نحن بمبعوثين ﴾ وكانت طائفة منهم غير جازمة بنفيه بل شاكة فيه كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ وما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إنّ لي عنده للحسنى ﴾ فقد حصل الاختلاف بين طوائف الكفر على هذه الصفة .

وقد قيل إن الضمير في قوله يتساءلون يرجع إلى المؤمنين والكفار لأنهم جميعاً كانوا يتساءلون عنه : فأما المسلم فيزداد يقيناً واستعداداً وبصيرة في دينه ، وأما الكافر فاستهزاء وسخرية .

قال الرازي : ويحتمل أنهم يسألون الرسول ويقولون ما هذا الذي تعدنا به من أمر الآخرة ، قال ابن عباس : النبأ العظيم القرآن ، وهذا مروي عن جماعة من التابعين .

﴿ الذي هم فيه مختلفون ﴾ الموصول صفة للنبأ بعد وصفه بكونه عظيماً فهو متصف بالعظم ومتصف بوقوع الاختلاف فيه .

﴿ كلا سيعلمون ﴾ ردع لهم وزجر ، وهذا يدل على أن المختلفين فيه هم الكفار ، وبه يندفع ما قيل أن الخلاف بينهم وبين المؤمنين ، فإنه انما يتوجه الردع والوعيد إلى الكفار فقط ، وقيل كلا بمعنى حقاً .

ثم كرر الردع والزجر فقال : ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ للمبالغة في التأكيد والتشديد في الوعيد ، وقرأ الجمهور بالياء التحتية في الفعلين على الغيبة ، وقرىء بالفوقية على الخطاب ، وقرأ الضحاك الأولى بالفوقية ، وقرأ الثانية

بالتحتية ، قال الضحاك أيضاً ﴿ كلا سيعلمون ﴾ يعني الكافرين عاقبة تكذيبهم ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ يعني المؤمنين عاقبة تصديقهم ، وقيل بالعكس ، وقيل هو وعيد بعد وعيد .

وقيل: المعنى ﴿ كلا سيعلمون ﴾ عند النزع ما يحل بهم ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ عند البعث لأنه يكشف لهم الغطاء حينئذ ، وقيل الأول للبعث والثاني للجزاء .

وقال ابن مالك تأكيد لفظي ولا يضر توسط حرف العطف،قال السمين : والنحويون يأبون هذا ولا يسمونه إلا عطفاً وإن أفاد التأكيد ، قال زاده « ثم » موضوعة للتراخي الزماني وقد تستعمل في التراخي الرتبي كما هنا تشبيهاً لتباعد الرتبة بتباعد الزمان .

ثم ذكر سبحانه بديع صنعه وعظيم قدرته على البعث وأشار إلى الأدلة الدالة عليها وذكر منها تسعة ليعرفوا توحيده ويؤمنوا بما جاء به رسوله فقال :

﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً ﴾ أي قدرتنا على هذه الأمور المذكورة أعظم من قدرتنا على الإعادة بالبعث ، فما وجه إنكاركم ، لأنه قد تقرر أن الأجسام متساوية الأقدام في قبول الصفات والأعراض .

وهذا الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع كالخلق خلا إنه مختص بالإنشاء التكويني ، وفيه معنى التقدير والتسوية ، وهذا عام له كما في الآية الكريمة ، وقيل: الجعل بمعنى التصيير ، والمهاد الوطاء والفراش كما في قوله : ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً ﴾ قرأ الجمهور بالجمع ، وقرىء مهداً .

والمعنى أنها كالمهد للصبي وهو ما يمهد له فينام عليه ، وسمي الممهود بالمهد تسمية للمفعول بالمصدر كضرب الأمير ، والأوتاد جمع وتد أي جعلنا الجبال أوتاداً للأرض لتسكن ولا تتحرك كما ترسى الخيام بالأوتاد .

وفي هذا دليل على أن التساؤل الكائن بينهم هو عن أمر البعث لا عن القرآن ولا عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كما قيل ، لأن هذا الدليل إنما يصلح للإستدلال به على البعث .

وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾

﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ معطوف على المضارع المنفي داخل في حكمه ، فهو في قوة أما خلقناكم ، والمراد بالأزواج هنا الأصناف أي الذكور والإناث ، وقيل المراد بها الألوان ، وقيل يدخل في هذا كل زوج من المخلوقات من قبيح وحسن وطويل وقصير .

﴿ وجعلنا نومكم سباتاً ﴾ قال الزجاج السبات أن ينقطع عن الحركة والروح في بدنه أي جعلنا نومكم راحة لكم ، قال ابن الأنباري جعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم لأن أصل السبت القطع ، وقيل أصله التمدد يقال سبتت المرأة شعرها إذا حلته وأرسلته ، ورجل مسبوت الخلق أي ممدوده ، والرجل إذا أراد أن يستريح تمدد فسمي النوم سباتاً .

وفي المختار السبات النوم وأصله الراحة وبابه نصر . وفي المصباح السبات كغراب النوم الثقيل ، وأصله الراحة يقال سبت يسبت من باب قتل وسبت بالبناء للمفعول غشي عليه وأيضاً مات ، ومن هنا قيل المعنى وجعلنا نومكم موتاً ، والنوم أحد الموتتين فالمسبوت يشبه الميت ولكنه لم يفارقه الروح ، ومن هذا قوله : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ .

﴿ وجعلنا الليل لباساً ﴾ أي نلبسكم ظلمته ونغشيكم بها كما يغشيكم اللباس ، فشبه الليل باللباس ، لأن في كل منهما ستراً . فهو استعارة . وقال سعيد بن جبير والسدي أي سكناً لكم ، وقيل المراد ما يستره عند النوم من

اللحاف ونحوه وهو بعيد لأن الجعل وقع على الليل لا على ما يستتر به النائم عند نومه .

﴿ وجعلنا النهار معاشاً ﴾ أي وقت معاش ، والمعاش مصدر ميمي بمعنى المعيشة ، وقع هنا ظرفاً ، وكل شيء يعاش به فهو معاش ، والمعنى أن الله جعل لهم النهار مضيئاً ليسعوا فيما يقوم به معاشهم وما قسمه الله لهم من الرزق .

﴿ وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ﴾ يريد سبع سموات قوية الخلق محكمة البناء لا يؤثر فيها مرور الزمان ، ولهذا وصفها بالشدة وغلظ كل واحدة منها مسيرة خمسمائة عام كما ورد ذلك .

﴿ وجعلنا سراجاً ﴾ منيراً ﴿ وهاجاً ﴾ وقاداً يعني الشمس ، والوهاج المضيء المتلألىء من قولهم وهج الجوهر أي تلألأ ، ويقال وهج يوهج كوجل يوجل وكوعد يعد ، قال الزجاج الوهاج الوقاد ، وهو الذي وهج يقال وهجت النار تهج وهجاً ووهجاناً ، قال مقاتل جعل فيه نوراً وحراً ، والوهج يجمع النور والحرارة ، وقال ابن عباس وهاجاً مضيئاً .

﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ﴾ المعصرات هي السحاب التي تنعصر بالماء ولم تمطر بعد كالمرأة المعتصرة التي قد دنا حيضها ، كذا قال سفيان والربيع وأبو العالية والضحاك ، وقال مجاهد ومقاتل وقتادة والكلبي هي الرياح ، والرياح تسمى معصرات يقال أعصرت الريح تعصر إعصاراً إذا أثارت العجاج ، قال الأزهري هي الرياح ذوات الأعاصير ، وذلك أن الرياح تستدر المطر ، وقال الفراء المعصرات السحاب التي يتحلب منها المطر .

قال النحاس : وهذه الأقوال صحاح يقال للريح التي تأتي بالمطر معصرات ، والرياح تلقح السحاب فيكون المطر ، ويجوز أن تكون هذه الأقوال قولاً واحداً ويكون المعنى وأنزلنا من ذوات المعصرات .

قال في الصحاح والمعصرات السحاب تعتصر بالمطر ، وعصر القوم أي

مطروا ، قال المبرد يقال سحاب معصر أي ممسك للماء ويعتصر منه شيء بعد شيء .

وقال أبيّ بن كعب والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان : المعصرات السموات وقال ابن عباس : السحاب ، وقال ابن مسعود : يبعث الله الريح فتحمل الماء فتمر به السحاب فتدر كما تدر اللقحة .

وقرأ ابن عباس ﴿وأنزلنا من المعصرات بالرياح﴾ وقيل المعصرات المغيثات والعاصر هو الغيث .

والثجاج هو المنصب بكثرة على وجه التتابع ، يقال ثج الماء أي سال بكثرة وثجه أي أساله فيكون لازماً ومتعدياً ، وبابه رد ، ومطر ثجاج أي منصب جداً ، والثج أيضاً سيلان دماء الهدي ، وفي الحديث « أحب العمل إلى الله العج والثج » فالعج رفع الصوت بالتلبية ، والثج إراقة دماء الهدى .

وقال الزجاج : الثجاج الصباب ، وقال ابن زيد ثجاجاً كثيراً ، وقال ابن عباس : منصباً ، وقيل مدراراً متتابعاً يتلو بعضه بعضاً ، وقال ابن مسعود الثجاج ينزل من السماء أمثال العزالى فتصرفه الرياح فينزل متفرقاً .

﴿ لنخرج به حباً ونباتاً ﴾ أي لنخرج بذلك الماء حباً يقتات به كالحنطة والشعير ونحوهما والنبات ما تأكله الدواب من الحشيش والتبن وسائر النبات والكلأ .

﴿ وجنات ألفافاً ﴾ أي بساتين ملتف بعضها ببعض تتشعب أغصانها ولا واحد للألفاف كالأوزاع والأخياف ، وقيل واحدها لف بكسر اللام وضمها ، ذكره الكسائي ، وقال أبو عبيدة : واحدها لفيف كشريف وأشراف ، وروي عن الكسائي أنها جمع الجمع يقال جنة لفاء ونبت لف والجمع لف بالضم مثل حمر ثم يجمع هذا الجمع على ألفاف ، وقيل هو جمع ملتفة بحذف الزوائد .

وقال ابن عباس : ألفافاً ملتفة ، وقال : يقول التف بعضها ببعض ، قال الفراء : الجنة ما فيه النخيل ، والفردوس ما فيه الكرم .

ولما أثبت الله البعث بالأدلة التسعة المتقدمة كأن سائلاً سأل عن وقته ما هو فقال ﴿ إن يوم الفصل ﴾ بين المحسن والمسيء ، والمحق والمبطل ، وأكده بأن لأنه مما ارتابوا فيه ﴿ كان ﴾ في علمه وحكمه ﴿ ميقاتاً ﴾ أي وقتاً ومجمعاً وميعاداً للأولين والآخرين يصلون فيه إلى ما وعدوا من البعث ، وقيل معنى ميعاداً انه حد توقت به الدنيا وتنتهي عنده وقيل حد للخلائق ينتهون اليه أو منتهى معلوماً لوقوع الجزاء أو ميعاداً للثواب والعقاب .

﴿ يوم ينفخ ﴾ بدل من يوم الفصل أو بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله وإن كان الفصل متأخراً عن النفخ ﴿ في الصور ﴾ هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل ، والمراد هنا النفخة الثانية التي تكون للبعث ﴿ فتأتون ﴾ من قبوركم إلى الموقف ﴿ أفواجاً ﴾ أي زمراً زمراً وجماعات جماعات ، وهي جمع فوج والفاء في ﴿ فتأتون ﴾ فصيحة تدل على محذوف أي فتأتون إلى موضع العرض عقيب ذلك أفواجاً أي أمماً مع كل أمة إمامهم .

﴿ وفتحت السماء ﴾ معطوف على ﴿ ينفخ ﴾ وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع أي فتحت لنزول الملائكة ، وقال علي القاريء عطف على ﴿ فتأتون ﴾ أو حال أي والحال انها قد فتحت ، وقرىء بالتخفيف والتشديد وهما سبعيتان .

قال الشهاب المراد بالفتح ليس ما عرف من فتح الأبواب ، وهو موافق لقوله ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ و ﴿ إذا السماءانفطرت ﴾ فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، وعبر عن التشقيق بالفتح اشارة إلى كمال قدرته حتى كان تشقيق هذا الجرم العظيم كفتح الباب سهولة وسرعة ﴿ فكانت أبواباً ﴾ كما في قوله : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ وقيل معنى فتحت قطعت فصارت قطعاً كالأبواب ، وقيل أبوابها طرقها ، وقيل تنحل وتتناثر حتى تصير فيها أبواب وطرق ، وقيل أن لكل عبد بابين في السماء باب لرزقه وباب لعمله ، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب .

وظاهر قوله : ﴿ فكانت أبواباً ﴾ انها صارت كلها أبواباً ، وليس المراد ذلك بل المراد انها صارت ذات أبواب كثيرة .

وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

﴿ وسيرت الجبال ﴾ عن أماكنها في الهواء كالهباء الذي هو الغبار وقلعت عن مقارها ، وقيل معنى سيرت أنها نسفت من أصولها ، ومثل هـذا قوله : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ ﴿ فكانت سراباً ﴾ أي هباء منبثاً يظن الناظر أنها سراب ، وتخيل الشمس أنها ماء ، والمعنى أن الجبال صارت كلا شيء كما أن السراب يظن الناظر أنه ماء وليس بماء .

ذكر سبحانه أحوال الجبال بوجوه مختلفة ، ويمكن الجمع بينها بأن نقول أول أحوالها الإندكاك وهـو قولـه : ﴿ وحملت الأرض والجبال فـدكتا دكـة واحدة ﴾ وثاني أحوالها أن تصير كالعهن المنفوش كما في قوله : ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ وثالث أحوالها أن تصير كالهباء وهو قوله : ﴿ وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً ﴾ ورابع أحوالها أن تنسف وتحملها الرياح كما في قوله : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحـاب ﴾ وخامس أحوالها أن تصير سراباً أي لا شيء كما في هذه الآية .

ثم شرع سبحانه في تفصيل أحكام الفصل فقال : ﴿ إن جهنم كانت مـرصاداً ﴾ قال الأزهري المرصاد المكان الذي يرصد الراصد فيه العدو ، وقال المبرد مـرصاداً يرصدون به أي هو معد لهم يرصد به خزنتها الكفار ، قال الحسن إن على الباب رصداً لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليهم ، فمن جاء بجواز جاز ومن لم يجيء بجواز حبس وقال مقاتل محبساً ، وقيل طريقاً وممراً .

قال في الصحاح الراصد للشيء الراقب له ، يقال رصده يـرصده رصداً

والرصد الترقب ، والمرصد موضع الرصد ، قال الأصمعي رصدته أرصده ترقبته .

ومعنى الآية إن جهنم كانت في حكم الله وقضائه موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها ، أو هي في نفسها متطلعة لما يأتي إليها من الكفار كما يتطلع الرصد لمن يمر بهم ، ويأتي إليهم ، والمرصاد مفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمعمار ، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار .

ثم ذكر من هي مرصد له فقال ﴿للطاغين مئآباً﴾ أي مرجعاً يرجعون إليه ، والمئآب المرجع يقال آب يؤوب إذا رجع ، والطاغي من طغى بالكفر، وللطاغين نعت لمرصاداً متعلق بمحذوف ومئآباً بدل من مرصاداً ، ويجوز أن يكون للطاغين في محل نصب على الحال من مئآباً قدمت عليه لكونه نكرة .

وانتصاب ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ على الحال المقدرة من الضمير المستكن في الطاغين قرأ الجمهور لابثين بالألف ، وقرىء بدون ألف ، وانتصاب (أحقاباً) على الظرفية أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب ، وهي لا تنقطع ، وكلما مضى حقب جاء حقب ، وهي جمع حقب بضمتين وهو الدهر ، والأحقاب الدهور ، والحقب بضم الحاء وسكون القاف قيل هو ثمانون سنة .

وحكى الواحدي عن المفسرين أنه بضع وثمانون سنة ، السنة ثلثمائة وستون يوماً اليوم ألف سنة من أيام الدنيا ، وقال السدي الحقب سبعون سنة ، وقال بشير بن كعب ثلثمائة سنة ، وقال ابن عمر أربعون سنة ، وقيل ثلاثون ألف سنة .

قال الحسن الأحقاب لا يدري أحد كم هي ، ولكن ذكروا أنها مائة حقب ، والحقب الواحد منها سبعون ألف سنة ، اليوم منها كألف سنة ، قال ابن عباس أحقاباً سنين .

وعن سالم بن أبي الجعد قال سأل علي بن أبي طالب : هلال الهجري ما تجدون الحقب في كتاب الله ؟ قال نجده ثمانين سنة كل سنة منها إثنا عشر

شهراً كل شهر ثلاثون يوماً كل يوم ألف سنة ، وعن ابن مسعود في الآية قال الحقب الواحد ثمانون سنة .

وعن أبي هريرة رفعه « قال الحقب ثمانون سنة والسنة ثلثمائة وستون يوماً ، كل يوم منها ألف سنة مما تعدون » .

وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « قال الحقب ألف شهر والشهر ثلاثون يوماً والسنة إثنا عشر شهراً ثلثمائة وستون يوماً ، كل يوم ألف سنة مما تعدون فالحقب ثلاثون ألف ألف سنة » أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه قال السيوطي بسند ضعيف .

وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقاباً والحقب بضع وثمانون سنة ، كل سنة ثلثمائة وستون يوماً ، واليوم ألف سنة مما تعدون » ، قال ابن عمر: فلا يتكلن أحد أنه يخرج من النار » أخرجه البزار وابن مردويه والبيهقي .

وعن ابن عمرو قال: الحقب الواحد ثمانون سنة وعن ابن عباس مثله ، وعن عبادة ابن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحقب أربعون سنة » أخرجه ابن مردويه .

وقيل الأحقاب وقت شربهم الحميم والغساق ، فإذا انقضت فيكون لهم نوع آخر من العذاب ، وعن خالد بن معدان في الآية وفي قوله ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ أنهما في أهل التوحيد من أهل القبلة .

وقيل إن الآية منسوخة بقوله : ﴿ فلن يزيدكم إلا عذاباً ﴾ يعني أن العدد قد ارتفع ، والخلود قد حصل ، والأول أولى ، وقيل الآية محمولة على العصاة الذين يخرجون من النار ، والأولى ما ذكرناه أولاً من أن المقصود بالآية التأييد لا التقييد ، وحكى الواحدي عن الحسن أنه قال : والله ما هي إلا أنه إذا مضى حقب دخل آخر ثم أخر كذلك إلى الأبد .

﴿ لا يذوقون فيها ﴾ حال من الضمير في ﴿ لابثين ﴾ أو صفة لأحقاباً أو مستأنفة لبيان ما اشتملت عليه من أنهم لا يذوقون في جهنم أو في الأحقاب ﴿ برداً ﴾ ينفعهم من حرها ﴿ ولا شراباً ﴾ ينفعهم من عطشها .

﴿ إلا حميماً ﴾ هو الماء الحار ﴿ وغساقاً ﴾ هو صديد أهل النار ، وقيل هو ماء يسيل من صديد أهل النار ، والاستثناء منقطع عند من جعل البرد النوم ، وبه قال الزمخشري ، ويجوز أن يكون متصلاً من قوله : ﴿ ولا شراباً ﴾ وبه قال أبو حيان ، وقضية كلام الكواشي تجويز الأمرين ، وقيل أنه بدل من ﴿ شراباً ﴾ وهو الأحسن لأن الكلام غير موجب .

وقال مجاهد والسدي وأبو عبيدة والكسائي والفضل بن خالد وأبو معاذ النحوي : البرد المذكور في هذه الآية النوم ، قال الزجاج : أي لا يذوقون فيها برد ريح ولا ظل ولا نوم ، فجعل البرد يشمل هذه الأمور ، وإطلاق البرد على النوم لغة هذيل وسمي بذلك لأنه يقطع سورة العطش ، ألا ترى أن العطشان إذا نام سكن عطشه ولأنه يبرد صاحبه ، والعرب تقول منع البرد البرد يعني أذهب البرد النوم .

وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم : « سئل هل في الجنة نوم فقال: لا ، النوم أخو الموت والجنة لا موت فيها » وكذلك النار وقد قال تعالى : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ وقيل البرد برد الشراب ، والشراب الماء ، وجعل الزجاج البرد برد كل شيء له راحة ، وهذا ينفعهم . فأما الزمهرير فهو برد يتأذون به فلا ينفعهم فلهم منه من العذاب ما الله أعلم به ، وقال الحسن وعطاء وابن زيد برداً أي روحاً وراحة .

قرأ الجمهور غساقاً بالتخفيف ، وقرأ حمزة والكسائي بتشديد السين وهما سبعيتان ، وقد تقدم تفسيره وتفسير الحميم والخلاف فيهما في سورة (صٓ) .

عن ابن مسعود قال زمهرير جهنم يكون لهم من العذاب لأن الله يقول لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً ، قال قد انتهى حره ، وغساقاً قد

انتهى حره ، وأن الرجل إذا أدنى الإناء من فيه سقط فروة وجهه حتى يبقى عظاماً تقعقع .

﴿ جزاء وفاقاً ﴾ أي موافقاً لأعمالهم على أن ﴿ وفاقاً ﴾ صفة لجزاء بتأويله باسم الفاعل ، ويصح أن يكون على حذف مضاف أي ذا وفاق أو باق على مصدريته لقصد المبالغة ، قال الفراء والأخفش : جازيناهم جزاء وافق أعمالهم ، وقال الزجاج : جوزوا جزاء وافق أعمالهم .

قال الفراء : الوفاق جمع الوفق ، والوفق والموافق واحد ، قال مقاتل وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار ، وقال الحسن وعكرمة : كانت أعمالهم سيئة فأتاهم الله بما يسوءهم .

﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ أي ثواب حساب ، قال الزجاج كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم . والجملة مستأنفة وتعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور.

﴿ وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴾ أي كذبوا بالآيات القرآنية أو كذبوا بما هو أعم منها تكذيباً شديداً ، وفعال من مصادر التفعيل قال الفراء هي لغة فصيحة يمانية تقول كذبت كذاباً وخرقت القميص خراقاً .

قال في الصحاح هو أحد مصادر المشدد لأن مصدره قد يجيء على تفعيل مثل التكليم وعلى فعال مثل كذاب ، وعلى تفعلة مثل توصية ، وعلى مفعل مثل ومزقناهم كل ممزق .

وقرأ الجمهور كذاباً بالتشديد وقرأ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بالتخفيف ، قال أبو علي الفارسي التخفيف والتشديد جميعاً مصدر المكاذبة ، وقرأ ابن عمر كذاباً بضم الكاف والتشديد جمع كاذب ، قال أبو حاتم ونصبه على الحال ، قال الزمخشري وقد يكون يعني على هذه القراءة بمعنى الواحد البليغ في الكذب تقول رجل كذاب كقولك حسان وبخال .

قرأ الجمهور ﴿ وكل شيء ﴾ بالنصب على الاشتغال أي وأحصينا كل شيء ﴿ أحصيناه ﴾ وقرأ أبو السماك برفعه على الابتداء وما بعده خبره ، وهذه الجملة معترضة بين السبب والمسبب ، وفائدة الاعتراض تقرير ما ادعاه من قوله ﴿ جزاء وفاقاً ﴾ .

وفي انتصاب قوله : ﴿ كتاباً ﴾ أوجه .

أحدها : أنه مصدر من معنى أحصينا أي إحصاء فالتجوز في نفس المصدر .

والثاني : أنه مصدر لأحصينا لأنه في معنى كتبنا ، فالتجوز في نفس الفعل أي لالتقاء الإحصاء والكتب في معنى الضبط والتحصيل .

والثالث : أن يكون منصوباً على الحال أي مكتوباً في اللوح لتعرفه الملائكة ، وقيل أراد ما كتبته الحفظة على العباد من أعمالهم ، وقيل المراد به العلم لأن ما كتب كان أبعد من النسيان ، والأول أولى لقوله : ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ .

﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ هذه الجملة مسببة عن كفرهم وتكذيبهم بالآيات ، والأمر أمر إهانة وتحقير ، قال الرازي هذه الفاء للجزاء فنبه على أن الأمر بالذوق معلل بما تقدم شرحه من قبائح أفعالهم ومن الزيادة في عذابهم أنها كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها وكلما خبت النار زادهم الله سعيراً ، قيل هذه أشد آية في القرآن على أهل النار كلما استغاثوا من نوع من العذاب أغيثوا بأشد منه .

قال الرازي وفي هذه الآية مبالغات منها التأكيد بلن ، ومنها الالتفات ، ومنها إعادة قوله فذوقوا بعد ذكر العذاب .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾

﴿ إن للمتقين مفـازاً﴾ هذا شروع في بيان حال المؤمنين وما أعد الله لهم من الخير بعد بيان حال الكافرين وما أعد الله لهم من الشر ، والمفاز مصدر بمعنى الفوز والظفر بالبغية والمطلوب والنجاة من النار ، ومنه قيل للفلاة مفازة تفاؤلاً بالخلاص منها ، ويصلح أن يراد به الجنة على أنه مصدر ميمي بمعنى المكان أو بمعنى الحدث ويحتمل أن يفسر الفوز بالأمرين جميعاً ، لأنهم فازوا بمعنى نجوا من العذاب ، وفازوا بما حصل لهم من النعيم ، وفي المختار الفوز النجاة ، وهو الهلاك أيضاً ، وعلى هذا فإطلاق المفازة على الفلاة الخالية من الماء حقيقي لأنها مهلكة ، ومن معاني الفوز الهلاك كما رأيت وبابهما قال :

ثم فسر سبحانه هذا المفاز فقال : ﴿ حدائق وأعناباً ﴾ وانتصابهما على أنهما بدل اشتمال من ﴿ مفازاً ﴾ أو بدل كـل من كل على طرق المبالغة بجعل نفس هذه الأشياء مفازاً ، ويجوز أن يكون النصب بإضمار أعني وإذا كان مفازاً بمعنى الفوز فيقدر مضاف أي فوز حدائق ، وهي جمع حديقة وهي البستان المحوط عليه فيه أنواع الشجر المثمـر ، والأعناب جمع عنب أي كروم أعنـاب ، والتكرير يدل على تعظيم ذلك العنب .

قال المحلي ﴿ وأعناباً ﴾ عطف على مفاز أي ذكرت بعد الحدائق تنويهاً لعظم شأنها وإلا فهي من جملة الحدائق ، قال القاري وهذا بعيد جداً والظاهر

عطفه على حدائق وكذا كواعب وكأساً انتهى .

﴿ وكواعب أتراباً ﴾ الكواعب جمع كاعبة وهي الناهدة قال ابن عباس أي نواهد ، يقال كعبت الجارية تكعب تكعيباً وكعوباً ، ونهدت تنهد نهوداً ، والمراد أن لهم نساء كواعب تكعبت ثديهن وتفلكت حتى صارت كالكعب في صدورهن ، أي استدارت مع ارتفاع يسير ، قال الضحاك الكواعب العذارى ، والأتراب الأقران في السن ، وقد تقدم تحقيقه في سورة البقرة ، وقال ابن عباس أي لدات مستويات .

﴿ وكأساً دهاقاً ﴾ قال الحسن وقتادة وابن زيد : أي مترعة مملوءة ، يقال أدهقت الكأس أي ملأتها ، وقال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد ﴿ دهاقاً ﴾ متتابعة يتبع بعضها بعضاً ، وقال زيد بن أسلم : دهاقاً صافية ، قال ابن عباس : دهاقاً ممتلئاً ، وعنه قال : هي الممتلئة المترعة المتتابعة ، وربما سمعت العباس يقول يا غلام إسقنا وأدهق لنا . وعنه قال ﴿ دهاقا ﴾ دراكاً ، وعنه قال إذا كان فيها خمر فهي كأس ، وإذا لم تكن فيهاخمر فليس بكأس .

﴿ لا يسمعون ﴾ حال من المتقين ﴿ فيها ﴾ أي في الجنة عند شرب الخمر وغيره من الأحوال ﴿ لغواً ﴾ وهو الباطل من الكلام ﴿ ولا كذاباً ﴾ أي لا يكذب بعضهم بعضاً قرأ الجمهور كذاباً مشدداً وقرأ الكسائي هنا مخففاً ، ووافق الجماعة على التشديد في الآية المتقدمة للتصريح بفعله المشدد هناك ، وقد قدمنا الخلاف في كذاباً هل هو من مصادر التفعيل أو سن مصادر المفاعلة .

﴿ جزاء من ربك ﴾ أي جازاهم بما تقدم ذكره جزاء ، قال الزجاج : المعنى جزاهم جزاء أي بمقتضى وعده وكذا ﴿ عطاء ﴾ أي وأعطاهم عطاء تفضلاً منه ، إذ لا يجب عليه شيء ، وقيل عطاء بدل من جزاء أي بدل كل من كل ، وفي إبداله منه نكتة لطيفة ، وهي الدلالة على أن بيان كونه عطاء وتفضلاً منه هو المقصود وبيان كونه جزاء وسيلة له .

﴿ حساباً ﴾ قال أبو عبيدة كافياً فهو مصدر أقيم مقام الوصف أو باق على مصدريته مبالغة أو هو على حذف مضاف ، وقال ابن قتيبة كثيراً ، يقال أحسبت فلاناً أي أكثرت له العطاء . قال الزجاج حساباً أي ما يكفيهم قال الأخفش يقال أحسبني كذا أي كفاني .

قال الكلبي حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشراً وقال مجاهد حساباً لما عملوه ، فالحساب بمعنى القدر أي بقدر ما وجب له.في وعد الرب سبحانه فإنه وعد للحسنة عشراً ، ووعد لقوم سبعمائة ضعف ، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مقدار كقوله : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ .

وقرأ أبو هاشم حساباً بفتح الحاء وتشديد السين أي كفافاً قال الأصمعي تقول العرب حسبت الرجل بالتشديد إذا أكرمته ، وفي القاموس حسبك درهم كفاك ، وشيء حساب كاف ومنه ﴿ عطاء حساباً ﴾ وأحسبه كفاه وقرأ ابن عباس حساناً بالنون .

﴿ رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن ﴾ قرىء بخفض رب والرحمن على أن رب بدل من ربك والرحمن صفة له ، وقرىء برفعهما على أن رب مبتدأ والرحمن خبره أو الرحمن صفته ولا يملكون خبره أو على أن رب خبر مبتدأ مقدر أي هو رب ، والرحمن صفته ، أو على أن رب مبتدأ والرحمن مبتدأ ثان ولا يملكون خبر المبتدأ الثاني ، والجملة خبر المبتدأ الأول .

وقرأ ابن عباس وحمزة والكسائي بخفض الأول ورفع الثاني على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو الرحمن ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة، وقال هذه أعدلها فخفض رب لقربه من ربك فيكون نعتاً له ، ورفع الرحمن لبعده منه على الاستئناف ، وخبره قوله:

﴿ لا يملكون ﴾ أي الخلق ﴿ منه ﴾ تعالى أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيه ﴿ خطاباً ﴾ بالشفاعة إلا باذنه ، وقيل الخطاب الكلام أي لا يملكون أن يخاطبوا الرب سبحانه خوفاً إلا بإذنه ، دليله ﴿ لا تكلم نفس الا باذنه ﴾ وقيل

اراد الكفار وأما المؤمنون فيشفعون ، والجملة مستأنفة مقررة لما تفيده الربوبية العامة من العظمَة والكبرياء .

﴿ يوم يقوم الروح والملائكة ﴾ الظرف منتصب بلا يملكون أو بلا يتكلمون وقوله ﴿ صفاً ﴾ منتصب على الحال أي مصطفين أو على المصدرية أي يصفون صفاً ، والجملة حالية أو مستأنفة لتقرير ما قبله .

واختلف في الروح على أقوال ثمانية فقيل أنه ملك من الملائكة أعظم من السموات السبع ومن الأرضين السبع ومن الجبال ، وقيل هو جبريل ، قاله الشعبي والضحاك وسعيد بن جبير ، وقيل الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة قاله أبو صالح ومجاهد ، وعن ابن عباس مثله مرفوعاً وزاد لهم رؤوس وأيد وأرجل ثم قرأ هذه الآية ، وقال هؤلاء جند وهؤلاء جند ، أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه، وقيل هم أشراف الملائكة، قاله مقاتل بن حيان ، وقيل هم حفظة على الملائكة قاله ابن أبي نجيح .

وقيل هم بنو آدم قاله الحسن وقتادة ، وقيل هم أرواح بني آدم تقوم صفاً وتقوم الملائكة صفاً وذلك بين النفختين قبل أن ترد إلى الأجسام ، قاله عطية العوفي ، وقيل إنه القرآن قاله زيد بن أسلم ، وقال ابن عباس هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً .

وعن ابن مسعود قال : الروح في السماء الرابعة وهو أعظم من السموات والجبال ومن الملائكة يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة يخلق من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يجيء يوم القيامة صفاً واحداً[1] ، أخرجه ابن جرير ، وعن ابن عباس قال : ﴿ إن جبريل يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار ترعد فرائصه فرقاً من عذاب الله يقول سبحانك لا إله الا انت ما

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » ٦/٣٠٩ من رواية ابن أبي حاتم وأبي الشيخ في «العظمة» وابن مردويه عن ابن عباس ، والله أعلم بصحة سنده . وقد ذكر ابن كثير هذا المعنى عن ابن عباس موقوفاً عليه ، وذكره ابن كثير والشوكاني عن مجاهد وأبي صالح ، ولعله مما تلقاه ابن عباس من الاسرائيليات . والله أعلم .

عبدناك حق عبادتك ما بين منكبيه كما بين المشرق والمغرب ، أما سمعت قول الله :

﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾[1] أخرجه أبو الشيخ ، وعنه قال يقول حين تقوم أرواح الناس مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن ترد الروح إلى الأجساد ، أخرجه البيهقي في الاسماء والصفات .

﴿ لا يتكلمون ﴾ أي الخلائق ثم خوفاً وإجلالاً لعظمة الله جل جلاله من هول ذلك اليوم ولا يشفعون لأحد ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ بالشفاعة أو لا يتكلمون إلا في حق من أذن له الرحمن .

﴿ و ﴾ كان ذلك الشخص ممن ﴿ قال صواباً ﴾ قال الضحاك ومجاهد : صواباً يعني حقاً وقال أبو صالح : لا إله إلا الله ، وبه قال ابن عباس ، وأصل الصواب السداد من القول والفعل ، قيل لا يتكلمون يعني الملائكة والروح الذين قاموا صفاً هيبة وإجلالاً إلا من أذن له الرحمن منهم في الشفاعة ، وهم قد قالوا صواباً ، قال الحسن : إن الروح يقول يوم القيامة لا يدخل أحد الجنة إلا بالروح ، ولا النار إلا بالعمل .

قال الواحدي : فهم لا يتكلمون يعني الخلق كلهم إلا من أذن له الرحمن وهم المؤمنون والملائكة ، وقال في الدنيا صواباً أي شهد بالتوحيد .

قال البيضاوي : قوله لا يتكلمون الخ تقرير وتأكيد لقوله : ﴿ لا يملكون ﴾ فإن هؤلاء الذين هم أفضل الخلائق وأقربهم من الله إذ لم يقدروا أن يتكلموا بما يكون صواباً كالشفاعة لمن ارتضى إلا بإذنه فكيف يملكه غيرهم .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى يوم قيامهم على تلك الصفة وهو مبتدأ وخبره ﴿ اليوم الحق ﴾ أي الكائن الواقع المتحقق الثابت وقوعه ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً ﴾ أي مرجعاً يرجع اليه بالعمل الصالح لأنه إذا عمل خيراً

---

(١) روى هذا المعنى ابن جرير الطبري في «تفسيره» ٢٢/٣٠ عن ابن مسعود قال ابن كثير: وهذا قول غريب جداً.

قربه إلى الله ، وإذا عمل شراً باعده منه ، قال قتادة مآباً سبيلاً .

قال أبو السعود : الفاء فصيحة تفصح عن شرط محذوف ومفعول المشيئة محذوف ، وقوله : ﴿ إلى ربه ﴾ أي إلى ثوابه ، وهو متعلق بمآباً كأنه قيل وإذا كان الأمر كما ذكر من تحقق اليوم المذكور لا محالة فمن شاء أن يتخذ مرجعاً إلى ثواب ربه الذي ذكر شأنه العظيم فعل ذلك بالإيمان والطاعة ، وتعلق الجار به لما فيه من معنى الافضاء والإيصال انتهى .

ثم زاد سبحانه في تخويف الكفار فقال : ﴿ إنا أنذرناكم ﴾ يا كفار مكة ﴿ عذاباً قريباً ﴾ يعني العذاب في الآخرة وكل ما هو آت فهو قريب ، ومثله قوله : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ كذا قال الكلبي وغيره ، وقال قتادة هو عذاب الدنيا لأنه أقرب العذابين ، قال مقاتل هو قتل قريش ببدر ، والأول أولى لقوله :

﴿ يوم ينظر المرء ﴾ أي كل امرىء مسلماً كان أو كافراً ﴿ ما قدمت يداه ﴾ أي يشاهد كل ما قدمه من خير أو شر لقوله : ﴿ ذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم ﴾ وتخصيص الأيدي لأن أكثر الأعمال يقع بها ، وإن احتمل أن لا يكون للأيدي مدخل فيما ارتكب من الآثام ، و « ما » موصولة أو استفهامية قال الحسن والمرء هنا هو المؤمن أي يجد لنفسه عملاً ، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملاً فيتمنى أن يكون تراباً ، وقيل المراد به الكافر على العموم ، وقيل أبيّ بن خلف وعقبة بن أبي معيط ، والأول أولى لقوله :

﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ فإن الكافر واقع في مقابلة المرء . والمراد جنس الكافر يتمنى أن يكون تراباً لما يشاهده مما قد أعده الله له من أنواع العذاب . والمعنى أنه يتمنى أنه كان تراباً في الدنيا فلم يخلق ولم يكلف ، أو تراباً يوم القيامة فلم يبعث ، وقيل المراد بالكافر أبو جهل ، وقيل أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وقيل إبليس ، والأول أولى اعتباراً بعموم اللفظ ولا ينافيه خصوص السبب كما تقدم غير مرة، ووضع الظاهر موضع

المضمر لزيادة الذم .

عن أبي هريرة : « قال يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء فيبلغ من عذاب الله أن يؤخذ للجمّاء من القرناء ثم يقول كوني تراباً فذلك حين يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً » أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث والنشور .

وأما الجن فقال أبو الزناد يعودون تراباً أيضاً . وقال عمر بن عبد العزيز ومجاهد وغيرهما مؤمنو الجن حول الجنة في ربض ورحاب وليسوا فيها ، والذي عليه الأكثرون أنهم مكلفون مثابون ومعاقبون ، فالمؤمن يدخل الجنة ، والكافر يدخل النار كبني آدم ، ذكره الخطيب والله أعلم بالصواب .



سورة النازعات

وتسمى سورة الساهرة خمس أو ست وأربعون آية وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾

﴿ والنازعات غرقاً ﴾ أقسم سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها وهي الملائكة التي تنزع أرواح العباد عن أجسادهم كما ينزع النازع في القوس فيبلغ بها غاية المد ، وكذا المراد بالناشطات والسابحات والسابقات والمدبرات ، يعني الملائكة[1] ، والعطف مع اتحاد الكل لتنزيل التغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي ، وإنما جاءت هذه الأقسام بلفظ التأنيث والكل وصف للملائكة مع أنهم ليسوا إناثاً لأن المقسم به طوائف من الملائكة ، والطوائف جمع طائفة وهي مؤنثة ، وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

وقال السدي : النازعات هي النفوس حين تغرق في الصدور ، وقال مجاهد : هي الموت ينزع النفس ، وقال قتادة : هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق ، من قولهم نزع إليه إذا ذهب ، أو من قولهم نزعت بالحبل أي أنها تغرب وتغيب وتطلع من أفق آخر ، وبه قال أبو عبيدة والأخفش وابن كيسان .

وقال عطاء وعكرمة : النازعات القسي تنزع بالسهام ، وإغراق النازع في القوس أن يمده غاية المد حتى ينتهي به إلى النصل ، وقيل أراد بالنازعات

---

(١) ذكر ابن كثير أن الصحيح في قوله: ﴿والنازعات غرقاً﴾: الملائكة، قال: يعنون حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرقه في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط، وهو قوله: ﴿والناشطات نشطاً﴾.

الغزاة الرماة ، وانتصاب غرقاً على أنه مصدر محذوف الزوائد أي إغراقاً ، والناصب له ما قبله لملاقاته له في المعنى أي إغراقاً في النزع حيث تنزعها من أقاصي الأجساد ، أو على الحال أي ذوات إغراق يقال أغرق في الشيء يغرق فيه اذا أوغل فيه وبلغ غايته ، وعن علي قال : هي الملائكة تنزع أرواح الكفار ، وعن ابن عباس قال : هي أنفس الكفار تنزع ثم تنشط ثم تغرق في النار وقال ابن مسعود الملائكة الذين يلون أنفس الكفار .

﴿ و ﴾ معنى ﴿ الناشطات نشطاً ﴾ أنها تنشط النفوس أن تخرجها من الأجساد كما ينشط العقال من يد البعير إذا حل عنه حلاً رفيقاً ، ونشط الرجل الدلو في البئر إذا أخرجها ، والنشاط الجذب بسرعة ، ومنه الأنشوطة للعقدة التي يسهل حلها .

قال أبو زيد نشطت الحبل أنشطه نشطاً عقدته ، وأنشطته أي حللته وأنشطت الحبل أي مددته ، قال الفراء أنشط العقال أي حل ونشط أي ربط الحبل في يديه ، قال الأصمعي بئراً نشاط أي قريبة القعر يخرج الدلو منها بجذبة واحدة ، وبئر نشوط وهي التي لا يخرج منها الدلو حتى ينشط كثيراً ، وقال مجاهد هو الموت ينشط نفس الإنسان ، وبه قال ابن عباس ، وقال السدي : هي النفوس حين تنشط من القدمين ، وقال عكرمة وعطاء : هي الأوهاق التي تنشط السهام ، وقال قتادة والحسن والأخفش هي النجوم تنشط من أفق إلى أفق أي تذهب .

قال في الصحاح والناشطات نشطاً يعني النجوم من برج إلى برج كالثور الناشط من بلد إلى بلد والهموم تنشط بصاحبها ، وقال أبو عبيدة وقتادة هي الوحوش حين تنشط من بلد إلى بلد ، وقيل الناشطات لأرواح المؤمنين والنازعات لأرواح الكافرين لأنها تجذب روح المؤمن برفق ، وتجذب روح الكافر بعنف .

وقوله نشطاً مصدر وكذا سبحاً وسبقاً ، قال علي : هي الملائكة تنشط

أرواح الكفار ما بين الأظفار والجلد حتى تخرجها ، وعن معاذ بن جبل قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار ، قال الله والناشطات نشطاً أتدري ما هو ؟ قلت يا نبي الله ما هو؟ قال: كلاب في النار تنشط اللحم والعظم » أخرجه ابن مردويه .

﴿ والسابحات سبحاً ﴾ هي الملائكة تسبح في الأبدان لإخراج الأرواح كما يسبح الغواص في البحر لإخراج شيء منه ، يعني الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسلونها سلاً رفيقاً ثم يدعونها حتى تستريح ثم يستخرجونها كالسابح في الماء يتحرك فيه برفق ولطافة .

وقال مجاهد وأبو صالح : هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله كما يقال للفرس الجواد سابح إذا أسرع في جريه ، وقال مجاهد : أيضاً السابحات الموت يسبح في نفوس بني آدم ، وقيل هي الخيل السابحة في الغزو ، وقال قتادة والحسن هي النجوم تسبح في أفلاكها كما في قوله : ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ وقال عطاء هي السفن تسبح في الماء . وقيل هي أرواح المؤمنين تسبح شوقاً إلى الله ، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض .

﴿ فالسابقات سبقاً ﴾ هم الملائكة على قول الجمهور كما سلف ، قال مسروق ومجاهد : تسبق الملائكة الشياطين بالوحي إلى الأنبياء ، وقال أبو روق هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح . وروي نحوه عن مجاهد ، وقال مقاتل هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة ، وقال الربيع هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة شوقاً إلى الله ، وقال علي كرم الله وجهه : هي الملائكة يسبق بعضها بعضاً بأرواح المؤمنين إلى الله تعالى ، وقال مجاهد : أيضاً هو الموت يسبق الإنسان ، وقال قتادة والحسن ومعمر : هي النجوم يسبق بعضها في السير بعضاً .

وقال عطاء : هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد ، وقيل هي الأرواح التي تسبق الأجساد إلى الجنة أو النار .

قال الجرجاني عطف السابقات بالفاء لأنها مسببة عن التي قبلها أي واللاتي يسبحن فيسبقن . تقول قام فذهب ، فهذا يوجب أن يكون القيام سبباً للذهاب ، ولو قلت قام وذهب بالواو ، لم يكن القيام سبباً للذهاب ، قال الواحدي : وهذا غير مطرد في قوله الآتي : ﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ لأنه يبعد أن يجعل السبق سبباً للتدبير .

قال الرازي ويمكن الجواب عما قاله الواحدي بأنها لما أمرت سبحت فسبقت فدبرت ما أمرت بتدبيره ، فتكون هذه أفعالاً يتصل بعضها ببعض ، كقوله قام زيد فذهب فضرب عمراً .

ولما سبقوا في الطاعات وسارعوا إليها ظهرت أمانتهم ففوض إليهم التدبير .

ويجاب عنه بأن السبق لا يكون سبباً للتدبير كسببية السبح للسبق ، والقيام للذهاب ومجرد الإتصال لا يوجب السببية والمسببية .

والأولى أن يقال العطف بالفاء في المدبرات طوبق به ما قبله من عطف السابقات بالفاء ولا يحتاج إلى نكتة كما احتاج إليها ما قبله لأن النكتة إنما تطلب لمخالفة اللاحق للسابق لا لمطابقته وموافقته .

﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ قال علي هي الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة . وعنه يدبرون ذكر الرحمن وأمره ، وقال ابن عباس ملائكة يكونون مع ملك الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم فمنهم من يعرج بالروح ، ومنهم من يؤمن على الدعاء ، ومنهم من يستغفر للميت حتى يصلى عليه ويدلى في حفرته ، قال القشيري اجمعوا على أن المراد هنا الملائكة .

وقال الماوردي فيه قولان : (أحدهما) الملائكة وهو قول الجمهور ، والثاني إنها الكواكب السبع ، حكاه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل ، وفي تدبيرها الأمر وجهان (أحدهما) تدبر طلوعها وأفولها (الثاني) تدبر ما قضاه الله فيها من الأحوال .

ومعنى تدبير الملائكة للأمر نزولها بالحلال والحرام وتفصيلهما والفاعل للتدبير في الحقيقة وإن كان هو الله عز وجل لكن لما نزلت الملائكة به وصفت به ، وقيل إن الملائكة لما أمرت بتدبير أهل الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك قيل لها مدبرات .

قال عبد الرحمن بن ساباط تدبير أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ، أما جبريل فموكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات ، وأما عزرائيل فموكل بقبض الأنفس ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم .

وجواب القسم بهذه الأمور التي أقسم الله بها محذوف أي والنازعات وكذا وكذا لتبعثن . قال الفراء وحذف لمعرفة السامعين به ويدل عليه قوله ﴿أإذا كنا عظاماً نخرة﴾ وقيل إن جواب القسم لقوله ﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ أي أن في يوم القيامة وذكر موسى وفرعون لعبرة لمن يخشى ، قال ابن الأنباري وهذا قبيح لأن الكلام قد طال بينهما .

وقيل جواب القسم ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ لأن المعنى قد أتاك وهذا ضعيف جداً .

وقيل الجواب ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ على تقدير ليوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة .

قال السجستاني : يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير كأنه قال فإذا هم بالساهرة والنازعات ، قال ابن الأنباري وهذا خطأ لأن الفاء لا يفتتح بها الكلام والأول أولى .

وقال الكرخي الفاء فيهما للدلالة على ترتبهما بغير مهلة، وهو من عطف المقسم به والمعطوف بالواو من عطف الصفات بعضها على بعض ، والعطف مع اتحاد الكل بتنزيل التغاير العنواني منزلة التغاير الذاتي للإشعار بأن كل واحد من الأوصاف المعدودة من معظمات الأمور حقيق بأن يكون على حياله

مناطاً لاستحقاق موصوفه للإجلال والإعظام بالإقسام به من غير انضمام الأوصاف الأخر إليه .

﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ انتصاب هذا الظرف بالجواب المقدر للقسم أو بإضمار اذكر ، والراجفة المضطربة ، يقال رجف يرجف إذا اضطرب ، والمراد هنا الصيحة العظيمة التي فيها تردد واضطراب كالرعد وهي النفخة الأولى التي يموت بها جميع الخلائق ، قاله ابن عباس .

﴿ تتبعها الرادفة ﴾ هي النفخة الثانية التي تكون عند البعث ، قاله ابن عباس وبينهما أربعون سنة ، فاليوم واسع للنفختين وغيرهما فصح ظرفيته للبعث الواقع عقب الثانية ، وسميت رادفة لأنها ردفت النفخة الأولى ، كذا قال جمهور المفسرين وقال ابن زيد : الراجفة الأرض ، والرادفة الساعة ، وقال مجاهد الراجفة الزلزلة تتبعها الرادفة الصيحة ، وقيل الراجفة اضطراب الأرض والرادفة الزلزلة .

وأصل الرجفة الحركة ، وليس المراد التحرك هنا فقط بل الراجفة هنا مأخوذة من قولهم رجف الرعد يرجف رجفاً ورجيفاً إذا ظهر صوته ، ومنه سميت الأراجيف لإضطراب الأصوات بها وظهور الأصوات فيها ، ومحل تتبعها الرادفة النصب على الحال من الراجفة .

والمعنى لتبعثن يوم النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها ، وعن أبيّ بن كعب قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربع الليل قام فقال: يا أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » أخرجه أحمد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه وغيرهم .

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ترجف الأرض رجفاً وتزلزل بأهلها وهي التي يقول الله ﴿ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ﴾ يقول مثل السفينة في البحر تكفأ بأهلها مثل القنديل المعلق بأرجائها . أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي .

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾

﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ قلوب مبتدأ ويومئذ منصوب بواجفة . وواجفة صفة لقلوب وهو المسوغ للإبتداء بالنكرة أي قلوب مضطربة خائفة قلقة خافقة لما عاينت من أهوال يوم القيامة ، قال جمهور المفسرين . اي خائفة وجلة ، وقال ابن عباس : وجلة متحركة ، وقال السدي زائلة عن أماكنها نظيره ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ وقال المؤرج : قلقة مستوفزة ، وقال المبرد : مضطربة يقال وجف القلب يجف وجيفاً إذا خفق كما يقال وجب يجب وجيباً ، والإيجاف السير السريع فأصل الوجيف إضطراب القلب ، وقال ابن عباس : خائفة .

﴿ أبصارها ﴾ مبتدأ ثان وخبره ﴿ خاشعة ﴾ والجملة خبر الأول ، في الكلام حذف مضاف تقديره أبصار أصحاب القلوب ذليلة ، والضمير راجع إلى أصحاب القلوب فهو من الإستخدام والمراد أنها تظهر عليهم الذلة والخشوع عند معاينة أهوال يوم القيامة ، كقوله ﴿ خاشعين من الذل ﴾ قال عطاء يريد أبصار من مات على غير الإسلام ويدل على هذا أن السياق في منكري البعث .

﴿ يقولون أإنا لمردودون في الحافرة ﴾ هذا حكاية لما يقوله المنكرون للنعت في الدنيا إستهزاء وإنكاراً للبعث إذا قيل لهم أنكم تبعثون ، أي أنرد إلى أول حالنا وإبتداء أمرنا فنصير أحياء بعد موتنا ، يقال رجع فلان في حافرته أي رجع من حيث جاء والحافرة عند العرب إسم لأول الشيء وإبتداء الأمر ، ومنه قولهم رجع فلان على حافرته أي على الطريق الذي جاء منه ، يقال النقد عند

الحافرة أي عند الحالة الأولى وهي الصفقة ، ويقال اقتتل القوم عند الحافرة أي عند أول ما التقوا ، وسميت الطريق التي جاء منها حافرة لتأثيره فيها بمشيه فيها فهي حافرة بمعنى محفورة ، وقيل الحافرة العاجلة .

والمعنى إنا لمردودون إلى الدنيا وقيل الحافرة جمع حافر بمعنى القدم أي أنمشي أحياء على أقدامنا ونطأ بها الأرض ، وقيل فاعلة بمعنى مفعولة ، وقيل على النسب أي ذات حفر ، والمراد الأرض ، وقيل الحافرة الأرض التي يحفر فيها قبورهم ، والمعنى إنا لمردودون في قبورنا أحياء ، كذا قال الخليل والفراء وبه قال مجاهد ، وقال ابن زيد : الحافرة النار ، واستدل بقوله ﴿ تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ قال ابن عباس في الحافرة أي الحياة وعنه قال خلقاً جديداً ، قرأ الجمهور في الحافرة ، وقرأ أبو حيوة في الحفرة .

ثم زادوا في الاستبعاد بقولهم ﴿ أئذا كنا عظاماً نخرة ﴾ أي بالية متفتتة يقال نخر العظم بالكسر إذا بلي ، وهذا تأكيد لإنكار البعث أي كيف نرد أحياء ونبعث إذا كنا عظاماً نخرة ، والعامل في « إذا » مضمر يدل عليه مردودون أي أئذا كنا عظاماً بالية نرد ونبعث مع كونها أبعد شيء من الحياة .

قرأ الجمهور نخرة ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ناخرة ، واختار الأولى أبو عبيدة وأبو حاتم ، والثانية الفراء وابن جرير وأبو معاذ النحوي .

قال أبو عمرو بن العلاء : الناخرة التي لم تنخر بعد أي لم تبل ولا بد أن تنخر ، وقيل هما بمعنى ، تقول العرب نخر الشيء فهو ناخر ونخر ، وطمع فهو طامع وطمع ونحو ذلك ، قال الأخفش هما جميعاً لغتان أيهما قرأت فحسن .

وقيل الناخرة التي أكلت أطرافها وبقيت أوساطها ، والنخرة التي فسدت كلها ، وقال مجاهد نخرة أي مرفوتة كما في قوله ﴿ رفاتاً ﴾ وقيل الناخرة المجوفة التي تمر فيها الريح فتنخر أي تصوت ، وقد قرىء إذا كنا وأإذا كنا بالإستفهام وبعدمه .

ثم ذكر سبحانه عنهم قولاً آخر قالوه فقال ﴿ قالوا تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ أي رجعة ذات خسران لما يقع على أصحابها من الخسران ، والمعنى أنهم قالوا إن رددنا بعد الموت لنخسرن بما يصيبنا بعد الموت مما يقوله محمد ، وهذا إستهزاء منهم ، وقيل معنى خاسرة كاذبة أي ليست بكائنة كذا قال الحسن وغيره ، وقال الربيع بن أنس : خاسرة على من كذب بها ، وقال قتادة ومحمد بن كعب : أي لئن رجعنا بعد الموت لنخسرن بالنار ، وإنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار ، والكرة الرجعة والجمع كرات .

وقوله ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ تعليل لما يدل عليه ما تقدم من استبعادهم لبعث العظام النخرة وإحياء الأموات ، والمعنى لا تستبعدوا ذلك فإنما هي زجرة واحدة وكان ذلك الإحياء والبعث ، والمراد بالزجرة الصيحة وهي النفخة الثانية التي يكون البعث بها ، وقيل أن الضمير في ﴿ إنما هي ﴾ راجع إلى الرادفة المتقدم ذكرها التي يعقبها البعث وسميت هذه النفخة زجرة لأنه يفهم منها النهي عن التخلف والمنع منه ، وعبارة الخطيب وعبر بالزجرة لأنها أشد من النهي لأنها صيحة لا يتخلف عنها القيام أصلاً .

﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ أي فإذا الخلائق الذين قد ماتوا ودفنوا أحياء على وجه الأرض ، قال الواحدي المراد بالساهرة وجه الأرض وظاهرها في قول الجميع ، قال الفراء سميت بهذا الإسم لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم ، وقيل لأنه يسهر في فلاتها خوفاً منها فسميت بذلك ، قال في الصحاح الساهرة وجه الأرض ، ومنه قوله ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ وقال الساهرة أرض بيضاء ، وقيل أرض من فضة لم يعص الله فيها ، وقيل الساهرة الأرض السابعة يأتي بها الله سبحانه فيحاسب عليها الخلائق .

وقال سفيان الثوري : الساهرة أرض الشام أو أرض مكة أو أرض القيامة ، وقال قتادة هي جهنم ، أي فإذا هؤلاء الكفار في جهنم ، وإنما قيل لها ساهرة لأنهم لا ينامون فيها لاستمرار عذابهم ، وقال ابن عباس هي وجه

الأرض وفي لفظ الأرض كلها ساهرة .

وجملة ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تكذيب قومه ، وأنه يصيبهم مثل ما أصاب من كان قبلهم ممن هو أقوى منهم ، ومعنى ﴿ هل أتاك ﴾ قد جاءك وبلغك ، وهذا على تقدير أن قد سمع من قصص فرعون وموسى ما يعرف به حديثهما ، وعلى تقدير أن هذا أول ما نزل عليه في شأنهما فيكون المعنى على الإستفهام إذ لا وجه لحملة على الإقرار حينئذ أي هل أتاك حديثه؟ أنا أخبرك به .

﴿ إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ﴾ الظرف متعلق بحديث لا بأتاك لاختلاف وقتيهما ، وقد مضى من خبر موسى وفرعون في غير موضع ما فيه كفاية .

والواد المقدس المبارك المطهر غاية الطهر بتشريف الله له بإنزال النبوة فيه المفيضة للبركات ، قال الفراء ﴿ طوى ﴾ واد بين المدينة ومصر سمي طوى لأنه طوى فيه الشر عن بني إسرائيل أو لأن موسى طواه بالليل إذ مر به فارتفع إلى أعلى الوادي ، وقيل واد بالشام عند الصور بين أيلة ومصر ، وهو معدول من طاو كما عدل عمر من عامر ، قاله الفراء ، قال : والصرف أحب إلي إذ لم أجد في المعدول نظيراً له .

وقيل طوى معناه بالعبرانية يا رجل فكأنه قيل يا رجل ، وقيل المعنى أن الوادي المقدس بورك فيه مرتين والأول أولى ، وقد مضى تحقيق القول فيه ، قرىء طوى بالتنوين وتركه وهما سبعيتان ، قال الجوهري طوى اسم موضع بالشام تكسر طاؤه وتضم ويصرف ولا يصرف ، فمن صرفه جعله إسم واد ومكان وجعله نكرة ، ومن لم يصرفه جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة .

﴿ إذهب إلى فرعون ﴾ قيل هو على تقدير القول ، وقيل هو تفسير للنداء أي ناداه نداء هو قوله إذهب ، وقيل هو على حذف ﴿ أن ﴾ المفسرة ويؤيده قراءة ابن مسعود ﴿ أن اذهب ﴾ لأن في النداء معنى القول .

وجملة ﴿ إنه طغى ﴾ تعليل للأمر أو لوجوب الإمتثال أي جاوز الحد في العصيان والفساد والتكبر والكفر بالله ، قال الرازي ولم يبين أنه طغى في أي شيء فقيل تكبر على الله وكفر به ، وقيل تكبر على الخلق واستعبدهم .

﴿ فقل هل لك أن تزكى ﴾ أي قل له بعد وصولك إليه هل لك رغبة إلى التزكي وهو التطهر من الشرك ، وأصله تتزكى ، قرأ الجمهور بالتخفيف ، وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الزاي على إدغام التاء في الزاي .

قال أبو عمرو ابن العلاء معنى قراءة التخفيف تكون زكياً مؤمناً ، ومعنى قراءة التشديد الصدقة ، وفي الكلام مبتدأ مقدر تتعلق به إلى ، والتقدير هل لك رغبة أو توجه أو سبيل إلى التزكي ، ومثل هذا قولهم هل لك في الخير يريدون هل لك رغبة في الخير ، وقال ابن عباس : هل لك أن تقول لا إلّه إلّا الله ، وقيل معناه هل لك أن تسلم وتصلح العمل ، أمر عليه السلام أن يخاطبه بالإستفهام الذي معناه العرض ليستدعيه بالتلطف ويستنزله بالمداراة من عتوه ، وهذا نوع تفصيل لقوله ﴿ فقولا له قولاً ليِّناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ .

﴿ وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ أي أرشدك إلى عبادته وتوحيده فتخشى عقابه ، والفاء لترتيب الخشية على الهداية لأن الخشية لا تكون إلا من مهتد راشد ، قال ابن عطاء الخشية أتم من الخوف ، لأنها صفة العلماء في قوله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ﴾ أي العلماء به رواه السلمي .

وعن الواسطي : أوائل العلم الخشية ثم الإجلال ثم الهيبة ثم التعظيم ثم الفناء[1] وعن بعضهم من تحقق بالخوف ألهاه خوفه عن كل مفروح به ، وألزمه الكمد إلى أن يظهر له الأمن من خوفه ، ذكره الكرخي .

(١) الفناء اصطلاح صوفي لا يعرفه الإسلام

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣﴾

﴿فأراه الآية الكبرى﴾ هذه الفاء هي الفصيحة لإفصاحها عن كلام محذوف يعني فذهب فقال له ما قال مما حكاه الله في غير موضع ، وأجاب عليه بما أجاب إلى أن قال: إن كنت جئت بآية فأت بها فعند ذلك أراه الآية الكبرى .

واختلف فيها ما هي فقيل العصا ، وقيل يده وقيل فلق البحر ، وقيل هي جميع ما جاء به من الآيات التسع ، والأول أولى ثم اليد ، والأكثرون على أنه أراهما له ، وأطلق عليهما الآية الكبرى لاتحادهما معنى أو أراد بالكبرى العصا وحدها لأنها كانت مقدمة على الأخرى .

ولا ينافي هذا قوله في الآية الأخرى ﴿ولقد أريناه آياتنا كلها﴾ وكل آياته كبرى لأن الإخبار هنا عما أراه له أول ملاقاته إياه وهو العصا واليد ، ثم أردف ذلك برؤية الكل .

ولا مساغ لحمل الآية على مجموع معجزاته فإن ما عدا هاتين الآيتين من الآيات التسع إنما ظهر على يده عليه السلام بعد ما غلب السحرة على مهل في نحو من عشرين سنة كما في سورة الأعراف ، ولا ريب في أن هذا مطلع القضية وأمر السحرة مترقب بعده .

﴿فكذب وعصى﴾ أي فلما أراه الآية الكبرى كذب فرعون بموسى وبما جاء به وعصى الله عز وجل بعد ظهور الآية وتحقق الأمر فلم يطعه .

﴿ ثم أدبر ﴾ أي تولى وأعرض عن الإيمان ، وأتى بثم لأن إبطال الأمر ونقضه يقتضي زماناً طويلاً ﴿ يسعى ﴾ أي يعمل بالفساد في الأرض ويجتهد في معارضة ما جاء به موسى ، وقيل أدبر هارباً من الحية يسعى خوفاً منها ، وقال الرازي معنى أدبر يسعى أقبل يسعى كما يقال أقبل يفعل كذا أي أنشأ يفعل كذا فوضع أدبر موضع أقبل ، لئلا يوصف بالإقبال ، ويسعى حال من الضمير في أدبر .

﴿ فحشر ﴾ أي فجمع جنوده للقتال والمحاربة أو جمع السحرة للمعارضة أو جمع الناس للحضور ليشاهدوا ما يقع أو جمعهم ليمنعوه من الحية ﴿ فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ أي قال لهم بصوت عال أو أمر من ينادي بهذا القول بعدما قال له موسى ربي أرسلني إليك ، والمعنى أنه لا رب فوقي ، قال عطاء كان صنع لهم أصناماً صغاراً وأمرهم بعبادتها ، وقال أنا رب أصنامكم ، وقيل أراد بكونه ربهم أنه قائدهم وسائدهم والأول أولى لقوله في آية أخرى ﴿ ما علمت لكم من إلـه غيري ﴾ .

﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ النكال نعت مصدر محذوف أي أخذه أخذ نكال أو هو مصدر لفعل محذوف أي أخذه الله فنكله نكال الآخرة والأولى ، أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة ، ويجوز أن يكون انتصاب نكال على أنه مفعول له أي أخذه الله لاجل نكال ، ويجوز أن ينتصب بنزع الخافض أي بنكال ، ورجح الزجاج أنه مصدر مؤكد ، قال لأن معنى أخذه الله نكل الله به فأخرج من معناه لا من لفظه .

وقال الفراء أي أخذه الله أخذاً نكالاً أي للنكال ، والنكال اسم لما جعل نكالاً للغير أي عقوبة له ، يقال نكل فلان بفلان إذا عاقبه وأصل الكلمة من الإمتناع ، ومنه النكول عن اليمين ، والنكل القيد ، والمراد بنكال الآخرة عذاب النار ، ونكال الأولى عذاب الدنيا بالغرق ، وقال مجاهد عذاب أول عمره وآخره ، وقال قتادة : الآخرة قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ والأولى تكذيبه لموسى ، وقيل الآخرة قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ والأولى قوله ﴿ ما

علمت لكم من إلّه غيري ﴾ قاله ابن عباس وكان بين الكلمتين أربعون سنة ، قاله ابن عمرو[١] .

﴿ إن في ذلك ﴾ أي فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل به ﴿ لعبرة ﴾ عظيمة ﴿ لمن ﴾ شأنه أن ﴿ يخشى ﴾ الله ويتقيه ويخاف عقوبته ويحاذر غضبه .

﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء ﴾ أي أخلقكم بعد الموت وبعثكم أشد عندكم وفي تقديركم أم خلق السماء ، والخطاب لكفار مكة والمقصود به التوبيخ لهم والتبكيت لان من قدر على خلق السماء التي لها هذ الجرم العظيم ، وفيها من عجائب الصنع وبدائع القدرة ما هو بيّن للناظرين ، كيف يعجز عن إعادة الأجسام التي أماتها بعد أن خلقها أول مرة ، ومثل هذا قوله سبحانه ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وقوله ﴿ أليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ .

ثم بيّن سبحانه كيفية خلق السماء فقال ﴿ بناها ﴾ أي جعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض ﴿ رفع سمكها ﴾ أي أعلاه في الهواء ، وهذا بيان للبناء ، أو جعل مقدار ذهابها وارتفاعها في سمت العلو رفيعاً مسيرة خمسمائة عام ، يقال سمكت الشيء أي رفعته في الهواء وسمك الشيء سموكاً ارتفع قال الفراء كل شيء حمل شيئاً من البناء أو غيره فهو سمك ، وبناء مسموك وسنام سامك أي عال والسموكات السموات .

وقال ابن جزي : السمك غلظ السماء وهو الإرتفاع الذي بين السطح السفلي الأسفل الذي يلينا ، وسطحها الأعلى الذي يلي ما فوقها ، قال البغوي : رفع سمكها أي سقفها ولينظر ما المراد بسقفها ، ويمكن أن يقال

(١) قال ابن كثير: ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ أي : انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا ﴿ويوم القيامة بئس الوفد المرفود﴾ كما قال تعالى : ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾ قال: وهذا هو الصحيح في معنى الآية أن المراد بقوله: ﴿نكال الآخرة والأولى﴾ أي الدنيا والآخرة.

سقف كل سماء هو السماء التي فوقها كما أن السماء الدنيا سقف للأرض تأمل .

قال الكسائي والفراء والزجاج : تمّ الكلام عند قوله بناها لأنه من صلة السماء والتقدير أم السماء التي بناها فحذف التي ، ومثل هذا الحذف جائز .

ومعنى ﴿ فسواها ﴾ جعلها مستوية الخلق معتدلة الشكل لا تفاوت فيها ولا اعوجاج ولا فطور ، ولا فروج ولا شقوق ﴿ وأغطش ليلها ﴾ الغطش الظلمة بلغة أنمار أي جعله مظلماً يقال أغطش الليل وأغطشه الله كما يقال أظلم الليل وأظلمه الله ، ورجل أغطش وامرأة غطشى لا يهتديان .

قال الراغب وأصله من الأغطش وهو الذي في عينه عمش ، ومنه فلاة غطشى لا يهتدى فيها والتغاطش التعامي ، وأضاف الليل إلى السماء لأن الليل يكون بغروب الشمس ، والشمس مضافة إلى السماء .

﴿ وأخرج ضحاها ﴾ أي أبرز نهارها المضيء بإضاءة الشمس وعبر عن النهار بالضحى لأنه أشرف أوقاته وأطيبها ، وأضافه إلى السماء لأنه يظهر بظهور الشمس ، وهي منسوبة إلى السماء .

﴿ والأرض بعد ذلك ﴾ أي بعد خلق السماء ﴿ دحاها ﴾ بسطها يقال دحا يدحو دحوا ودحى يدحي دحياً أي بسط ومد فهو من ذوات الواو والياء فيكتب بالألف والياء ويقال لعش النعامة أدحى لأنه مبسوط على الأرض ، قال أمية ابن الصلت :

دحوت البلاد فسويتها   وأنت على طيها قادر

قيل دحيت من مكة بعد خلق السماء بألفي عام[1] .

---

(١) قال ابن كثير ٤/٩٢: أما خلق الأرض، فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس رضي الله عنهما فيما ذكره البخاري. انظر «صحيح البخاري» ٨/٤٢٧، ٤٢٨ . ثم قال ابن كثير ٤/٤٦٨ : ولكن إنما دحيت الأرض بعد خلق السماء، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل، قال: وهذا معنى قول ابن عباس وغير واحد، واختاره ابن جرير.

ولا معارضة بين هذه الآية وبين ما تقدم في سورة فصلت من قوله ﴿ ثم استوى الى السماء ﴾ بل الجمع بأنه سبحانه خلق الأرض أولاً غير مدحوة ثم خلق السماء ثم دحى الأرض ، وقد قدمنا الكلام على هذا مستوفى هنالك ، وقدمنا أيضاً بحثاً في هذا في أول سورة البقرة عند قوله ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ وذكر بعض أهل العلم أن (بعد) بمعنى مع كما في قوله ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ وقيل (بعد) بمعنى قبل كقوله ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ﴾ أي من قبل الذكر ، والجمع الذي ذكرناه أولى وهو قول ابن عباس وغير واحد واختاره ابن جرير .

وعن ابن عباس أن رجلاً قال له آيتان في كتاب الله تخالف إحداهما الأخرى ، فقال إنما أتيت من قبل رأيك قال اقرأ ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، حتى بلغ ، ثم استوى الى السماء ﴾ وقوله ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ قال خلق الله الأرض قبل أن يخلق السماء ثم خلق السماء ثم دحى الأرض بعد ما خلق السماء وإنما قوله ﴿ دحاها ﴾ بسطها ، وعنه قال دحاها أن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام وما بينهما في يومين .

قرأ الجمهور بنصب الأرض على الاشتغال وقرىء بالرفع على الابتداء .

ثم فسر سبحانه الدحو فقال : ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ فجرت من الأرض الأنهار والبحار والعيون ، والمرعى النبات الذي يرعى والمرعى مصدر سمي أي رعيها وهو في الأصل موضع الرعي ، واستعير الرعي للانسان على سبيل التجوز .

قال الشهاب : والمرعى ما يأكله الحيوان غير الانسان فأريد به مجازاً

مطلق المأكول للانسان وغيره ، فهو مجاز مرسل من باب استعمال المقيد في المطلق انتهى ، وهو استعارة تصريحية حيث شبه اكل الناس برعي الدواب او فيه جمع بين الحقيقة والمجاز ، وقال الكرخي يجوز ان يكون استعارة معنوية .

والظاهر انه تغليب لأن قوله الآتي ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ وارد عليه ومن حقه أن تغلب ذوو العقول على الأنعام فعكس تجهيلاً لأن الكلام مع منكري الحشر بشهادة قوله ﴿ أأنتم أشد خلقاً ﴾ كما مر كأنه قيل أيها المعاندون الداخلون في زمرة البهائم الملزوزون في قرنها في تمتعكم بالدنيا وذهولكم عن الأخرى .

والجملة إما بيان وتفسير لدحاها لأن السكنى لا تتأتى بمجرد البسط بل لا بد من تسوية امر المعاش من المأكل والمشرب ، وإما في محل نصب على الحال .

﴿ والجبال أرساها ﴾ أي أثبتها في الأرض وجعلها كالأوتاد للأرض لتثبت وتستقر وأن لا تميد بأهلها ، قرأ الجمهور بنصب الجبال على الاشتغال ، وقرىء بالرفع على الابتداء ، قيل ولعل وجه تقديم ذكر إخراج الماء والمرعى على إرساء الجبال مع تقدم الارساء عليه الاهتمام بأمر المأكل والمشرب .

﴿ متاعاً ﴾ أي منفعة ﴿ لكم ولأنعامكم ﴾ من البقر والابل والغنم ، وانتصاب متاعاً على المصدرية أي متعكم بذلك متاعاً أو هو مصدر من عير لفظه لأن قوله ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ بمعنى متع بذلك أو على أنه مفعول له أي فعل ذلك لأجل التمتع وإنما قال لكم ولأنعامكم لأن فائدة ما ذكر من الدحو وإخراج الماء والمرعى كائنة لهم ولأنعامهم ، والمرعى يعم ما يأكله الناس والدواب .

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

﴿ فإذا جاءت الطامة ﴾ أي الداهية التي تعلو سائر الدواهي ﴿ الكبرى ﴾ أي العظمى التي تطم على سائر الطامات ، فالوصف بالكبرى تأسيس لا تأكيد فهي أكبر من داهية فرعون ، وهي قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ .

وهذا شروع في بيان أحوال معادهم إثر بيان احوال معاشهم ، والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها كما ينبىء عنه لفظ المتاع ، وفي الكرخي وخص ما هنا بالطامة موافقة لما قبله من داهية فرعون ، ولذلك وصفت بالكبرى ، موافقة لقوله ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ بخلاف ما في عبس فإنه لم يتقدمه شيء من ذلك فخصت بالصاخة وإن شاركت الطامة في أنها النفخة الثانية لأنها الصوت الشديد والصوت يكون بعد الطم فناسب جعل الطم للسابقة ، والصخ للاحقة انتهى .

قال الحسن وغيره : هي النفخة الثانية ، وقال الضحاك وغيره : هي القيامة سميت بذلك لأنها تطم على كل شيء لعظم هولها قال المبرد : الطامة عند العرب الداهية التي لا تستطاع ، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم طم الفرس طميماً اذا استفرغ جهده في الجري ، وطم الماء إذا ملأ النهر كله . وقال غيره هو من طم السيل الركية أي دفنها ، والطم الدفن .

قال مجاهد وغيره : الطامة الكبرى هي التي تسلم أهل الجنة الى الجنة وأهل النار الى النار ، قال ابن عباس : الطامة اسم من أسماء يوم القيامة ،

وجـواب « إذا » قيل هـو قولـه ﴿ فأمـا من طغى ﴾ وقيل محـذوف أي فـإن الأمـر كذلك أو عاينوا أو علموا أو أدخل أهل النار النار ، وأهل الجنة الجنة ، وقـدره بعضهم بقوله كان من عظائم الشؤون ما لم تشاهده العيون .

وقال أبو البقاء العامـل فيها جـوابها وهـو معنى ﴿ يوم يتـذكر الانسـان ما سعى ﴾ لأنه منصوب بفعل مضمر أي أعني يوم يتذكر أو يوم يتذكر بكون كيت وكيت ، وقيل إن الظرف بـدل من «إذا» وقيل هو بدل من الطامة الكبرى ، ومعنى تذكر الانسان ما سعى أنه يتذكر ما عمله من خير أو شر لأنه يشاهده مدوناً في صحائف أعماله ، و« ما » مصدرية أو موصولة .

﴿ وبُرزت الجحيم لمن يرى ﴾ معـطوف على ﴿ جاءت ﴾ أي أظهـرت النار المحرقة إظهاراً بيناً مكشوفاً لا تخفى على أحد ، قال مقاتـل فكشف عنها الغطاء فينظر اليها الخلق ، وقيل لمن يرى من الكفار لا من المؤمنين .

والظاهر أنها تبرز لكـل راء ، فأمـا المؤمن فيعرف بـرؤيتها قـدر نعمة الله عليه بالسلامة منها ، وأما الكافر فيزداد غماً الى غمه وحسرة الى حسرته .

قرأ الجمهور لمن يرى بالتحتية وقرأت عـائشة ومـالك بن دينـار وعكرمـة وزيد بن علي : بالفوقية أي لمن تـراه الجحيم ، أو لمن تراه أنت يـا محمد ، وقرأ ابن مسعود لمن رأى على صيغة الفعل الماضي .

﴿ فأما من طغى ﴾ أي جـاوز الحد في الكفـر والمعاصي ﴿ وآثـر الحياة الدنيا ﴾ أي قدمها على الآخرة باتباع الشهوات المحـرمات ولم يستعـد لها ولا عمـل عملها ﴿ فـإن الجحيم هي المأوى ﴾ أي مـأواه ، والألف واللام عـوض عن المضـاف اليه ، وهـذا عند الكـوفيين ، وعند سيبـويه وعنـد البصريين هي المأوى له ، ولا بد من أحد هذين التأويلين في الآيـة لأجل العـائد من الجملة الواقعة خبراً عن المبتدأ الذي هو من طغى ، وحسن عدم ذكر ذلك العائد كون الكلمة وقعت فاصلة ورأس آية ، والمعنى انها منزله الـذي ينزلـه ومأواه الـذي يأوي اليه لا غيرها .

ثم ذكر القسم الثاني من القسمين فقال : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ﴾ أي حذر مقامه بين يدي ربه يوم القيامة لعلمه بالمبدأ والمعاد ، قال الربيع مقامه يوم الحساب ، قال قتادة يقول ان لله عز وجل مقاماً قد خافه المؤمنون ، وقال مجاهد هو خوفه في الدنيا من الله عز وجل مواقعة الذنب فيقلع عنه ، نظيره قوله ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ والأول أولى .

﴿ونهى النفس﴾ الامارة بالسوء ﴿ عن الهوى ﴾ أي زجرها من الميل الى المعاصي والمحارم التي تشتهيها ، قال مقاتل هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها ، والهوى ميل النفس الى شهواتها ﴿ فان الجنة هي المأوى ﴾ أي المنزل الذي ينزله والمكان الذي يأوي اليه لا غيرها .

﴿ يسألونك ﴾ يا محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)﴿ عن الساعة أيان مرساها ﴾ أي متى وقوعها وقيامها ، قال الفراء أي منتهى قيامها كرسو السفينة ، قال أبو عبيدة ومرسى السفينة حين تنتهي ، والمعنى يسألونك عن الساعة متى يقيمها الله ، وقد مضى بيان هذا في سورة الاعراف .

﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ أي في أي شيء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها والمعنى لست في شيء من علمها وذكرها انما يعلمها الله سبحانه ، وهو استفهام انكار ورد لسؤال المشركين عنها أي فيم أنت من ذلك حتى يسألوك عنها ولست تعلمها وأنت آخر الأنبياء وعلامة من علاماتها فلا معنى لسؤالهم عنها فكفاهم ذلك دليلاً على دنوها ووجوب الاستعداد لها ، والأول أولى .

عن علي بن أبي طالب قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة فنزلت فيم أنت من ذكراها » أخرجه ابن مردويه .

وعن عائشة قالت : ما زال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسأل عن الساعة حتى أنزل الله فيم أنت من ذكراها الخ فانتهى فلم يسأل عنها » أخرجه البزار وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه .

وعن طارق بن شهاب قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكثر ذكر الساعة حتى نزلت هذه الآية فكف عنها » أخرجه عبد بن حميد والنسائي وابن جرير وغيرهم .

وعن ابن عباس : « أن مشركي مكة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا متى الساعة استهزاء منهم ، فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ يعني مجيئها فيم أنت من ذكراها يعني ما أنت ممن علمها يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم)﴿ الى ربك منتهاها ﴾ يعني منتهى علمها » أخرجه ابن ابي حاتم وابن مردويه ، قال السيوطي : بسند ضعيف .

وعن عائشة قالت : « كانت الأعراب اذا قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم يسألوه عن الساعة فينظر الى أحدث انسان منهم فيقول إن يعش هذا قامت عليكم ساعتكم » ، أخرجه ابن مردويه .

وجملة ﴿ الى ربك منتهاها ﴾ مستأنفة أي منتهى علمها فلا يوجد علمها عند غيره وهذا كقوله : ﴿ قل انما علمها عند ربي ﴾ وقوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ فكيف يسألونك عنها ويطلبون منك بيان وقت قيامها .

﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ أي مخوف لمن يخشى قيام الساعة وذلك وظيفتك ليس عليك غيره من الاخبار بوقت قيام الساعة ونحوه مما استأثر الله بعلمه إذ لا مدخل لتعيين وقتها في الانذار ، فإن محض الانذار لا يتوقف على علم المنذر بوقت قيامها ، فقصر حاله على الانذار فلا يتعداه الى علم الوقت وخص الانذار بمن يخشى لأنهم المنتفعون بالانذار ، وإن كان منذراً لكل مكلف من مسلم وكافر .

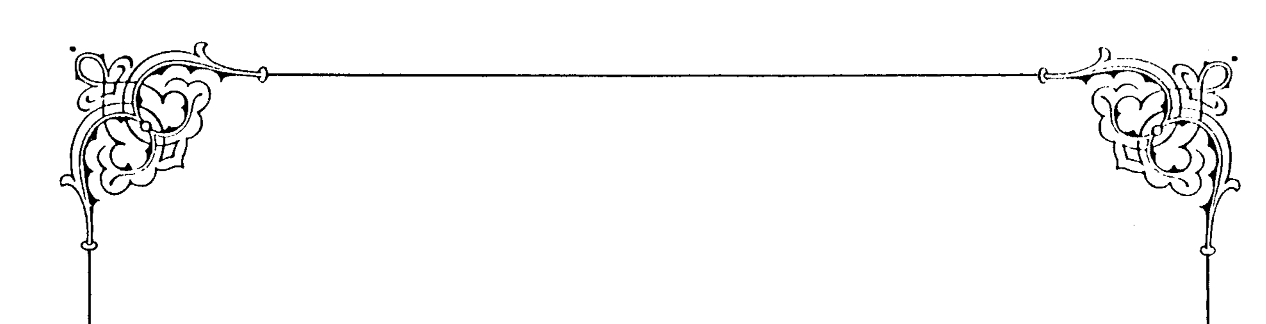
قرأ الجمهور بإضافة منذر الى ما بعده ، وقرىء بالتنوين قال الفراء كلاهما صواب كقوله بالغ أمره وموهن كيد الكافرين ، قال ابو علي الفارسي يجوز أن تكون الاضافة للماضي نحو ضارب زيد أمس ، وقال الزمخشري التنوين هو الأصل والاضافة تخفيف ، وكلاهما يصلح للحال والاستقبال .

﴿ كأنهم ﴾ أي كفار قريش ﴿ يوم يرونها ﴾ أي يوم يرون الساعة ويعاينونها ﴿ لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ أي يستقصرون مدة لبثهم ويزعمون أنهم لم يلبثوا إلا قدر آخر نهار أو أوله ، أو قدر الضحى الذي يلي تلك العشية ، والمراد تقليل مدة الدنيا كما قال لم يلبثوا الا ساعة من نهار ، وقيل لم يلبثوا في قبورهم .

قال الفراء والزجاج : المراد بإضافة الضحى الى العشية إضافته الى يوم العشية على عادة العرب يقولون آتيك الغداة أو عشيتها ، وآتيك العشية أو غداتها فتكون العشية في معنى آخر النهار ، والغداة في معنى أول النهار ، وزاد زاده أن الضحى والعشية لما كانتا من يوم واحد كان بينهما ملابسة مصححة لإضافة إحداهما الى الأخرى .

قال المحلي : وحسن الاضافة وقوع الكلمة فاصلة أي من الفواصل .

والجملة تقرير لما يدل عليه الانذار من سرعة مجيء المنذر به ، والعشية هي من الزوال الى غروب الشمس ، والضحى هو البكرة الى الزوال .



سورة عبس

وتسمى سورة السفرة وسورة الأعمى، وهي إحدى أو اثنتان وأربعون آية وهي مكية في قول الجميع وعن ابن عباس رضي اللّه عنه نزلت بمكة، وعن ابن الزبير رضي اللّه عنه مثله.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾

﴿ عبس وتولى ﴾ أي كلح بوجهه وقطب وأعرض ، وقرىء عبس بالتشديد ، جيء في هذه المواضع بضمائر الغائب إجلالاً له صلى الله عليه وسلم ولطفاً به لما في المشافهة بتاء الخطاب ما لا يخفى .

﴿ أن جاءه الأعمى ﴾ مفعول لأجله أي لأن جاءه ، والعامل فيه إما عبس أو تولى ، على الاختلاف بين البصريين والكوفيين في التنازع هل المختار اعمال الأول أو الثاني ، والمختار مذهب البصريين لعدم الاضمار في الثاني .

وقد أجمع المفسرون على أن سبب نزول الآية « أن قوماً من أشراف قريش كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم وقد طمع في إسلامهم ، فأقبل عبد الله ابن أم مكتوم ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع عليه ابن أم مكتوم كلامه ، فأعرض عنه ، فنزلت »[1] .

وعن عائشة قالت : « أنزلت عبس وتولى في ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا رسول الله أرشدني ، وعند رسول

(١) قوله تعالى : ﴿ عبس وتولَّى ﴾ قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ يوما يناجي عتبة بن ربيعة ، وأبا جهل بن هشام ، وأمية وأُبَيّاً ابني خلف ، ويَدعُوهم إلى الله تعالى ، ويرجو إسلامهم ، فجاء بن أم مكتوم الأعمى ، فقال : علِّمني يا رسول الله مما علَّمك الله ، وجعل يناديه ، ويكرِّر النداء ، ولا يدري أنه مشتغل بكلام غيره ، حتى ظهرت الكراهية في وجهه ﷺ لقطعه كلامه ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وأقبل على القوم يكلِّمهم ، فنزلت هذه الآيات ، فكان رسول الله ﷺ يكرمه بعد ذلك ، ويقول : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي .

الله صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول أترى بما أقول بأساً ، فيقول لا ، ففي هذا أنزلت » أخرجه الترمذي وحسنه وابن المنذر وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه .

وعن أنس قال : « جاء ابن أم مكتوم وهو يكلم أبيّ بن خلف فأعرض عنه ، فأنزل الله ﴿ عبس ﴾ الخ وكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه » أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو يعلى .

وعن ابن عباس قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يناجي عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبا جهل بن هشام ، وكان يتصدى لهم كثيراً ، ويحرص عليهم أن يؤمنوا فأقبل عليهم رجل أعمى يقال له عبد الله ابن أم مكتوم يمشي وهو يناجيهم ، فجعل عبد الله يستقرىء النبي صلى الله عليه وآله وسلم آية من القرآن ، قال يا رسول الله علمني مما علمك الله ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعبس في وجهه وتولى وكره كلامه ، وأقبل على الآخرين ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نجواه وأخذ ينقلب الى أهله أمسك الله ببعض بصره ثم خفق برأسه ثم أنزل الله ﴿ عبس وتولى ﴾ الآية ، فلما نزل فيه ما نزل أكرمه نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلمه وقال له:ما حاجتك هل تريد من شيء؟ واذا ذهب من عنده قال:هل لك حاجة في شيء » أخرجه ابن جرير وابن مردويه ، قال ابن كثير فيه غرابة وقد تكلم في إسناده[1] .

---

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص٣٣٣ بغير سند، وقال الحافظ في «تخريج أحاديث الكشاف ١٨١ ذكره الثعلبي بلا إسناد، وأخرجه ابن أبي حاتم من رواية العوفي عن ابن عباس نحوه. وأخرج الترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه، وابن حبان عن عائشة قالت: أُنزلت سورة «عبس وتولى» في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا، ففي هذا أُنزلت.

وقال المحلي : فكان بعد ذلك يقول له إذا جاء مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ، ويبسط له رداءه ، وقال الخازن استخلفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم على المدينة ثلاث عشرة مرة في غزواته[١] وكان من المهاجرين الأولين ، قيل قتل شهيداً بالقادسية . قال أنس بن مالك رأيته يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء[٢] .

قرأ الجمهور ﴿ أن جاءه الأعمى ﴾ على الخبر بدون الاستفهام ، ووجهه ما تقدم .

وقرأ الحسن ﴿ آن جاءه ﴾ بالمد على الاستفهام فهو على هذه القراءة متعلق بفعل محذوف دل عليه عبس وتولى والتقدير أن جاءه الأعمى تولى وأعرض .

﴿ وما يدريك ﴾ التفت سبحانه من الغيبة الى خطاب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم لأن المشافهة أدخل في العتاب . أي أيّ شيء يجعلك دارياً بحاله حتى تعرض عنه .

وجملة ﴿ لعله يَزَّكى ﴾ مستأنفة لبيان أن له شأناً ينافي الاعراض عنه أي لعله يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك لا من الشرك لأنه أسلم قديما بمكة ، فالضمير في لعله راجع الى الأعمى ، وقيل هو راجع الى الكافر أي وما يدريك أن ما طمعت فيه ممن اشتغلت بالكلام معه عن الأعمى أنه يزكى أو يذكر ، والأول أولى ، وكلمة الترجي باعتبار من وجه اليه الخطاب للتنبيه على أن الاعراض عنه مع كونه مرجو التزكي مما لا يجوز .

ومثل هذه الآية قوله في سورة الأنعام ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ وكذلك قوله : في سورة الكهف : ﴿ ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ .

---

(١) أي يستخلفه للصلاة بالناس .

(٢) كلمة انس لا تصح لأن الرجل أعمى .

﴿ أو يـذكر ﴾ عـطف على يزكى داخـل معه في حكم التـرجي ، أي أو يتذكر فيتعظ بما تعلمه من المواعظ ﴿ فتنفعه الذكرى ﴾ أي الموعظة المسموعة منك ، قرأ الجمهـور بالـرفع وقـرىء بالنصب على جـواب الترجي أي أنـك لا تدري ما هو مترقب منه من تزكي أو تذكر ولو دريت ما فرط ذلك منك .

﴿ أمـا من استغنى ﴾ أي كـان ذا ثـروة وغنى ، أو استغنى عن الايمـان وعمـا عندك من العلم الـذي ينطوي عليـه القـرآن ﴿ فـأنت لـه تصـدى ﴾ أي تصغي لكـلامـه ، والتصـدي الاصغـاء وقيـل هـو من الصـدى وهـو الصـوت المسمـوع في الأمـاكن الخـاليـة والأجـرام الصلبـة ، وقيـل من الصـدى وهـو العطش ، والمعنى على التعريض ، قرأ الجمهور تصدى بالتخفيف على طرح احدى التاءين تخفيفاً ، وقرأ نـافع وابن محيصن بـالتشديـد على الادغام ، وفي هذا مزيد تنفير لـه صلى الله عليه وآلـه وسلم عن الاقبال عليهم والاصغـاء الى كلامهم .

﴿ ومـا عليـك ان لا يـزكى ﴾ أي أيُّ شيء عليـك في أن لا يسلم ولا يهتدي ، فإنه ليس عليك الا البلاغ فلا تهتم بأمر من كـان هكذا من الكفـار ، ويجوز ان تكون (ما) نافية أي ليس عليك بأس في أن لا يتزكى من تصديت لـه وأقبلت عليـه ، وتكـون الجملة في محـل نصب على الحـال من ضمير تصدى .

ثم زاد سبحانه في معاتبة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ﴿ وأما من جاءك يسعى ﴾ أي وصل اليك حال كونه مسـرعاً في المجيء اليـك طالبـاً منك ان ترشده الى الخير وتعـظه بمواعظ الله ﴿ وهـو يخشى ﴾ حال من فـاعل ﴿ يسعى ﴾ على التداخل ، أو من فاعل جاءك على الترادف أي يخشى الله أو أذى الكفار يعني ابن أم مكتوم ﴿ فـأنت عنه تلهى ﴾ أي تتشـاغل عنـه وتعرض عن الاقبال عليه . والتلهي التشاغل والتغـافل ، يقـال لهيت عن الأمر ألهى أي تشـاغلت عنه وكـذا تلهيت . وليس هو من اللهو في شيء ولم يجعل من اللهـو

لأنه مسند الى ضمير النبي ، ولا يليق بمنصبه الكريم أن ينسب اليه الفعل من اللهو بخلاف الاشتغال فإنه يجوز ان يصدر منه في بعض الأحيان ، ولا ينبغي أن يعتقد غير هذا .

وقوله ﴿ كلا ﴾ ردع له صلى الله عليه وآله وسلم عما عوتب عليه أي لا تفعل بعد هذا الواقع منك مثله من الاعراض عن الفقير ، والتصدي للغني والتشاغل به مع كونه ليس ممن يتزكى . عن ارشاد من جاءك من أهل التزكي والقبول للموعظة ، وهذا الواقع من النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو من باب ترك الأولى ، فأرشده الله سبحانه الى ما هو الأولى به .

﴿ إنها تذكرة ﴾ أي أن هذه الآيات أو السورة موعظة حقها أن تتعظ بها وتقبلها وتعمل بموجبها أو تعمل بها كل أمتك .

﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أي فمن رغب فيها اتعظ بها وحفظها وعمل بموجبها ، ومن رغب عنها كما فعله من استغنى فلا حاجة الى الاهتمام بأمره ، قيل الضميران في ﴿ إنها ﴾ وفي ﴿ ذكره ﴾ للقرآن وتأنيث الأول لتأنيث خبره ، وقيل الأول للسورة أو للآيات السابقة والثاني للتذكرة لأنها في معنى الذكر ، وقيل المعنى فمن شاء الله ألهمه وفهمه القرآن حتى يذكره ويتعظ به والأول أولى .

ثم أخبر سبحانه عن عظم هذه التذكرة وجلالتها فقال : ﴿ في صحف ﴾ أي أنها تذكرة كائنة في صحف ، فالجار والمجرور صفة لتذكرة وما بينهما اعتراض ، والصحف جمع صحيفة .

ومعنى ﴿ مكرمة ﴾ أنها مكرمة عند الله لما فيها من العلم والحكمة ، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ ، وقيل المراد بالصحف كتب الأنبياء كما في قوله ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى ﴾ .

مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾

﴿ مرفوعة ﴾ أي أنها رفيعة القدر عند الله ، وقيل مرفوعة في السماء السابعة ، قال الواحدي قال المفسرون مكرمة يعني في اللوح المحفوظ ، مرفوعة يعني في السماء السابعة ، قال ابن جرير مرفوعة القدر والذكر ، وقيل مرفوعة عن الشبه والتناقض .

﴿ مطهرة ﴾ أي منزهة لا يمسها إلا المطهرون ، قال الحسن مطهرة من كل دنس . قال السدي مصانة عن الكفار لا ينالونها ، وقال المحلي منزهة عن مس الشياطين انتهى .

وفيه ان الصحف بأيدي الملائكة في السماء ، والشياطين لا يصلون الى السماء فلا يظهر مدح الصحف بتطهيرها من مسهم فليتأمل ، قاله سليمان الجمل .

﴿ بأيدي سفرة ﴾ جمع سافر ككتبة وكاتب ، قال ابن عباس سفرة كتبة ، وقال هم النبطية القراء ، والمعنى أنها بأيدي كتبة من الملائكة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ ، قال الفراء السفرة هنا الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله ورسوله من السفارة وهي السعي بين القوم .

قال الزجاج إنما قيل للكتاب سفر بكسر السين ، والكاتب سافر لأن معناه أنه بين ، يقال أسفر الصبح اذا أضاء وسفرت المرأة اذا كشفت النقاب عن وجهها ، ومنه سفرت بين القوم أسفر سفارة أي أصلحت بينهم ، قال مجاهد هم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد .

وقال قتادة : السفرة هنا هم القراء لأنهم يقرأون الأسفار ، وقال وهب بن منبه هم أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ثم أثنى سبحانه على السفرة فقال : ﴿ كرام ﴾ على ربهم كذا قال الكلبي ، وقال الحسن كرام عن المعاصي فهم يرفعون انفسهم عنها ، وقيل يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم اذا خلا بزوجته أو قضى حاجته ، وقيل يؤثرون منافع غيرهم على منافعهم ، وقيل يتكرمون على المؤمنين بالاستغفار لهم .

﴿ بررة ﴾ جمع بار مثل كفرة وكافر أي أتقياء مطيعون لربهم صادقون في إيمانهم وقد تقدم تفسيره ، وقال ابن عباس هم الملائكة .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأه وهو عليه شاق له أجران » .

﴿ قتل الانسان ما أكفره ﴾ أي لعن الانسان الكافر ما أشد كفره ، قال الكرخي وهذا دعاء عليه بأشنع الدعوات وإن ذلك ورد على أسلوب كلام العرب لبيان استحقاقه لأعظم العقاب حيث أتى بأعظم القبائح كقولهم اذا تعجبوا من شيء قاتله الله ما أخبثه ، أخزاه الله ما أظلمه ، قال الشاعر :

يتمنى المرء في الصيف الشتا ... فإذا جاء الشتا أنكره
لا بذا يرضى ولا يرضى بذا ... قتل الانسان ما أكفره

وقيل معناه أي شيء أكفره أي دعاه الى الكفر ، وهو استفهام توبيخ ، والظاهر هو الأول ، قيل المراد بالانسان عتبة بن أبي لهب ، ومعنى ما أكفره التعجب من افراط كفره ، قال الزجاج معناه اعجبوا أنتم من كفره ، وقيل المراد بالانسان من تقدم ذكره في قوله ﴿ أما من استغنى ﴾ وقيل المراد به الجنس وهذا هو الأولى فيدخل تحته كل كافر شديد الكفر ويدخل تحته من كان سبباً لنزول الآية دخولاً أولياً .

ثم ذكر سبحانه ما كان ينبغي لهذا الكافر أن ينظر فيه حتى ينزجر عن كفره ويكف عن طغيانه فقال: ﴿من أي شيء خلقه﴾ أي من أي شيء خلق الله هذا الكافر، والاستفهام للتقرير أو تحقير له والأول أظهر، لأن الاستفهام ذكروا من معانيه التقرير ، لكن التحقير أخص بالمقام ، وجمع بعضهم بينهما فقال الاستفهام هنا لتقرير التحقير ، قال الشهاب ولو قيل أنه للتقرير والتحقير مستفاد من شيء المنكر لكان له وجه .

ثم فسر سبحانه ذلك فقال : ﴿ من نطفة ﴾ أي من ماء مهين ، وهذا كمال تحقير له قال الحسن كيف يتكبر من خرج من مخرج البول مرتين .

﴿ خلقه فقدره ﴾ أي فسواه وهيأه لمصالح نفسه ، وخلق له اليدين والرجلين والعينين وسائر الآلات والحواس ، وقيل قدره أطواراً من حال أي حال ، نطفة ثم علقة الى أن تم خلقه ، والفاء للترتيب في الذكر .

﴿ ثم السبيل يسره ﴾ أي يسر له الطريق الى الخير والشر ، وقال السدي ومقاتل وعطاء وقتادة يسره للخروج من بطن أمه ، قال بعضهم إن رأس المولود في بطن أمه من فوق ورجليه من تحت فهو في بطن أمه على الانتصاب ، فاذا جاء وقت خروجه انقلب بإلهام من الله تعالى ، ذكره الرازي والأول أولى ، ومثله قوله ﴿ وهديناه النجدين ﴾ وانتصاب السبيل بمضمر يدل عليه الفعل المذكور أي يسر السبيل يسره .

﴿ ثم أماته فأقبره ﴾ أي جعله بعد أن أماته ذا قبر يوارى فيه إكراماً له ، ولم يجعله مما يلقى على وجه الأرض تأكله السباع والطير ، كذا قال الفراء ، وقال أبو عبيدة جعل له قبراً وأمر أن يقبر فيه ، وقال أقبره ولم يقل قبره لأن القابر هو الدافن بيده والمقبر هو الله تعالى ، ويقال قبر الميت اذا دفنه بيده ، وأقبره اذا أمر غيره أن يجعله في قبر ، وعد الاماتة من النعم لأنها وصلة في الجملة الى الحياة الأبدية والنعيم المقيم .

﴿ ثم إذا شاء ﴾ إنشاره ﴿ أنشره ﴾ أي أحياه بعد موته ، وعلق الانشار

بالمشيئة للدلالة على أن وقته غير متعين بل هو تابع للمشيئة ، وأما سائر الأحوال المذكورة قبل ذلك فانها تعلم أوقاتها من بعض الوجوه فلم تفوض الى مشيئته تعالى ، قرأ الجمهور أنشره وقرئ نشره ، وهما لغتان فصيحتان .

﴿ كلا ﴾ ردع وزجر للانسان الكافر عما هو عليه من التكبر والتجبر والترفع والاصرار على انكار التوحيد والبعث والحساب أي ليس الأمر كما يقول ﴿ لما يقض ما أمره ﴾ الله به من العمل بطاعته واجتناب معاصيه ، وقيل المراد الانسان على العموم ، وأنه لم يفعل ما أمره الله به مع طول المدة لأنه لا يخلو من تقصير[١] ، قال الحسن أي حقاً لم يعمل ما أمر به ، وقال ابن فورك : أي كلا لم يقض لهذا الكافر ما أمره به من الاتيان بل أمره بما لم يقض له .

قال ابن الأنباري : الوقف على كلا قبيح ، والوقف على أمره وانشره جيد ، وكلا على هذا بمعنى حقاً . وقيل المعنى لما يقض جميع أفراد الانسان ما أمره بل أخل به بعضها بالكفر ، وبعضها بالعصيان ، وما قضى ما أمره الله به الا القليل .

وقال بعضهم : ما لإبن آدم والفخر ، أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وهو بينهما حامل عذرة .

ثم شرع سبحانه في تعداد نعمه على عباده ليشكروها وينزجروا عن كفرانها ، بعد ذكر النعم المتعلقة بحدوثهم فقال ﴿ فلينظر الانسان الى طعامه ﴾ أي ينظر كيف خلق الله طعامه الذي جعله سبباً لحياته ، وكيف هيأ له أسباب المعاش يستعد بها للسعادة الأخروية ، قال مجاهد الى مدخله

---

(٣) قال ابن كثير: وحكاه البغوي عن الحسن البصري بنحو من هذا، قال: ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا، والذي يقع لي في معنى ذلك ـ والله أعلم ـ أن المعنى: ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أي: بعثه ﴿كلا لما يقض ما أمره﴾ أي: لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب الله أن سيوجد منهم ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كوناً وقدراً، فإذا تناهى ذلك عن الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم.

ومخرجه ، وبه قال ابن الزبير ، والأول أولى ، وعن ابن عباس قال الى خرئه ، أخرجه ابن أبي الدنيا .

ثم بين سبحانه ذلك فقال : ﴿ أنا صببنا الماء صباً ﴾ قرأ الجمهور إنا بالكسر على الاستئناف ، وقرأ الكوفيون وورش عن يعقوب بالفتح على أنه بدل من طعامه بدل اشتمال لكون نزول المطر سبباً لحصول الطعام فهو كالمشتمل عليه أو بتقدير لام العلة ، قال الزجاج الكسر على الابتداء والاستئناف ، والفتح على معنى البدل من الطعام .

والمعنى فلينظر الانسان الى أنا صببنا الماء صباً ، وأراد بصب الماء المطر ، وبه قال ابن عباس ، وقرأ الحسن بن علي رضي الله عنهما بالفتح والإمالة

﴿ ثم شققنا الأرض ﴾ بالنبات الخارج منها بسبب نزول المطر ﴿ شقاً ﴾ بديعاً لائقاً بما يخرج منه في الصغر والكبر والشكل والهيئة ، قال ابن عباس شقاً عن النبات .

قال البيضاوي أسند الشق الى نفسه تعالى اسناد الفعل الى السبب ، وتبع في ذلك الزمخشري ، وقد رده في الانتصاف بأنه تعالى موجد الأشياء فالاسناد اليه تعالى حقيقة ، وانما ذكره الزمخشري اعتزالاً فإن أفعال العباد مخلوقة لهم عنده ، ورده المدقق في الكشف بأنه ليس مبنياً على ما ذكر ، بل لأن الفعل إنما يسند حقيقة لمن قام به لا لمن أوجده ، فالاعتراض عليه ناشىء من قلة التدبر ، أفاده الشهاب .

ثم بين سبب هذا الشق وما وقع لأجله فقال : ﴿ فأنبتنا فيها حباً ﴾ يعني الحبوب التي يتغذى بها ، والمعنى أن النبات لا يزال ينمو ويتزايد الى أن يصير حباً ﴿ و ﴾ أنبتنا فيها ﴿ عنباً ﴾ قيل وليس من لوازم العطف أن يقيد المعطوف

بجميع ما قيد به المعطوف عليه ، فلا ضير في خلو نبات العنب عن شق الأرض .

قلت بل يمكن التقييد ويكون باعتبار أصل نبات العنب ففيه شق الأرض .

﴿ وقضباً ﴾ هو القت الرطب الذي يقضب مرة بعد أخرى تعلف به الدواب ، ولهذا سمي قضباً على مصدر قضبه أي قطعه ، كأنه لتكرر قطعه نفس القطع ، قال الخليل : القضب الفصفصة الرطبة فاذا يبست فهي القت ، قال في الصحاح والقضبة والقضب الرطبة ، قال والموضع الذي تنبت فيه المقضبة قال القتيبي وثعلب وأهل مكة يسمون العنب القضب ، قال ابن عباس القضب الفصفصة يعني القت .

﴿ وزيتوناً ﴾ هو ما يعصر منه الزيت وهي شجرة الزيتون المعروفة ﴿ ونخلاً ﴾ هو جمع نخلة ﴿ وحدائق غلباً ﴾ جمع حديقة وهي البستان ، والغلب العظام الغلاظ الرقاب ، قال مقاتل ومجاهد الغلب الملتف بعضها ببعض ، يقال رجل أغلب اذا كان عظيم الرقبة ، ويقال للأسد أغلب لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جميعاً ، وجمع أغلب وغلباء غلب كما جمع أحمر وحمراء حمر ، يقال حديقة غلباء أي غليظة الشجر ملتفة فالحدائق ذات أشجار غلاظ فهو مجاز مرسل ، وفيه تجوز في الاسناد أيضاً لأن الحدائق نفسها ليست غليظة بل الغليظ أشجارها .

وقال قتادة وابن زيد الغلب النخل الكرام ، وعن ابن زيد أيضاً وعكرمة هي غلاظ الأوساط والجذوع ، وقال ابن عباس : غلباً طوالاً ، وعنه قال : الحدائق كل ملتف ، والغلب ما غلظ ، وعنه قال شجر في الجنة يستظل به لا يحمل شيئاً .

﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿ وفاكهة ﴾ عطف عام فيدخل رطب وعنب ورمان وأترج وتمر وزبيب وغير ذلك وهذا بالنظر لعطفه على عنباً ، وأما اذا عطف على حدائق كما هو المتبادر فهو عطف خاص على عام كما لا يخفى ، ثم الفاكهة ما يأكله الناس من ثمار الأشجار كالعنب والتين والخوخ ونحوه .

﴿ وأباً ﴾ هو كل ما أنبتت الأرض مما لا يأكله الناس ، ولا يزرعونه من الكلأ وسائر انواع المراعي ، قال الضحاك الأب كل شيء ينبت على وجه الأرض ، وقال ابن أبي طلحة : هو الثمار الرطبة وبه قال ابن عباس ، وروي عن الضحاك أيضاً أنه قال : هو التين خاصة والأول أولى .

وعن ابن عباس أيضاً الأب ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس وعنه قال الأب الكلأ والمرعى ، وعن ابراهيم التيمي قال : « سئل أبو بكر الصديق عن الأب ما هو فقال أيّ سماء تظلني وأي أرض تقلني اذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم » أخرجه أبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد .

وعن عبد الله بن يزيد « أن رجلاً سأل عمر عن قوله ﴿ أباً ﴾ فلما رآهم يقولون أقبل عليهم بالدرة » أخرجه عبد بن حميد .

وعن أنس « أن عمر قرأ على المنبر فأنبتنا فيها حباً وعنباً الى قوله ﴿ وأبا ﴾ قال كل هذا قد عرفناه فما الأب ، ثم رفض عصاً كانت في يده فقال هذا لعمر الله هو التكلف فما عليك أن لا تدري ما الأب ، اتبعوا ما بين لكم

من هذا الكتاب فاعملوا عليه ، وما لم تعرفوه فكلوه الى ربه » أخرجه ابن سعد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب والخطيب[1] .

قال المحلي ﴿ أبا ﴾ أي ما ترعاه البهائم أي سواء كان رطباً أو يابساً فهو أعم من القضب وقيل التين وعليه فالمغايرة بينه وبين القضب ظاهرة .

﴿ متاعاً لكم ﴾ منصوب بأنبتنا لأنه مصدر مؤكد لعامله لأن انباته الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات ، ويحتمل ان العامل محذوف تقديره فعل ذلك متاعاً لكم أو متعكم بذلك تمتيعاً لكم ﴿ ولأنعامكم ﴾ جمع نعم وهي الابل والبقر والغنم .

ثم شرع سبحانه في بيان أحوال المعاد فقال : ﴿ فاذا جاءت الصاخة ﴾ يعني صيحة يوم القيامة ، وسميت صاخة لشدة صوتها لأنها تصخ الآذان أي تصمها فلا تسمع ، وقيل لأنها تصخ لها الأسماع من قولك أصاخ الى كذا أي استمع اليه ، والأول أصح قال الخليل : الصاخة صيحة تصخ الآذان حتى تصمها لشدة وقعها ، وأصل الكلمة في اللغة مأخوذ من الصك الشديد يقال ، صخه الحجر اذا صكه به ، وقال ابن عباس : الصاخة من أسماء يوم القيامة .

قال ابن الأعرابي : الصاخة التي تورث الصمم وأنها لمسمعة ، وهذا

---

(١) وما ورد من أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سئل عن قوله تعالى: (وفاكهة وأباً) فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلّني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم، فقد رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في «فضائل القرآن»، من رواية محمد بن زيد عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي عن أبي بكر رضي الله عنه، وهو منقطع بين إبراهيم التيمي وبين أبي بكر رضي الله عنه. وقد روى ابن جرير قال: حدثنا بشار، حدثنا ابن أبي عدي، حدثنا حميد، عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه (عبس وتولى) حتى أتى على هذه الآية (وفاكهة وأباً) قال: قد عرفنا ما الفاكهة فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف. قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح، إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد رواه غير واحد عن أنس به، ولكن هذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض، لقوله تعالى: (فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأباً).

من بديع الفصاحة والفاء للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها من فنون النعم ، وجواب ﴿ إذا ﴾ محذوف يدل عليه قوله الآتي ﴿ لكل امرىء منهم ﴾ الخ أي فاذا جاءت الصاخة اشتغل كل أحد بنفسه .

﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴾ الظرف إما بدل من إذا جاءت او منصوب بمقدر أي أعني ، ويكون تفسيراً للصاخة أو بدلاً منها مبني على الفتح ، وخص هؤلاء بالذكر لأنهم أخص القرابة وأولاهم بالحنو والرأفة ، فالفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم وخطب فظيع ، وتبعات بينه وبينهم ، والمراد بالفرار التباعد .

والمعنى أنه لا يلتفت الى واحد من هؤلاء لشغله بنفسه ، قيل أول من يفر من أخيه هابيل ، ومن أبويه ابراهيم ، ومن صاحبته نوح ولوط ، ومن ابنه نوح ، والعموم أولى ، وقيل انما يفر عنهم حذراً من مطالبتهم إياه بما بينهم . وقيل يفر عنهم لئلا يروا ما هو فيه من الشدة وقيل لعلمه بأنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئاً كما قال تعالى ﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ﴾ .

قال عبد الله بن طاهر الأبهري : يفر منهم لما يتبين له من عجزهم وقلة حيلتهم ، الى من يملك كشف تلك الكروب عنه ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما اعتمد شيئاً سوى ربه تعالى .

﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ أي لكل انسان يوم القيامة شأن يشغله عن الأقرباء ويصرفه عنهم ، والجملة مستأنفة لبيان سبب الفرار ، قال ابن قتيبة يغنيه اي يصرفه عن قرابته ، ومنه يقال أغن عني وجهك أي أصرفه .

عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تحشرون حفاة عراة فقالت امرأة أيبصر أحدنا أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال يا فلانة لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » أخرجه الترمذي ، وقال حديث حسن

صحيح[١] .

قرأ الجمهور يغنيه بالغين المعجمة وقرأ ابن محيصن بالعين المهملة مع فتح الياء أي يهمه من عناه الأمر إذا أهمه .

ثم بين مآل أمر المذكورين وانقسامهم الى الأشقياء والسعداء بعد وقوعهم في داهية عظيمة فقال ﴿ وجوه ﴾ مبتدأ وإن كان نكرة لأنه في مقام التفصيل وحيز التنويع ، وهو من مسوغات الابتداء بالنكرة ﴿ يومئذ ﴾ متعلق به ومعنى ﴿ مسفرة ﴾ مشرقة متهللة مضيئة ، وبه قال ابن عباس ، وهي وجوه المؤمنين لأنهم قد علموا اذا ذاك ما لهم من النعيم والكرامة ، يقال أسفر الصبح اذا اضاء قال الضحاك : مسفرة من آثار الوضوء وقيل من قيام الليل ، وقيل من الغبار في سبيل الله ﴿ ضاحكة ﴾ عند الفراغ من الحساب ﴿ مستبشرة ﴾ أي فرحة بما نالته من الثواب الجزيل وكرامة الله ورضوانه .

ثم لما فرغ سبحانه من ذكر حال المؤمنين ذكر حال الكفار فقال ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة ﴾ أي غبار وكدورة لما تراه مما أعده الله لها من العذاب ﴿ ترهقها قترة ﴾ أي يغشاها ويعلوها سواد وكسوف ، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه ، والقتر في كلام العرب الغبار كذا قال أبو عبيدة ، ويدفع ما قاله أبو عبيدة تقدم ذكر الغبرة فانها واحدة الغبار ، وقال زيد

---

(١) رواه بنحوه الطبري ٦١/٣٠ من رواية الحسين بن حريث عن الفضل بن موسى عن عائذ بن شريح عن أنس، ورواه ابن أبي حاتم من رواية أزهر بن حاتم عن الفضل بن موسى عن عائذ بن شريح به، وعائذ بن شريح، قال أبو حاتم الرازي في «الجرح والتعديل»: في حديثه ضعف. وروى الترمذي في «سننه» ١٦٨/٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «تحشرون حفاة عراة غُرلاً» فقالت امرأة: أيُبصر أو يرى بعضنا عورة بعض؟! قال: يا فلانة ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، قد روي من غير وجه عن ابن عباس. وروى مسلم في «صحيح» ٢١٩٤/٤ عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غرلاً (غير مختونين) قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال ﷺ: «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض».

بن أسلم القترة ما ارتفعت الى السماء والغبرة ما انحطت الى الأرض ، قال ابن عباس : ذلة وشدة وعنه أنه قال قترة سواد الوجه .

﴿ أولئك ﴾ يعني أصحاب الوجوه وأهل هذه الحالة ﴿ هم الكفرة الفجرة ﴾ جمع كافر وفاجر أي الجامعون بين الكفر بالله والفجور ، ولذلك جمع الى سواد وجوههم الغبرة كما جمعوا الفجور الى الكفر ، يقال فجر أي فسق ، وفجر أي كذب ، وبابهما دخل ، وأصله الميل ، والفاجر المائل عن الحق .



تسع وعشرون آية وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة وعن عائشة وابن الزبير مثله .

وعن ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سره أن ينظر الى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ ﴿ اذا الشمس كورت . واذا السماء انفطرت . واذا السماء انشقت ﴾ » أخرجه الترمذي وحسنه وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه[1] .

قال الكازروني : مناسبتها لما قبلها أنه لما ذكر بعض أحوال القيامة فيما قبلها أردفه ببعض أحوالها الاخر .

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» رقم ٤٨١٦ و ٤٩٣٤ و ٤٩٤١ و ٥٧٥٥ وإسناده صحيح، والترمذي ١٦٨/٢، والحاكم ٥١٥/٢، وصححه ووافقه الذهبي، وأورده السيوطي في «الدر» ٣١٩/٦ وزاد نسبته لابن المنذر وابن مردويه .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾

﴿ إذا الشمس كورت ﴾ أي أظلمت ، قاله ابن عباس ، ارتفاع الشمس بفعل محذوف يفسره ما بعده على الاشتغال ، وهذا عند البصريين ، وأعرب الزمخشري الشمس فاعلاً لفعل مقدر يدل عليه كورت ، ومنع أن يرتفع بالإبتداء لأن « إذا » تطلب الفعل لما فيها من معنى الشرط ، وما منعه من وقوع المبتدأ بعدها أجازه الأخفش والكوفيون ، وأجازوا إذا زيد أكرمك فأكرمه ، ولكن الأولى ما ذكره .

والتكوير الجمع وهو مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها قال الزجاج لفت كما تلف العمامة يقال كورت العمامة على رأسي أكورها كوراً وكورتها تكويراً إذا لففتها .

قال أبو عبيدة كورت مثل تكوير العمامة تلف فتجمع ، قال الربيع بن خثيم كورت أي رمى بها ومنه كورته فتكور أي سقط قال مقاتل وقتادة والكلبي ذهب ضوؤها ، وقال مجاهد اضمحلت وقيل غورت .

قال الواحدي قال المفسرون تجمع الشمس بعضها إلى بعض ثم تلف فيرمى بها . فالحاصل أن التكوير إما بمعنى لف جرمها أو لف ضوئها أو الرمي بها ، والمعنى طويت كطي السجل .

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « الشمس والقمر

يكوران يوم القيامة » اخرجه[1] البخاري ، قيل أنهما جمادان فإلقاؤهما في النار يكون سبباً لازدياد الحر في جهنم ، وإذا ظرف في هذه المواضع الاثنى عشر وجوابها ﴿ علمت نفس ﴾ كما سيأتي .

﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ أي تهافتت وتساقطت وانقضت وتناثرت ، يقال انكدر الطائر من الهوى إذا انقض ، والأصل في الانكدار الانصباب . قال الخليل يقال انكدر عليهم القوم إذا جاؤوا أرسالاً فانصبوا عليهم ، قال أبو عبيدة انصبت كما ينصب العقاب ، قال الكلبي وعطاء تمطر السماء يومئذ نجوماً فلا يبقى نجم في السماء إلا وقع على الأرض وقيل انكدارها طمس نورها ، وقال ابن عباس تغيرت .

وعن أبي مريم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « كورت في جهنم وانكدرت في جهنم فكل من عبد دون الله فهو في جهنم إلا ما كان من عيسى وأمه ولو رضيا أن يعبدا ، لدخلاها » أخرجه ابن أبي حاتم والديلمي .

﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ أي قلعت عن وجه الأرض وأبعدت ورفعت عن مكانها بعد تفتيتها وسيرت في الهواء سير السحاب ، ومنه قوله ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ﴾ .

﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ العشار النوق الحوامل التي في بطونها أولادها ، الواحدة عشراء وهي التي قد أتى عليها في الحمل عشرة أشهر ، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع ، وخص العشار لأنها أنفس مال عند العرب وأعزه عندهم . ومعنى عطلت تركت هملاً بلا راع وبلا حلب ، قال أبيّ بن كعب أي أهملها أهلها ، وذلك لما شاهدوا من الهول العظيم ، أو لاشتغالهم بأنفسهم .

قيل وهذا على وجه المثل لأن يوم القيامة لا يكون فيه ناقة عشراء . بل

---

(١) وقد ورد في حديث مرفوع أخرجه الطماوي واسناده صحيح .

المراد أنه لو كان للرجل ناقة عشراء في ذلك اليوم أو نوق عشار لتركها ولم يلتفت إليها اشتغالاً بما هو فيه من هول يوم القيامة ، وسيأتي ما يفيد أن هذا في الدنيا .

وقيل العشار السحاب فإن العرب تشبهها بالحامل ، ومنه قوله تعالى ﴿ فالحاملات وقراً ﴾ وتعطيلها عدم إمطارها ، وقيل المراد أن الديار تعطل فلا تسكن ، وقيل الأرض التي تعشر زرعها تعطل فلا تزرع ، قرأ الجمهور عطلت بالتشديد وقرأ ابن كثير في رواية عنه بالتخفيف .

﴿ وإذا الوحوش ﴾ أي ما توحش من دواب البر ﴿ حشرت ﴾ قرأ الجمهور بالتخفيف ، وقرىء بالتشديد أي بعثت وجمعت بعد البعث من كل ناحية حتى يقتص بعضها من بعض ، فيقتص للجماء من القرناء .

قال قتادة يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص ، فإذا اقتص منها ردت تراباً فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم وإعجاب بصورته كالطاووس ونحوه .

وقيل حشرها موتها وقيل أنها مع نفرتها اليوم من الناس وتبددها في الصحاري تضم ذلك اليوم إليهم ، قال أبيّ بن كعب حشرت اختلطت .

قال الشهاب في ريحانة الألباء : وههنا أمر نفيس نمحو به السيئآت وبحث عظيم نحيي به عظام الرفات وهو أن الحيوانات هل يحييها الله تعالى وتحشر ويقتص لبعضها من بعض ؟ فأكثر أهل الحديث والسنة والأصول على أنه كذلك لوروده في القرآن في قوله تعالى ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ ولقول سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم في خبر القصاص يوم القيامة يؤخذ للجماء من القرناء .

وخالفهم أبو الحسن الأشعري فقال في كتاب الإيجاز ما نصه لا يجب على الله أن يعوض البهائم والأطفال والمجانين وجميع الخلق الذين خلق فيهم الألم خلافاً للقدرية حيث قالوا إن الله تعالى إذا آلم الحيوان لا على سبيل

الإستحقاق ويجب عليه أن يعوضهم وإلا يكون ظالماً .

ودليلنا أن العقل لا يوجب على الله شيئاً ، وإذا ثبت أن البهائم وغيرها من الحيوان الذي خلق فيه الألم من غير جرم ولا ذنب لا يستحقون ذلك لم تجب إعادتهم ولا نشرهم ولا حشرهم يوم القيامة .

وقال القدرية إن لم يعوضهم في الدنيا فإنه يجب عليه حشرهم في الآخرة وبعثهم كبعث المكلفين .

فإن قالوا قد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في خبر القصاص « حتى يؤخذ للجماء من القرناء » .

قلنا المراد به حتى يؤخذ للضعيف من القوي ، فكنى بذلك عنهم لأن الدليل قد قام على أنهم غير مكلفين ، ومن لا تكليف عليه لا يعاقب ولا يقتص منه انتهى .

وفي سراج الملوك اختلف السلف في هذا فقال ابن عباس حشرها موتها ، وهو تأويل بعيد لأن الحشر الجمع ، وليس في موتها جمعها ، بل تفريقها بتمزيقها ، ومعظم المفسرين على أنها تحشر كلها حتى الذباب يقتص منها ثم يقال لها كوني تراباً .

وقال بعضهم لا نقطع باعادتها كالمجانين ومن لم تبلغه الدعوة ، وتوقف بعضهم في ذلك والدليل عليه الآية المذكورة والحديث الصحيح عن أبي هريرة « ليؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » وانكرها الأشعري لأنها غير مكلفة والخبر تمثيل لشدة التقصي في الحساب .

وقال الأسفراييني يقتص منها بما تفعله في الدنيا ، ورد بأنها ليست بمكلفة فهي في المشيئة يفعل بها ما أراد انتهى .

أقول قد تصل بهذا التفصيل الوقوف على الأقوال الأربعة وأدلتها ، والحق الذي تشتفي به الصدور أن لا تؤول الآية والحديث بما هو خلاف الظاهر ، والشبهة الداعية له بأنها غير عاقلة ولا مكلفة ، والحشر والحساب مبني على ذلك ، فإذا سقط الأساس سقط ما بني عليه .

فالجواب عنها أن نسلم أنها غير مكلفة لأنها لا تعقل ، والنزاع فيه مكابرة إلا أنها لما كانت في المشيئة يفعل الله بها ما يريد ، وهو لا يسأل عما يفعل باتفاق أهل السنة بل العقلاء فنقول إن الله تعالى يعيدها وينصف بعضها من بعض بما فعلته بإرداتها لإدراكها للجزئيات ، وليس هذا بتكليف ولا مبنى عليه ، لأن جزاء التكليف إنما يكون في داري الخلود والنار وهي تعود تراباً قبل دخول أهليهما فيهما .

وأما فعل الحكيم القدير لذلك فليعرف أهل المحشر أنه عز وجل لا يترك مثقال ذرة من العدل ، ليتحقق أهل النعيم ما لهم من النعيم المقيم وأهل الجحيم ما أعد لهم من العذاب الأليم تنويراً لهم وإرشاداً لأن يعلموا عظمة كبريائه ، وتساوي جمع مخلوقاته عنده بالنسبة لذلك .

ولك أن تقول قول ابن عباس حشرها موتها معناه أن حشرها لأجل أن يفنيها ويقول لها كوني تراباً ، ولولا بعد كلام الأشعري بتصريحه بما ينافيه حملنا أنه تمثيل على ما ذكر ، أو قلنا أنه إنما أنكر الوجوب ، ولكن الحق أحق أن يتبع ، وهذا مما ينبغي أن يكتب بالنور ، على صفحات خدود الحور ، وإنما ذكرنا هذا مع طوله وعدم مناسبته لموضوع التفسير تصدقاً على من طالعه بجواهر الفرائد .

﴿ وإذا البحار سجرت ﴾[1] أي أوقدت فصارت ناراً تضطرم وقال الفراء

---

(١) في هذه الآية عجيبة قرآنية تقطع ألسنة الملحدين الذين يقولون إن القرآن من عند محمد ، من أين لمحمد أو لعصر محمد ما في هذه الآية من علوم لم يعرفها العالم إلا في العصر الحديث .

لم يكن عصر محمد يعرف في البحار الا الري والإنبات ، أما أن البحار تنقلب ناراً فهذا ما لم يخطر لهم =

ملئت بأن صارت بحراً واحداً وكثر ماؤها وبه قال الربيع بن خيثم والكلبي ومقاتل والحسن والضحاك ، وقيل أرسل عذبها على مالحها ، ومالحها على عذبها حتى امتلأت . وقيل فجرت فصارت بحراً واحداً وروي عن قتادة وابن حبان أن معنى الآية يبست ولا يبقى فيها قطرة يقال سجرت الحوض أسجره سجراً إذا ملأته ، وقال القشيري هو من سجرت التنور أسجره سجراً إذا أحميته .

قال ابن زيد وعطية وسفيان ووهب وغيرهم أوقدت فصارت ناراً ، وقيل معنى سجرت أنها صارت حمراء كالدم من قولهم عين سجراء أي حمراء .

قرأ الجمهور سجِّرت بتشديد الجيم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيفها عن أبي العالية قال ست من آيات هذه السورة في الدنيا والناس ينظرون إليها ، وست في الآخرة ﴿ إذا الشمس كورت ـ إلى ـ وإذا البحار سجرت ﴾ هذه في الدنيا والناس ينظرون إليها ، ﴿ وإذا النفوس زوجت ـ إلى ـ وإذا الجنة أزلفت ﴾ هذه في الآخرة أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر .

وعن أبيّ بن كعب قال ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ، وفزعت الجن إلى الإنس ، والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطير والوحوش ، فماجوا بعضهم في بعض .

وقال أيضاً في الآية قال الجن للإنس نحن نأتيكم بالخبر فانطلقوا إلى البحر ، فإذا هو نار تأجج فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة

ببال . وإليك كلمة لأستاذ جامعي .

ونرى كذلك أن المعامل الطبيعية والكيمائية اثبتت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صادق فيما بلغه من كتاب الله ، ذلك أن قوله تعالى ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ معناه التهبت وصارت ناراً . والبحوث العلمية أثبتت أن الماء مكون من عنصرين : اكسوجين وهيدروجين ، وأن الهيدروجين يشتعل . والاكسوجين يساعد على الاشتعال . فإذا فصلت القدرة بين عنصري الماء تحولت البحار إلى نيران . وهذا دليل جديد على صدق القرآن. الناشر .

إلى الأرض السابعة وإلى السماء السابعة فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتتهم ، وقال ابن عباس : تسجر حتى تصير ناراً ، وقال أيضاً سجرت أي اختلط ماؤها بماء الأرض .

﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ أي قرنت بأجسادها أي ردت الأرواح إلى أبدانها ، وهذا بناء على ان التزويج بمعنى جعل الشيء زوجاً ، والنفوس على هذا بمعنى الأرواح وقيل معناه قرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة ، وقرن بين الرجل السوء مع رجل السوء في النار كذلك تزويج الأنفس ، قاله عمر بن الخطاب ، وأخرج نحوه ابن مردويه عن النعمان بن بشير مرفوعاً .

وقال عطاء زوجت نفوس المؤمنين بالحور العين ، وقرنت نفوس الكافرين بالشياطين ، وقيل قرن كل شكل إلى شكله في العمل ، وهو راجع إلى القول الثاني .

وقيل قرن كل رجل إلى من كان يلازمه من ملك أو سلطان كما في قوله ﴿ أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ وقال الحسن ألحق كل امرىء بشيعته ، اليهود باليهود والنصارى بالنصارى والمجوس بالمجوس ، وكل من كان يعبد شيئاً من دون الله يلحق بعضهم ببعض ، والمنافقون بالمنافقين والمؤمنون بالمؤمنين .

وقيل يقرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان ، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين .

وقيل قرنت النفوس بأعمالها وكتبها فأصحاب اليمين زوج . وأصحاب الشمال زوج ، والسابقون زوج ﴿ وإذا الموؤودة ﴾ أي المدفونة حية ﴿ سئلت بأي ذنب قتلت ﴾ وقد كانت العرب إذا ولدت لأحدهم بنت دفنها حية مخافة العار أو الحاجة والإملاق ، وخشية الاسترقاق ، يقال وأد يئد فهو وائد والمفعول به موؤود، وأصله مأخوذ من الثقل لأنها تدفن فيطرح عليها التراب

فيثقلها فتموت ، ومنه ﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾ أي لا يثقله وهنا قول متمم بن نويرة *ومؤودة مقبورة في مغارة* ومنه قول الراجز :

سميتها إذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن رميت

قرأ الجمهور « المؤودة » بهمزة بين واوين ساكنين كالموعودة ، وقرأ البزي في رواية عنه بهمزة مضمومة ثم واو ساكنة ، وقرأ الأعمش المودة بزنة الموزة ، وقرأ الجمهور سئلت مبنياً للمفعول ، وقرأ الحسن بكسر السين من سال يسيل ، وقرأ علي وابن مسعود وابن عباس سألت مبنياً للفاعل ، وقتلت بضم التاء الأخيرة ، وهذه قراءة شاذة .

والمعنى على الأولى أن توجيه السؤال إليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلها حتى كأنه لا يستحق أن يخاطب ويسأل عن ذلك ، وفيه تبكيت لقاتلها وتوبيخ له شديد بصرف الخطاب كقوله ﴿ أأنت قلت للناس ﴾ وهذه الطريقة أفظع في ظهور جناية القاتل وإلزام الحجة عليه .

قال الحسن أراد الله أن يوبخ قاتلها لأنها قتلت بغير ذنب ، وقيل لتدل على قاتلها وقيل لتقول بلا ذنب قتلت ، وعلى هذا هو سؤال تلطف .

وقرأ الجمهور قتلت بالتخفيف مبنياً للمفعول ، وقرأ أبو جعفر بالتشديد على التكثير وقرىء بكسر التاء الثانية على أنها تاء المؤنثة المخاطبة والفعل مبني للمفعول ، وهذه قراءة شاذة وفي مصحف أُبيّ وإذا الموؤودة سألت بأي ذنب قتلتني .

وفي الآية دليل على أن أطفال المشركين لا يعذبون ، وعلى أن التعذيب لا يكون بلا ذنب .

عن عمر بن الخطاب قال « جاء قيس بن عاصم التميمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني وأدت ثمان بنات لي في الجاهلية فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأعتق عن كل واحدة رقبة ، قال إني: صاحب إبل قال: فاهد عن كل واحدة بدنة » أخرجه البزار والحاكم في الكنى والبيهقي في سننه .

وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾

﴿ وإذا الصحف ﴾ أي صحائف الأعمال ﴿ نشرت ﴾ أي فتحت وبسطت للحساب لأنها تطوى عند الموت وتنشر عند الحساب ، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها فيقول ﴿ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ ويجوز أن يراد نشرت بين أصحابها أي فرقت بينهم ، قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو نشرت بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد على التكثير وهما سبعيتان .

﴿ وإذا السماء كشطت ﴾ أي أزيلت عن أماكنها وعدمت بالمرة ، والكشط قلع عن شدة التزاق ، فالسماء تكشط كما يكشط الجلد عن الكبش ، والقشط بالقاف لغة في الكشط وهي قراءة ابن مسعود ، قال الزجاج : قلعت كما يقلع السقف ، وقال الفراء : نزعت فطويت ، وقال مقاتل كشفت عما فيها ، قال الواحدي ومعنى الكشط رفعك شيئاً عن شيء قد غطاه .

﴿ وإذا الجحيم سعرت ﴾ أي أججت وأوقدت لأعداء الله إيقاداً شديداً ، وزيد في إحمائها قرأ الجمهور سعرت بالتخفيف ، وقرأ نافع وابن ذكوان وورش بالتشديد لأنها أوقدت مرة بعد مرة وهما سبعيتان ، قال قتادة سعرها غضب الله وخطايا بني آدم .

﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ أي قربت إلى المتقين وأدنيت منهم ليدخلوها ، قال الحسن إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها ، وقال ابن زيد معنى أزلفت تزينت ، والأول أولى لأن الزلفى القرب في كلام العرب .

قيل هذه الأمور الإثنا عشر ست منها في الدنيا وهي من أول السورة إلى قوله ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ وست في الآخرة هي ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ إلى هنا وقد سبق بيانها .

وجواب الجميع قوله ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ على أن المراد الزمان الممتد من الدنيا إلى الآخرة لكن لا بمعنى أنها تعلم ما تعلم في كل جزء من أجزاء هذا الوقت الممتد أو عند وقوع كل داهية من تلك الدواهي ، بل المراد علمت ما أحضرته عند نشر الصحف أو في موقف المحاسبة أو عند الميزان إلا أنه لما كان بعض تلك الدواهي من مباديه وبعضها من روادفه نسب علمها بذلك إلى زمان وقوع كلها تهويلاً للخطب ، وتفظيعاً للحال.

والمراد بما أحضرت أعمالها من الخير والشر وبحضورها حضور صحائف الأعمال لأن الأعمال أعراض لا يمكن إحضارها أو حضور الأعمال نفسها ، كما ورد أن الأعمال تصور بصور تدل عليها ، وتعرف بها ، وتنكير نفس المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس أي لبعض منها للإيذان بأن ثبوته لجميع أفرادها من الظهور والوضوح بحيث لا يخفى على أحد ، ويدل على هذا قوله :

﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ وقيل يجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كل نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هي تلك التي علمت ما أحضرت ، فكيف وكل نفس تعلمه على طريقة قولك لمن تنصحه « لعلك ستندم على ما فعلت ، وربما ندم الإنسان على فعله » .

﴿ فلا أقسم ﴾ لا زائدة كما تقدم تحقيقه وتحقيق ما فيه من الأقوال في أول سورة القيامة أي فأقسم ﴿ بالخنس ﴾ وهي الكواكب ، وسميت الخنس من خنس إذا تأخر لأنها تخنس بالنهار فتخفى ولا ترى وهي زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد كما ذكره أهل التفسير ، ووجه تخصيصها بالذكر من

بين سائر النجوم أنها تستقبل الشمس وتقطع المجرة .

وقال في الصحاح الخنس الكواكب كلها لأنها تخنس في المغيب أو لأنها تخفى نهاراً أو يقال هي الكواكب السيارة منها دون الثابتة .

قال الفراء إنها الكواكب الخمس المذكورة لأنها تخنس في مجراها وتكنس أي تستتر كما تكنس الظباء في المغار ، وقيل سميت خنساً لتأخرها لأنها الكواكب المتحيرة التي ترجع وتستقيم ، يقال خنس عنه يخنس خنوساً إذا تأخر وأخنسه غيره إذا خلفه ومضى عنه والخنس تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة .

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : هي الكواكب تكنس بالليل وتخنس بالنهار فلا ترى ، وعنه قال خمسة أنجم زحل وعطارد والمشتري وبهرام والزهرة ليس شيء يقطع المجرة غيرها .

وعن ابن عباس قال : هي النجوم السبعة وزاد الشمس والقمر وخنوسها رجوعها وكنوسها تغيبها بالنهار .

﴿ الجوار ﴾ أي السيارة لأنها تجري مع الشمس والقمر ﴿ الكنس ﴾ أي أنها ترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس فخنوسها رجوعها وكنوسها اختفاؤها تحت ضوئها وقيل خنوسها خفاؤها بالنهار وكنوسها غروبها ، قال الحسن وقتادة هي النجوم التي تخنس بالنهار وإذا غربت ، والمعنى متقارب لأنها تتأخر في النهار عن البصر لخفائها فلا ترى وتظهر بالليل وتكنس في وقت غروبها .

وقيل المراد بها بقر الوحش وبه قال ابن مسعود : لأنها تتصف بالخنس وبالجواري وبالكنس ، وقال عكرمة : اخنس البقر والكنس الظباء فهي تخنس إذا رأت الإنسان وتنقبض وتتأخر وتدخل كناسها ، وقيل هي الملائكة والأول أولى لذكر الليل والصبح بعد هذا .

والكنس مأخوذ من الكناس الذي يختفي فيه الوحش ، والخنس جمع خانس وخانسة ، والكنس جمع كانس وكانسة .

وقال ابن عباس هي البقرة تكنس إلى الظل ، وعنه قال تكنس لأنفسها في أصول الشجر تتوارى فيه ، وعنه قال هي الظباء وعنه الخنس البقر ، والجوار الكنس الظباء ، ألم ترها إذا كانت في الظل كيف تكنس بأعناقها ومدت نظرها .

وعن أبي العديس قال : « كنا عند عمر بن الخطاب فأتاه رجل فقال يا أمير المؤمنين ما الجواري الكنس فطعن عمر بمخصرة معه في عمامة الرجل فألقاها عن رأسه فقال عمر: أحروري ؟ والذي نفس عمر بن الخطاب بيده لو وجدتك محلوقاً لأنحيت القمل عن رأسك » أخرجه الحاكم في الكنى ، وهذا منكر ، فإن الحرورية لم يكونوا في زمن عمر رضي الله عنه ولا كان لهم في ذلك الوقت ذكر .

﴿ والليل إذا عسعس ﴾ أي أقبل بظلامه أو أدبر ، قال أهل اللغة : هو من الأضداد . يقال عسعس الليل إذا أقبل ، وعسعس إذا أدبر ، ويدل على أن المراد هنا أدبر قوله الآتي ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر كذا حكاه عنه الجوهري ، وقال الحسن : أقبل ظلامه ، قال الفراء العرب تقول عسعس الليل إذا أقبل وإذا أدبر .

وهذا لا ينافي ما تقدم عنه لأنه حكى عن المفسرين أنهم أجمعوا على حمل معناه في هذه الآية على أدبر ، وإن كان في الأصل مشتركاً بين الإقبال والادبار ، قال المبرد هو من الأضداد ، قال والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد وهو ابتداء الظلام في أوله وإدباره في آخره ، قال ابن عباس عسعس أدبر وعنه قال إقبال سواده .

﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ أي امتد حتى يصير نهاراً بيناً ، والتنفس في الأصل خروج النسيم من الجوف ، وتنفس الصبح إقباله لأنه يقبل بروح ونسيم ، فجعل ذلك تنفساً له مجازاً أو شبه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذي حبس بحيث لا يتحرك فإذا تنفس وجد راحة ، وههنا لما طلع الصبح

فكأنه تخلص من ذلك الحزن فعبر عنه بالتنفس .

قال الواحدي تنفس أي امتد ضوؤه حتى يصير نهاراً ومنه يقال للنهار إذا زاد تنفس ، وقيل المعنى إذا انشق وانفلق ومنه تنفست القوس أي تصدعت قال ابن عباس إذا تنفس إذا بدا النهار حين طلوع الفجر .

قال الشهاب مناسبته لقرينه ظاهرة على التفسيرين لأن ما قبله إن كان للإقبال فهو أول الليل وهذا أول النهار ، وإن كان للإدبار فهذا ملاصق له فبينهما مناسبة الجوار فلا وجه لما قيل من أنه على الأول أنسب انتهى .

ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال ﴿ إنه ﴾ أي القرآن ﴿ لقول رسول كريم ﴾ على الله تعالى يعني جبريل وبه قال ابن عباس لكونه نزل به من جهة الله سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأضاف القول إلى جبريل لكونه مرسلاً به وقيل المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والأول أولى .

ثم وصف الرسول المذكور بأوصاف محمودة فقال ﴿ ذي قوة عند ذي العرش مكين ﴾ أي ذي قوة شديدة في القيام بما كلف به كما في قوله ﴿ شديد القوى ﴾ ومن قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط الأربع من الماء الأسود وحملها على جناحه فرفعها إلى السماء ثم قلبها ، وأنه صاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين ، وأنه يهبط من السماء إلى الأرض ثم يصعد في أسرع من رد الطرف .

والمعنى أنه ذو رفعة عالية ومكانة مكينة عند الله سبحانه ، وهو في محل نصب على الحال من مكين ، وأصله الوصف فلما قدم صار حالاً ، ويجوز أن يكون نعتاً لرسول يقال مكن فلان عند فلان مكانة أي صار ذا منزلة عنده ومكانة قال أبو صالح من مكانته عند ذي العرش أنه يدخل سبعين سرادقاً بغير إذن .

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)﴾

ومعنى قوله ﴿ مطاع ﴾ أنه مطاع بين الملائكة يرجعون إليه ويطيعونه ومن طاعتهم له أنهم فتحوا أبواب السموات ليلة المعراج بقوله لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفتح خزنة الجنة أبوابها بقوله .

قال الحسن فرض الله على أهل السموات طاعة جبريل كما فرض على أهل الأرض طاعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ ثَمَّ أمين ﴾ قرأ الجمهور بفتح ثم على أنها ظرف مكان للبعيد ، والعامل فيه مطاع أو ما بعد ، والمعنى أنه مطاع في السموات أو أمين فيها أي مؤتمن على الوحي وغيره .

وقرىء بضمها على أنها عاطفة وكأن العطف بها للتراخي في الرتبة لأن ما بعدها أعظم مما قبلها ومن قال أن المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم فالمعنى أنه ذو قوة على تبليغ الرسالة إلى الأمة ، مطاع يطيعه من أطاع الله ، أمين على الوحي .

﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ الخطاب لأهل مكة والمراد بصاحبكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى وما محمد يا أهل مكة بمجنون ، وذكره بوصف الصحبة للاشعار بأنهم عالمون بأمره ، وأنه ليس مما يرمونه به من الجنون وغيره في شيء ، وأنهم افتروا عليه ذلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس وأكملهم .

وهذه الجملة داخلة في جواب القسم فأقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل وأن محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليس كما يقولون من أنه مجنون ، وأنه يأتي بالقرآن من جهة نفسه .

والمقصود[1] رد قولهم ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ ﴿ افترى على الله كذباً أم به جنة ﴾ لا تعداد فضلهما والموازنة بينهما .

ثم إنك إذا أمعنت النظر وقفت على أن إجراء تلك الصفات على جبريل في هذا المقام إدماج لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه بلغ من المكانة وعلو المنزلة عند ذي العرش بأن جعل السفير بينه وبينه مثل هذا الملك المقرب المطاع الأمين ، فالقول في هذه الصفات بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفعة منزلة له كالقول في قوله ذي العرش بالنسبة إلى رفعة منزلة جبريل عليه السلام ، كذا ذكره الكرخي .

﴿ ولقد رآه بالافق المبين ﴾ اللام جواب قسم محذوف أي وتالله لقد رأى محمد صلى الله عليه وآله وسلم جبريل بمطلع الشمس من قبل المشرق ، لان هذا الافق إذا كانت ألشمس تطلع منه فهو مبين ، لأن من جهته ترى الاشياء وهذه الرؤية هي الواقعة في غار حراء حين رآه على كرسي بين السماء والارض ، وقيل الافق المبين اقطار السماء ونواحيها .

وانما قال سبحانه ذلك مع أنه قد رآه غير مرة لانه رآه هذه المرة في صورته له ستمائة جناح .

قال سفيان : إنه رآه في أفق السماء الشرقي أي لانه كان في المشرق من حيث تطلع الشمس ، وقال ابن بحر في أفق السماء الغربي ، وقال مجاهد : رآه نحو أجياد وهو مشرق مكة ، والمبين صفة للافق ، قاله الربيع : وقيل صفة لمن رآه قاله مجاهد .

وقيل معنى الآية ولقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل ، وقد تقدم القول في هذا في سورة النجم .

---

(١) جواب سؤال تقريره أن بعضهم استدل بالآية على فضل جبريل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيث عد فضائل جبريل واقتصر على نفي الجنون عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأجاب المؤلف العلامة عن هذا بقوله والمقصود رد قولهم الخ أ هـ السيد ذو الفقار .

قال ابن عباس في الآية انما عنى جبريل أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رآه في صورته عند سدرة المنتهى ، والافق المبين السماء السابعة .

﴿ وما هو ﴾ أي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ على الغيب ﴾ يعني خبر السماء وما اطلع عليه مما كان غائباً علمه عن أهل مكة ﴿ بظنين ﴾ أي بمتهم أي هو ثقة فيم يؤدي عن الله سبحانه ، وقيل بضنين بالضاد أي ببخيل ، قاله ابن عباس أي لا يبخل بالوحي ولا يقصر في التبليغ .

وسبب هذا الاختلاف اختلاف القراء فقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالظاء أي بمتهم والظنة التهمة واختارها أبو عبيد ، قال لأنهم لم يبخلوه ولكن كذبوه واتهموه .

وقرأ الباقون بالضاد من ضننت بالشيء أضن ضناً إذا بخلت ، قال مجاهد أي لا يضن عليكم بما يعلم بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه ، وقيل المراد جبريل انه ليس على الغيب بضنين والاول أولى .

وقرأ ابن مسعود بالظاء بمعنى متهم .

وعن عائشة : « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأها بالظاء » أخرجه الدارقطني في الافراد والحاكم وصححه وابن مردويه والخطيب ، فإن البخل وما في معناه لا يتعدى بعلى وانما يتعدى بالباء ، .

﴿ وما هو ﴾ أي القرآن ﴿ بقول شيطان رجيم ﴾ طريد من الشياطين المسترقة للسمع المرجومة بالشهب ، قال الكلبي يقول أن القرآن ليس بشعر ولا كهانة كما قالت قريش كقوله ﴿ وماتنزلت به الشياطين ﴾ قال عطاء يريد بالشيطان الشيطان الابيض الذي كان يأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صورة جبريل يريد أن يفتنه .

ثم بكتهم الله سبحانه ووبخهم فقال ﴿ فأين تذهبون ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ظهور انه وحي مبين ، وليس مما يقولون في شيء أي

اين تعدلون عن هذا القرآن وعن طاعته ، قاله قتادة ، وقال الزجاج : معناه أي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم .

وهذا استضلال لهم كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهاباً في جنبات الطريق اين تذهب وإلى أين تذهب، وحكي الفراء عن العرب ذهبت الشام وخرجت العراق وانطلقت السوق أي اليها قال سمعناه في هذه الاحرف الثلاثة يريد إلى أي أرض تذهب فحذف إلى .

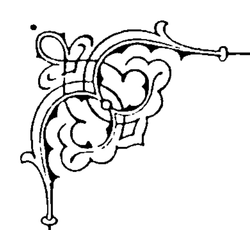
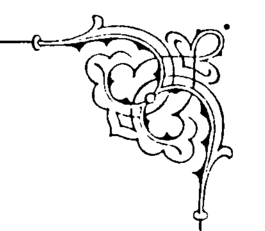
﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أي ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين ، وتذكير لهم .

وقوله ﴿ لمن شاء منكم ﴾ بدل من العالمين باعادة الجار ومفعول المشيئة ﴿ أن يستقيم ﴾ أي لمن شاء منكم الاستقامة على الحق والإيمان والطاعة .

﴿ وما تشاؤون ﴾ الاستقامة ﴿ إلا أن ﴾ أي بأن ﴿ يشاء الله ﴾ تلك المشيئة فأعلمهم سبحانه أن المشيئة في التوفيق إليه وانهم لا يقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله وتوفيقه ، ومثل هذا قوله سبحانه ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ وقوله ﴿ ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ وقوله ﴿ انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ والآيات القرآنية في هذا المعنى كثير .

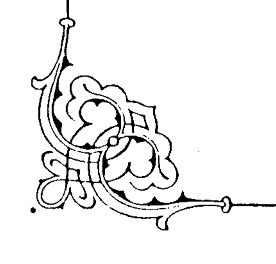
والخطاب هنا ليس للمخاطبين في قوله ﴿ فأين تذهبون ﴾ بل هو لمن عبر عنهم بقوله لمن شاء منكم أن يستقيم ﴿ رب العالمين ﴾ أي مالك الخلق أجمعين .

عن ابي هريرة قال « لما نزلت لمن شاء منكم أن يستقيم قالوا الأمر الينا إن شئنا استقمنا وأن شئنا لم نستقم فهبط جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كذبوا يا محمد ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ اخرجه ابن ابي حاتم وابن مردويه » .

سورة الانفطار

هي تسع عشرة آية وهي مكية بلا خلاف وقال ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله، وأخرج النسائي عن جابر قال : « قام معاذ فصلى العشاء فطول فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفتّان انت يا معاذ أين أنت عن سبح اسم ربك .والضحى . واذا السماء انفطرت » وأصل الحديث في الصحيحين ولكن بدون ذكر اذا السماء انفطرت وقد تفرد بها النسائي . وقد تقدم في سورة التكوير حديث « من سره أن ينظر الى يوم القيامة رأى عين فليقرأ اذا الشمس كورت واذا السماء انفطرت الحديث » .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾

﴿ اذا السماء انفطرت ﴾ السماء فاعل فعل محذوف يدل عليه المذكور ، قال الواحدي قال المفسرون انفطارها انشقاقها كقوله ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة تنزيلاً ﴾ والفطر الشق يقال فطرته فانفطر ، ومنه فطر ناب البعير اذا طلع ، قيل والمراد أنها انفطرت هنا لنزول الملائكة منها وقيل انفطرت لهيبة الله عز وجل .

﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ اي اذا انقضت وتساقطت متفرقة ، يقال نثرت الشيء انثره نثراً ، والانتثار استعارة لازالة الكواكب حيث شبهت بجواهر قطع سلكها وهي مصرحة أو مكنية .

﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ أي فجر بعضها من أعلاها أو أسفلها في بعض فصارت بحراً واحداً واختلط العذب منها بالمالح ، وازال ما بينهما من البرزخ الحاجز ، وقال الحسن معنى فجرت ذهب ماؤها ويبست ، قال ابن عباس فجرت بعضها في بعض ، وقيل فاضت .

العامة على بناء فجرت للمفعول مثقلاً ، وقرأ مجاهد مبنياً للفاعل مخففاً من الفجور نظراً الى قوله ﴿ بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ فلما زال البرزخ بغياً ، وقرأ مجاهد أيضاً والربيع بن خيثم والزعفراني والثوري مبنياً للمفعول مخففاً .

﴿ واذا القبور بعثرت ﴾ أي قلب ترابها الذي أهيل على الأموات وقت الدفن ، وأخرج الموتى الذين هم فيها ، يقال بعثر يبعثر بعثرة اذا قلب التراب ، ويقال بعثر المتاع قلبه ظهراً لبطن وبعثرت الحوض وبعثرته اذا هدمته ، وجعلت أعلاه أسفله .

قال الفراء بعثرت أخرجت ما في بطنها من الذهب والفضة وذلك من أشراط الساعة أن تخرج الأرض ذهبها وفضتها ، وقال ابن عباس أي بحثت .

وكررت « اذا » لتهويل ما في حيزها من الدواهي .

قال الرازي المراد من هذه الآيات أنه اذا وقعت هذه الأشياء التي هي أشراط الساعة فهناك يحصل الحشر والنشر ، وهي ههنا أربعة اثنان منها يتعلقان بالعلويات واثنان يتعلقان بالسفليات .

والمراد بهذه الآيات بيان تخريب العالم وفناء الدنيا وانقطاع التكاليف ، والسماء كالسقف ، والأرض كالبناء ، ومن أراد تخريب دار فانه يبدأ أولاً بتخريب السقف ثم يلزم من تخريب السماء انتثار الكواكب ، ثم بعد تخريب السماء والكواكب يخرب كل ما على وجه الأرض من البحار ، ثم بعد ذلك تخرب الأرض التي فيها الأموات ، وأشار لذلك بقوله ﴿ واذا القبور بعثرت ﴾

ثم ذكر سبحانه الجواب عما تقدم فقال ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ والمعنى أنها علمته عند نشر الصحف لا عند البعث لأنه وقت واحد من عند البعث الى عند مصير أهل الجنة الى الجنة وأهل النار الى النار ، والكلام في افراد نفس هنا كما تقدم في السورة الأولى في قوله :

﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ ومعنى ما قدمت وأخرت ما قدمت من عمل خير أو شر أو أخرت من سنة حسنة أو سيئة لأن لها أجر ما سنته من السنن الحسنة واجر من عمل بها ، وعليها وزر ما سنته من السنن السيئة ووزر من عمل بها .

وقال قتادة ما قدمت من معصية وأخرت من طاعة ، وقيل ما قدم من فرض وأخر من فرض وقيل أول عمله وآخره .

وقيل أن النفس تعلم عند البعث بما قدمت وأخرت علماً إجمالياً لأن المطيع يرى آثار السعادة ، والعاصي يرى آثار الشقاوة ، وأما العلم التفصيلي فإنما يحصل عند نشر الصحف .

عن ابن مسعود قال ما قدمت من خير وما أخرت من سنة صالحة يعمل بها بعده فإن له مثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً أو سنة سيئة يعمل بها بعده فإن عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيئاً ، وعن ابن عباس نحوه .

وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم من استن خيراً فاستن به فله أجره ومثل أجور من اتبعه من غير منتقص من أجورهم ، ومن استن شراً فاستن به فعليه وزره ومثل أوزاره من اتبعه من غير منتقص من أوزارهم[1] وتلا حذيفة ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ .

ولما أخبر سبحانه في الآية الأولى عن وقوع الحشر والنشر ذكر في هذه الآية ما يدل عقلاً على وقوعه فقال :

﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ﴾ هذا خطاب للكفار وقال بعضهم المراد بالانسان ما يشمل الكافر والمؤمن العاصي ، قال الشهاب وهذا أرجح كما في الكشف وغيره .

والمعنى ما الذي غرك وخدعك أو جعلك غاراً حتى كفرت بربك الكريم الذي تفضل عليك في الدنيا بإكمال خلقك وحواسك وجعلك عاقلاً فاهماً ورزقك وأنعم عليك بنعمه التي لا تقدر على جحد شيء منها ، قال قتادة غره شيطانه المسلط عليه ، وقال الحسن غره شيطانه الخبيث وقيل غره حمقه وجهله .

---

(١) الحاكم ٢/٥١٦ .

وقيل غره عفو الله اذ لم يعاجله بالعقوبة أول مرة كذا قال مقاتل ، وذكر الكريم للمبالغة في المنع من الاغترار ، فإن محض الكرم لا يقتضي اهمال الظالم وتسوية الموالي والمعادي والمطيع والعاصي ، فكيف اذا انضم اليه صفة القهر والانتقام والاشعار بما به يغره الشيطان فانه يقول له افعل ما شئت فربك كريم لا يعذب أحداً ولا يعاجل بالعقوبة ، والدلالة على أن كثرة كرمه تستدعي الجد في طاعته لا الانهماك في عصيانه إغتراراً بكرمه ، وعن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية وقال : غره والله جهله .

﴿ الذي خلقك ﴾ من نطفة ولم تك شيئاً ﴿ فسواك ﴾ رجلاً تسمع وتبصر وتعقل ﴿ فعدلك ﴾ أي فجعلك معتدلاً قال عطاء جعلك قائماً معتدلاً حسن الصورة وقال مقاتل عدل خلقك في العينين والأذنين واليدين والرجلين ، والمعنى عدل بين ما خلق لك من الأعضاء .

قرأ الجمهور فعدلك مشدداً وقرىء بالتخفيف واختار الأولى أبو عبيد وأبو حاتم قال الفراء وأبو عبيد : يدل عليها قوله ﴿ لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ﴾ ومعنى القراءة الأولى أنه سبحانه جعل أعضاءه متعادلة لا تفاوت فيها ، ومعنى الثانية أنه صرفه وأماله الى أي صورة شاء إما حسناً وإما قبيحاً وإما طويلاً وإما قصيراً .

﴿ في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ في أي صورة متعلق بركبك وما مزيدة وشاء صفة لصورة أي ركبك في أي صورة شاءها ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال أي ركبك حاصلاً في أي صورة .

ونقل أبو حيان عن بعض المفسرين أنه متعلق بعدلك ، واعترض عليه بأن أي لها صدر الكلام فلا يعمل فيها ما قبلها ، قال مقاتل والكلبي ومجاهد : في أي شبه من أب أو أم أو خال أو عم ، وقال مكحول ان شاء ذكراً وإن شاء أنثى .

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

﴿ كلا ﴾ ردع وزجر عن الاغترار بكرم الله وجعله ذريعة الى الكفر به والمعاصي له أو بمعنى حقاً ﴿ بل تكذبون بالدين ﴾ اضراب عن جملة مقدرة ينساق اليها الكلام كأنه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض وأنتم لا ترتدعون عن ذلك بل تجاوزونه الى ما هو أعظم منه من التكذيب بالدين وهو الجزاء أو بدين الاسلام .

قال ابن الانباري الوقف الجيد على الدين وعلى ركبك ، وعلى كلا قبيح ، والمعنى بل تكذبون يا أهل مكة بالدين أي بالحساب وبل لنفي شيء تقدم ، وتحقيق غيره ، وإنكار البعث قد كان معلوماً عندهم وإن لم يجر له ذكر .

قال الفراء كلا ليس الأمر كما غررت به ، قرأ الجمهور تكذبون بالفوقية على الخطاب ، وقرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة بالتحتية على الغيبة .

وجملة ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تكذبون أي تكذبون والحال أن عليكم من يدفع تكذيبكم ، أو مستأنفة مسوقة لبيان ما يبطل تكذيبهم ، والحافظون الرقباء من الملائكة الذين يحفظون على العباد أعمالهم ويكتبونها في الصحف .

قال ابن عباس : جعل الله على ابن آدم حافظين في الليل والنهار يحفظان عمله ويكتبان أثره .

وهـذا الخطاب وإن كـان مشافهـة إلا أن الأمة أجمعت على عمـوم هـذا الخطاب في حق المكلفين .

وقوله تعالى حافظين جمع يحتمل أن يكونوا حافظين لجميع بني آدم من غيـر أن يختص واحد من المـلائكة بـواحـد من بني آدم ، ويحتمـل أن يكـون الموكل بكل احد منهم غير الموكل بالآخـر ، ويحتمل أن يكـون الموكـل بكل واحد منهم جمعاً من الملائكة كما قيل إثنان بالليل وإثنان بالنهار أو كما قيل أنهم خمسـة ، واختلفوا في الكفـار هل عليهم حفـظة فقيل لا ، لأن أمـرهم ظـاهـر وعملهم واحد ، قال تعالى ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ وقيل عليهم حفـظة وهو ظاهر قوله تعالى في هـذه الآية وفي قـوله تعـالى : ﴿ وأما من أوتي كتـابه وراء ظهره ﴾ فأخبر أن لهم كتاباً ، وأن عليهم حفظه .

ثم وصفهم سبحانه فقال ﴿ كراماً كاتبين ﴾ أي أنهم كرام لديه يكتبون ما يـأمـرهم بـه من أعمـال العبـاد ﴿ يعلمـون ﴾ على التجـدد والاستقـرار ﴿ مـا تفعلون ﴾ في الآيـة دلالـة على أن الشـاهـد لا يشهـد إلا بعـد العلم لـوصف الملائكة بكونهم ﴿ حافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ فـدل على أنهم يكونون عالمين بها حتى أنهم يكتبـونها فـاذا كتبوهـا يكونـون عالمين عنـد أداء الشهادة .

قـال الرازي المعنى التعجيب من حـالهم كأنـه قال إنكم تكـذبـون بيـوم الدين وملائكة الله موكلون يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة ونظيره قوله تعالى ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قـول إلا لديـه رقيب عتيد ﴾ .

وفي تعـظيم الكتبة بـالثناء عليهم تعـظيم لأمر الجـزاء وأنـه عنـد الله من جلائل الأمور فيه انذار وتهويل للمجرمين ، ولطف للمتقين ، وعن الفضيل انه كان اذا قرأها قال ما أشدها من آية على الغافلين .

ثم بين سبحـانه حـال الفريقين فقـال ﴿ إن الأبـرار لفي نعيم ﴾ أي جنـة

﴿ وإن الفجار لفي جحيم ﴾ أي نار ، والجملة مستأنفة لتقرير هذا المعنى الذي سيقت له وهي كقوله سبحانه ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾

لفظ الفجار عائد على الكافرين الذين تقدم ذكرهم ، وليس شاملاً لعصاة المؤمنين ، لأنا لا نسلم أن مرتكب الكبيرة من المؤمنين فاجر على الاطلاق (فأل) في الفجار للعهد لا الذكرى بدليل قوله ﴿ بل تكذبون بالدين ﴾ .

﴿ يَصْلَوْنها يوم الدين ﴾ صفة لجحيم أو مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل ما حالهم فقيل يصلونها يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به ، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال من الضمير في متعلق الجار والمجرور ، ومعنى يصلونها أنهم يلزمونها مقاسين لوهجها وحرها يومئذ .

قرأ الجمهور يصلونها مخففاً مبنياً للفاعل ، وقرىء بالتشديد مبنياً للمفعول .

﴿ وما هم عنها بغائبين ﴾ أي لا يفارقونها أبداً ولا يغيبون عنها بل هم فيها وقيل المعنى وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجدون حرها في قبورهم .

ثم عظم سبحانه ذلك اليوم فقال ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ﴾ أي يوم الجزاء والحساب ﴿ ثم ما أدراك ما يوم الدين ﴾ كرره تعظيماً لشأنه وتفخيماً لقدره وتهويلاً لأمره كما في قوله ﴿ القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة ﴾ و ﴿ الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ﴾ والمعنى أي شيء جعلك دارياً ما يوم الدين قال الكلبي الخطاب للانسان الكافر .

ثم أخبر سبحانه عن اليوم فقال ﴿ يوم لا تملك نفس ﴾ من النفوس ﴿ لنفس ﴾ أخرى ﴿ شيئاً ﴾ من النفع والضر ، وملك الشفاعة لبعض الناس إذ ذاك إنما هو بإذن الله ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ذكره الحفناوي .

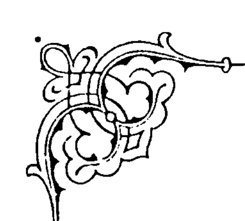
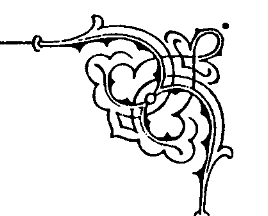
قرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع يوم على أنه بدل من يوم الدين أو خبر مبتدأ محذوف .

وقرأ أبو عمرو في رواية عنه ﴿ يوم ﴾ بالتنوين والقطع عن الاضافة .

وقرأ الباقون بفتحه على أنها فتحة إعراب بتقدير أعني أو أذكر فيكون مفعولاً به أو على أنها فتحة بناء لاضافته الى الجملة على رأي الكوفيين وهو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو على أنه بدل من يوم الدين .

قال الزجاج يجوز ان يكون في موضع رفع إلا أنه بني على الفتح لاضافته الى قوله ﴿ لا تملك ﴾ وما أضيف الى غير المتمكن فقد يبنى على الفتح وإن كان في موضع رفع ، وهذا الذي ذكره إنما يجوز عند الخليل وسيبويه اذا كانت الاضافة الى الفعل الماضي وأما الى الفعل المستقبل فلا يجوز عندهما ، وقد وافق الزجاج على ذلك أبو علي الفارسي والفراء وغيرهما .

﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ وحده لا يملك شيئاً من الأمر غيره كائناً من كان . قال مقاتل يعني لنفس كافرة شيئاً من المنفعة ، قال قتادة : ليس ثم أحد يقضي شيئاً أو يصنع شيئاً إلا الله رب العالمين ، والمعنى أن الله لا يملك أحداً في ذلك اليوم شيئاً من الأمور كما ملكهم في الدنيا ، ومثل هذا قوله ﴿ لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار ﴾ .

سورة المطففين

هي ست وثلاثون آية . قال القرطبي وهي مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل . ومدنية في قول الحسن وعكرمة . وقال مقاتل أيضا هي أول سورة نزلت بالمدينة . وقال ابن عباس وقتادة هي مدنية الا ثمان آيات من قوله : ﴿ ان الذين أجرموا ﴾ الى آخرها . وقال الكلبي وجابر بن زيد نزلت بين مكة والمدينة . وعن ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله .

وعن ابن عباس قال آخر ما نزل بمكة سورة المطففين . وعنه قال : « لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله ﴿ ويل للمطففين ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك » أخرجه ابن مردويه والبيهقي في الشعب . قال السيوطي: بسند صحيح[1] .

(١) أخرجه ابن ماجة ٧٤٨/٢ ، والطبري ٩١/٣٠ ، والواحدي : ٣٣٣ ، وقال الحافظ في « تحريج الكشاف » ٢١٨ : رواه النسائي وابن حبان والحاكم من رواية يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس . وأورده السيوطي في « الدر » ٣٢٣/٦ وزاد نسبته إلى الطبراني وابن مردويه والبيهقي في « شعب الإيمان » بسند صحيح عن ابن عباس .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

﴿ ويل للمطففين ﴾ ويل مبتدأ ، وسوغ الابتداء به كونه دعاء ، ولو نصب لجاز ، قال مكي والمختار في ويل وشبهه اذا كان غير مضاف الرفع ، ويجوز النصب ، فان كان مضافاً أو معرفاً كان الاختيار فيه النصب كقوله ﴿ ويلكم لا تفتروا ﴾ والمطفف المنقص ، وحقيقته الأخذ في الكيل أو الوزن شيئاً طفيفاً أي نزراً خفيفاً حقيراً .

قال أهل اللغة : المطفف مأخوذ من الطفف وهو القليل ، فالمطفف هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن .

قال الزجاج : إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف .

قال أبو عبيدة والمبرد : المطفف الذي يبخس في الكيل والوزن .

والمراد بالويل هنا شدة العذاب أو نفس العذاب أو الشر الشديد أو هو واد في جهنم .

قال الكلبي « قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وهم يسيئون كيلهم ووزنهم لغيرهم ، ويستوفون لأنفسهم فنزلت هذه الآية »[1] .

وقال السدي قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وكان بها رجل

(١) قال الألوسي و « هم » ضمير مرفوع تأكيد للضمير المرفوع وهو الواو يعني في «كالوا» .

يقال له أبو جهينة ومعه صاعان ، يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر فأنزل الله هذه الآية .

قال الفراء : هم بعد نزول هذه الآية أحسن الناس كيلاً الى يومهم هذا .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ما نقص قوم العهد إلا سلط الله عليهم العدو ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين » وهذا الوعيد يلحق كل من يأخذ لنفسه زائداً أو يدفع الى غيره ناقصاً قليلاً أو كثيراً ، لكن ان لم يتب منه فإن تاب قبلت توبته ، ومن فعل ذلك وأصر عليه كان مصراً على كبيرة من الكبائر ، وذلك لأن عامة الخلق محتاجون الى المعاملات وهي مبنية على أمر الكيل والوزن والزرع ، فلهذا السبب عظم الله أمر الكيل والوزن .

ثم بين سبحانه المطففين من هم فقال ﴿ الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾ الاكتيال الأخذ بالكيل ، قال الفراء يريد اكتالوا من الناس ، « وعلى » « ومن » في هذا الموضع يعتقبان ، يقال اكتلت منك أي استوفيت منك وتقول اكتلت عليك أي أخذت ما عليك ، قال الزجاج : اذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل .

قال الزمخشري : لما كان اكتيالهم اكتيالاً يضرهم ويتحامل فيه عليهم أبدل « على » مكان « من » للدلالة على ذلك ، ويجوز أن يتعلق بيستوفون،» وقدم المفعول على الفعل لافادة الخصوصية أي يستوفون على الناس خاصة ، فأما أنفسهم فيستوفون لها قال السمين : وهو حسن .

ولم يذكر اتزنوا لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فأحدهما يدل على الآخر ، قال الواحدي قال المفسرون : يعني الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا في الكيل والوزن ، وإذا باعوا ووزنوا لغيرهم نقصوا وهو معنى قوله :

﴿ واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ أي كالوا لهم أو وزنوا لهم

فحذفت اللام فتعدى الفعل الى المفعول فهو من باب الحذف والايصال ، ومثله نصحتك ونصحت لك كذا قال الأخفش والكسائي والفراء .

وقال الفراء : سمعت أعرابية تقول اذا صدر الناس أتينا التاجر فيكيلنا المد والمدين الى الموسم المقبل ، قال وهو من كلام اهل الحجاز ومن جاورهم من قيس .

قال الزجاج : لا يجوز الوقف على كالوا حتى يوصل بالضمير ، ومن الناس من يجعله تأكيداً أي توكيداً للضمير المستكن في الفعل فيجيز الوقف على كالوا أو وزنوا قال أبو عبيد : وكان عيسى بن عمر يجعلهما حرفين ويقف على كالوا أو وزنوا ثم يقول هم يخسرون ، قال : وأحسب قراءة حمزة كذلك .

قال ابو عبيد الاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين .

(إحداهما) الخط ولذلك كتبوهما بغير الف ولو كانتا مقطوعتين لكانتا كالوا أو وزنوا بالألف .

(والأخرى) انه يقال كلتك ووزنتك بمعنى كلتُ لك ووزنت لك وهو كلام عربي كما يقال صدتك وصدت لك وكسبتك وكسبت لك ، وشكرتك وشكرت لك ونحو ذلك ، وقيل هو على حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه ، والمضاف المكيل والموزون اي واذا كالوا مكيلهم أو وزنوا موزونهم ، ومعنى يخسرون ينقصون كقوله ﴿ ولا تخسروا الميزان ﴾ والعرب تقول خسرت الميزان وأخسرته .

ثم خوفهم سبحانه فقال : ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ﴾ مستأنفة مسوقة لتهويل ما فعلوه من التطفيف وتفظيعه وللتعجيب من حالهم في الاجتراء عليه ، والاشارة بأولئك الى المطففين وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد درجتهم في الشرارة والفساد .

والمعنى أنهم لا يخطرون ببالهم أنهم مبعوثون فمسؤولون عما يفعلون

قيل والظن هنا بمعنى اليقين أي لا يوقن أولئك ولو أيقنوا ما نقصوا الكيل والوزن ، وقيل الظن على بابه والمعنى إن كانوا لا يستيقنون البعث فهلا ظنوه حتى يتدبروا فيه ويبحثوا عنه ، ويتركوا ما يخشون من عاقبته ويأخذوا بالأحوط .

﴿ ليوم عظيم ﴾ هو يوم القيامة ، ووصفه بالعظم لكونه زماناً لتلك الأمور العظام من البعث والحساب والعقاب ودخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

عن عبد الملك بن مروان أن أعرابياً قال له قد سمعت ما قال الله في المطففين ، أراد بذلك ان المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به ، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن .

ثم زجر عن ذلك اليوم فقال ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ أي يوم يقومون من قبورهم لأمر رب العالمين أو لجزائه أو لحسابه أو لحكمه وقضائه ، وفي وصف اليوم بالعظم مع قيام الناس لله خاضعين فيه ، ووصفه سبحانه بكونه رب العالمين دلالة على عظم ذنب التطفيف ومزيد إثمه وفظاعة عقابه ، وفيما كان مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط والعمل على السوية والعدل في كل أخذ وعطاء بل في كل قول وعمل وحال .

وقيل المراد بقوله يوم يقوم الناس قيامهم في رشحهم الى أنصاف آذانهم .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه الى أنصاف أذنيه »[1]

وقيل المراد قيامهم بما عليهم من حقوق العباد ، وقيل المراد قيام الرسل بين يدي الله للقضاء ، والأول أولى .

---

(١) رواه مالك والبخاري ٥/٥٣٥ ومسلم ٤/٢١٩ .

وعن ابن عمر قال :قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآية « فكيف بكم اذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانـة خمسين الف سنة لا ينـظر اليكم » أخرجـه الطبـراني وأبو الشيـخ والحـاكم وصححـه وابن مـردويـه والبيهقي في البعث .

وعن أبي هـريرة عن النبي صلى الله عليـه وسلم يوم يقـوم النـاس لـرب العـالمين بمقـدار نصف يـوم من خمسين ألف سنـة فيهـون ذلـك على المؤمن كتدلي الشمس الى الغروب الى أن تغرب ، أخرجه أبو يعلى وابن حبـان وابن مردويه .

وعن ابن مسعود قال « إذا حشر الناس قـاموا أربعين عـاماً » أخـرجه ابن أبي حاتم وأخرجه ابن مردويه من حديثه مرفوعاً .

وعن ابن عمـر أنه قـال : « يا رسـول الله كم مقام النـاس بين يـدي رب العالمين يوم القيامة؟ قال ألف سنة لا يؤذن لهم » أخرجه الطبراني وعن ابن عمر أنه قرأ هذه السورة فلما بلغ هنا بكى نحيباً وامتنع عن قراءة ما بعدها .

﴿ كـلا ﴾ هي للردع والزجـر للمطففين الغـافلين عن البعث وما بعـده أو بمعنى حقاً . ثم استأنف فقال ﴿ إن كتاب الفجار ﴾ أظهر في موضع الاضمـار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف ، يعني أن كتب اعمال الكفار ﴿ لفي سجين ﴾ وهو ما فسره به سبحانه من قوله :

﴿ وما أدراك ما سجين كتاب مرقـوم ﴾ فأخبـر بهذا أنـه كتاب مـرقوم أي مسـطور ، قيل هـو كتاب جـامع لأعمـال الشر الصـادرة من الشياطين والكفـرة والفسقة ، ولفظ سجين علم به .

وقـال قتادة وسعيـد بن جبير ومقـاتل وكعب : أنـه صخـرة تحت الأرض السابعة تقلب فيجعل كتاب الفجـار تحتها وبـه قال مجـاهد فيكـون في الكلام على هذا القول مضاف محذوف ، والتقدير محل كتاب مرقوم ، وقال أبو عبيدة والأخفش والمبـرد والزجـاج : لفي حبس وضيق شـديـد ، والمعنى كـأنهم في حبس جعل ذلك دليلاً على خساسة منزلتهم وهوانهم .

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾﴾

قال الواحدي ذكر قوم أن قوله ﴿ كتاب مرقوم ﴾ تفسير سجين وهو بعيد لأنه ليس السجين من الكتاب في شيء على ما حكيناه عن المفسرين ، والوجه أن يجعل بياناً لكتاب المذكور في قوله ﴿ إن كتاب الفجار ﴾ على تقدير هو كتاب مرقوم أي مكتوب قد بينت حروفه انتهى ، والأولى ما ذكرناه .

ويكون المعنى أن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون أي ما يكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم لفي ذلك الكتاب المدون للقبائح المختص بالشر ، وهو سجين .

ثم ذكر ما يدل على تهويله وتعظيمه فقال ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ ثم بينه بقوله كتاب مرقوم .

قال الزجاج : معنى قوله وما أدراك ما سجين ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك أي في الدنيا قبل نزول الوحي عليك وإنما علمته بالوحي .

قال قتادة : ومعنى مرقوم رقم لهم بشر ، كأنه أعلم بعلامة يعرف بها أنه كافر وكذا قال مقاتل .

وقد اختلفوا في نون سجين فقيل هي أصلية واشتقاقه من السجن وهو الحبس ، وهو بناء مبالغة كخمير وسكير وفسيق من الخمر والسكر والفسق ، وكذا قال أبو عبيدة والمبرد والزجاج ، قال الواحدي : وهذا ضعيف لأن العرب ما كانت تعرف سجيناً ، ويجاب عنه بأن رواية هؤلاء الأئمة تقوم بها الحجة

وتدل على أنه من لغة العرب ، ومنه قول ابن مقبل :

ورفقة يضربون البيض ضاحية ضرباً تواصت به الأبطال سجيناً

وقيل النون بدل من اللام والأصل سجيل مشتقاً من السجل وهو الكتاب ، قال ابن عطية : من قال ان سجيناً موضع ، فكتاب مرفوع على أنه خبر « إن » والظرف وهو قوله لفي سجين ملغى ، ومن جعله عبارة عن الكتاب ، فكتاب خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير هو كتاب ، ويكون هذا الكلام مفسر السجين ما هو كذا قال الضحاك ، وقوله مرقوم مختوم بلغة حمير ، وأصل الرقم الكتابة .

وقال كعب الأحبار في الآية أن روح الفاجر يصعد بها الى السماء فتأبى السماء أن تقبلها فتهبط بها الى الأرض فتأبى أن تقبلها ، فيدخل بها تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها الى سجين ، وهو خد إبليس فيخرج لها من تحت خد إبليس كتاباً فيختم ويوضع تحت خد إبليس[١] وعن ابن عباس قال سجين أسفل الأرضين .

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الفلق جب في جهنم مغطى ، وأما سجين مفتوح ، قال ابن كثير هو حديث غريب منكر لا يصح[٢] .

---

(١) هذا من إسرائيليات كعب الأحبار ولا خير فيها .

(٢) قال ابن كثير : والصحيح أن « سجيناً » مأخوذ من السجن ، وهو الضيق ، فإن المخلوقات كلُّ ما تسافل منها ضاق ، وكل ما تعالى منها اتسع ، فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه ، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها حتى ينتهي السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز في وسط الارض السابعة ، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم ، وهي أسفل السافلين ، كما قال تعالى : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال ها هنا : ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين ﴾ وهو يجمع الضيق والسفول ، كما قال تعالى : ﴿ إذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم « قال سجين الأرض السابعة السفلى » .

وأخرج هو عن جابر نحوه مرفوعاً .

وعن عبد الله بن كعب بن مالك قال لما حضرت كعباً الوفاة أتته ام بشر بنت البراء فقالت إن لقيت إبني فاقرأه مني السلام فقال غفر الله لك يا أم بشر ، نحن أشغل من ذلك ، فقالت أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول إن نسمة المؤمن تسرح في الجنة حيث شاءت وان نسمة الكافر في سجين ، قال بلى قالت فهو ذاك » أخرجه ابن ماجه والطبراني والبيهقي في البعث وعبد بن حميد .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ هذا متصل بقوله ﴿ يوم يقوم الناس ﴾ وما بينهما اعتراض ، والمعنى ويل يوم القيامة لمن وقع منه التكذيب بالبعث وبما جاءت به الرسل .

ثم بين سبحانه هؤلاء المكذبين فقال ﴿ الذين يكذبون بيوم الدين ﴾ أي بيوم القيامة لأنه يوم الجزاء والحساب ، والموصول بدل من المكذبين أو صفة .

﴿ وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ﴾ أي فاجر جائر متجاوز في الاثم منهمك في أسبابه ﴿ اذا تتلى عليه آياتنا ﴾ المنزلة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو القرآن الكريم ﴿ قال أساطير الأولين ﴾ أي أحاديثهم وأباطيلهم التي زخرفوها والحكايات التي سطرت قديماً جمع أسطورة بالضم أو إسطاره بالكسر ، قرأ الجمهور تتلى بفوقيتين ، وقرىء بالتحتية .

وقوله ﴿كلا﴾ للردع والزجر للمعتدي الأثيم عن ذلك القول الباطل وتكذيب له وقال الحسن : بمعنى حقاً ، وقوله ﴿ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ بيان للسبب الذي حملهم على قولهم بأن القرآن أساطير الأولين .

وقال أبو عبيدة : ران على قلوبهم غلب عليها ، رينا وريوناً وكل ما غلبك وعلاك فقد ران بك وران عليك ، قال الفراء هو أنها كثرت منهم المعاصي والذنوب فأحاطت بقلوبهم فذلك الرين عليها . قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب .

قال مجاهد : القلب مثل الكف ورفع كفه فاذا أذنب انقبض وضم إصبعه ، فاذا أذنب ذنباً آخر انقبض وضم أخرى ، حتى ضم أصابعه كلها حتى يطبع على قلبه ، قال وكانوا يرون أن ذلك هو الرين ، ثم قرأ هذه الآية .

قال ابو زيد يقال قد رين بالرجل ريناً اذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قبل له به .

وقال ابو معاذ النحوي الرين أن يسود القلب من الذنوب ، والطبع ان يطبع على القلب وهو أشد من الرين ، والاقفال أشد من الطبع .

قال الزجاج : الرين هو كالصدأ يغشى القلب كالغيم الرقيق ومثله الغين .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن العبد إذا أذنب ذنباً تكتت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه ، فذلك الران الذي ذكره الله سبحانه في القرآن ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ﴾ الخ أخرجه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وغيرهم[١] .

---

(١) روى الترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن محمد بن عجلان ، عن القعقاع بن حكيم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب منها صقل قلبه ، وإن زاد زادت ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ وقال الترمذي : حسن صحيح ، ولفظ النسائي « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر وتاب ، صقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فهو الران الذي قال الله تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

ثم ذكر سبحانه الردع والزجر فقال ﴿ كلا ﴾ وقيل كلا بمعنى حقاً أي حقاً ﴿ انهم ﴾ يعني الكفار ﴿ عن ربهم ﴾ أي عن رؤيته ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لمحجوبون ﴾ لا يرونه أبداً ، قال مقاتل يعني أنهم بعد العرض والحساب لا ينظرون الى ربهم نظر المؤمنين إليه ، قال الحسين بن الفضل : كما حجبهم في الدنيا عن توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته .

قال الزجاج في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى في القيامة ، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة ، وقال جل ثناؤه ﴿ وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ﴾ فأعلم سبحانه ان المؤمنين ينظرون ، وأعلم ان الكفار محجوبون .

وقيل هو تمثيل لاهانتهم بإهانة من يحجب عن الدخول على الملوك ، وقال قتادة وابن أبي مليكة : هو أن لا ينظر اليهم برحمته ولا يزكيهم ، وقال مجاهد : محجوبون عن كرامته ، وكذا قال ابن كيسان والأول أولى .

﴿ ثم إنهم لصالو الجحيم ﴾ أي لداخلو النار وملازموها غير خارجين منها ، وثم لتراخي الرتبة لأن صلي الجحيم أشد من الاهانة وحرمان الكرامة .

﴿ ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾ أي يقول لهم خزنة جهنم تبكيتاً وتوبيخاً هذا ما كذبتم به في الدنيا وأنكرتم وقوعه فانظروه وذوقوه .

وقوله ﴿ كلا ﴾ للردع والزجر عما كانوا عليه والتكرير للتأكيد .

وجملة ﴿ إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ مستأنفة لبيان ما تضمنته ، ويجوز أن تكون كلا بمعنى حقاً فتلخص أن في كل واحدة من الأربعة الواقعة في هذه السورة قولين ، والأبرار هم المطيعون وكتابهم صحائف حسناتهم ، قال الفراء عليين ارتفاع بعد ارتفاع لا غاية له .

ووجه هذا أنه منقول من جمع علي من العلو قال الزجاج : هو أعلى الأمكنة قال الفراء والزجاج : فأعرب كإعراب الجمع لأنه على لفظ الجمع ولا واحد له من لفظه نحو ثلاثين وعشرين وقنسرين قيل هو علم لديوان الخير

الـذي دون فيه مـا عمله الصالحـون وحكى الولـد عن المفسـرين أنـه السمـاء السـابعة . قـال الضحاك ومجـاهـد وقتـادة يعني السمـاء السـابعـة فيهـا أرواح المؤمنين ، وقال الضحاك أيضاً هو سـدرة المنتهى ينتهي اليه كـل شيء من أمر الله لا يعدوها . وقيل هو الجنة وبه قال ابن عباس : وقال قتادة أيضـاً هو فـوق السماء السابعة عند قائمة العـرش اليمنى ، وقيل أن عليين صفـة للملائكـة في الملأ الأعلى كما يقال فلان بني فلان أي في جملتهم ، وقيل هو لوح من زبرجدة خضراء معلق تحت العرش مكتوبة فيه أعمالهم وقيل هو قائمة العرش اليمنى وقيل هو مراتب عالية محفوفة بالجلالة وقد عظمها الله وأعلاها .

﴿ وما أدراك ما عليون ﴾ أي ما أعلمك يا محمد أي شيء عليون ، على جهة التفخيم والتعظيم لعليين .

أخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق شمـر ابن عـطية أن ابن عبـاس سأل كعب الأحبـار عن قولـه ﴿ إن كتاب الأبـرار لفي عليين ﴾ قـال « روح المؤمن اذا قبضت عرج بهـا الى السماء ففتـح لها أبـواب السماء وتلقاها الملائكة بالبشرى حتى ينتهى بها الى العرش ، وتعرج الملائكة فيخرج لها من تحت العـرش رق فيرقم ويختم ويـوضع تحت العـرش لمعرفـة النجاة لحساب يوم الدين » .

وعن أبي أمـامة ، قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وآلـه سلم « صلاة على إثـر صـلاة لا لغـو بينهمـا كتـاب في عليين » أخـرجـه أحمـد وأبـو داود والطبراني وابن مردويه .

ثم فسره سبحانه بقوله ﴿ كتاب مرقوم ﴾ أي مسطور ، وقيل مكتـوب فيه أعمالهم أو ما أعد لهم في الآخرة من الكرامة ، وهذا التفسير الآلهي يغني عن تفاسير الخلق ، قال الخطيب مكتوب فيه أن فلاناً آمن من النار ، رقماً يا له من رقم ما أبهاه وأجمله .

والكـلام في هذا كـالكلام المتقـدم في قولـه ﴿ ومـا أدراك مـا سجين ﴾ الخ .

﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾

وجملة ﴿ يشهده المقربون ﴾ صفة أخرى لكتاب والمعنى أن الملائكة يحضرون ذلك الكتاب المرقوم ويحفظونه ، وقيل يشهدون بما فيه يوم القيامة لتعظيمه ، والأول من الشهود والثاني من الشهادة .

قال وهب وابن إسحق المقربون هنا إسرافيل فاذا عمل المؤمن عمل البر صعدت الملائكة بالصحيفة ولها نور يتلألأ في السموات كنور الشمس في الأرض حتى ينتهى بها الى اسرافيل فيختم عليها . وقال ابن عباس المقربون أهل السماء .

ثم ذكر سبحانه حالهم في الجنة بعد ذكر كتابهم فقال ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾ أي أن أهل الطاعة لفي تنعم عظيم لا يقادر قدره ﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ الأرائك الأسرة التي في الحجال[1] وقد تقدم أنها لا تطلق الأريكة على السرير إلا إذا كان في حجلة .

قال الحسن : ما كنا ندري ما الأرائك حتى قدم علينا رجل من اليمن فزعم أن الأريكة عندهم الحجلة اذا كان فيها سرير ، قال الشهاب الحجلة بفتحتين بيت مربع من الثياب الفاخرة يرخى على السرير يسمى في عرف الناس بالناموسية والمعنى أنهم ينظرون الى ما أعد الله لهم من الكرامات ،

(١) قال الجوهري الحجال جمع حجلة بالتحريك واحدهُ حجال العروس وهو بيت يزين بالثياب والأسرة ذكره الكرخي أ هـ .

كذا قال عكرمة ومجاهد وغيرهما ، وقـال مقاتـل ينظرون الى أهـل النار وقيـل ينظرون الى وجهه وجلاله .

﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ أي اذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمـة لمـا تـراه في وجـوههم من النـور والحسن والبيـاض والبهجـة والتنعم والرونق .

أخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب في الآية قـال « عين في الجنة يتوضؤون منهـا ويغتسلون فتجـري عليهم نضـرة النعيم » أي بهجـة التنعم وطراوته ، والخطاب ، لكل راء يصلح لذلك ، يقال أنضر النبات اذا أزهر ونور قال عطاء وذلك أن الله زاد في جمالهم وفي ألوانهم ما لا يصفه واصف .

قرأ الجمهور تعرف بفتح الفوقية وكسر الراء ونصب نضرة ، وقرىء بضم الفوقية وفتح الراء على البناء للمفعول ورفع نضرة بالنيابة .

﴿ يسقون من رحيق ﴾ خمر خالصة من الـدنس فهي بيضاء ﴿ مختـوم ﴾ على إنـائـها لا يفـك ختمها الا هم قـال أبو عبيـدة والأخفش والمبرد والـزجاج الرحيق من الخمر ما لا غش فيه ولا شيء يفسده ، والمختوم الذي له ختام .

وقـال الخليل : الـرحيق أجود الخمـر ، وفي الصحاح : الـرحيق صفـوة الخمر . وقال مجاهد ؛ هو الخمر العتيقة البيضاء الصافية قال مجاهد : مختوم مطين كأنه ذهب الى معنى الختم بالطين ، ويكون المعنى أنه ممنوع أن تمسـه يد الى أن يفك ختمه للأبرار . وقال تعـالى : في سورة محمـد صلى الله عليه وسلم ﴿ وأنهـار من خمـر ﴾ والنهـر لا يختم عليـه فـطريق الجمـع بينهمـا أن المذكور في هذه الآية في أوان مختوم عليها لشرفها ونفاستها ، وهي غيـر تلك الخمر التي في الأنهار :

﴿ ختامه مسك ﴾ أي آخر طعمه اذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك ، وقيل مختوم أوانيه من الأكواب والأبـاريق بمسك مكـان الطين ، وكأنه تمثيل لكمال نفاسته وطيب رائحته .

والحاصل أن المختوم والختام إما أن يكون من ختام الشيء وهو آخره أو من ختم الشيء وهو جعل الخاتم عليه كما تختم الأشياء بالطين ونحوه .

وقال ابن مسعود : الرحيق الخمر والمختوم يجدون عاقبتها طعم المسك ، وعنه ﴿ مختوم ﴾ ممزوج ﴿ختامه مسك﴾ قال طعمه في ريحه ، وقيل يمزج لهم بالكافور ، ويختم لهم بالمسك .

وقال ابن عباس رحيق خمر ومختوم ختم بالمسك .

عن ابن مسعود قال : ليس بخاتم فيختم به ولكن خلطه بمسك ، ألم تر الى المرأة من نسائكم تقول خلطة من الطيب كذا كذا ، وعن أبي الدرداء ختامه مسك قال هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم ، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريحها .

قرأ الجمهور ﴿ ختامه ﴾ وقرىء ﴿ خاتمه ﴾ بفتح الخاء قال علقمة أما رأيت المرأة تقول للعطار إجعل خاتمه مسكاً أي آخره ، والخاتم والختام يتقاربان في المعنى إلا أن الخاتم الاسم والختام المصدر ، كذا قال الفراء ، وقال في الصحاح : والختام الطين الذي يختم به ، وكذا قال ابن زيد .

﴿ وفي ذلك ﴾ الرحيق الموصوف بتلك الصفة ﴿ فليتنافس المتنافسون ﴾ أي فليرغب الراغبون وقيل ان « في » بمعنى الى أي والى ذلك فليتبادر المتبادرون في العمل ، كما في قوله ﴿ لِمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ وأصل التنافس التشاجر على الشيء والتنازع فيه بأن يحب كل واحد أن ينفرد به دون صاحبه .

يقال نفست الشيء عليه نفاسة أي ضننت به ولم أحب ان يصير اليه ، قال البغوي أصله من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس فيريده كل واحد لنفسه وينفس به على غيره أي يضن به ، قال عطاء المعنى فليستبق

المستبقون ، وقال مقاتل بن سليمان فليتنازع المتنازعون ، وذا لا يكون الا بالمسارعة الى الخيرات ، والانتهاء عن السيئآت ، وقال الزمخشري فليرتقب المرتقبون والمعنى في الجميع واحد .

﴿ ومزاجه ﴾ معطوف على ختامه صفة أخرى لرحيق أي ومزاج ذلك الرحيق ﴿ من تسنيم ﴾ وهو شراب ينصب عليهم من علو وهو أشرف شراب الجنة وأصل التسنيم في اللغة الارتفاع فهي عين ماء تجري من علو الى أسفل ، ومنه سنام البعير لعلوه من بدنه ، ومنه تسنيم القبور .

قال ابن عباس : لما سئل عن هذا : هذا مما قاله الله ﴿ فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين ﴾ وقال ابن مسعود : عين في الجنة تمزج لأصحاب اليمين ويشربها المقربون صرفاً .

ثم بين سبحانه ذلك فقال ﴿ عيناً يشرب بها المقربون ﴾ انتصاب عيناً على المدح ، وقال الزجاج : على الحال ، وإنما جاز أن يكون عيناً حالاً مع كونها جامدة غير مشتقة لاتصافها بقوله ﴿ يشرب بها ﴾ وقال الأخفش أنها منصوبة بيسقون ، وقال الفراء بتسنيم والأول أولى ، وبه قال المبرد قيل والباء في بها زائدة أي يشربها أو بمعنى « من » أي يشرب منها قال ابن زيد : بلغنا أنها عين تجري من تحت العرش .

ثم ذكر سبحانه بعض قبائح المشركين فقال ﴿ إن الذين أجرموا ﴾ وهم كفار قريش كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل وأصحابهم من اهل مكة ومن وافقهم على الكفر ، حكى الله عنهم أربعة أشياء من العلامات القبيحة أولها :

﴿ كانوا من الذين آمنوا ﴾ كعمار وبلال وخباب وصهيب وأصحابهم من فقراء المؤمنين ﴿ يضحكون ﴾ أي يستهزئون بهم في الدنيا ويسخرون منهم ، وآخرها قولهم ﴿ ان هؤلاء لضالون ﴾ وتقديم الجار والمجرور إما للقصر إشعاراً بغاية شناعة ما فعلوا أو لمراعاة الفواصل .

وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ وإذا مروا بهم ﴾ أي وإذا مر المؤمنون بالكفار وهم في مجالسهم ﴿ يتغامزون ﴾ من الغمز وهو الاشارة بالجفون والحواجب اي يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم وحواجبهم طعناً فيهم وعيباً لهم ، وقيل يعيرونهم بالاسلام ويعيبونهم به .

﴿ واذا انقلبوا ﴾ أي اذا انقلب الكفار من مجالسهم ﴿ الى أهلهم انقلبوا فكهين ﴾ أي معجبين بما هم فيه متلذذين به يتفكهون بذكر المؤمنين والطعن فيهم والاستهزاء بهم والسخرية منهم ، والانقلاب الانصراف .

قرأ الجمهور فاكهين وقرىء فكهين بغير ألف ، قال الفراء هما لغتان مثل طمع وطامع وحذر وحاذر ، وقد تقدم بيانه في سورة الدخان ان الفكه الأشر البطر والفاكه الناعم المتنعم .

﴿ واذا رأوهم ﴾ أي اذا رأى الكفار المسلمين في أي مكان ﴿ قالوا ان هؤلاء لضالون ﴾ في اتباعهم محمداً صلى الله عليه وسلم وتمسكهم بما جاء به ، وتركهم التنعم الحاضر يعني خدع محمد هؤلاء فضلوا وتركوا اللذات لما يرجونه في الآخرة من الكرامات فقد تركوا الحقيقة بالخيال ، وهذا هو عين الضلال أو المعنى واذا رأى المسلمون الكافرين قالوا هذا القول ، والأول أولى .

﴿ ومـا أرسلوا عليهم حافظين ﴾ أي والحال أنهم لم يرسلوا على

المسلمين من جهة الله موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم وأعمالهم ، ويشهدون برشدهم وضلالهم ، بل أمروا بإصلاح أنفسهم ، فاشتغالهم بذلك أولى بهم من تتبع عورات غيرهم وتسفيه أحلامهم ، وهذا تهكم بهم واشعار بان ما اجترؤا عليه من القول من وظائف الرسل من جهته تعالى .

ويجوز أن يكون ذلك من جملة قول المؤمنين كأنهم ﴿قالوا ان هؤلاء لضالون وما أرسلوا علينا حافظين﴾ إنكاراً لصدهم عن الشرك ودعائهم الى الاسلام ، قاله ابو السعود والأول أولى وأظهر .

﴿ فاليوم ﴾ أي يوم الآخر ﴿ الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ يعني أن المؤمنين في ذلك اليوم يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين قد نزل بهم ما نزل من العذاب كما ضحك الكفار منهم في الدنيا .

﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ أي يضحكون منهم ناظرين اليهم والى ما هم فيه من الحال الفظيع والهوان والصغار بعد العزة والاستكبار ، وقد تقدم تفسير الأرائك قريباً .

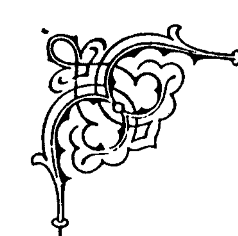
قال الواحدي قال المفسرون أن أهل الجنة اذا أرادوا نظروا من منازلهم الى أعداء الله وهم يعذبون في النار فضحكوا منهم كما ضحكوا منهم في الدنيا .

وقال أبو صالح يقال لأهل النار اخرجوا ويفتح لهم أبوابها فاذا رأوها قد فتحت أقبلوا اليها يريدون الخروج ، والمؤمنون ينظرون اليهم على الأرائك فاذا انتهوا الى ابوابها غلقت دونهم ، فذلك قوله : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ الخ .

وجملة ﴿ هل ثُوّب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ مستأنفة لبيان أنه قد وقع الجزاء للكفار بما كان يقع منهم في الدنيا من الضحك من المؤمنين والاستهزاء بهم ، والاستفهام للتقرير ، وثوب بمعنى أثيب والمعنى هل جوزي الكفار بما

كانوا يفعلونه بالمؤمنين ، وقيل الجملة في محل نصب بينظرون وقيل هي على إضمار القول أي يقول بعض المؤمنين لبعض هل ثوب الكفار ، والثواب ما يرجع على العبد في مقابلة عمله ، ويطلق على الخير والشر .

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بإدغام لام هل في ثاء ثوب ، وقرأ الباقون بترك الادغام .





سورة الانشقاق

هي ثلاث أو خمس وعشرون آية وهي مكية بلا خلاف . قال ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله .

وعن أبي رافع صليت مع أبي هريرة العتمة[1] فقرأ إذا السماء انشقت فسجد فقلت له، فقال سجدت خلف أبي القاسم صلّى الله عليه وآله وسلم فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه[2] أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما وأخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبي هريرة « قال سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في إذا السماء انشقت واقرأ باسم ربك الذي خلق » .

وعن بريدة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ في الظهر «اذا السماء انشقت ونحوها» أخرجه ابن خزيمة والروياني في مسنده والضياء المقدسي في المختارة .

---

(١) أي العشاء .

(٢) أي سجود التلاوة إذا وصل إلى آية ﴿ وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾

﴿ إذا السماء انشقت ﴾ أي انصدعت وتفطرت ، فيه حذف ، والتقدير إذا انشقت السماء انشقت لأن إذا الشرطية يختص دخولها بالجمل الفعلية ، وما جاء من هذا ونحوه فمؤول محافظة على قاعدة الاختصاص ، فالسماء فاعل لفعل محذوف .

قال الواحدي قال المفسرون انشقاقها من علامات القيامة ، ومعنى انشقاقها انفطارها بالغمام الأبيض كما في قوله ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ وقيل تنشق من المجرة وبه قال علي بن أبي طالب والمجرة باب السماء ، وأهل الهيئة يقولون أنها نجوم صغار مختلطة غير متميزة في الحس .

واختلف في جواب « إذا » فقال الفراء أنه أذنت ، والواو زائدة . وكذلك ألقت . قال ابن الانباري هذا غلط لأن العرب لا تقحم الواو إلا مع حتى إذا كقوله ﴿ حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها ﴾ ومع لما كقوله ﴿ فلماأسلما وتلة للجبين وناديناه ﴾ ولا تقحم مع غير هذين .

وقيل أن الجواب قوله ﴿ فملاقيه ﴾ أي فأنت ملاقيه . وبه قال الأخفش . وقال المبرد إن في الكلام تقديماً وتأخيراً أي ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ إذا السماء انشقت .

وقال المبرد أيضاً إن الجواب قوله ﴿ فأما من أوتي كتابه ﴾ وبه قال الكسائي ، والتقدير إذا السماء انشقت فمن أوتي كتابه بيمينه فحكمه كذا ، وقيل هو يا أيها الإنسان على إضمار الفاء أو على إضمار القول أي يقال له يا

أيها الإنسان ، وقيل الجواب محذوف تقديره بعثتم أو لاقى كل إنسان عمله . وقيل هو ما صرح به في سورة التكوير أي ﴿ علمت نفس ﴾ ، هذا على تقدير أن « إذا » شرطية ، وقيل ليست بشرطية وهي منصوبة باذكر المحذوف وهي مبتدأ وخبرها إذا الثانية والواو مزيدة وتقديره وقت انشقاق السماء وقت مد الأرض .

ومعنى ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ أنها أطاعته في الانشقاق ولم تأب ولم تمتنع ، مشتق من الأذن وهو الاستماع للشيء والإصغاء إليه . وحق لها أن تطيع وتنقاد وتسمع : وقد استعمل الأذن في الاستماع في أشعار العرب ، وفي الحديث « ما أذن الله لشيء اذنه لنبي يتغنى بالقرآن » قال الشاعر :

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به   وإن ذكرت بسوء عندهم أذن[1]

وقال الحجار بن حكيم : أذنت لكم لما سمعت هديركم .

وفي المختار أذن له استمع وبابه طرب ، وقيل المعنى وحقق الله عليها الاستماع لأمره بالانشقاق أي جعلها حقيقة بذلك ، قال الضحاك حقت أطاعت وحق لها أن تطيع ربها لأنه خلقها ، يقال فلان محقوق بكذا . ومعنى طاعتها انها لا تمتنع مما أراده الله بها . قال قتادة حق لها أن تفعل ذلك ، ومن هذا قول كثير :

فإن تكن العتبى فأهلاً ومرحبا   وحقت لها العتبى لدنيا وقلت

﴿ وإذا الأرض مدت ﴾ أي بسطت كما تبسط الأدم ودكت جبالها وكل

---

(١) البيت لقَعْنَب بن ضمرة بن أم صاحب أم قعنب ، وكان في أيام الوليد ، وهو في «مجاز القرآن » ١٧٧/١ ، و« الطبري » ١١٢/٣٠ . و« السمط » : ٣٦٢ ، و« الاقتضاب » : ٢٩٢ و« شواهد الكشاف » ١٤٣ ، و« القرطبي » ٢٦٧/١٩ ، و« اللسان » أذن ، وأورد بيتاً قبله ، هو :

إن يسمعوا ريبةً طاروا بها فرحاً   مني وما علموا من صالحٍ دفنوا

أمت فيها حتى صارت ﴿ قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ قال مقاتل سويت كمد الأديم فلا يبقى عليها بناء ولا جبل إلا دخل فيها ، وقيل مدت زيد في سعتها من المدد ، وهو الزيادة ، قال ابن عباس : تمد يوم القيامة .

وأخرج الحاكم قال السيوطي بسند جيد عن جابر قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم ثم لا يكون لابن آدم فيها إلا موضع قدميه »

﴿ وألقت ما فيها ﴾ أي أخرجت ما فيها من الأموات والكنوز وطرحتهم إلى ظهرها ورمت ﴿ وتخلت ﴾ من ذلك ، قال ابن عباس أخرجت ما فيها من الموتى وتخلت ممن على ظهرها من الاحياء ومثل هذا قوله : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ والمعنى تخلت غاية الخلو لم يبق شيء في باطنها كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلو يقال تكرم الكريم إذا بلغ جهده في الكرم ، وتكلف فوق ما في طبعه ، وذلك يؤذن بعظم الأمر .

وقيل ألقت ما استودعته وتخلت مما استحفظته . ووصفت الأرض بالإلقاء والتخلية توسعاً وإلا فالتحقيق أن المخرج لتلك الأشياء هو الله تعالى .

﴿ وأذنت لربها ﴾ أي سمعت وأجابت وأطاعت لما أمرها به من الإلقاء والتخلي ، وقال ابن عباس سمعت حين كلمها وعنه قال أطاعت وحقت بالطاعة وعنه قال سمعت وأطاعت ﴿ وحقت ﴾ أي وجعلت حقيقة بالاستماع لذلك والانقياد له إذ هي مصنوعة مربوبة لله تعالى ، وقد تقدم بيان معنى الفعلين قبل هذا ، وليس تكراراً لأن الأول في السماء وهذا في الأرض ، وتكرير إذا لاستقلال كل من الجملتين بنوع من القدرة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ﴿١٥﴾ ﴾

﴿ يا أيها الأنسان ﴾ المراد جنس الإنسان فيشمل المؤمن والكافر وقيل هو الإنسان الكافر والأول أولى لما سيأتي من التفصيل ﴿ إنك كادح إلى ربك كدحاً ﴾ الكدح في كلام العرب السعي في الشيء بجهد من غير فرق بين أن يكون ذلك الشيء خيراً أو شراً ، والمعنى أنك ساع إلى ربك في عملك أو إلى لقاء ربك مأخوذ من كدح جلده إذا خدشه ، قال قتادة والضحاك والكلبي : عامل لربك عملاً ، وفي المختار الكدح العمل والسعي والكد والكسب ، وهو الخدش أيضاً وباب الكل قطع .

﴿ فملاقيه ﴾ أي فملاق عملك وبه قال ابن عباس ، والمعنى أنه لا محالة ملاق لجزاء عمله وما يترتب عليه من الثواب والعقاب ، قال الشهاب : أي ملاق كدحه بنفسه من غير تقدير لوجوده في صحفه ، وعلى هذا فما بعده تفصيل له .

قال القتيبي معنى الآية انك كادح أي عامل ناصب في معيشتك إلى لقاء ربك لا مفر لك منه ، والملاقاة بمعنى اللقاء أي تلقى ربك بعملك ، وقيل فملاق كتاب عملك لأن العمل قد انقضى .

﴿ فأما من أوتي كتابه ﴾ أي كتاب عمله ﴿ بيمينه ﴾ وهم المؤمنون ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ سهلاً هيناً لا مناقشة فيه ، قال مقاتل لأنها تغفر ذنوبه ولا يحاسب عليها .

وقال المفسرون هو أن تعرض عليه سيئآته ثم يغفرها الله فهو الحساب

اليسير ، وعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس أحد يحاسب إلا هلك فقلت أليس يقول الله فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً قال ليس ذلك بالحساب ولكن ذلك العرض ، ومن نوقش الحساب هلك » أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

وعنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في بعض صلاته « اللهم حاسبني حساباً يسيراً فلما انصرف قلت: يا رسول الله ما الحساب اليسير؟ قال أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه ، أنه من نوقش الحساب هلك » أخرجه أحمد وعبد ابن حميد وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه ، وفي بعض ألفاظ الحديث الأول وهذا الحديث « عُذِّب » مكان هلك .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ثلاث من كن فيه يحاسبه الله حساباً يسيراً ، ويدخله الجنة برحمته: تعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك » أخرجه البزار والطبراني في الأوسط والبيهقي والحاكم .

﴿ وينقلب ﴾ أي يرجع وينصرف بنفسه بعد الحساب اليسير من غير مزعج برغبة وقبول ﴿ إلى أهله ﴾ الذين أهل بهم في الجنة من عشيرته أو إلى أهله الذين كانوا له في الدنيا من الزوجات والأولاد وقد سبقوه إلى الجنة أو إلى من أعده الله له في الجنة من الحور العين والولدان المخلدين أو إلى جميع هؤلاء ﴿ مسروراً ﴾ مبتهجاً فرحاً بما أوتي من الخير والكرامة .

﴿ وأما من أوتي كتابه ﴾ بشماله و﴿ وراء ظهره ﴾ قال الكلبي لأن يمينه مغلولة إلى عنقه وتكون يده اليسرى خلفه وقال قتادة ومقاتل تفك ألواح صدره وعظامه ثم تدخل يده وتخرج من ظهره فيأخذ كتابه كذلك ﴿ فسوف يدعو ثبوراً ﴾ أي ينادي هلاكه ويتمنى فإن نداء ما لا يعقل يراد به التمني فالدعاء بمعنى الطلب بالنداء ، والمعنى إذا قرأ كتابه قال يا ويلاه يا ثبوراً ، والثبور الهلاك ، وقال ابن عباس ثبوراً الويل .

﴿ ويصلى سعيراً ﴾ أي يدخلها ويقاسي حر نارها وشدتها ، قرأ أبو عمرو وحمزة وعاصم يصلي بفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام ، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديدها ، وقرىء بضم الياء واسكان الصاد من أصلى يصلي .

﴿ إنه كان في أهله ﴾ أي عشيرته في الدنيا ﴿ مسروراً ﴾ باتباع هواه وركون شهوته بطراً أشراً لعدم خطور الآخر بباله أي كان لنفسه متابعاً ، وفي مراتع هواه راتعاً ، والجملة تعليل لما قبلها .

﴿ إنه ظن ﴾ أي علم وتيقن ﴿ أن لن يحور ﴾ تعليل لكونه كان في الدنيا بين أهله مسروراً والمعنى أن سبب ذلك السرور ظنه بأنه لا يرجع إلى الله ولا يبعث للحساب والعقاب لتكذيبه بالبعث وجحده لدار الآخرة ، وأن هي المخففة من الثقيل سادَّة مع ما في حيزها مسد مفعولي ظن ، والحور في اللغة الرجوع يقال حار يحور إذا رجع وقال الراغب الحور التردد في الأمر ، ومحاورة الكلام مراجعته والمحار المرجع والمصير .

قال عكرمة وداود بن أبي هند : « يحور » كلمة بالحبشية ومعناها يرجع ، قال القرطبي : الحور في كلام العرب الرجوع ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم « اللهم أني أعوذ بك من الحور بعد الكور » يعني من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة ، وكذلك الحور بالضم ، وفي المثل حور في محار أي نقصان في نقصان ، والحور أيضاً الهلكة ، قال ابن عباس : يحور يبعث ويرجع .

﴿ بلى إن ربه كان به بصيراً ﴾ أي كان به وبأعماله عالماً لا يخفى عليه منها خافية ، وبلى إيجاب للمنفي بان أي بلى ليحورن وليبعثن ، وأن ربه جواب قسم مقدر فالجملة بمنزلة التعليل لما أفادته بلى ، قال الزجاج كان به بصيراً قبل أن يخلقه عالماً بأن مرجعه إليه .

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ۝٢٥﴾

﴿ فلا أقسم بالشفق ﴾ لا زائدة كما تقدم في امثال هذه العبارة وقد قدمنا الخلاف فيها في سورة القيامة فارجع إليه .

أقسم بمخلوقاته تشريفاً لها وتعريضاً للاعتبار بها ، والشفق الحمرة التي تكون بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة ، قال الواحدي : هذا قول المفسرين وأهل اللغة جميعاً ، قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق وكان أحمراً ، وحكاه القرطبي عن أكثر الصحابة والتابعين والفقهاء .

وقال أسد بن عمرو وأبو حنيفة رحمه الله : في إحدى الروايتين عنه أنه البياض ، ولا وجه لهذا القول ولا متمسك له لا من لغة العرب ولا من الشرع ، قال الخليل الشفق الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة .

قال في الصحاح : الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل إلى قريب العتمة ، وكتب اللغة والشرع مطبقة على هذا[1] .

وقال مجاهد : الشفق النهار كله ، ألا تراه قال ﴿ والليل وما وسق ﴾

---

(١) أخرجه الدارقطني في « سننه » ص ١٠٠ ، وصحح البيهقي وقفه ، وقال في « المعرفة » : روي هذا الحديث عن عمر ، وعلي ، وابن عباس ، وعبادة بن الصامت ، وشداد بن أوس ، وأبي هريرة ، ولا يصح عن النبي ﷺ فيه شيء ، وذكره السيوطي في « الدر » موقوفاً على ابن عمر ، وعزاه إلى عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وعبد بن حميد ، وابن مردويه .

وقال عكرمة هو ما بقي من النهار ، وإنما قالا هذا لقوله بعده ﴿ والليل وما وسق ﴾ فكأنه تعالى أقسم بالضياء والظلام ، ولا وجه لهذا على أنه قد روي عن عكرمة أنه قال الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء ، وروي عن أسد بن عمرو الرجوع ، وعن عمر بن الخطاب قال الشفق الحمرة، وعن ابن عباس نحوه ، وعن أبي هريرة الشفق النهار كله .

وقال الراغب الشفق اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس ، وقال الزمخشري الشفق الحمرة التي ترى في المغرب بعد سقوط الشمس وبسقوطه يخرج وقت المغرب ويدخل وقت العتمة عند عامة العلماء إلا ما يروى عن أبي حنيفة في إحدى الروايتين أنه البياض وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه انتهى ، وسمي شفقاً لرقته ومنه الشفقة على الإنسان وهي رقة القلب عليه .

﴿ والليل وما وسق ﴾ أي جمع ما دخل عليه من الدواب وغيرها ، والوسق عند أهل اللغة ضم الشيء بعضه إلى بعض يقال استوسقت الإبل إذا اجتمعت وانضمت والراعي يسقها أي يجمعها ، قال الواحدي : المفسرون يقولون وما جمع وضم وحوى ولف .

والمعنى أنه جمع وضم ما كان منتشراً بالنهار في تصرفه وذلك الليل إذا أقبل أوى كل شيء إلى مأواه ، وقال عكرمة وما وسق أي وما ساق من شيء إلى حيث يأوي فجعله من السوق لا من الجمع ، وقيل وما وسق أي وما جن ما ستر ، وقيل وما حمل وكل شيء حملته فقد وسقته ، والعرب تقول لا احمله وما وسقت عيني الماء أي حملته ووسقت الناقة تسق وسقاً أي حملت .

قال قتادة والضحاك ومقاتل بن سليمان : وما وسق وما حمل من الظلمة أو حمل من الكواكب ، قال القشيري ومعنى حمل ضم وجمع والليل يحمل بظلمته كل شيء ، وقال سعيد بن جبير وما وسق أي وما عمل فيه من التهجد والاستغفار بالاسحار ، والأول أولى ، وقال ابن عباس : ما وسق ما دخل فيه وعنه ما جمع .

﴿ والقمر إذا اتسق ﴾ أي اجتمع وتكامل ، قال الفراء : اتساقه امتلاؤه واجتماعه واستواؤه ليلة ثلاث عشرة ورابع عشرة إلى ست عشرة ، وهو افتعل من الوسق الذي هو الجمع ، قال الحسن اتسق امتلأ واجتمع ، وقال قتادة استدار يقال وسقته فاتسق كما يقال وصلته فاتصل ، ويقال أمر فلان متسق أي مجتمع منتظم ، ويقال اتسق الشيء إذا تتابع ، قال ابن عباس اتسق استوى ، وعنه قال ليلة ثلاث عشرة .

﴿ لتركبن ﴾ أيها الناس ﴿ طبقاً عن طبق ﴾ حالاً بعد حال ، هذا جواب القسم ومحل عن طبق النصب على أنه صفة لطبقاً مجاوزاً لطبق ، أو على الحال من ضمير لتركبن أي مجاوزين أو مجاوزاً ، قرىء بفتح الموحدة على أنه خطاب للواحد وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له ، وقرىء بضم الموحدة خطاباً للجمع وهم الناس . قال الشعبي ومجاهد لتركبن يا محمد سماء بعد سماء ، قال الكلبي يعني تصعد فيها وهذا على القراءة الأولى ، وقيل درجة ورتبة بعد رتبة في القرب من الله ورفعة المنزله .

وقيل المعنى لتركبن حالاً بعد حال كل حالة منها مطابقة لأختها في الشدة ، وقيل المعنى لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال من كونك نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم حياً وميتاً وغنياً وفقيراً ، فالخطاب للإنسان المذكور في قوله ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً ﴾ واختار أبو حاتم وأبو عبيدة القراءة الثانية قالا لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وقرأ عمر رضي الله عنه ليركبن بالتحتية وضم الموحدة على الإخبار ، وروي عنه وعن ابن عباس أنهما قرآ بالغيبة وفتح الموحدة أي ليركبن الإنسان ، وروي عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قرآ بكسر حرف المضارعة وهي لغة ، وقرىء بفتح حرف المضارعة وكسر الموحدة على أنه خطاب للنفس .

وقيل أن معنى الآية ليركبن القمر أحوالاً من سرار واستهلال وهو بعيد ،

قال مقاتل : طبقاً عن طبق يعني الموت والحياة ، وقال عكرمة : رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم شيخ . وعن ابن مسعود : قال يعني السماء تنفطر ثم تنشق ثم تحمر ، وعنه قال : السماء تكون كالمهل وتكون وردة كالدهان وتكون واهية وتنشق فتكون حالاً بعد حال ، وقيل يعني الشدائد وأهوال الموت ثم البعث ثم العرض ، وقيل « لتركبن سنن من كان قبلكم » كما ورد في الحديث الصحيح .

﴿ فما لهم لا يؤمنون ﴾ الاستفهام للإنكار والفاء لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجيب على ما قبلها من احوال يوم القيامة الموجبة للإيمان والسجود أو من غيرها على الإختلاف السابق ، والمعنى أي شيء للكفار لا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم بما جاء به من القرآن مع وجود موجبات الإيمان بذلك من التغيرات العلوية والسفلية الدالة على خالق عظيم القدرة .

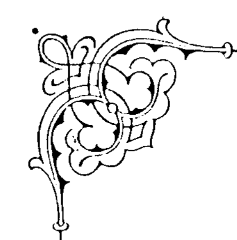
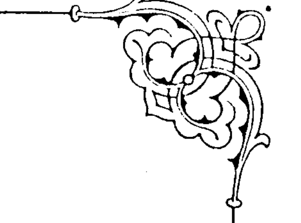
﴿ وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ الجملة في محل نصب على الحال أي أيّ مانع لهم حال عدم سجودهم وخضوعهم عند قراءة القرآن ، قال الحسن وعطاء والكلبي ومقاتل ما لهم لا يصلّون ، وقال أبو مسلم المراد الخضوع والاستكانة . وقيل المراد نفس السجود المعروف بسجود التلاوة ، وقد وقع الخلاف على هذا الموضع من مواضع السجود عند التلاوة أم لا وقد تقدم في فاتحة هذه السورة الدليل على السجود ، وهذه السجدة آخر سجدات القرآن عند الشافعي ومن وافقه .

﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ أي بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاء به من الكتاب المشتمل على إثبات التوحيد والبعث والثواب والعقاب ﴿ والله أعلم بما يوعون ﴾ أي بما يضمرونه في أنفسهم من التكذيب . وقال مقاتل : بما يكتمون من أفعالهم . وقال ابن زيد : يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة ، مأخوذ من الوعاء الذي يجمع فيه ، ويقال وعاء حفظه وعيت الحديث أعيه وعياً ومنه ﴿ أذن واعية ﴾ وقال ابن عباس يوعون يسرون .

﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ أي أخبرهم خبراً يظهر أثره على بشرتهم واجعل ذلك بمنزلة البشارة لهم لأن علمه سبحانه بذلك على الوجه المذكور موجب لتعذيبهم ، والأليم المؤلم الموجع ، والكلام خارج مخرج التهكم بهم .

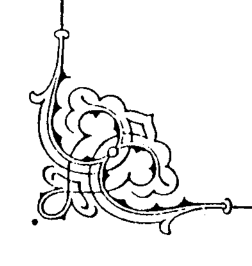
﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ الاستثناء منقطع لأن الموصول مبتدأ ، والجملة خبره والاستثناء من قبيل المفردات أي لكن الذين جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح ﴿ لهم أجر ﴾ عند الله ﴿ غير ممنون ﴾ أي غير مقطوع ولا منقوص ، يقال مننت الحبل إذا قطعته ، قال المبرد : المنين الغبار لأنه يقطعه وراءه وكل ضعيف منين وممنون ، وقيل المعنى أنه لا يمن عليهم به وقيل متصل وليس بذلك لأن الضمير راجع إلى الذين كفروا ، والذين كفروا قد وضع موضع المظهر للاشعار بأنهم لا يؤمنون ولا يسجدون عند قراءة القرآن عليهم لأنهم كافرون مكذبون .

قال أبو السعود استئناف مقرر لما أفاده الاستثناء من انتفاء العذاب عنهم ومبين لكيفيته ومقارنته الثواب العظيم .

سورة البروج

هي اثنتان وعشرون آية وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة . وعن أبي هريرة « أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج . والسماء والطارق » أخرجه أحمد وعن جابر بن سمرة أن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم كان يقرأ في الظهر والعصر بالسماء والطارق والسماء ذات البروج » أخرجه أحمد والدارمي وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وغيرهم .





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والسماء ذات البروج ﴾ قد تقدم الكلام في البروج عند قوله ﴿ هو الذي جعل في السماء بروجاً ﴾ قال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك : هي النجوم والسماء ذات النجوم ، وقال عكرمة ومجاهد أيضاً هي قصور في السماء وبه قال ابن عباس ، وقال المنهال بن عمرو : ذات الخلق الحسن ، وقال أبو عبيدة ويحيى بن سلام وغيرهما : هي المنازل للكواكب وهي إثنا عشر برجاً لاثني عشر كوكباً وهي : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت ، قيل وهي منازل الكواكب السبعة السيارة المريخ وله الحمل والعقرب ، والزهرة ولها الثور والميزان ، وعطارد وله الجوزاء والسنبلة ، والقمر وله السرطان ، والشمس ولها الأسد والمشتري وله القوس والحوت وزحل وله الجدي والدلو .

والبروج في كلام العرب القصور ، ومنه قوله ﴿ ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ شبهت منازل هذه النجوم بالقصور لكونها تنزل فيها ، وقيل هي أبواب السماء . وقيل هي منازل القمر ، وأصل البرج الظهور سميت بذلك لظهورها .

وعن جابر بن عبدالله « أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن السماء ذات البروج فقال الكواكب ، وسئل عن قوله ﴿جعل في السماء بروجاً﴾ قال الكواكب وعن قوله ﴿في بروج مشيدة﴾ قال القصور » أخرجه ابن مردويه .

﴿ واليوم الموعود ﴾ أي الموعود به وهو يوم القيامة قال الواحدي : في قول جميع المفسرين ، وبه قال ابن عباس .

﴿ وشاهد ومشهود ﴾ نكرهما دون بقية ما أقسم به لاختصاصهما من بين الأيام بفضيلة ليست لغيرهما فلم يجمع بينهما وبين البقية بلام الجنس . وهذا جواب أيضاً عما يقال لم خصصهما بالذكر دون بقية الأيام ؟ وإنما لم يعرفا بلام العهد لأن التنكير أدل على التفخيم والتعظيم بدليل قوله تعالى ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ والمراد بالشاهد من يشهد في ذلك اليوم من الخلائق أي يحضر فيه والمراد بالمشهود ما يشاهد في ذلك اليوم من العجائب .

وذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الشاهد يوم الجمعة وأنه يشهد على كل عامل بما عمل فيه ، والمشهود يوم عرفة لأنه يشهد الناس فيه موسم الحج وتحضره الملائكة ، قال الواحدي وهذا قول الأكثر ، قال ابن عباس : الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة وهو الحج الأكبر .

فيوم الجمعة جعله الله عيداً لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته وفضله بها على الخلق أجمعين وهو سيد الأيام عند الله وأحب الأعمال إلى الله ، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلي يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه ، أخرجه ابن مردويه .

وحكى القشيري عن ابن عمر وابن الزبير أن الشاهد يوم الأضحى ، وقال سعيد بن المسيب : الشاهد يوم التروية والمشهود يوم عرفة ، وقال النخعي : الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم النحر : وقيل الشاهد هو الله سبحانه ، وبه قال الحسن وسعيد بن جبير لقوله ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ وقوله ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ .

وقيل الشاهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقوله ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ وقوله ﴿ يا أيها الرسول إنا أرسلناك شاهداً ﴾ وقوله ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ وقيل الشاهد جميع

الأنبياء لقوله ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ .

وقيل هو عيسى ابن مريم لقوله ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ﴾ .

والمشهود على هذه الأقوال الثلاثة إما أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو أمم الأنبياء أو أمة عيسى .

وقيل الشاهد آدم والمشهود ذريته ، وقال محمد بن كعب : الشاهد الإنسان لقوله ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ وقال مقاتل أعضاؤه لقوله ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ﴾ .

وقال الحسين بن الفضل : الشاهد هذه الأمة والمشهود سائر الأمم لقوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾ وقيل الشاهد الحفظة والمشهود بنو آدم « وقيل الأيام والليالي ، وقيل الشاهد الخلق يشهدون لله عز وجل بالوحدانية والمشهود له بالوحدانية هو الله سبحانه . وسيأتي بيان ما هو الحق .

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «اليوم الموعود يوم القيامة واليوم المشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة» وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له ، ولا يستعيذ من شيء إلا أعاذ منه » أخرجه الترمذي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه .

وعن أبي هريرة رفعه « قال الشاهد يوم عرفة ويوم الجمعة والمشهود هو الموعود يوم القيامة » أخرجه الحاكم وصححه والبيهقي وابن مردويه[1] .

---

(١) رواه الترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وفي سنده موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » ، وقال الترمذي : هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى بن =

وعن علي بن أبي طالب اليوم الموعود يوم القيامة والمشهود يوم النحر والشاهد يوم الجمعة .

وعن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اليوم الموعود يوم القيامة والشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة » أخرجه ابن جرير والطبراني وابن مردويه .

وعن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الآية « الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة » أخرجه ابن عساكر وابن مردويه ، وعن أبي هريرة مثله موقوفاً .

وعن سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سيد الأيام يوم الجمعة وهو الشاهد ، والمشهود يوم عرفة » وهذا مرسل من مراسيله أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه .

وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أكثروا من الصلاة عليَّ يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة » أخرجه ابن ماجه والطبراني وابن جرير .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال في الآية الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة، وعن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً سأله عن قوله ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال هل سألت أحداً قبلي قال نعم سألت ابن عمر وابن الزبير فقالا يوم الذبح ويوم الجمعة قال لا ولكن الشاهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم قرأ ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ والمشهود يوم القيامة ، ثم قرأ ﴿ ذلك يوم مشهود ﴾ وعن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما في الآية قال الشاهد جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمشهود يوم القيامة ثم تلا ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ﴾ ﴿ ذلك يوم مشهود ﴾ .

وعن ابن عباس قال اليوم الموعود يوم القيامة والشاهد محمد صلى الله عليه

= عبيدة ، وموسى بن عبيدة : يضعف في الحديث ، ضعفه يحيى بن سعيد وغيره من قبل حفظه ، وقال ابن كثير : وروى هذا الحديث ابن خزيمة من طرق عن موسى بن عبيدة الربذي ، وهو ضعيف ، وقد روي موقوفاً على أبي هريرة ، وهو أشبه .

وسلم والمشهود يوم القيامة ثم تلا ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود .

وعنه قال الشاهد الله والمشهود يوم القيامة .

قلت وهذه التفاسير عن الصحابة رضي الله عنهم قد اختلفت كما ترى وكذلك اختلفت تفاسير التابعين بعدهم ، واستدل من استدل منهم بآيات ذكر الله فيها أن ذلك الشيء شاهد أو مشهود ، فجعله دليلاً على أنه المراد بالشاهد والمشهود في هذه الآية المطلقة ، وليس ذلك بدليل يستدل به على أن الشاهد والمشهود المذكورين في هذا المقام هو ذلك الشاهد والمشهود الذي ذكر في آية أخرى ، وإلا لزم أن يكون قوله هنا وشاهد ومشهود هو جميع ما أطلق عليه في الكتاب العزيز أو السنة المطهرة أنه يشهد أو أنه مشهود ، وليس بعض ما استدلوا به مع اختلافه بأولى من بعض ، ولم يقل قائل ذلك .

فإن قلت هل في المرفوع الذي ذكرته من حديثي أبي هريرة وحديث أبي مالك الأشعري وحديث جبير بن مطعم ومرسل سعيد بن المسيب ما يعين هذا اليوم الموعود والشاهد والمشهود .

قلت أما اليوم الموعود فلم تختلف هذه الروايات التي ذكر فيها بل اتفقت على أنه يوم القيامة ، وأما الشاهد ففي حديث أبي هريرة الأول أنه يوم الجمعة وفي حديثه الثاني أنه يوم عرفة ويوم الجمعة ، وفي حديث الأشعري أنه يوم الجمعة ، وفي حديث جبير أنه يوم الجمعة وفي مرسل سعيد أنه يوم الجمعة فاتفقت هذه الأحاديث عليه ، ولا تضر زيادة يوم عرفة عليه في حديث أبي هريرة الثاني .

وأما المشهود ففي حديث أبي هريرة الأول أنه يوم عرفة وفي حديثه الثاني أنه يوم القيامة وفي حديث أبي مالك أنه يوم عرفة وفي حديث جبير أنه يوم عرفة ، وكذا في حديث سعيد ، فقد تعين في هذه الروايات أنه يوم عرفة ، وهي أرجح من تلك الرواية التي صرح فيها بأنه يوم القيامة ، فحصل من مجموع هذا رجحان ما ذهب إليه الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة ، وأما اليوم الموعود فقد قدمنا أنه

وقع الإجماع على أنه يوم القيامة .

﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ هذا جواب القسم واللام فيه مضمرة وهو الظاهر ، وبه قال الفراء وغيره وقيل تقديره لقد قتل فحذفت اللام وقد ، وعلى هذا تكون الجملة خبرية والظاهر أنها دعائية لأن معنى قتل لعن ، قال الواحدي : في قول الجميع والدعائية لا تكون جواباً للقسم فقيل الجواب قوله ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين ﴾ وقيل قوله ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ وبه قال المبرد واعترض عليه بطول الفصل .

وقيل هو مقدر يدل عليه قوله قتل أصحاب الأخدود كأنه قال أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود ، فإن السورة وردت لتثبيت المؤمنين على أذاهم وتذكيرهم بما جرى على من قبلهم .

وقيل تقدير الجواب أن الأمر حق في الجزاء ، وقيل تقدير الجواب لتبعثن ، واختاره ابن الانباري .

وقال أبو حاتم السجستاني وابن الانباري أيضاً في الكلام تقديم وتأخير أي ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ واعترض عليه بأنه لا يجوز أن يقال والله قام زيد .

وعن ابن مسعود قال : ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ إلى قوله ﴿ شاهد ومشهود ﴾ هذا قسم على ﴿ أن بطش ربك لشديد ﴾ إلى آخرها ، والأخدود جمع خد وهو الحق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق وجمعه أخاديد ومنه الخد لمجاري الدموع والمخدة لأن الخد يوضع عليها ، ويقال تخدد وجه الرجل إذا صارت فيه أخاديد من جراح .

أخرج عبد الرازق وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي والطبراني عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « كان ملك من الملوك فيمن كان قبلكم وكان لذلك الملك كاهن يكهن له فقال له ذلك الكاهن انظروا لي غلاماً فهماً ـ أو قال فطناً ـ ألقنه فأعلمه علمي فإني أخاف أن أموت فينقطع منكم هذا العلم ، ولا يكون فيكم من يعلمه قال فنظروا له على

ما وصف فأمروه أن يحضر ذلك الكاهن وأن يختلف إليه فجعل الغلام يختلف إليه وكان على طريق الغلام راهب في صومعة فجعل الغـلام يسأل ذلـك الراهب كلما مر به فلم يزل به حتى أخبره فقال إنما أعبد الله فجعل الغلام يمكث عند هذا الراهب ، ويبطىء عن الكاهن ، فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرني ، فأخبر الغلام الراهب بذلك فقال له الراهب إذا قال لك أين كنت فقل عند أهلي ، وإذا قال لك أهلك أين كنت فأخبرهم أني كنت عند الكاهن ، فبينما الغلام على ذلك إذ مر بجماعة من الناس كثير قد حبستهم دابة يقال أنها كانت أسداً فأخذ الغلام حجراً فقال اللهم إن كان ما يقول ذلك الراهب حقاً فأسألك أن أقتل هذا الدابة ، وإن كان ما يقول الكاهن حقا فأسألك أن لا أقتلها ، ثم رمى فقتل الدابة فقال الناس من قتلها قالوا الغلام ففزع الناس وقالوا قد علم هذا الغلام علماً لم يعلمه أحد ، فسمع أعمى فجاءه فقال له إن أنت رددت عليّ بصري فلك كذا وكذا فقال الغلام لا أريد منك هذا ، ولكن أرأيت إن رجع عليك بصرك أتؤمن بالذي رده عليك قال نعم ، فدعا الله فرد عليه بصره فآمن الأعمى فبلغ الملك أمرهم فبعث إليهم فأتى بهم فقال لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه فأمر بالراهب والرجل الذي كان أعمى فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله وقتل الآخر بقتلة أخرى ، ثم أمر بالغلام فقال انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا فالقوه من رأسه فانطلقوا به إلى ذلك الجبل فلما انتهوا إلى ذلك المكان الذي أرادوا أن يلقوه منه جعلوا يتهافتون من ذلـك الجبل ويتـردون حتى لم يبق منهم إلا الغلام ، ثم رجع الغلام فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيلقوه فيه ، فانطلقوا به إلى البحر ، فغرّق الله الذين كانوا معه وأنجاه ، فقال الغلام للملك إنك لن تقتلني حتى تصلبني وترميني وتقول إذا رميتني بسم الله رب الغلام ، فأمر به فصلب ثم رماه وقال بسم الله رب الغلام فوقع السهم في صدغه فوضع الغلام يده على موضع السهم ثم مات ، فقال الناس لقد علم هذا الغلام علماً ما علمه أحد ، فإنا نؤمن برب هذا الغلام ، فقيل للملك

أجزعت أن خالفك ثلاثة فهذا العالم كلهم قد خالفوك ، قال فخد أخدوداً ثم ألقي فيها الحطب والنار ، ثم جمع الناس فقال : من رجع عن دينه تركناه ، ومن لم يرجع ألقيناه في هذه النار ، فجعل يلقيهم في تلك الأخدود ، فقال يقول الله ﴿ قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود ﴾ حتى بلغ ﴿ العزيز الحميد ﴾ فأما الغلام فإنه دفن ثم أخرج فيذكر أنه خرج في زمن عمر بن الخطاب وإصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل .

ولهذه القصة ألفاظ فيها بعض اختلاف ، وقد رواها مسلم في أواخر الصحيح عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب .

وأخرجها أحمد من طريق عفان عن حماد به .

وأخرجها النسائي عن أحمد بن سليمان عن حماد بن سلمة به .

وأخرجها الترمذي عن محمود بن غيلان وعبد بن حميد عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت به .

وعن علي بن أبي طالب في قوله ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ قال هم الحبشة أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم .

وعن ابن عباس « قال هم ناس من بني إسرائيل خدوا اخدوداً في الأرض أوقدوا فيه ناراً ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء فعرضوا عليها » أخرجه ابن جرير وقال مقاتل كانت الأخاديد ثلاثة واحدة بنجران باليمن وأخرى بالشام . وأخرى بفارس ، حرق أصحابها بالنار فأما التي بالشام فهو أبطاموس الرومي ، وأما التي بفارس فبختنصر ، ويزعمون أنهم أصحاب دانيال ، وأما التي باليمن فذو نواس .

فأما التي بالشام وفارس فلم ينزل الله فيهم قرآنا وأنزل في التي بنجران اليمن وذلك لأن هذه القصة كانت مشهورة عند أهل مكة فذكرها الله تعالى لأصحاب رسوله يحملهم بذلك على الصبر وتحمل المكاره في الدين .

ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾

﴿ النار ذات الوقود ﴾ قرأ الجمهور النار بالجر على أنها بدل اشتمال من الأخدود لأن الأخدود مشتمل عليها وحينئذ فلا بد من ضمير مقدر أي النار فيه وذات الوقود وصف لها بأنها نار عظيمة والوقود الحطب الذي توقد به ، وقيل هو بدل كل من كل ، وقيل أن النار مخفوضة على الجوار حكاه مكي عن الكوفيين .

قرأ الجمهور بفتح الواو من الوقود ، وقرىء بضمها وبرفع النار على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هي النار أو على أنها فاعل فعل محذوف أي أحرقتهم النار .

﴿ إذ هم عليها قعود ﴾ العامل في الظرف قتل أي لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدين على ما يدنو منها ويقرب إليها ، قال مقاتل يعني عند النار قعود يعرضونهم على الكفر ، وقال مجاهد كانوا قعوداً على الكراسي عند الأخدود ، قال زاده عبر عن القعود على حافة النار بالقعود على نفس النار للدلالة على أنهم حال قعودهم على شفيرها مستولون عليها يقذفون فيها من شاؤوه ويخلون سبيل من شاؤوه .

﴿ وهم ﴾ أي الذين خدّدوا الأخدود وهم الملك وأصحابه ﴿ على ما يفعلون بالمؤمنين ﴾ بالله تعالى من عرضهم على النار ليرجعوا إلى دينهم ﴿ شهود ﴾ أي

حضور أو يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به ، وقيل يشهدون بما فعلوا يوم القيامة ثم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ، وقيل على بمعنى مع والتقدير وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين من الإحراق شهود لا يرقون لهم لغاية قسوة قلوبهم ، هذا هو الذي يستدعيه النظم وتنطق به الروايات المشهورة

قال الزجاج أعلم الله قصة قوم بلغت بصيرتهم وحقيقة إيمانهم إلى أن صبروا على أن يحرقوا بالنار في الله ، وفيه حث للمؤمنين على الصبر وتحمل أذى أهل الكفر والعناد .

روي أن الله أنجى المؤمنين الملقين في النار وكانوا سبعة وسبعين بقبض أرواحهم قبل وقوعهم فيها وخرجت النار إلى من ثم فأحرقتهم ، وهؤلاء لم يرجعوا عن دينهم ، والذين رجعوا عشرة أو أحد عشر ، ولم يرد نص بتعيين عدد أصحاب الأخدود .

﴿ وما نقموا منهم ﴾ قرأ الجمهور نقموا بفتح النون ، وقرىء بكسرها والفصيح الفتح في المختار نقم الأمر كرهه ، وبابه ضرب ونقم من باب فهم لغة أي ما أنكروا عليهم ولا عابوا منهم ﴿ إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ إلا أن صدقوا بالله الغالب المحمود في كل حال ، قال الزجاج ما أنكروا عليهم ذنباً إلا إيمانهم ، وهذا كقوله ﴿ هل تنقمون منا إلا أن آمنا بآيات ربنا ﴾ وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم كما في قوله :

لاعيب فيهم سوى أن النزيل بهم ... يسلو عن الأهل والأوطان والحشم

وقول الآخر:

ولا عيب فيها غير شكلة عينها ... كذاك عتاق الطير شكلاً عيونها

وقول الأخر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

ثم وصف سبحانه بما يدل على العظم والفخامة فقال ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ ومن كان هذا شأنه فهو حقيق بأن يؤمن به ويوحد ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ من فعلهم بالمؤمنين لا تخفى عليه منه خافية ، وفي هذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود ، ووعد خير لمن عذبوه على دينه من أولئك المؤمنين .

ثم بين سبحانه ما أعد لأولئك الذين فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا من التحريق فقال ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي حرقوهم بالنار ، والعرب تقول فتنت الشيء أي أحرقته وفتنت الدرهم والدينار إذا أدخلته النار لتنظر جودته ، ويقال دينار مفتون ويسمى الصائغ الفتان ، ومنه قوله ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ أي يحرقون وقيل معنى فتنوا المؤمنين محنوهم في دينهم ليرجعوا عنه .

قال الرازي : ويحتمل أن يكون المراد كل من فعل ذلك ، قال وهذا أولى ، لأن اللفظ عام والحكم بالتخصيص ترك للظاهر من غير دليل ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ من قبح صنعهم ولم يرجعوا عن كفرهم وفتنتهم ﴿ فلهم ﴾ في الآخرة ﴿ عذاب جهنم ﴾ بسبب كفرهم ﴿ ولهم ﴾ عذاب آخر زائد على عذاب كفرهم وهو ﴿ عذاب الحريق ﴾ الذي وقع منهم للمؤمنين . وقيل أن الحريق إسم من أسماء النار كالسعير وقيل أنهم يعذبون في جهنم بالزمهرير ، ثم يعذبون بعذاب الحريق فالأول عذاب ببردها ، والثاني عذاب بحرها .

وقال الربيع بن أنس أن عذاب الحريق أصيبوا به في الدنيا ، وذلك أن النار ارتفعت من الأخدود إلى الملك وأصحابه فأحرقتهم ، وبه قال الكلبي ، ومفهوم الآية انهم لو تابوا لخرجوا من هذا الوعيد ، وإنما عبر سبحانه بأداة التراخي لأن التوبة مقبولة قبل الغرغرة ولوطال الزمان .

ثم لما ذكر سبحانه وعيد المجرمين أتبعه بذكر ما أعده للمؤمنين الذين أحرقوا بالنار فقال ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وظاهر الآية العموم

فيدخل في ذلك المحرقون في الأخدود بسبب إيمانهم دخولاً أولياً ، والمعنى أن الجامعين بين الإيمان وعمل الصالحات ﴿ لهم ﴾ بسبب الإيمان والعمل الصالح ﴿ جنات تجري من تحتها ﴾ أي تحت أسرتها وغرفها وجميع أماكنها ﴿ الأنهار ﴾ يتلذذون ببردها في نظير ذلك الحر الذي صبروا عليه في الدنيا .

وقد تقدم كيفية جري الأنهار من تحت الجنات في غير موضع ، وأوضحنا أنه إن أريد بالجنات الأشجار فجري الأنهار من تحتها واضح وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر وهو الشجر لأنها ساترة لساحتها وأرضها .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم ذكره مما أعده الله لهم ﴿ الفوز الكبير ﴾ الذي لا يعدله فوز ولا يقاربه ولا يدانيه ، والفوز الظفر بالمطلوب ، وما في « ذلك » من معنى البعد للإيذان بعلو درجته في الفضل والشرف .

﴿ إن بطش ربك ﴾ بالكفار ﴿ لشديد ﴾ بحسب إرادته قاله الجلال المحلي ، وفيه إشارة إلى الرد على الفلاسفة القائلين بأنه موجب بالذات ، وقد نطق القرآن بأنه فعال لما يريد ، والجملة مستأنفة لخطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مبينة لما عند الله سبحانه من الجزاء لمن عصاه ، والمغفرة لمن أطاعه ، والمعنى أن أخذه تعالى للجبابرة والظلمة شديد ، والبطش الأخذ بعنف ، ووصفه بالشدة يدل على أنه قد تضاعف وتفاقم . ومثل هذا **قوله**: ﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾ .

﴿ إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ أي يخلق الخلق أولاً في الدنيا ويعيدهم أحياء بعد الموت كذا قال الجمهور ، وقيل يبدىء للكفار عذاب الحريق في الدنيا ثم يعيده لهم في الآخرة ، واختار هذا ابن جرير والأول أولى ، وقال ابن عباس : يبدىء العذاب ويعيده انتهى ، ومن كان قادراً على الإيجاد والاعادة إذا بطش كان بطشه في غاية الشدة ، وبهذا ظهر التعليل بهذه الجملة لما سبق من شدة البطش .

وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

﴿ وهو الغفور الودود ﴾ أي بالغ المغفرة لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها ، بالغ المحبة للمطيعين من أوليائه ، قال مجاهد الواد لأوليائه فهو فعول بمعنى فاعل . وقال ابن زيد معنى الودود الرحيم ، وحكى المبرد عن إسماعيل القاضي أن الودود هو الذي لا ولد له ، وقيل الودود بمعنى المودود أي يوده عباده الصالحون ويحبونه كذا قال الأزهري .

قال ويجوز أن يكون فعولاً بمعنى فاعل أي يكون محباً لهم ، قال وكلتا الصفتين مدح لأنه جل ذكره إن أحب عباده المطيعين فهو فضل منه ، وإن أحبه عباده العارفون فلما تقرر عندهم من كريم إحسانه ، قال ابن عباس : الودود الحبيب .

وقالت المعتزلة غفور لمن تاب ، وقال أصحاب السنة غفور مطلقاً لمن تاب ومن لم يتب ، لأن الآية مذكورة في معرض التمدح بكونه غفوراً مطلقاً أتم ، فالحمل عليه أولى ، ولأن الغفور صيغة مبالغة فالمناسب أن يحمل على الإطلاق . قاله زاده .

﴿ ذو العرش المجيد ﴾ قرأ الجمهور برفع المجيد على أنه نعت لذو ، واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم قالا لأن المجد هو النهاية في الكرم والفضل ، والله سبحانه هو المنعوت بذلك .

وقرىء بالجر على أنه نعت للعرش ومجده علوه وعظمته .

وقدم وصف سبحانه عرشه بالكرم كما في آخر سورة المؤمنين ، قال ابن عباس : المجيد الكريم ، قيل أن العرش أحسن الأجسام ، وقيل هو نعت

لربك ، ولا يضر الفصل بينهما لأنها صفات لله سبحانه ، وقال مكي : هو خبر بعد خبر . والأول أولى . ومعنى ذو العرش ذو الملك والسلطان كما يقال فلان على سرير ملكه ، وقيل المراد خالق العرش .

﴿ فعال لما يريد ﴾ من الإبداء والاعادة ، قال عطاء لا يعجز عن شيء يريده ولا يمتنع منه شيء طلبه ، وارتفاع فعال على أنه خبر مبتدأ محذوف ، قال الفراء : هو رفع على التكرير والاستئناف لأنه نكرة محضة ، قال ابن جرير : رفع فعال وهو نكرة محضة على وجه الاتباع لإعراب ﴿ الغفور الودود ﴾

وإنما قال : « فعال » لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة ، والإرادة هنا تكوينية فيكون فيه دلالة على خلق أفعالهم ، وختم به الصفات لأنه كالنتيجة للأوصاف السابقة .

قال الكرخي : نكره لضرب من التعظيم تتلاشى عنده الأوهام والعقول ، قال بعضهم : وفيه دلالة على أنه لا يجب عليه شيء لأنها دالة على أن فعله بحسب إرادته ، ثم ذكر سبحانه خبر الجموع الكافرة فقال :

﴿ هل أتاك حديث الجنود ﴾ والجملة مستأنفة مقررة لما تقدم من شدة بطشه سبحانه وكونه فعالاً لما يريد ، وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي هل أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة الطاغية في الأمم الخالية المكذبة لأنبيائهم المتجندة عليها .

ثم بيّنهم فقال ﴿ فرعون وثمود ﴾ وهو بدل من الجنود ، فالمراد بفرعون هو وقومه والمراد بثمود القوم المعروفون ، والمراد بحديثهم ما وقع منهم من الكفر والعناد والضلال ، وما وقع عليهم من العذاب والنكال ، وقصتهم مشهورة ، وقد تكرر في الكتاب العزيز ذكرها في غير موضع ، واقتصر على الطائفتين لاشتهار أمرهما عند أهل الكتاب ، وعند مشركي العرب ودل بهما على أمثالهما .

ثم أضرب عن مماثلة هؤلاء الكفار الموجودين في عصره صلى الله عليه

وآله وسلم إضراباً إنتقالياً لمن تقدم ذكرهم وبيّن أنهم أشد منهم في الكفر والتكذيب فقال ﴿ بل الذين كفروا في تكذيب ﴾ شديد لك ولما جئت به ، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار .

﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ أي يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك لا عاصم لهم منه ، والاحاطة بالشيء الحصر له من جميع جوانبه فهو تمثيل لعدم نجاتهم بعدم فوت المحاط به على المحيط .

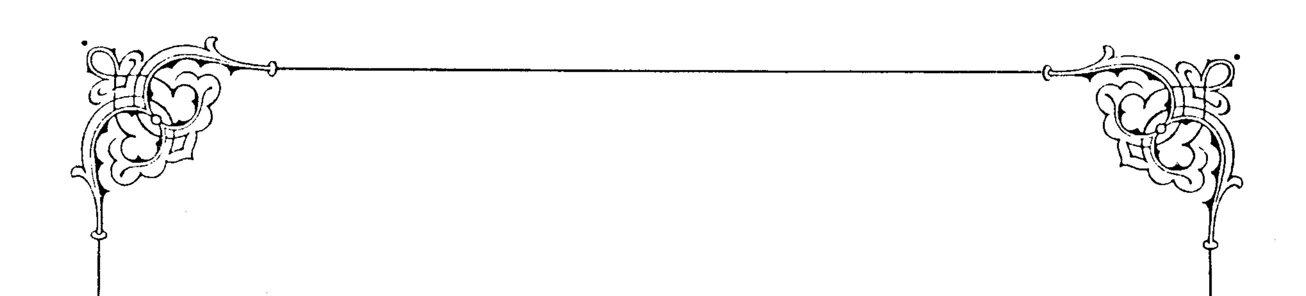
ثم رد سبحانه تكذيبهم بالقرآن فقال : ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ أي متناه في الشرف والكرم والبركة والنفع ، معجز بنظمه عالي الطبقة من بين الكتب ، وحيد في النظم والمعنى لكونه بياناً لما شرعه الله لعباده من أحكام الدين والدنيا وليس هو كما يقولون أنه شعر وكهانة وسحر .

﴿ في لوح محفوظ ﴾ أي مكتوب في لوح وهو أم الكتاب محفوظ عند الله من وصول الشياطين اليه ، قرأ الجمهور لوح بفتح اللام واتفق عليها القراء وقرأ الجمهور محفوظ بالجر على أنه نعت للوح وقرىء برفعه على أنه نعت للقرآن ، أي ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ محفوظ في لوح ، قيل والمراد باللوح بضم اللام الهواء والفضاء الذي فوق السماء السابعة ، وبه قال أبو الفضل وكذا قال ابن خالويه .

وقال في الصحاح اللوح بالضم الهواء بين السماء والأرض ، وعن ابن عباس قال « أخبرت أن لوح الذكر لوح واحد فيه الذكر » وأن ذلك اللوح نور ، وأنه مسيرة ثلمائة سنة » أخرجه ابن المنذر ، وعن انس ان اللوح المحفوظ الذي ذكره الله في الآية في جبهة اسرافيل .

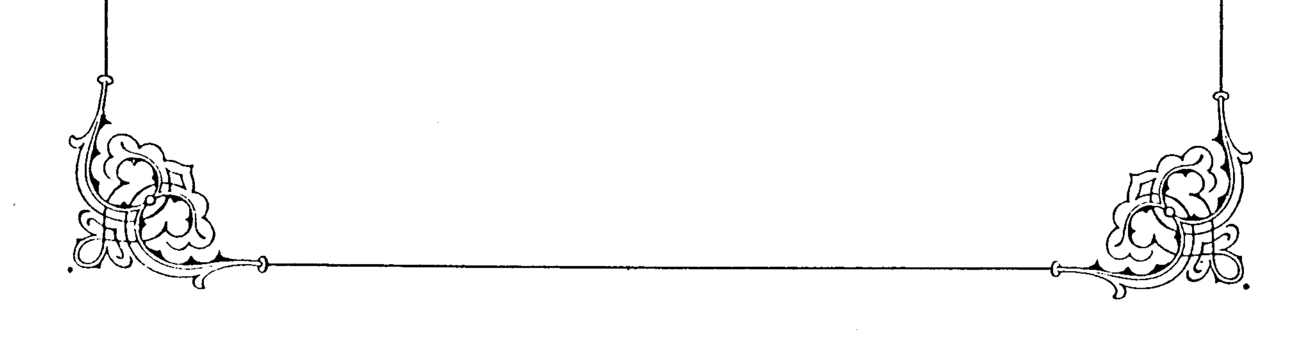
وأخرج أبو الشيخ قال السيوطي بسند جيد عن ابن عباس قال : «خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق اكتب علمي في خلقي ، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة » وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش .





سورة الطارق

هي سبع عشرة آية وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة وعن خالد العدواني « أنه أبصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سوق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا حين أتاهم يبتغي النصر عندهم. فسمعه يقرأ ﴿والسماء والطارق﴾ حتى ختمها قال فوعيتها في الجاهلية ثم قرأتها في الاسلام. قال فدعتني ثقيف فقالوا ماذا سمعت من هذا الرجل. فقرأتها فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا. لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه » أخرجه أحمد والبخاري في تاريخه والطبراني وابن مردويه.





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾

﴿ والسماء والطارق ﴾ أقسم سبحانه بالسماء والطارق ، وقد أكثر في كتابه العزيز ذكر السماء والشمس والقمر والنجوم ، لأن أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها عجيبة ، والطارق هو النجم الثاقب كما صرح به التنزيل .

قال الواحدي : قال المفسرون أقسم الله بالطارق يعني الكواكب تطرق بالليل وتخفى بالنهار ، قال الفراء : الطارق النجم لأنه يطلع بالليل ، وما أتاك ليلاً فهو طارق ، وكذا قال الزجاج والمبرد .

وقد اختلف في الطارق هل هو نجم معين أو جنس النجم ، فقيل هو زحل وقيل الثريا وقيل هو الذي ترمى به الشياطين ، وقيل هو جنس النجم ، قال في الصحاح : والطارق النجم الذي يقال له كوكب الصبح .

قال الماوردي : أصل الطروق الدق فسمي قاصد الليل طارقاً لاحتياجه في الوصول إلى الدق ، ثم اتسع به في كل ما ظهر بالليل كائناً ما كان ، ثم اتسع كل التوسع حتى أطلق على الصور الخالية البادية بالليل .

وقال قوم إن الطروق قد يكون نهاراً والعرب تقول أتيتك اليوم طرقتين أي مرتين ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم « أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار ، إلا طارقاً يطرق بخير » قال ابن عباس أقسم ربك بالطارق وكل شيء طرقك بالليل فهو طارق .

ثم بين سبحانه ما هو الطارق تفخيماً لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام به فقال ﴿ وما أدراك ما الطارق ﴾ وفيه تنبيه على أن رفعة قدره بحيث لا ينالها إدراك

الخلق ، فلا بد من تلقيها من الخلاق العليم .

﴿ النجم الثاقب ﴾ أي المضيء ومنه يقال ثقب النجم ثقوباً إذا أضاء وثقوبه ضؤوه ، قال مجاهد : الثاقب المتوهج وقيل المرتفع العالي ، قال سفيان : كل ما في القرآن « وما أدراك » فقد أخبره ، وكل شيء قال « ما يدريك » لم يخبره به .

وقيل هو نجم في السماء السابعة وهو زحل لا يسكنها غيره من النجوم ، وإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة ، فهو طارق حين ينزل وحين يصعد .

ولم يقل : والنجم الثاقب ، مع أنه أخصر وأظهر فعدل عنه تفخيماً لشأنه فأقسم أولاً بما يشترك فيه هو وغيره وهو الطارق ، ثم فسره بالنجم إزالة لذلك الإبهام الحاصل بالاستفهام ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر نشأ مما قبله كأنه قيل ما هو فقيل هو النجم الثاقب .

﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ هذا جواب القسم ، وما بينهما اعتراض جيء به لتأكيد فخامة القسم المستتبع لتأكيد مضمون الجملة المقسم عليها ، وقد تقدم في سورة هود اختلاف القراء في « لما » فمن قرأ بتخفيفها كانت إن هنا هي المخففة من الثقيلة فيها ضمير الشأن المقدر وهو اسمها ، واللام هي الفارقة و « ما » مزيدة ، وهذا كله تفريع على قول البصريين أي أن الشأن كل نفس لعليها حافظ .

ومن قرأ بالتشديد فإن نافية ، ولما بمعنى إلا أي ما كل نفس إلا عليها حافظ ، قيل والحافظ هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها وقولها وفعلها ، ويحصون ما تكسب من خير وشر ، وقيل الحافظ هو الله عز وجل .

وعدى حافظ بعلى لتضمينه معنى القيام ، فإنه تعالى قائم على خلقه

بعلمه واطلاعه على أحوالهم وقيل هو العقل يرشدهم إلى المصالح ويكفهم عن المفاسد ، والأول أولى لقوله ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ وقوله ﴿ ويرسل عليكم حفظة ﴾ وقوله ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ﴾ والحافظ في الحقيقة هو الله عز وجل كما في قوله ﴿ فالله خير حافظاً ﴾ وقوله ﴿ وكان الله على كل شيء رقيباً ﴾ فإن الممكنات كما تحتاج إلى الواجب لذاته في وجودها تحتاج إليه في بقائها ، وحفظ الملائكة من حفظه لأنهم يحفظونه بأمره .

﴿ فلينظر الإنسان ﴾ الفاء للدلالة على أن كون حافظ على كل نفس يوجب على الإنسان أن يتفكر في مبتدأ خلقه ليعلم قدرة الله على ما هو دون ذلك من البعث ، قال مقاتل يعني المكذب بالبعث ﴿ مم خلق ﴾ أي من أي شيء خلقه الله ، والمعنى فلينظر نظر التفكر والإستدلال حتى يعرف أن الذي ابتدأه من نطفة قادر على إعادته .

ثم بيّن سبحانه ذلك فقال ﴿ خلق من ماء دافق ﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، والماء هو المني والدفق الصب ، يقال دفقت الماء أي صببته ويقال ﴿ ماء دافق ﴾ أي مدفوق مثل ﴿ عيشة راضية ﴾ أي مرضية .

قال الفراء والأخفش أي مصبوب في الرحم ، قال الفراء وأهل الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول في كثير من كلامهم كقولهم سر كاتم أي مكتوم وهم ناصب أي منصوب وليل نائم ونحو ذلك .

قال الزجاج : من ماء ذي اندفاق يقال دارع وقايس ونابل أي ذو درع وقوس ونبل ، يعني من صيغ النسب كلابن وتامر ، وهو صادق على الفاعل والمفعول أو هو مجاز في الأسناد ، فأسند إلى الماء ما لصاحبه مبالغة أو هو استعارة مكنية وتخييلية أو مصرحة بجعله دافقاً لأنه لـتتابع قطراته كأنه يدفق بعضه بعضاً أي يدفعه كما أشار له ابن عطية .

وأراد سبحانه ماء الرجل والمرأة لأن الإنسان مخلوق منهما لكن جعلهما ماء واحداً لامتزاجهما .

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾

ثم وصف هذا الماء فقال ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ أي صلب الرجل وترائب المرأة وهي جمع تريبة وهي موضع القلادة من الصدر، والولد لا يكون إلا من الماءين، قرأ الجمهور يخرج مبنياً للفاعل وقرىء مبنياً للمفعول، وفي الصلب وهو الظهر لغات قرأ الجمهور بضم الصاد وسكون اللام، وقرأ أهل مكة بضمهما، وقرأ اليماني بفتحهما، ويقال صالب على وزن قالب ومنه قول العباس بن عبد المطلب * تنقل من صالب إلى رحم * في أبياته المشهورة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وقد تقدم كلام في هذا عند تفسير قوله ﴿الذين من أصلابكم﴾ وقيل الترائب ما بين الثديين.

وقال الضحاك: ترائب المرأة اليدان والرجلان والعينان وقال: سعيد بن جبير هي الجيد، وقال مجاهد هي ما بين المنكبين والصدر، وروي عنه أنه قال: هي الصدر، وعنه قال هي: التراقي، وحكى الزجاج أن الترائب عصارة القلب ومنه يكون الولد، والمشهور في اللغة أنها عظام الصدر والنحر، قال عكرمة الترائب الصدر.

قال في الصحاح التريبة واحدة الترائب وهي عظام الصدر، قال أبو عبيدة جمع التريبة تريب، وحكى الزجاج أن الترائب أربع أضلاع من يمنة الصدر، وأربع أضلاع من يسرة الصدر.

قال قتادة والحسن المعنى يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة، وحكى الفراء أن مثل هذا يأتي من العرب يكون معنى من بين الصلب من الصلب، وقيل إن ماء الرجل ينزل من الدماغ.

ولا يخالف هذا ما في الآية لأنه إذا نزل من الدماغ نزل من بين الصلب والترائب ، وقيل أن المنى يخرج من جميع أجزاء البدن ، ولا يخالف هذا ما في الآية لأن نسبة خروجه إلى ما بين الصلب والترائب باعتبار أن أكثر أجزاء البدن هي الصلب والترائب وما يجاورها وما فوقها مما يكون تنزله منها .

قال ابن عباس في الآية : ما بين الجيد والنحر ، وعنه قال : تريبة المرأة وهي موضع القلادة وعنه الترائب ما بين ثدي المرأة وعنه الترائب أربع أضلاع من كل جانب من أسفل الاضلاع ، قال ابن عادل أن الولد يخرج من ماء الرجل يخرج من صلبه العظم والعصب ، ومن ماء المرأة يخرج من ترائبها اللحم والدم .

﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ الضمير في « إنه » يرجع إلى الله سبحانه بدلالة قوله ﴿ خلق ﴾ عليه ، فان الذي خلقه هو الله سبحانه ، والضمير في رجعه عائد إلى الإنسان ، والمعنى أن الله سبحانه على اعادة الإنسان بالبعث بعد الموت لقادر ، هكذا قال جماعة من المفسرين .

وقال مجاهد : على أن يرد الماء في الإحليل ، وقال عكرمة والضحاك على أن يرد الماء في الصلب ، وقال مقاتل بن حيان يقول إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الصبا ، ومن الصبا إلى النطفة وقال ابن زيد إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر ، والأول أظهر ، ورجحه ابن جرير والثعلبي والقرطبي ، قال ابن عباس : على أن يجعل الشيخ شاباً والشاب شيخاً .

﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ العامل في الظرف على تفسير الأول هو رجعه ، وقيل لقادر ، واعترض عليه بأنه يلزم تخصيص القدرة بهذا اليوم ، وقيل العامل فيه مقدر أي يرجعه أو اذكر فيكون مفعولاً به .

وأما على قول من قال أن المراد رجع الماء فالعامل فيه اذكر ، والمعنى تختبر وتعرف وتكشف السرائر التي تسر في القلوب من العقائد والنيات

وغيرها ، وقيل يظهر الخبايا وقيل يبدي كل سر فيكون زيناً في وجوه ، وشيناً في وجوه ، والمراد هنا عرض الأعمال ونشر الصحف ، فعند ذلك يتميز الحسن منها من القبيح ، والغث من السمين ، وفي المختار السر الذي يكتم وجمعه أسرار ، والسريرة مثله والجمع سرائر .

﴿ فما له من قوة ولا ناصر ﴾ أي فما للأنسان من قوة ومنعة في نفسه يمتنع بها من عذاب الله ولا ناصر ينصره مما نزل به ، قال عكرمة هؤلاء الملوك ما لهم يوم القيامة من قوة ولا ناصر ، قال سفيان القوة العشيرة والناصر الحليف والأول أولى .

﴿ والسماء ذات الرجع ﴾ أي التي ترجع بالدوران إلى الموضع الذي تتحرك عنه ، قال الزجاج : الرجع المطر ، لانه يجيء ويرجع ويتكرر ، قال الخليل الرجع المطَر نفسه ، والرجع نبات الربيع .

قال الواحدي : الرجع المطر في قول جميع المفسرين ، وفي هذا نظر فإن ابن زيد قال الرجع الشمس والقمر والنجوم يرجعن في السماء تطلع من ناحية وتغيب في ناحية ، وقال بعض المفسرين ذات الرجع ذات الملائكة لرجوعهم إليها بأعمال العباد ، وقال بعضهم معناه ذات النفع .

ووجه تسمية المطر رجعاً ما قاله القفال أنه مأخوذ من ترجيع الصوت وهو إعادته وكذا المطر لكونه يعود مرة بعد أخرى سمي رجعاً ، وقيل إن العرب كانوا يزعمون أن السحاب تحمل الماء من بحار الأرض ثم ترجعه إلى الأرض ، وقيل سمته العرب رجعاً لاجل التفاؤل ليرجع عليهم وقيل لان الله يرجعه وقتاً بعد وقت ، وقال ابن عباس الرجع المطر بعد المطر .

﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات والثمار والشجر والأنهار والعيون ، والصدع الشق لانه يصدع الأرض فتنصدع له قالَ أبو عبيدة والفراء : تتصدع بالنبات ، قال مجاهد : والأرض ذات الطرق التي تصدعها المياه وقيل ذات الحرث لانه يصدعها ، وقيل ذات

الاموات لانصداعها عنهم عند البعث .

والحاصل أن الصدع إن كان اسماً للنبات فكأنه قال والأرض ذات النبات ، وان كان المراد به الشق فكأنه قال والأرض ذات الشق الذي يخرج منه النبات ونحوه ، وقال ابن عباس صدعها عن النبات وعنه قال تصدع الاودية .

وعن معاذ بن أنس مرفوعاً قال « تصدع بإذن الله عن الأموال والنبات » ، اخرجه ابن منده والديلمي .

قال الرازي إنه تعالى كما جعل كيفية خلقه الحيوان دليلاً على معرفة المبدأ والمعاد ، ذكر في هذا القسم كيفية خلقه النبات ، فقوله تعالى ﴿ والسماء ذات الرجع ﴾ كالأب وقوله ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ كالأم ، وكلاهما من النعم العظام لان نعم الدنيا موقوفة على ما ينزل من السماء مكرراً ، وعلى ما ينبت من الأرض كذلك .

وجواب القسم الثاني قوله ﴿ إنه لقول فصل ﴾ أي أن القرآن لقول يفصل بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما كما قيل له فرقان ، ومنه فصل الخصومات وهو قطعها بالحكم الجازم ، ويقال هذا قول فصل أي قاطع للشر والنزاع ، وقال ابن عباس فصل حق .

﴿ وما هو بالهزل ﴾ أي لم ينزل القرآن الكريم باللعب فهو جد كلمة ليس بالهزل ، والهزل ضد الجد ، فيجب أن يكون مهيباً في الصدور ، ومعظماً في القلوب ، يترفع به قارئه وسامعه عن أن يلم بهزل أو يتفكه بمزاح ، وقال ابن عباس بالهزل بالباطل .

﴿ انهم يكيدون كيداً ﴾ أي يمكرون في إبطال ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدين الحق ، قال الزجاج يخاتلون النبي صلى الله عليه وسلم ويظهرون ما هم على خلافه ، وذلك حين اجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا فيه وقيل الكيد القاء الشبهات كقولهم ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾

﴿ من يحيي العظام وهي رميم ﴾ ﴿ أجعل الآلهة إلٰهاً واحداً ﴾ وما أشبه ذلك .

﴿ وأكيد كيداً ﴾ أي أستدرجهم من حيث لا يعلمون وأجازيهم جزاء كيدهم ، قيل هو ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل والاسر ، وقيل كيد الله لهم نصرة نبيه صلى الله عليه وسلم وإعلاء درجته ، تسمية لإحدى المتقابلين بالاسم الآخر كقوله ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ .

﴿ فمهل الكافرين ﴾ أي أخرهم ولا تسأل الله سبحانه تعجيل هلاكهم والدعاء عليهم باهلاكهم فإنّا لا نعجل لان العجلة وهي ايقاع الشيء في غير وقته اللائق به نقص ، وارض بما يريده لك في أمورهم ﴿ أمهلهم ﴾ بدل من مهل ومهل ، وأمهل بمعنى مثل نزل وأنزل ، والامهال الانظار ، وتمهل في الامر اتأد ، وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين والتصبير ، وانتصاب ﴿ رويداً ﴾ على أنه مصدر مؤكد للفعل المذكور أو نعت لمصدر محذوف أي أمهلهم امهالاً رويداً أي قليلاً أو قريباً .

وقد أخذهم الله تعالى ، ونسخ الامهال بآية السيف والامر بالقتال والجهاد ، قال أبو عبيدة الرويد في كلام العرب تصغير الرود والرود المهل ، وقيل تصغير أرواد مصدر أرود تصغير الترخيم ، ويأتي اسم فعل نحو : رويد زيداً أي أمهله ويأتي حالاً نحو سار القوم رويداً أي متمهلين ذكر معنى هذا الجوهري والبحث مستوفى في علم النحو .

سورة الأعلى

ويقال سورة سبح وهي تسع عشرة آية هي مكية في قول الجمهور، وقال الضحاك مدنية، وعن ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير وعائشة مثله.

وأخرج البخاري وغيره عن البراء بن عازب قال «أول من قدم علينا من أصحاب النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلا يقرآننا القرآن ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ثم جاء النبي صلى اللّه عليه وسلم، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون هذا رسول اللّه عليه وآله وسلم قد جاء فما جاء حتى قرأت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ وسورة مثلها[1].

---

(١) روى البخاري في « صحيحه » ٥٣٧/٨ عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ (يعني المدينة) مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلا يقرآننا القرآن، ثم جاء عمار، وبلال، وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله ﷺ قد جاء، فما جاء حتى قرأت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ في سور مثلها أهـ. وقد كان رسول الله ﷺ يقرأ بها وبسورة الغاشية في صلاة الجمعة والعيدين ووتر العشاء، وثبت في « الصحيحين » أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : «هلاَّ صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى »؟.

وعن علي قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحب هذه السورة سبح اسم ربك الأعلى» أخرجه أحمد والبزار وابن مردويه أي لكثرة ما اشتملت عليه من العلوم والخيرات الحسان.

وأخرج احمد ومسلم وأهل السنن عن النعمان بن بشير «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في العيدين وفي الجمعة ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾و﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ وان وافق يوم جمعة قرأهما جميعاً» وفي لفظ وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما. وفي الباب أحاديث.

وأخرج مسلم وغيره عن جابر بن سمرة «أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ في الظهر سبح اسم ربك الأعلى».

وأخرج أبو داود والنسائي وابن ماجه والدارقطني والحاكم والبيهقي عن أبيّ بن كعب قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر بـ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ﴿ وقل يا أيها الكافرون ﴾ ﴿ وقل هو الله أحد ﴾.

وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقي عن عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الوتر في الركعة الاولى بسبح وفي الركعة الثانية ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وفي الثالثة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ والمعوذتين».

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ هلا صليت بـ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ﴿ والليل اذا يغشى ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ أي نزهه عن كل ما لا يليق به في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه ، قال السدي : أي عظمه قيل والإسم هنا مقحم لقصد التعظيم ، قال ابن جرير المعنى نزه اسم ربك أن يسمى به أحد سواه ، فلا تكون لفظة « اسم » على هذا مقحمة وقيل المعنى نزه تسمية ربك وذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت له خاشع معظم ولذكره محترم ، وقال الحسن معنى سبح صل له وقيل المعنى صل بأسماء الله لا كما يصلي المشركون بالمكاء والتصدية وقيل المعنى ارفع صوتك بذكر ربك ومنه قول جرير :

قبح الإله وجوه تغلب كلما سبح الحجيج وكبروا تكبيرا

وقال جماعة من الصحابة والتابعين قل سبحان ربي الأعلى ، وقيل معناه نزه ربك الأعلى عما يصفه به الملحدون ، فعلى هذا يكون الإسم صلة ، والأعلى صفة للرب ، وقيل للاسم ، والأول أولى .

وعن عقبة بن عامر الجهني قال لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم ، قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اجعلوها في ركوعكم ، فلما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال اجعلوها في سجودكم أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه ولا مطعن في إسناده » .

وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال سبحان ربي الأعلى » أخرجه أحمد والطبراني وابن مردويه

والبيهقي ، وقال أبو داود خولف فيه وكيع فرواه شعبة عن أبي إسحق عن سعيد عن ابن عباس موقوفاً ، واخرجه موقوفاً أيضاً عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير عنه أنه « كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال سبحان ربي الأعلى » .

وفي لفظ لعبد بن حميد عنه قال إذا قرأت سبح اسم ربك الأعلى فقل سبحان ربي الأعلى ، وعن علي بن أبي طالب « أنه قرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال سبحان ربي الأعلى وهو في الصلاة فقيل له أتزيد في القرآن قال لا إنما أمرنا بشيء فقلته » .

وعن أبي موسى الأشعري أنه قرأ في الجمعة سبح اسم ربك الأعلى فقال سبحان ربي الأعلى .

وعن سعيد بن جبير قال سمعت ابن عمر يقرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال سبحان ربي الأعلى .

وكذلك هي في قراءة أُبيّ بن كعب وعن عمر أنه كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال سبحان ربي الأعلى وعن ابن الزبير أنه قرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال سبحان ربي الأعلى وهو في الصلاة .

وقوله ﴿ الذي خلق فسوى ﴾ صفة أخرى للرب قال الزجاج خلق الإنسان مستوياً ، ومعني سوى عدل قامته وحسن خلقه ، قال الضحاك خلقه فسوى خلقه وقيل خلق الأجساد فسوى الأفهام وقيل خلق الإنسان وهيأه للتكليف والقيام بأداء العبادات وقيل خلق في أصلاب الآباء وسوى في أرحام الأمهات .

وقيل خلق كل شيء فسوى خلقه تسوية ولم يأت به متفاوتاً غير ملتئم ولكن على إحكام واتساق ودلالة على أنه صادر عن عالم حكيم أو سوّاه على ما فيه منفعة ومصلحة وقيل خلق كل ذي روح فسوى اليدين والرجلين والعينين .

وقوله ﴿ والـذي قدر فهـدى ﴾ صفة أخـرى للرب او معطوف عـلى الموصول الذي قبله ، قرىء قدر مخففاً ومثقلاً ، قال الواحدي قال المفسرون : قدر خلق الذكر والأنثى من الدواب فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها .

وقال مجاهد : هدى الإنسان لسبيل الخير والسعادة والشقاوة ، وروي عنه أيضاً أنه قال : قدر السعادة والشقاوة وهدى للرشد والضلالة ، وهدى الانعام لمـراعيها وقيـل قدر أرزاقهم وأقـواتهم وهداهم لمعـايشهم إن كانـوا إنساً ، ولمراعيهم إن كانوا وحشاً .

وقال عطاء : جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له وقيل خلق المنافع في الأشياء وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها ، وقال السدي : قدر مدة الجنين في الرحم تسعة أشهر ، وأقل وأكثر ثم هداه للخروج من الرحم .

قال الفراء أي قدر فهدى وأضل ، فاكتفى بأحدهما .

وفي تفسير الآية أقوال غير ما ذكرنا والأولى عدم تعيين فرد أو أفراد مما يصدق عليه قدر وهدى إلا بدليل يدل عليه ، ومع عدم الدليل يحمل على ما يصدق عليه معنى الفعلين إما على البدل أو على الشمول ، والمعنى قدر أجناس الأشياء وأنواعها وصفاتها وأفعالها وأقوالها وآجالها ، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له وييسره لما خلق له ، وألهمه إلى أمور دينه ودنياه .

ولما ذكر ما يختص بالناس أتبعه بما يختص بالحيوان فقال ﴿ والذي أخرج المرعى ﴾ صفة أخرى للرب أي أنبت العشب وما ترعاه الدواب والنعم من النبات الأخضر .

﴿ فجعله غثاء ﴾ أي فجعل المرعى بعد أن كان أخضر هشيماً يابساً جافاً بالياً كالغثاء الذي يكون فوق السيل ، وفي القاموس الغثاء القماش والزبد والهالك البالي من ورق الشجر ، قال قتادة الغثاء الشيء اليابس ، ريقال للبقل والحشيش إذا انحطم ويبس « غثاء » وهشيم ، قال الكسائي غثاء حال من المرعى أي أخرجه أحوى من شدة الخضرة والري فجعله غثاء بعد ذلك .

﴿ أحوى ﴾ أي اسود بعد اخضراره ، وذلك أن الكلأ إذا يبس أسود ، والأحوى مأخوذ من الحوة وهي سواد يضرب إلى الخضرة ، وقيل خضرة عليها سواد ، وفي القاموس الحوة سواد إلى خضرة أو حمرة إلى السواد ، حوى كرضى حوى ، قال في الصحاح والحوة أي بالضم حمرة الشفة ، قال ابن عباس غثاء هشيماً أحوى متغيراً ، وقال ابن زيد وهذا مثل ضربه الله للكفار بذهاب الدنيا بعد نضارتها .

﴿ سنقرئك ﴾ أي سنجعلك قارئاً بأن نلهمك القـراءة ، والسين إمـا للتأكيد وإما لأن المراد إقراء ما أوحى الله إليه حينئذ وما سيوحي إليه بعد ذلك ، فهو وعد باستمرار الوحي في ضمن الوعد بالإقراء ﴿ فلا تنسى ﴾ ما نقـرأه ، والجملة مستأنفة لبيان هدايته صلى الله عليه وآله وسلم الخاصة به بعد بيان الهداية العامة لكافة خلقه ، وهو هدايته صلى الله عليه وآله وسلم لحفظ القرآن وتلقي الوحي ، وهدايته للناس أجمعين .

قيل هو نفي ، وقيل نهي والألف اشباع ، ومنع مكي أن يكون نهياً لأنه لا ينهى عما ليس باختياره ، وهذا غير لازم إذ المعنى أن النهي عن تعاطي أسباب النسيان وهو شائع فسقط ما قاله .

قال مجاهد والكلبي كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا نزل عليه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأولها مخافة أن ينساها ، فنزلت هذه الآية فلم ينس شيئاً بعد ذلك .

وعن ابن عباس « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستذكر القرآن مخافة أن ينسى فقيل له قد كفيناك ذلك ، ونزلت هذه الآية » وعن سعد بن أبي وقاص نحوه .

وهذه الآية تدل على المعجزة من وجهين :

﴿ الأول ﴾ أنه كان رجلاً أمياً فحفظه لهذا الكتاب المطول من غير دراسة

ولا تكرار خارق للعادة فيكون معجزة .

﴿ الثاني ﴾ أن هذه السورة من أول ما نزل بمكة فهذا إخبار عن أمر عجيب مخالف للعادة سيقع في المستقبل ، وقد وقع فكان هذا إخباراً فيكون معجزاً .

وقوله ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل أي لا تنسى مما تقرأه شيئاً من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه ، قال ابن عباس يقول إلا ما شئت أنا فأنسيك .

قال الفراء وهو لم يشأ سبحانه أن ينسى محمد صلى الله عليه وآله وسلم شيأ كقوله ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ وقيل إلا ما شاء الله أن تنسى ثم تذكر بعد ذلك فإذن قد ينسى ولكنه يتذكر ولا ينسى شيئاً نسياناً كلياً ، وقيل هو بمعنى النسخ أي إلا ما شاء الله أن ينسخه مما نسخ تلاوته وحكمه معاً ، وأما ما نسخت تلاوته فقط أو حكمه فقط فلا يصح أن تنساه للاحتياج إلى تلاوته في الأول ، وإلى حكمه في الثاني .

وقيل المعنى فلا تترك العمل إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه ورفع حكمه ، وقيل إلا ما شاء أن يؤخر إنزاله ، والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة والايذان بدوران المشيئة على عنوان الألوهية المستتبعة لسائر الصفات .

﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ تعليل لما قبله أي يعلم ما ظهر وما بطن ، والاعلان والاسرار ، وظاهره العموم فيندرج تحته ما قيل ان الجهر ما حفظه رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن ، وما يخفى هو ما نسخ من صدره ، ويدخل تحته أيضاً ما قيل من أن الجهر هو إعلان الصدقة وما يخفى هو أخفاؤها .

ويدخل تحته أيضاً ما قيل ان الجهر جهره صلى الله عليه وسلم بالقرآن مع قراءة جبريل مخافة أن يتفلت عليه ، وما يخفى ما في نفسه مما يدعوه إلى الجهر .

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

﴿ ونيسرك لليسرى﴾ معطوف على سنقرئك كما ينبىء عنه الالتفات إلى الحكاية فهو داخل في حيز التنفيس ، وما بينهما اعتراض وارد للتعليل .

قال مقاتل : أن نهون عليك عمل الجنة ، وقيل نوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل ، وقيل للشريعة اليسرى وهي الحنيفية السهلة السمحة البيضاء التي ليلها كنهارها ، وقيل نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به .

والأولى حمل الآية على العموم أي نوفقك للطريقة اليسرى في الدين والدنيا في كل أمر من أمورهما التي تتوجه إليك ، ولهذه النكتة قال ﴿ نيسرك ﴾ ولم يقل نيسر لك أي لإفادة انك موفق لها ، وقال ابن عباس لليسرى للخير ، وقال ابن مسعود للجنة .

﴿ فذكر إن نفعت الذكرى ﴾ أي عظ يا محمد الناس بما أوحينا إليك وأرشدهم إلى سبل الخير، واهدهم إلى شرائع الدين ، قال الحسن تذكرة للمؤمن وحجة على الكافر .

قال الواحدي : إن نفعت أو لم تنفع ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث مبلغاً للإعذار والإنذار فعليه التذكير في كل حال نفع أو لم ينفع ، ولم يذكر الحالة الثانية كقوله ﴿ سرابيل تقيكم الحر﴾ : قال الجرجاني : التذكير واجب وان لم ينفع فالمعنى ان نفعت الذكرى أو لم تنفع ، وقيل انه مخصوص في قوم بأعيانهم ، وقيل ان بمعنى ما أي فذكر ما نفعت الذكرى لأن الذكرى

نافعة بكل حال وقيل انها بمعنى (قد) ذكره ابن خالويه وهو بعيد جداً ، وقيل انها بمعنى اذ .

وما قاله الواحدي والجرجاني أولى وقد سبقهما إلى القول به الفراء والنحاس والزهراوي قال الرازي : قوله ﴿ ان نفعت الذكرى ﴾ للتنبيه على أشرف الحالين وهو وجود النفع الذي لأجله شرعت الذكرى والمعلق بإن على الشيء لا يلزم أن يكون عدماً عند عدم ذلك الشيء ، ويدل عليه آيات منها هذه الآية ، ومنها قوله تعالى ﴿ واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ ومنها قوله ﴿ ولا جناح عليكم أن تقصروا من الصلاة إن خفتم ﴾ فإن القصر جائز عند الخوف وعدمه ، ومنها قوله ﴿ فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله ﴾ والمراجعة جائزة بدون هذا الظن .

فهذا الشرط فيه فوائد منها ما تقدم ، ومنها البعث على الانتفاع بالذكر كما يقول الرجل لمن يرشد ، قد أوضحت لك أن كنت تعقل ، وهو تنبيه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم على أنها لا تنفعهم الذكرى ، أو يكون هذا في تكرير الدعوة فأما الدعاء الأول فهو عام انتهى .

ثم بيّن سبحانه الفرق بين من تنفعه الذكرى ومن لا تنفعه فقال: ﴿ سيذّكر ﴾ أي سيتعظ بوعظك ، والسين بمعنى سوف ، وسوف من الله واجب كقوله سنقرئك فلا تنسى ﴿ من يخشى ﴾ الله فيزداد بالتذكير خشية وصلاحاً .

﴿ ويتجنبها ﴾ أي ويتجنب الذكرى ويبعد عنها فلا يقبلها ﴿ الأشقى ﴾ من الكفار لإصراره على الكفر بالله وانهماكه في معاصيه .

ثم وصف الأشقى فقال ﴿ الذي يصلى النار الكبرى ﴾ أي العظيمة الفظيعة لأنها أشد حراً من غيرها . قال الحسن النار الكبرى نار جهنم والنار الصغرى نار الدنيا ، وقال الزجاج هي السفلى من أطباق النار ، وقيل أن في الاخرة نيراناً ودركات متفاضلة ، فكما أن الكافر أشقى العصاة فكذا يصلى

أعظم النيران .

﴿ ثم لا يموت فيها ﴾ فيستريح مما هو فيه من العذاب ﴿ ولا يحيى ﴾ حياة ينتفع بها ، ومنه قول الشاعر :

ألا ما لنفس لا تموت فينقضي عناها ولا تحيى حياة لها طعم

وثم للتراخي في مراتب الشدة لأن التردد بين الموت والحياة أفظع من صلي النار الكبرى .

ولما ذكر تعالى وعيد من أعرض عن النظر في دلائل الله أتبعه بالوعد لضده فقال ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ أي نال الفوز من تطهر من الشرك فآمن بالله ووحده وعمل بشرائعه ، قال عطاء والربيع من كان عمله زاكياً نامياً ، وقال قتادة : تزكى بعمل صالح ، وقال عطاء وقتادة وأبو العالية نزلت في صدقة الفطر ، قال عكرمة كان الرجل يقول أقدم زكاتي بين يدي صلاتي ، وأصل الزكاء في اللغة النماء .

وقيل المراد بالآية زكاة الأموال كلها . وقيل المراد بها زكاة الأعمال لا زكاة الأموال لأن الأكثر أن يقال في الأموال زكى لا تزكى ، قال ابن عباس : من تزكى من قال لا إله إلا الله .

وعن عوف عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلي صلاة العيد ويتلو هذه الآية » أخرجه البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم في الكنى والبيهقي في سننه وابن مردويه ، وفي لفظ قال « سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن زكاة الفطر فقال ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال هي زكاة الفطر » وكثير بن عبدالله ضعيف جداً[1] قال أبو داود وهو ركن من أركان الكذب وقد صحح الترمذي حديثاً من طرقه وخطىء في ذلك .

ولكن يشهد له ما أخرجه ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري « قد كان

---

(١) أحد رجال إسناد هذا الحديث ولم يذكره المؤلف اقتصاراً .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ ثم يقسم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلى يوم الفطر » .

وليس في هذين الحديثين ما يدل على أن ذلك سبب النزول بل فيهما أنه صلى الله عليه وسلم تلا الآية ، وقوله هي زكاة الفطر يمكن أن يراد به أنها مما يصدق عليه التزكي ، وقد قدمنا أن السورة مكية ولم يكن في مكة صلاة عيد ولا فطرة .

وعن أبي سعيد الخدري في الآية قال « أعطى صدقة الفطر قبل أن يخرج إلى العيد وخرج إلى العيد فصلى » وعن ابن عمر قال إنما أنزلت هذه الآية في إخراج صدقة الفطر قبل صلاة العيد ، وعن عطاء قال قلت لابن عباس أرأيت قوله ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ للفطر قال لم أسمع بذلك ، ولكن للزكاة كلها ، ثم عاودته فقال لي : والصدقات كلها .

﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ قيل المعنى ذكر اسم ربه بالخوف فعبده وصلى له ، وقيل ذكر اسم ربه بلسانه وكبر للافتتاح فصلى أي فأقام الصلوات الخمس ، وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح وعلى أنها ليست من الصلاة لأن الصلاة عطفت عليها وهو يقتضي المغايرة ، على أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه عز وجل ، قاله النسفي وفيه نظر ، وقيل ذكر موقفه ومعاده فعبده وهو كالقول الأول .

وقيل ذكر اسم ربه بالتكبير في أول الصلاة لأنها لا تنعقد إلا بذكره وهو قوله الله أكبر ، وقيل ذكر اسم ربه في طريق المصلى فصلى ، وقيل هو أن يتطوع بصلاة بعد زكاة ، وقيل المراد بالصلاة هنا صلاة العيد كما أن المراد بالتزكي في الآية الأولى زكاة الفطر ، ولا يخفى بعد هذا القول لأن السورة مكية ولم تفرض زكاة الفطر وصلاة العيد إلا بالمدينة .

عن جابر بن عبدالله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال « من شهد أن لا إله إلا الله وقطع الأنداد وشهد أني

رسول الله ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ قال هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بمواقيتها » أخرجه ابن مردويه ، وقال البزار لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه وعن ابن عباس قال من تزكى من الشرك ﴿ وذكر اسم ربه ﴾ قال وحد الله فصلى قال الصلوات الخمس .

﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ هذا إضراب عن كلام مقدر يدل عليه السياق وينساق إليه الكلام أي أنتم لا تفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات الفانية العاجلة الكائنة في الدنيا على الدار الآخرة الآجلة الباقية فلا تفعلون ما به تفلحون .

قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب للكفار فقط أو لمطلق الناس ، ويؤيدها قراءة أبيّ بل أنتم تؤثرون وقرىء بالتحتية على الغيبة وعلى هذا يكون الضمير راجعاً للأشقى ، قيل والمراد بالآية الكفرة والمراد بالايثار للحياة الدنيا هو الرضا بها والاطمئنان إليها والاعراض عن الآخرة بالكلية .

وقيل المراد بها جميع الناس من مؤمن وكافر ، والمراد بإيثارها هو أعم من ذلك مما لا يخلو عنه غالب الناس من إيثار جانب الدنيا على الآخرة ، والتوجه إلى تحصيل منافعها والاهتمام بها اهتماماً زائداً على اهتمامه بالطاعات .

وعن عرفجة الثقفي قال استقرأت ابن مسعود ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ فلما بلغ ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه فقال آثرنا الدنيا على الآخرة فسكت القوم فقال آثرنا الدنيا لأن رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها ، وزويت عنا الآخرة ، فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل ، وقال ﴿ بل يؤثرون الحياة الدنيا ﴾ بالياء .

قال عرفجة عند ابن مسعود فقرأ هذه الآية فقال لنا أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة قلنا لا ، قال لأن الدنيا أحضرت وعجل لنا طعامها وشرابها ونساءها ولذاتها وبهجتها ، وأن الآخرة تغيبت وزويت عنا فأصبنا العاجل وتركنا الآجل .

﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ أي والحال أن الدار الآخرة التي هي الجنة أفضل وأدوم من الدنيا ، لأنها تشتمل على السعادة الجسمانية والروحانية ، والدنيا ليست كذلك ، ولأن الدنيا لذاتها مخلوقة بالآلام ، والآخرة ليست كذلك ، ولأن الدنيا فانية والآخرة باقية ، والباقي خير من الفاني .

قال مالك بن دينار لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى ، فكيف والآخرة من ذهب يبقى ، والدنيا من خزف يفنى .

﴿ إن هذا ﴾ أي ما تقدم من فلاح من تزكى وما بعده ، وقيل إنه إشارة إلى جميع السورة ﴿ لفي الصحف الأولى ﴾ أي ثابت فيها قال النسفي وهو دليل على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة ، لأنه جعله مذكوراً في تلك الصحف مع أنه لم يكن فيها بهذا النظم وبهذه اللغة انتهى .

قال الخطيب : لم يُرد تعالى أن هذه الالفاظ بعينها في تلك الصحف بل معناه أن معنى هذا الكلام في تلك الصحف وفيه بعد لأن أبا حنيفة قد رجع عنه وعليه الإعتماد عند الحنفية وعليه الفتوى منهم وقد وصف الله سبحانه القرآن بكونه عربياً فلا يتم هذا الإستدلال .

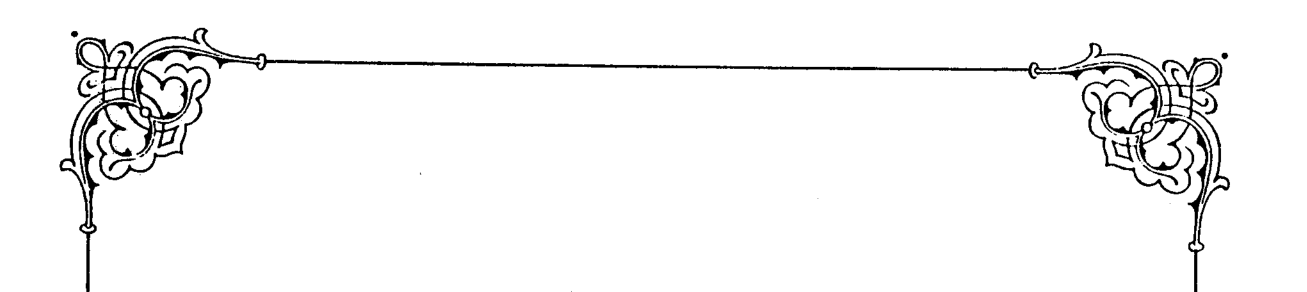
﴿ صحف إبراهيم وموسى ﴾ بدل من الصحف الأولى قال قتادة وابن زيد يريد بقوله ﴿ إن هذا : والآخرة خير وأبقى ﴾ وقالا تتابعت كتب الله عز وجل أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا وقال الحسن تتابعت كتب الله عز وجل إن هذا لفي الصحف الأولى ، وهو قوله ﴿ قد أفلح ﴾ إلى آخر السورة .

قرأ الجمهور صحف بضم الحاء في الموضعين ، وقرىء بسكونها فيهما ، وقرأ الجمهور « إبراهيم » بالألف بعد الراء وبالياء بعد الهاء ، وقرىء بحذفهما وفتح الهاء ، وقرأ أبو موسى وابن الزبير إبراهام بألفين .

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هي كلها في صحف إبراهيم وموسى » أخرجه البزار وابن المنذر والحاكم وصححه وابن

مردويه ، وعنـه في الآية قـال « نسخت هذه السـورة من صحف إبراهيم وموسى » وفي لفظ « هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى » .

وعن أبي ذر قـال : قلت « يا رسـول الله كم أنزل الله من كتـاب ؟ قال مـائة كتاب وأربعة كتب » الحديث وأخرجه عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر .



سورة الغاشية

هي ست وعشرون آية وهي مكّية بلا خلاف . وعن ابن عباس قال نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله . وقد تقدم حديث النعمان بن بشير أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يقرأ سبح اسم ربك الأعلى والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦)

﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ قال جماعة من المفسرين هل هنا بمعنى قد ، وبه قال قطرب أي قد جاءك يا محمد ، حديث الغاشية وهي القيامة لأنها تغشى الخلائق بأهوالها ، وقيل أن بقاء (هل) على معناها الاستفهامي المتضمن للتعجب مما في حيزه والتشويق الى استماعه أولى .

وقد ذهب الى أن المراد بالغاشية هنا القيامة أكثر المفسرين ، وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب الغاشية النار تغشى وجوه الكفار كما في قوله ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ وقيل الغاشية أهل النار لأنهم يغشونها ويقتحمونها ، والأول أولى .

قال الكلبي المعنى إن لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك قال ابن عباس : الغاشية من أسماء القيامة وعنه قال الغاشية الساعة ، وفي المصباح الغشاء الغطاء ويقال أن الغشى يعطل القوى المحركة والأوردة الحساسة لضعف القلب بسبب وجع شديد أو برد أو جوع مفرط ، وقيل الغشي هو الاغماء وقيل الإغماد امتلاء بطون الدماغ من بلغم بارد غليظ وقيل الاغماء سهو يلحق الانسان مع فتور الأعضاء لعلة ، وغشيته أغشاه من باب تعب أتيته ، والاسم الغشيان بالكسر .

وجملة ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل ما هو أو مستأنفة استئنافاً نحوياً لبيان ما تضمنته من كون ثم وجوه في ذلك اليوم متصفة بهذه الصفات المذكورة ، ووجوه مرتفع على الابتداء وإن كان نكرة لوقوعه في مقام التفصيل ، وقد تقدم مثل هذا في سورة القيامة وفي سورة النازعات .

والتنوين في يومئذ عوض عن المضاف اليه أي يوم غشيان الغاشية ، والخاشعة الذليلة الخاضعة وكل متضائل ساكن يقال له خاشع ، يقال خشع الصوت إذا خفي ، وخشع في صلاته إذا تذلل ونكس رأسه ، والمراد بالوجوه هنا أصحابها قال المحلي عبر بها عن الذُوات في الموضعين أي بالجزء عن الكل ، وخص الوجه لأنه أشرف أعضاء الانسان ولأن الذل يظهر عليه أولاً دون غيره ، قال مقاتل يعني الكفار لأنهم تكبروا عن عبادة الله ، قال قتادة وابن زيد خاشعة في النار .

وقيل أراد وجوه اليهود والنصارى على الخصوص ، والأول أولى ، وفي البحر : الآية نزلت في القسيسين وعباد الأوثان ، وفي كل مجتهد في كفر .

﴿ عاملة ﴾ أي أنها تعمل عملاً شاقاً ، قال أهل اللغة يقال للرجل إذا دأب في سيره عمل يعمل عملاً ، ويقال للسحاب إذا دام برقه قد عمل يعمل عملاً ، قيل وهذا العمل هو جر السلاسل والأغلال والخوض في النار والصعود والهبوط في تلالها ووهادها .

﴿ ناصبة ﴾ أي تعبة يقال نصب بالكسر ينصب نصباً إذا تعب ، والمعنى أنها في الآخرة تعبة لما تلاقيه من عذاب الله ، وقيل أن قوله ﴿ عاملة ﴾ في الدنيا إذ لا عمل في الآخرة أي تعمل في الدنيا بالكفر والمعاصي ، وتنصب في ذلك ، وقيل انها ﴿ عاملة ﴾ في الدنيا ﴿ ناصبة ﴾ في الآخرة ، والأول أولى .

قال قتادة عاملة ناصبة تكبرت في الدنيا عن طاعة الله فأعملها الله

وأنصبها في النار بجر السلاسل الثقال ، وحمل الأغلال ، والوقوف حفاة عراة في العرصات ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ .

قال الحسن وسعيد بن جبير : لم تعمل لله في الدنيا ولم تنصب فاعملها وانصبها في جهنم ، قال الكلبي : يجرون على وجوههم في جهنم ، وقال أيضاً يكلفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض في النار كما تخوض الابل في الوحل .

قال ابن عباس : ﴿ عاملة ناصبة ﴾ تعمل وتنصب ، وعنه قال يعني اليهود والنصارى تخشع ولا ينفعها عملها ، قرأ الجمهور ﴿ عاملة ناصبة ﴾ بالرفع فيهما على أنهما خبران آخران للمبتدأ أو على تقدير مبتدأ وهما خبران له ، وقرىء بنصبهما على الحال أو على الذم .

وقوله ﴿ تصلى ناراً حامية ﴾ خبر آخر للمبتدأ أي تدخل ناراً متناهية في الحر ، يقال حمى النار وحمى التنور أي اشتد حرهما ، قال الكسائي يقال اشتد حمى النهار وحموه بمعنى ، والمعنى قد أحميت وأوقد عليها مدة طويلة ، وفي الحديث « أحمى عليها ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة » .

قرأ الجمهور تصلى بفتح التاء مبنياً للفاعل وقرىء بضمها مبنياً للمفعول وبضم التاء وفتح الصاد وتشديد اللام ، والضمير راجع الى الوجوه على جميع هذه القرآت السبعية ، والمراد أصحابها كما تقدم .

وهكذا الضمير في ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ أي متناهية في الحر ، والآني الذي قد انتهى حره من الايناء بمعنى التأخر ، يقال آناه يؤنيه إيناء أي أخره وحبسه ، كما في قوله ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ قال الواحدي

قال المفسرون لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لذابت ، قال ابن عباس هي التي قد طال أينها وقال أيضا قد أنى غليانها ، وعنه قال انتهى حرها .

ولما ذكر سبحانه شرابهم عقبه بذكر طعامهم فقال : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ هو نوع من الشوك لا ترعاه دابة لخبثه يقال له الشبرق في لسان قريش إذا كان رطباً فإذا يبس فهو الضريع ، كذا قال مجاهد ، وقتادة وغيرهما من المفسرين ، قيل وهو سم قاتل ، وإذا يبس لا تقربه دابة ولا ترعاه ، وقيل هو شيء يرمى به البحر يسمى الضريع من أقوات الأنعام لا من أقوات الناس ، فاذا رعت منه الابل لا تشبع وتهلك هزالاً . قال الخليل الضريع نبات أخضر منتن الريح يرمى به البحر ، وجمهور أهل اللغة والتفسير قالوا بالأول .

وقال سعيد بن جبير : الضريع الحجارة وقيل هو شجرة في نار جهنم ، وقال الحسن : هو بعض ما أخفاه الله من العذاب . وقال ابن كيسان : هو طعام يضرعون عنده ويذلون ويتضرعون الى الله بالخلاص منه ، فسمي بذلك لأن آكله يتضرع إلى الله في أن يعفى عنه لكراهته وخشونته ، قال النحاس : قد يكون مشتقاً من الضارع وهو الذليل أي من شربه تلحقه ضراعة وذلة ، وقال الحسن أيضاً هو الزقوم وقيل هو واد في جهنم .

وقد تقدم في سورة الحاقة ﴿ فليس له اليوم ههنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين ﴾ والغسلين غير الضريع كما تقدم ، وجمع بين الآيتين بأن النار دركات ، والعذاب ألوان والمعذبون طبقات ، فمنهم من طعامه الضريع ، ومنهم من طعامه الغسلين ، ومنهم من طعامه الزقوم ، فلا تناقض بين هذه الآيات .

قال ابن عباس الضريع الشبرق ، وقال أيضاً شجر من نار ، وعنه قال الشبرق اليابس .

﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥﴾

ثم وصف سبحانه الضريع فقال : ﴿ لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ أي لا يسمن الضريع آكله ولا يدفع عنه ما به من الجوع يعني هما منفعتا الغذاء وكلاهما منتفيان عنه .

قال المفسرون : لما نزلت ليس لهم طعام الخ قال المشركون إن إبلنا تسمن من الضريع فنزلت ﴿ لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ وكذبوا في قولهم هذا فإن الابل لا تأكل الضريع ولا تقربه ، وقيل اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبات النافع .

قال أبو السعود وتحقيق ذلك أن جوعهم وعطشهم ليسا من قبيل ما هو المعهود منهما في هذه النشأة من حالة عارضة للإنسان عند استدعاء الطبيعة الى المطعوم والمشروب بحيث يلتذ بهما عند الأكل والشرب ، ويستغنى بهما عن غيرهما عند استقرارهما في المعدة ويستفيد منهما قوة وسمناً عند انهضامهما ، بل جوعهم عبارة عن اضطرارهم عند إضرام النار في أحشائهم الى إدخال شيء كثيف يملؤها ويخرج ما فيها من اللهب ، وأما أن يكون لهم شوق الى مطعوم ما أو التذاذ به عند الأكل واستغناء به عن الغير أو استفادة قوة فهيهات .

وكذا عطشهم عبارة عن اضطرارهم عند أكل الضريع والتهابه في بطونهم الى شيء مائع بارد يطفئه من غير أن يكون لهم التذاذ بشربه أو استفادة قوة في الجملة ، وهو المعنى بما روي أنه تعالى يسلط عليهم الجوع بحيث يضطرهم

الى أكل الضريع . فإذا أكلوه يسلط عليهم العطش فيضطرهم الى شرب الحميم فيشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم .

وتنكير الجوع للتحقير أي لا يغني من جوع ما .

ثم شرع سبحانه في بيان حال أهل الجنة بعد الفراغ من بيان حال أهل النار فقال ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾ أي ذات نعمة وبهجة فى لين العيش ، وهي وجوه المؤمنين صارت ناعمة لما شاهدوا من عاقبة أمرهم وما أعده الله لهم من الخير الذي يفوق الوصف ، ومثله قوله ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ والمراد بالوجوه هنا أصحابها كما تقدم .

ثم قال ﴿ لسعيها راضية ﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا راضية لأنها قد أعطيت من الأجر ما أرضاها وقرت به عيونها .

﴿ في جنة عالية ﴾ أي عالية المكان مرتفعة على غيرها من الأمكنة أو عالية القدر لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ قرأ الجمهور بفتح الفوقية ونصب لاغية أي لا تسمع أنت أيها المخاطب أو لا تسمع تلك الوجوه وقرىء بضم التحتية مبنياً للمفعول ورفع لاغية ، وقرىء بالفوقية مضمومة ورفع لاغية وقرىء بفتح التحتية مبنياً للفاعل ونصب لاغية . واللغو الكلام الساقط .

قال الفراء والأخفش : أي لا تسمع فيها كلمة لغو قيل المراد بذلك الكذب والبهتان والكفر ، قاله قتادة وقال مجاهد أي الشتم ، وقال الفراء لا تسمع فيها حالفاً يحلف بكذب ، قال الكلبي لا تسمع في الجنة حالفاً بيمين برة ولا فاجرة ، وقال الفراء أيضا لا تسمع في كلام أهل الجنة كلمة تلغى لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم ، وهذا أرجح الأقوال لأن النكرة في سياق النفي من صيغ العموم ولا وجه لتخصيص هذا بنوع من اللغو خاص إلا بمخصص يصلح للتخصيص .

ولاغية إما صفة موصوف محذوف أي كلمة لاغية أو جماعة لاغية أو

نفسٍ لاغية أو مصدر أي لا تسمع فيها لغواً قال ابن عباس لا تسمع أذى ولا باطلاً .

﴿ فيها عين جارية ﴾ قد تقدم في سورة الانسان أن فيها عيوناً ، والعين هنا بمعنى العيون كما في قوله ﴿ علمت نفس ﴾ ومعنى جري العين أنها تجري مياهها على وجه الأرض في غير أخدود تتدفق بأنواع الأشربة المستلذة لا ينقطع جريها أبداً ، قال الكلبي لا أدري بماء أو بغيره .

﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ أي عالية مرتفعة السمك أو عالية القدر أو شريفة الذات قال ابن عباس بعضها فوق بعض .

﴿ وأكواب موضوعة ﴾ قد تقدم أن الأكواب جمع كوب وأنه القدح الذي لا عروة له ولا خرطوم أي انها موضوعة بين أيديهم يشربون منها أو معدة لأهلها أو موضوعة على حافات العين الجارية أو موضوعة عن حد الكبر أي هي أوساط بين الكبر والصغر كقوله ﴿ قدروها تقديراً ﴾ .

﴿ ونمارق مصفوفة ﴾ هي الوسائد قال الواحدي في قول الجميع واحدتها نمرقة بضم النون وزاد الفراء سماعاً عن العرب نمرقة بكسرها وهما لغتان أشهرهما الأولى ، قال الكلبي وسائد مصفوفة بعضها الى بعض ، ومنه قول الشاعر :

كهول وشبان حسان وجوههم على سرر مصفوفة ونمارق

قال في الصحاح : النمرق والنمرقة وسادة صغيرة وكذلك النمرقة بالكسر لغة حكاها يعقوب وقال ابن عباس : نمارق مجالس ، وعنه قال : مرافق ، وقيل مساند ومطارح أينما أراد أن يجلس جلس على موسدة واستند الى الأخرى ، قال الواحدي مصفوفة أي فوق الطنافس .

وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

﴿ وزرابي مبثوثة ﴾ يعني البسط العراض الفاخرة واحدها زربى وزربية قال أبو عبيدة والفراء الزرابي الطنافس التي لها خمل رقيق واحدها زربية ، وفي القاموس الزرابي النمارق والبسط أو كل ما يبسط ويتكأ عليها : الواحد زربى بالكسر ويضم والمبثوثة المبسوطة قاله قتادة وقال عكرمة بعضها فوق بعض .

قال الواحدي ويجوز أن يكون المعنى أنها متفرقة في المجالس ، وبه قال القتيبي ، وقال الفراء مبثوثة كثيرة ، والظاهر أن معنى البث التفريق مع كثره ومنه ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ قال القرطبي وغيره هذا أصح .

﴿ أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ والفاء للعطف على مقدر كما في نظائره مما مر غير مرة ، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير أمر البعث والاستدلال عليه ، وكذا ما بعدها ، وقيل الجملة في محل جر على انها بدل اشتمال من الإبل .

والمعنى ينكرون أمر البعث ويستبعدون وقوعه أفلا ينظرون إلى الإبل التي هي غالب مواشيهم وأكثر ما يشاهدونه من المخلوقات كيف خلقت معدولاً عن سنن خلق سائر أنواع الحيوانات على ما هي عليه من الخلق البديع من عظم جثتها ومزيد قوتها وبديع أوصافها .

قال أبو عمرو بن العلاء إنما خص الإبل لأنها من ذوات الأربع تبرك

فتحمل عليها الحمولة ، وغيرها من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم .

قال الزجاج نبههم على عظيم من خلقه قد ذلله للصغير يقوده وينيخه ، وينهضه ويحمل عليه الثقيل من الحمل وهو بارك فينهض بثقل حمله ، وليس ذلك في شيء من الحوامل غيره فأراهم عظيماً من خلقه ليدل بذلك على توحيده .

وسئل الحسن عن هذه الآية وقيل له الفيل أعظم في الأعجوبة فقال أما الفيل فالعرب بعيدة العهد به ، ثم هو خنزير لا يركب ظهره ولا يؤكل لحمه ولا يحلب دره ، والابل من أعز مال العرب وأنفسه يأكل النوى والقت ويخرج اللبن ويأخذ الصبي بزمامها فيذهب بها حيث شاء مع عظمها في نفسها .

وقال المبرد : الابل هنا هي القطع العظيمة من السحاب ، وهو خلاف ما ذكره أهل التفسير واللغة .

وروي عن الأصمعي أنه قال : من قرأ خلقت بالتخفيف عنى به البعير ، ومن قرأ بالتشديد عنى به السحاب .

قال أبو السعود : بدأ بالإبل لكثرة منافعها كأكل لحمها وشرب لبنها والحمل عليها والتنقل عليها إلى البلاد البعيدة ، وعيشها بأي نبات أكلته كالشجر والشوك وصبرها على العطش عشرة أيام فأكثر ، وطواعيتها لكل من قادها ولو صبياً صغيراً ونهوضها وهي باركة بالأحمال الثقيلة وتأثرها بالصوت الحسن مع غلظ أكبادها ولا شيء من الحيوان جمع هذه الأشياء غيرها ولكونها أفضل ما عند العرب جعلوها دية القتل .

والابل اسم جمع لا واحد له من لفظه وإنما واحده بعير وناقة وجمل .

﴿ وإلى السماء كيف رفعت ﴾ فوق الأرض بلا عمد على وجه لا يناله الفهم ولا يدركه العقل وقيل رفعت فلا ينالها شيء .

﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ على وجه الأرض مرساة راسخة لا تميد

ولا تميل ولا تزول ﴿ والى الأرض كيف سطحت ﴾ أي بسطت ، والسطح بسط الشيء يقال لظهر البيت إذا كان مستويا سطح ، قرأ الجمهور مبنياً للمفعول مخففاً ، وقرأ الحسن : مشدداً ، وقرأ علي بن أبي طالب وغيره خلقت ورفعت ونصبت وسطحت على البناء للفاعل وضم التاء فيها كلها .

قال المحلي قوله سطحت ظاهر في أن الأرض سطح ، وعليه علماء الشرع لا كرة كما قاله أهل الهيئة وإن لم ينقض ركناً من أركان الشرع .

قال الكرخي هي كرة بطبعها وحقيقتها لكن الله أخرجها عن طبعها بفضله وكرمه بتسطيح بعضها لاقامة الحيوانات عليها فأخرجها عما يقتضيه طبعها انتهى .

وفي التكميل للشيخ رفيع الدين ابن ولي الله الدهلوي رحمه الله : أهل الشرائع يفهمون من مثل قوله تعالى ﴿ الأرض فراشاً ، ودحاها ، وسطحت ﴾ انها سطح مستو ، والحكماء يثبتون كرويتها بالأدلة الصحيحة فيتوهم الخلاف ، ويدفع بأن القدر المحسوس منها في كل بقعة سطح مستو ، فإن الدائرة كلما عظمت قل انجذاب أجزائها فاستواؤها باعتبار محسوسية ، أجزائها ، وكرويتها باعتبار معقولية جملتها انتهى .

ثم لما ذكر تعالى دليل توحيده ولم يعتبروا ولم يتفكروا فيها خاطب نبيه وأمره بأن يذكرهم فقال ﴿ فذكر ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي فعظهم يا محمد وخوفهم ، ثم علل الأمر بالتذكير فقال ﴿ إنما أنت مذكر ﴾ أي ليس عليك إلا ذلك و ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ حتى تكرههم على الايمان ، ومصيطر بالصاد والسين المسلط على الشيء ليشرف عليه ويتعهد أحواله ، كذا في الصحاح قال ابن عباس أي بجبار ، وعنه قال ثم نسخ ذلك فقال ﴿ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ .

﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ استثناء منقطع من الهاء في عليهم أي لكن من تولى عن الوعظ والتذكير ﴿ فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ وهو عذاب جهنم

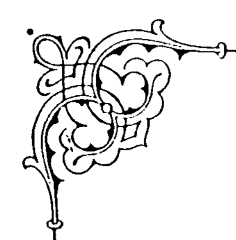
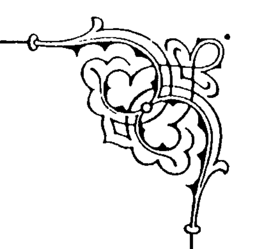
الدائم ، وقيل هو استثناء متصل من قوله ﴿ فذكر ﴾ أي فذكر كل أحد إلا من انقطع طمعك عن إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر ، والأول أولى ، وإنما قال الأكبر لأنهم قد عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر .

وقرأ ابن مسعود ﴿ فإنه يعذبه الله ﴾ وقرأ ابن عباس وقتادة ﴿ ألا من تولى ﴾ على أنها ألا التي للتنبيه والاستفتاح .

﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ أي رجوعهم بعد الموت بالبعث لا إلى أحد سوانا لا استقلالاً ولا اشتراكاً وفائدة تقديم الظرف التشديد في الوعيد وان إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام ، وقال ابن عباس أي مرجعهم يقال آب يؤوب إذا رجع ، قرأ الجمهور إيابهم بالتخفيف وقرىء بالتشديد ، قال أبو حاتم لا يجوز التشديد ولو جاز لجاز مثله في الصيام والقيام ، وقيل هما لغتان بمعنى ، قال الواحدي وأما إيابهم بتشديد الياء فانه شاذ لم يجزه أحد غير الزجاج .

﴿ ثم إن علينا حسابهم ﴾ يعني جزاءهم بعد رجوعهم الينا بالبعث في المحشر لا على غيرنا وثم للتراخي في الرتبة لا في الزمان لبعد منزلة الحساب في الشدة عن منزلة الإياب ، وعلى لتأكيد الوعيد لا للوجوب إذ لا يجب على الله شيء ،وجمع الضمير في إيابهم وحسابهم باعتبار معنى من كما أن أفراده في يعذبه باعتبار لفظها ، وفي تصدير الجملتين بإن وتقديم خبرها وعطف الثانية على الأولى بكلمة ثم المفيدة لبعد منزلة الحساب في الشدة من الإنباء عن غاية السخط الموجب لتشديد العذاب ما لا يخفى .

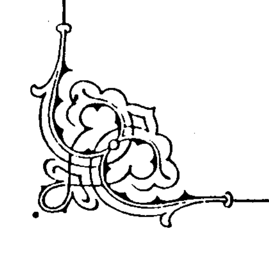


سورة الفجر

هي ثلاثون آية وقيل تسع وعشرون وهي مكيّة بلا خلاف في قول الجمهور قال ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير وعائشة مثله، ومدنية في قول علي ابن أبي طلحة.

أخرج النسائي عن جابر قال صلى معاذ صلاة فجاء رجل فصلى معه فطول. فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذاً فقال منافق. فذكر ذلك لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، فقال يا رسول اللّه جئت أصلي معه فطول عليّ فانصرفت فصليت في ناحية المسجد فعلفت ناضحي. فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، «أفتان أنت يا معاذ. أين أنت من سبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها والفجر والليل إذا يغشى».





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤)

﴿ والفجر ﴾ أقسم سبحانه بهذه الأشياء كما أقسم بغيرها من مخلوقاته ، واختلف في الفجر الذي أقسم الله به هنا فقيل هو الوقت المعروف ، وسمي فجراً لأنه وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم ، قاله علي وابن الزبير ، وقال قتادة انه فجر أول يوم من شهر محرم ، لأن منه تنفجر السنة ، وقال مجاهد يريد يوم النحر .

وقال الضحاك فجر ذي الحجة لأن الله قرن الأيام به فقال ﴿ وليال عشر ﴾ أي ليالي عشر من ذي الحجة ، وبه قال السدي والكلبي ، وقيل المعنى وصلاة الفجر أو ورب الفجر ، والأول أولى ، وقال ابن عباس فجر النهار ، وعنه قال يعني صلاة الفجر ، وعنه قال هو المحرم فجر السنة .

وقد ورد في فضل صوم شهر محرم أحاديث صحيحة ، ولكنها لا تدل على انه المراد بالآية لا مطابقة ولا تضمناً ولا التزاماً ، وجواب هذا القسم وما بعده هو قوله ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ . قاله ابن الانباري ، وقيل محذوف لدلالة السياق عليه أي ليجازين كل أحد بما عمل أو ليعذبن ، وقدره أبو حيان بما دلت عليه خاتمة السورة التي قبله أي والفجر الخ لإيابهم الينا وحسابهم علينا ، وهذا ضعيف جداً ، وأضعف منه قول من قال أن الجواب قوله ﴿ هل في ذلك قسم لذي حجر ﴾ وأن هل بمعنى قد ، لأن هذا لا يصح أن يكون مقسماً عليه أبداً .

وليـال عشر هي عشـر ذي الحجة في قـول جمهـور المفسـرين ، وإنمـا نكرت ولم تعرف لفضيلتها على غيرها لأنها أفضل ليالي السنة ، ولو عرفت لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير ، فنكرت من بين مـا أقسم به للفضيلة التي ليست لغيـرها ، وقـال الضحاك انهـا العشر الأواخـر من رمضـان ، وقيـل العشر الأول من المحرم إلى عاشرها يوم عاشوراء .

قرأ الجمهور ليال بالتنوين وعشر صفة لها ، وقرأ ابن عباس بالاضافة قيل والمـراد ليالي أيـام عشر ، وكـان حقه على هـذا أن يقـال عشـرة لأن المعـدود مذكر ، وأجيب عنه بأنه إذا حذف المعدود جاز الوجهان .

وعن جابر مرفوعاً « هي ليالي العشر من ذي الحجة »[1] ، أخرجه أحمد والنسـائي والحاكم وصححـه والبيهقي وغيرهم ، وعن طلحـة بن عبـد الله أنـه دخل على ابن عمر هو وأبو سلمة بن عبد الرحمن فدعاهم ابن عمر الى الغداء يوم عرفـة فقال أبـو سلمة أليس هـذه الليالي العشـر التي ذكرهـا الله تعالى في القرآن ؟ فقال ابن عمر وما يدريك قال ما أشك ، قال بلى فاشكك .

وقـد ورد في فضل هـذه العشر أحـاديث ، وليس فيها مـا يدل على انهـا المرادة بما في القرآن هنا بوجه من الوجوه ، قال ابن عباس هي العشر الأواخر من رمضان .

﴿ والشفـع والوتـر ﴾ هما يعمـان الأشياء كلهـا شفعها ووتـرها ، كـالكفر والايمان ، والهدى والضلال ، والسعادة والشقـاوة ، والليل والنهـار ، والسماء والأرض ، والبـر والبحـر ، والشمس والقمـر ، والجن والانس ، وقيـل شفـع الليالي ووترها ، وقال قتادة الشفع والوتر شفع الصلاة ووترها منهـا شفع ومنهـا

(١) المراد بها عشر ذي الحجة ، كما قـاله ابن عبـاس ، وابن الزبـير ، ومجاهـد وغير واحـد من السلف والخلف ، قال : وقد ثبت في « صحيح البخاري » عن ابن عباس مرفـوعاً : « مـا من أيام العمـل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام » يعني عشر ذي الحجة ، قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء » .

وتر ، وقيل الشفع يوم عرفة ويوم النحر ، والوتر ليلة يوم النحر ، وقال مجاهد وعطية العوفي الشفع الخلق والوتر الله الواحد الصمد وبه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة ، وقال الربيع بن أنس وأبو العالية هي صلاة المغرب فيها ركعتان الوتر الركعة .

وقال الضحاك الشفع عشر ذي الحجة والوتر أيام منى الثلاثة ، وبه قال عطاء وقيل هما آدم وحواء لأن آدم كان وتراً فشفع بحواء ، وقيل الشفع درجات الجنة وهي ثمان والوتر دركات النار وهي سبع وبه قال الحسين بن الفضل وقيل الشفع الصفا والمروة والوتر الكعبة ، وقال مقاتل الشفع الأيام والليالي والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده وهو يوم القيامة .

وقال سفيان بن عيينة الوتر هو الله سبحانه ، وهو الشفع أيضا لقوله ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ الآية وقال الحسن المراد بالشفع والوتر العدد كله لأن العدد لا يخلو عنهما ، وقيل الشفع مسجد مكة والمدينة ، والوتر مسجد بيت المقدس ، وقيل الشفع حج القِران والوتر الافراد ، وقيل الشفع الحيوان لأنه ذكر وأنثى والوتر الجماد ، وقيل الشفع ما سمي ، والوتر ما لم يسم .

ولا يخفاك ما في غالب هذه الأقوال من السقوط البين ، والضعف الظاهر ، والاتكال في التعيين على مجرد الرأي الزائف والخاطر الخاطىء ، والذي ينبغي التعويل عليه ويتعين المصير اليه ما يدل عليه معنى الشفع والوتر في كلام العرب وهما معروفان واضحان ، فالشفع عند العرب الزوج ، والوتر الفرد .

فالمراد بالآية إما نفس العدد أو ما يصدق عليه من المعدودات بأنه شفع أو وتر ، وإذا قام دليل على تعيين شيء من المعدودات في تفسير هذه الآية فإن كان الدليل يدل على أنه المراد نفسه دون غيره فذاك ، وإن كان الدليل يدل على انه مما تناولته هذه الآية لم يكن ذلك مانعاً من تناولها لغيره .

عن عمران بن حصين أن النبي صلى اللّه عليه وسلم سئل عن الشفع والوتر ، فقال : « هو الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر » أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما وفي اسناده رجل مجهول وهو الراوي له عن عمران[1] .

وقد روي عن عمران بن عصام عن عمران بن حصين باسقاطه الرجل المجهول ، وقال الترمذي في الرواية الأولى غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة .

قال ابن كثير وعندي أن وقفه على عمران أشبه والله تعالى أعلم ، قال ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال في الشفع والوتر .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير هذا الحديث موقوفاً على عمران ، فهذا يقوي ما قاله ابن كثير .

وعن جابر مرفوعاً « أن العشر عشر الأضحى ، والوتر يوم عرفة والشفع يوم النحر » أخرجه أحمد والنسائي والبزار والحاكم وصححه وغيرهم .

وعن ابن عباس قال كل شيء شفع فهو اثنان ، والوتر واحد . وعن أبي أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم « انه سئل عن الشفع والوتر فقال يومان وليلة يوم عرفة ويوم النحر ، والوتر ليلة النحر ليلة جمع » أخرجه الطبراني وابن مردويه ، قال السيوطي بسند ضعيف .

وعن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الشفع

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ٤٤٢/٤ من حديث همام عن قتادة عن عمران بن عصام الضبعي أبو عمارة البصري ، عن شيخ أهل البصرة ، عن عمران بن حصين رضي الله عنه . ورواه أيضاً الترمذي ١٧٠/٢ من حديث همام عن قتادة به ، وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة ، وقد رواه خالد بن قيس أيضاً عن قتادة ، ورواه ابن جرير الطبري ١٧٢/٣٠ عن خالد بن قيس عن قتادة به ، والحاكم في « المستدرك » ٥٢٢/٢ من حديث همام عن قتادة به ، وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وفيه نظر ، لأن الراوي عن عمران بن حصين مجهول ، ولم يوثقه إلا ابن حبان . وأورده السيوطي في « الدر » ٣٤٦/٦ وزاد نسبته لعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن عمران بن حصين رضي الله عنه .

اليومان والوتر اليوم الثالث » أخرجه ابن جرير ، وعن ابن الزبير قال الشفع قول الله ﴿ فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ﴾ والوتر اليوم الثالث وفي لفظ الوتر أوسط أيام التشريق .

وعن ابن عباس قال الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة .

قرأ الجمهور الوتر بفتح الواو ، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بكسرها وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه ، وهما لغتان ، والفتح لغة قريش وأهل الحجاز ، والكسر لغة تميم . قال الأصمعي كل فرد وتر ، وأهل الحجاز يفتحون فيقولون وتر في الفرد ، وحكى يونس عن ابن كثير أنه قرأ بفتح الواو وكسر التاء فيحتمل أن يكون لغة ثالثة . ويحتمل انه نقل كسرة الراء الى التاء إجراء للوصل مجرى الوقف .

﴿ والليل إذا يسر ﴾ قرأ الجمهور يسر بحذف الياء وصلاً ووقفاً اتباعاً لرسم المصحف ، وقرأ نافع وأبو عمرو بحذفها في الوقف وإثباتها في الوصل ، وقرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب بإثباتها فيهما ، قال الخليل تسقط الياء منها موافقة لرؤوس الآي ، قال الزجاج والحذف أحب إليّ لأنها فاصلة والفواصل تحذف منها الياآت ، قال الفراء قد تحذف العرب الياء وتكتفي بكسر ما قبلها .

قال المؤرج سألت الأخفش عن العلة في إسقاط الياء من ﴿ يسري ﴾ فقال لا أجيبك حتى تبيت على باب داري سنة فبت على باب داره سنة فقال الليل لا يسري وانما يسرى فيه فهو مصروف عن جهته وكل ما صرفته عن جهته بخسته من إعرابه ، ألا ترى إلى قوله ﴿ وما كانت أمك بغياً ﴾ ولم يقل بغية لأنه صرفها عن باغية .

وفي كلام الأخفش هذا نظر فإن صرف الشيء عن معناه بسبب من الأسباب لا يستلزم صرف لفظه عن بعض ما يستحقه ، ولو صح ذلك للزم في كل المجازات العقلية واللفظية ، واللازم باطل فالملزوم مثله ، والأصل هنا

إثبات الياء لأنها لام الفعل المضارع المرفوع ولم تحذف لعلة من العلل إلا لاتباع رسم المصحف وموافقة رؤوس الآي إجراء للفواصل مجرى القوافي .

ومعنى ﴿ والليل إذا يسر ﴾ إذا يمضي كقوله ﴿ والليل إذ أدبر ﴾ ، ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ وقيل معنى يسر يسار فيه كما يقال ليل نائم ونهار صائم وبهذا قال الأخفش والقتيبي وغيرهما من أهل المعاني ، وعلى هذا نسبة السري إلى الليل مجاز والمراد يسرى فيه فهو مجاز في الاسناد بإسناد ما للشيء للزمان كما يسند للمكان ، والظاهر أنه مجاز مرسل أو استعارة ، وبالأول قال جمهور المفسرين .

وقال قتادة وأبو العالية ﴿ والليل إذا يسر ﴾ أي جاء وأقبل ، وقال النخعي أي استوى ، قال عكرمة وقتادة والكلبي ومحمد بن كعب هي ليلة المزدلفة خاصة لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله سبحانه ، وقيل ليلة القدر لسراية الرحمة فيها واختصاصها بزيادة الثواب ، والراجح عدم تخصيص ليلة من الليالي دون أخرى .

قال ابن عباس ﴿ إذا يسر ﴾ إذا ذهب ، ويسر مأخوذ من السري وهو خاص بسير الليل ، يقال سريت الليل وسريت به ، وقد استعملت العرب سرى في المعاني تشبيهاً لها بالأجسام مجازاً ، واتساعاً نحو طاف الخيال وذهب الهم وأخذه الكسل والنشاط .

وقول الفقهاء سرى الجرح الى النفس معناه دام ألمه حتى حدث منه الموت ، وقطع كفه فسرى الى ساعده أي تعدى أثر الجرح ، وسرى التحريم وسرى العتق بمعنى التعدية . وهذه الألفاظ جارية على ألسنة الفقهاء ، وليس لها ذكر في الكتب المشهورة لكنها موافقة لما تقدم .

قال الفارابي سرى فيه السم والخمر ونحوهما ، وقال السرقسطي سرى عرق السوء من الانسان ، وقال ابن القطاع سرى عليه الهم أتاه ليلاً ، وسرى همه ذهب .

هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾

﴿ هل في ذلك قسم ﴾ هذا الاستفهام لتقرير تعظيم ما أقسم الله سبحانه به وتفخيمه من هذه الأمور المذكورة ، والاشارة بقوله ﴿ ذلك ﴾ الى تلك الأمور . والتذكير بتأويل المذكور ، أي هل في ذلك المذكور من الأمور التي أقسمنا بها قسم أي مقنع ومكتفى في القسم أو مقسم به حقيق بأن يؤكد به الأخبار ، وأيا ما كان فما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار اليه وبعد منزلته في الفضل والشرف .

﴿ لذي حجر ﴾ أي عقل ولب ، فمن كان ذا عقل ولب علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق بأن يقسم به ، ومثل هذا قوله ﴿ وانه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ قال الحسن : لذي حجر أي لذي حلم ، وقال أبو مالك : لذي ستر من الناس ، وقال الجمهور : الحجر العقل قال الفراء : الكل يرجع الى معنى واحد لذي عقل ولذي حلم ولذي ستر ، الكل بمعنى العقل .

وأصل الحجر المنع يقال لمن ملك نفسه ومنعها أنه لذو حجر ، ومنه سمي الحجر لامتناعه بصلابته ومنه حجر الحاكم على فلان أي منعه ، قال والعرب تقول انه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها ، قال ابن عباس لذي حجر لذي حجى وعقل ونهي .

ثم ذكر سبحانه على طريق الاستشهاد ما وقع من عذابه على بعض طوائف الكفار بسبب كفرهم وعنادهم وتكذيبهم للرسل تحذيراً للكفار في عصر نبينا صلى الله عليه وسلم ، وتخويفاً لهم أن يصيبهم ما أصابهم فقال :

﴿ ألم تـر كيف فعل ربـك بعاد ﴾ أي ألم تعلم يـا محمـد علمـاً يـوازي العيان في الايقان وهو استفهام تقرير ، قرأ الجمهور بتنوين عاد على أن يكـون قوله ﴿ إرم ذات العماد ﴾ عطف بيان لعاد ، والمـراد بعاد اسم أبيهم وإرم إسم القبيلة أو بدلاً منه ، وامتناع صرف إرم للتعـريف والتأنيث ، وقيل المراد بعـاد أولاد عاد وهم عاد الأولى ، ويقال لمن بعدهم عاد الأخرى فيكون ذكر إرم على طريقة عطف البيان أو البدل للدلالة على أنهم عاد الأولى لا عاد الأخرى .

ولا بد من تقدير مضاف على كـلا القولين أي أهـل إرم أو سبط إرم فإن إرم هو جد عاد ، لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وقرأ الحسن وأبو العـالية بـاضافـة عاد الى إرم ، وقـرأ الجمهـور إرم بكسـر الهمـزة وفتـح الـراء والميم ، وقـرىء بفتح الهمـزة والراء وقـرأ معاذ بسكـون الـراء تخفيفاً وقـرىء باضافة إرم الى ذات العماد .

وقـال مجاهـد : من قـرأ بفتـح الهمـزة شبههم بـالإرم التي هي الأعـلام واحـدها أرم . وفي الكـلام تقـديم وتـأخيـر أي والفجـر وكـذا وكـذا إن ربـك لبالمرصاد ألم تر أي ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد ، وهذه الرؤيـة رؤية القلب ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أو لكل من يصلح له .

وقد كان أمر عاد وثمود مشهوراً عند العرب ، لأن ديـارهم متصلة بديـار العرب ، وكانوا يسمعون من أهل الكتاب أمر فرعون .

وقـال مجاهـد أيضا إرم أمـة من الأمم ، وقال قتـادة هي قبيلة من عـاد ، وقيل هما عادان فالأولى هي إرم ، قال معمـر إرم اليه مجتمـع عاد وثمـود وكان يقال عاد إرم وعـاد ثمود وكـانت القبيلتان تنسب الى إرم ، قـال أبو عبيـدة هما عادان فالأولى إرم .

ومعنى ذات العماد ذات القوة والشدة مأخوذ من قوة الأعمـدة ، كذا قـال الضحاك وقال قتادة ومجاهد انهم كانوا أهل عمد سيارة في الـربيع ، فـإذا هاج النبت رجعوا إلى منازلهم ، وقال مقاتل ذات العماد يعني طولهم ، وكان طـول

الرجل منهم إثني عشر ذراعاً ، يقال رجل طويل العماد أي القامة .

قال أبو عبيدة ذات العماد ذات الطول ، يقال رجل معمد إذا كان طويلاً ، وقال مجاهد وقتادة أيضاً كان عماداً لقومهم يقال فلان عميد القوم وعمودهم أي سيدهم ، وقال ابن زيد ذات العماد يعني إحكام البنيان بالعمد .

قال في الصحاح : والعماد الأبنية الرفيعة تذكر وتؤنث ، وقال عكرمة وسعيد المقبري : هى دمشق ، وعن مالك مثله ، وقال محمد بن كعب : هي الاسكندرية ، قال ابن عباس يعني بالارم الهالك ، ألا ترى أنك تقول إرم بنو فلان ، وذات العماد يعني طولهم مثل العماد .

وعن المقدام بن معد يكرب عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أنه ذكر إرم ذات العماد فقال كان الرجل منهم يأتي الى الصخرة فيحملها على كاهله فيلقيها على أي حي أراد فيهلكهم » أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه وفي اسناده رجل مجهول لأن معاوية بن صالح رواه عمن حدثه عن المقدام .

﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ هذه صفة لعاد أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في الطول والشدة والقوة وهم الذين قالوا ﴿ من أشد منا قوة ﴾ أو صفة للقرية على قول من قال أن إرم اسم لقريتهم أو للأرض التي كانوا فيها ، والأول أولى ويدل عليه قراءة أبيّ بن كعب ﴿ التي لم يخلق مثلهم في البلاد ﴾ وقيل الإرم الهلاك قال الضحاك إرم ذات العماد أي أهلكهم فجعلهم رمياً ، وبه قال شهر بن حوشب .

وقد ذكر جماعة من المفسرين أن إرم ذات العماد اسم مدينة مبنية بالذهب والفضة قصورها ودورها وبساتينها وأن حصباءها جواهر ، وترابها مسك ، وليس بها أنيس ولا فيها ساكن من بني آدم وأنها لا تزال تنتقل من موضع الى موضع تارة تكون باليمن وتارة تكون بالشام وتارة تكون بالعراق وتارة تكون بسائر البلاد . وهذا كذب بحت لا ينفق[1] على من له أدنى تمييز .

---

(١) لا يروج .

وزاد الثعلبي في تفسيره فقال أن عبد الله بن قلابة في زمان معاوية دخل هذه المدينة ، وهذا كذب على كذب ، وافتراء على افتراء .

وقد أصيب الاسلام وأهله بداهية دهياء وفاقرة عظمى . ورزية كبرى من أمثال هؤلاء الكذابين الدجالين الذين يجترئون على الكذب تارة على بني اسرائيل وتارة على الأنبياء وتارة على الصالحين ، وتارة على رب العالمين ، وتضاعف هذا الشر وزاد كثرة بتصدر جماعة من الذين لا علم لهم بصحيح الرواية من ضعيفها بل موضوعها للتصنيف والتفسير للكتاب العزيز فأدخلوا هذه الخرافات المختلفة ، والأقاصيص المنحولة والأساطير المفتعلة في تفسير كتاب الله سبحانه ، فحرفوا وغيروا وبدلوا ، ومن أراد أن يقف على بعض ما ذكرنا فلينظر في كتاب الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني .

قال الحافظ ابن كثير لا تغتر بما ذكر جماعة من المفسرين من ذكر مدينة يقال لها إرم ذات العماد فإن ذلك كله من خرافات الاسرائيليين من وضع الزنادقة منهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس ، فهذا وأمثاله مختلق لا حقيقة له .

وأما قوله تعالى فالمراد من الآية إنما هو الاخبار عن هلاك القبيلة المسماة بعاد الذين أرسل الله فيهم هوداً فكذبوه فأهلكهم الله ، وإرم عطف بيان لعاد أو بدل منه للاعلام بأنهم عاد الأولى فسموا باسم جدهم إرم كما يقال لبني هاشم « هاشم » لأن عاد هو ابن عوض بن إرم سام بن نوح ، وقيل إرم اسم بلدتهم وأرضهم بالتقدير بعاد أهل إرم كقوله تعالى ﴿ واسأل القرية ﴾ أي أهلها وذات العماد إن كان صفة للقبيلة فمعناها أنهم أصحاب خيام لها أعمدة يظعنون بها ، أو هو كناية عن طول اجسامهم وتشبيهها بالأعمدة ، وإن كان صفة للبلدة فمعناه أنها ذات عمد من الحجارة .

وتعقب هذا القول بأنه لو كان ذلك مراداً لقال التي لم يعمل مثلها في البلاد وانما قال ﴿ لم يخلق ﴾ فالقول الأول هو الصواب انتهى ، وبه قال شيخ

الاسلام نجم الدين محمد الغيظي رحمه الله تعالى .

قال عبد الرحمن بن خلدون في كتاب العبر بعد ذكر أغلاط المؤرخين :

وأبعد من ذلك وأغرق في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة والفجر في قوله تعالى ﴿ إرم ذات العماد ﴾ فيجعلون لفظة إرم إسماً لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أي أساطين وهي كذا وكذا ذكر ذلك الطبري والثعالبي والزمخشري وغيرهم من المفسرين ، وينقلون عن عبد الله ابن قلابة من الصحابة أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها الخ وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الأرض ، وصحارى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن وما زال عمرانه متعاقباً والأدلاء تقص طرقه ولم ينقل عن هذه المدينة خبر . ولا ذكرها أحد من الاخباريين ، ولا من الأمم ، ولو قالوا أنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه إلا أن ظاهر كلامهم انها موجودة ، وبعضهم يقول أنها دمشق بناء على أن قوم عاد ملكوها ، وقد ينتهي الهذيان ببعضهم الى أنها غائبة ، وانما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر ، مزاعم كلها أشبه بالخرافات .

والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الأعراب في لفظة ذات العماد أنها صفة إرم وحملوا العماد على الأساطين فتعين أن يكون بناء ، ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير عاد إرم على الاضافة من غير تنوين ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالأقاصيص الموضوعة التي هي أقرب الى الكذب المنقولة في عداد المضحكات ، وإلا فالعماد هي عماد الأخبية بل الخيام وإن أريد بها الأساطين فلا بدع وصفهم بأنه أهل بناء وأساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم لا انه بناء خاص في مدينة معينة كما تقول قريش كنانة والياس مضر ، وربيعة نزار ، وأي ضرورة الى هذا المحمل البعيد الذي تمحل لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله تعالى عن مثلها لبعدها عن الصحة انتهى كلامه .

ثم عطف سبحانه . القبيلة الآخرة وهي ثمود على قبيلة عاد فقال ﴿ وثمود ﴾ هم قوم صالح سموا باسم جدهم ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح . قرأ الجمهور ثمود بمنع الصرف على انه إسم للقبيلة ففيه التأنيث والتعريف ، وقرأ يحيى بن وثاب بالصرف على أنه اسم لأبيهم .

﴿ الذين جابوا الصخر ﴾ أي قطعوه وقال ابن عباس : خرقوه والجوب القطع ومنه جاب البلاد إذا قطعها ، ومنه سمي جيب القميص لأنه جيب أي قطع ، قال المفسرون أول من نحت الجبال والصخور ثمود فبنوا من المدائن ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة ، ومنه قوله سبحانه ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً آمنين ﴾ وكانوا ينحتون الجبال وينقبونها ويجعلون تلك الأنقاب بيوتاً يسكنون فيها .

وقوله ﴿ بالواد ﴾ متعلق بجابوا أو بمحذوف على أنه حال من الصخر وهو وادي القرى ، وهو موضع بقرب المدينة من جهة الشام ، وقيل الوادي بين جبال ، وكانوا ينقبون في تلك الجبال بيوتاً ودوراً وأحواضاً وكل منفرج بين جبال أو تلال يكون مسلكاً للسيل ومنفذاً فهو واد ، وقرأ الجمهور بالواد بحذف الياء وصلاً ووقفاً إتباعاً لرسم المصحف ، وقرأ ابن كثير باثباتها فيهما وقرىء باثباتها في الوصل دون الوقف .

﴿ وفرعون ذي الأوتاد ﴾ أي ذي الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشدونها بالأوتاد أو جعل الجنود والجيوش والجموع أنفسهم أوتاداً لأنهم يشدون الملك كما تشد الأوتاد الخيام ، وقيل كان له أوتاد يعذب الناس بها ويشدهم اليها ، والوتد بكسر التاء في لغة الحجاز وهي الفصحى وجمعه أوتاد ، وفتح التاء لغة ، وأهل نجد يسكنون التاء قال ابن عباس الأوتاد الجنود الذين يشدون له أمره .

وقال ابن مسعود : وتد فرعون لامرأته أربعة أوتاداً ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت .

ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِى ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾

﴿ الذين طغوا في البلاد ﴾ الموصول صفة لعاد وثمود وفرعون أي طغت كل طائفة منهم في بلادهم وتمردت وعتت ، والطغيان مجاوزة الحد ، ويجوز أن يكون الموصول في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين طغوا أو في محل نصب على الذم .

﴿ فأكثروا فيها الفساد ﴾ بالكفر ومعاصي الله والجور على عباده ﴿ فصب ﴾ أي أفرغ ﴿ عليهم ربك ﴾ وألقى على تلك الطوائف ﴿ سوط عذاب ﴾ وهو ما عذبهم به قال الزجاج جعل سوطه الذي ضربهم به العذاب ، يقال صب على فلان خلعة أي ألقاها عليه ، ومعنى سوط عذاب نصيب عذاب أو نوع من العذاب . فأهلكت عاد بالريح وثمود بالصيحة وفرعون بالغرق ﴿ فكُلًّا أخذنا بذنبه ﴾ .

وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم هو بالنسبة الى ما أعده لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به ، وقيل ذكر السوط للدلالة على شدة ما نزل بهم وكان السوط عندهم هو نهاية ما يعذب به .

وقال الفراء هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب . وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذي يعذبون به فجرى لكل عذاب إذ كان فيه عندهم غاية العذاب ، وقيل معناه عذاب يخالط اللحم والدم من قولهم ساطه

يسوطه سوطاً أي خلطه فالسوط خلط الشيء بعضه ببعض ، والأولى أنه مجاز واستعارة عن إيقاع العذاب بهم على أبلغ الوجوه وأكملها إذ الصب يشعر بالدوام والسوط بزيادة الايلام أي عذبوا عذاباً مؤلماً دائماً .

وقوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ تعليل لما قبله إيذاناً بأن كفار قومه عليه السلام سيصيبهم مثل ما أصاب المذكورين من العذاب كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام .

وقد قدمنا قول من قال أن هذا جواب القسم ، وبه قال ابن مسعود ، والأولى أن الجواب محذوف والمعنى أنه يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه عليه بالخير خيراً وبالشر شراً ففيه استعارة تمثيلية قال الحسن وعكرمة أي عليه طريق العباد لا يفوته أحد ، والرصد والمرصاد الطريق .

وقد تقدم بيانه في سورة براءة ، وقد تقدم أيضاً عند قوله : ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ وقال ابن عباس : بالمرصاد أي يسمع ويرى ، وقال ابن مسعود في الآية من وراء الصراط جسور جسر عليه الأمانة وجسر عليه الرحم وجسر عليه الرب عز وجل .

ولما ذكر سبحانه أنه ذكر ما يدل على اختلاف أحوال عباده عند إصابة الخير وعند إصابة الشر ، وإن مطمح أنظارهم ومعظم مقاصدهم هو الدنيا فقال :

﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه ﴾ أي اختبره وامتحنه بالنعم ﴿ فأكرمه ونعمه ﴾ أي أكرمه بالمال ووسع عليه رزقه ﴿ فيقول ربي أكرمن ﴾ فرحاً بما نال وسروراً بما أعطي ، غير شاكر لله على ذلك ولا خاطر بباله أن ذلك امتحان له من ربه واختبار لحاله ، وكشف ما يشتمل عليه من الصبر والجزع والشكر للنعمة وكفرانها ، وأما هنا لمجرد التأكيد لا لتفصيل المجمل مع التأكيد ، وما في ﴿ إذا ما ﴾ زائدة ، وقوله فأكرمه ونعمه تفسير للإبتلاء .

ومعنى أكرمن أي فضلني بما أعطاني من المال وأسبغه عليَّ من النعم لمزيد استحقاقي لذلك وكوني موضعاً له ، ودخلت الفاء فيه لتضمن « أما » معنى الشرط أي فأما الإنسان فيقول ربي أكرمن وقت ابتلائه بالإنعام ، قال الكلبي الإنسان هنا هو الكافر ، أبيّ بن خلف ، وقال مقاتل نزلت في أمية بن خلف وقيل نزلت في عتبة ابن ربيعة وأبي حذيفة بن المغيرة .

﴿ وأما إذا ما ابتلاه ﴾ أي اختبره وعامله معاملة من يختبره ﴿ فقدر عليه رزقه ﴾ أي ضيقه ولم يوسعه له ولا بسط له فيه ﴿ فيقول ربي أهانن ﴾ أي أولاني هواناً ، وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث لأنه لا كرامة عنده إلا الدنيا والتوسع في متاعها ، ولا إهانة عنده إلا فوتها وعدم وصوله إلى ما يريد من زينتها ، فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته ويوفقه لعمل الآخرة .

ويحتمل أن يراد الإنسان على العموم لعدم تيقظه أن ما صار إليه من الخير وما أصيب به من الشر في الدنيا ليس إلا للاختبار والإمتحان ، وأن الدنيا بأسرها لا تعدل عند الله جناح بعوضة ولو كانت تعدل جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء .

قرىء باثبات الياء في أكرمن وأهانن وصلاً ، وحذفها وقفاً ، وقرىء بإثباتها فيهما ، وقرىء بحذفها في الوصل والوقف اتباعاً لرسم المصحف وموافقة لرؤوس الآي ، والأصل إثباتها لأنها اسم ، وقرأ الجمهور ﴿ فقدر ﴾ بالتخفيف وقرىء بالتشديد وهما لغتان ، وقرىء ربي بفتح الياء في الموضعين وبسكونها فيهما .

وقوله : ﴿ كلا ﴾ ردع للإنسان القائل في الحالتين ما قال وزجر له ، فإن الله سبحانه قد يوسع الرزق ويبسط النعم للإنسان لا لكرامته ، ويضيقه عليه لا لإهانته بل للإختبار والإمتحان كما تقدم ونحوه قوله تعالى :﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ قال الفراء « كلا » في هذا الموضع بمعنى أنه لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا ولكن يحمد الله على الغنى والفقر .

ثم انتقل سبحانه من بيان سوء أقوال الإنسان إلى بيان سوء أفعاله فقال :

﴿ بل لا تكرمون اليتيم ﴾ والالتفات إلى الخطاب لقصد التوبيخ والتقريع على قراءة الجمهور بالفوقية ، وقرىء بالتحتية على الخبر ، وهكذا اختلفوا فيما بعد هذا من الأفعال ، فقرأ الجمهور تحضون وتأكلون وتحبون بالفوقية على الخطاب فيها ، وقرىء بالتحتية فيها والجمع في هذه الأفعال باعتبار معنى الإنسان لأن المراد به الجنس أي بل لكم أفعال هي أقبح مما ذكر ، وهي أنكم تتركون إكرام اليتيم فتأكلون ماله وتمنعونه من فضل أموالكم ، قال مقاتل نزلت في قدامة بن مظعون وكان يتيماً في حجر أميَّة ابن خلف .

﴿ ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾ قرأ الجمهور تحضون من حضه على كذا أي اغراه به ومفعوله محذوف أي لا تحضون أنفسكم أو لا يحض بعضكم بعضاً على ذلك ولا يأمر به ولا يرشد إليه ، وقرىء تحاضون وأصله تتحاضون أي لا يحض بعضكم بعضاً وقرىء تحاضون بضم التاء من الحض وهو الحث ، والطعام إما اسم مصدر أي على إطعام المسكين أو اسم للمطعوم على حذف مضاف أي على بذل أو على إعطاء طعام المسكين .

﴿ وتأكلون التراث ﴾ أصله الوراث فأبدلت التاء من الواو المضمومة كما في تجاه ووجاه ، والمراد به أموال اليتامى الذين يرثونه من قراباتهم ، وكذلك أموال النساء وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ويأكلون أموالهم ﴿ أكلاً لماً ﴾ أي أكلاً شديداً ، وقيل معنى « لماً » جمعاً من قولهم لممت الطعام إذا أكلته جميعاً ، قال الحسن : يأكل نصيبه ونصيب اليتيم ، وكذا قال أبو عبيدة .

وأصل اللّم في كلام العرب الجمع يقال لممت الشيء ألمّه لمّاً جمعته ، ومنه قولهم لَمَّ الله شعثه أي جمع ما تفرق من أموره ، قال الليث : اللّم الجمع

الشديد ، ومنه حجر ملموم وكتيبة ملمومة ، والآكل يلم الثريد فيجمعه ثم يأكله وقال مجاهد : يسفه سفاً وقال ابن زيد : هو إذا أكل ماله ألم بمال غيره فأكله ولا يفكر فيما أكل من خبيث وطيب قال ابن عباس :« لماً » سفاً وعنه قال شديداً .

وكان حكم الارث عندهم من بقايا شريعة إسماعيل أو مما هو معلوم لهم وثابت عندهم بطريق عادتهم ، فلا يقال السورة مكية وآية المواريث مدنية ولا يعلم الحل والحرمة إلا من الشرع .

﴿ وتحبون المال حباً جماً ﴾ أي حباً كثيراً ، والجم الكثير ، يقال جم الماء في الحوض إذا كثر واجتمع ، والجمة المكان الذي يجتمع فيه الماء ، وقال ابن عباس جماً شديداً .

ثم كرر سبحانه الردع لهم والزجر فقال ﴿ كلا ﴾ أي ما هكذا ينبغي أن يكون عملكم ثم استأنف سبحانه فقال : ﴿ إذا دكت الأرض دكاً دكاً ﴾ وفيه وعيد لهم بعد الردع والزجر ، والدك الكسر والدق والمعنى هنا أنها زلزلت وحركت تحريكاً بعد تحريك ، قال ابن قتيبة : دكت جبالها حتى استوت ، قال الزجاج : أي تزلزلت فدك بعضها بعضاً قال المبرد أي بسطت وذهب ارتفاعها قال والدك حط المرتفع بالبسط .

وقد تقدم الكلام على الدك في سورة الاعراف وفي سورة الحاقة ، والمعنى أنها دكت مرة بعد أخرى ، ونصب دكاً الأول على أنه مصدر مؤكد للفعل ، ودكاً الثاني تأكيد للأول ، وكذا قال ابن عصفور .

ويجوز أن يكون النصب على الحال ، والمعنى حال كونها مدكوكة مرة بعد مرة ، كما يقال : علمته الحساب باباً باباً ، وعلمته الخط حرفاً حرفاً ، والمعنى أنه كرر الدك عليها حتى صارت ﴿ هباء منبثاً ﴾ قال ابن عباس يعني تحريكها .

وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

﴿ وجاء ربك ﴾ أي جاء أمره وقضاؤه وظهرت آياته وقيل المعنى أنها زالت الشبه في ذلك اليوم وظهرت المعارف وصارت ضرورية كما يزول الشك عند مجيء الشيء الذي كان يشك فيه ، وقيل جاء قهر ربك وسلطانه وانفراده بالأمر والتدبير من دون أن يجعل إلى أحد من عباده شيئاً من ذلك ، وقيل تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه ، وقيل جاء أمر ربك بالمحاسبة والجزاء وقيل غير ذلك .

والحق أن هذه الآية من آيات الصفات التي سكت عنها وعن مثلها عامة سلف الأمة وأئمتها وبعض الخلف فلم يتكلموا فيها ،بل أجروها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تأويل ولا تحريف ولا تعطيل ، وقالوا يلزمنا الإيمان بها وإجراؤها على ظاهرها ، والتأويل ديدن المتكلمين ودين المتأخرين ، وهو خلاف ما عليه جمهور السلف الصالحين .

وقوله ﴿ والملك صفاً صفاً ﴾ منتصب على الحال أي مصطفين أو ذوي الصفوف ، قال عطاء يريد صفوف الملائكة وأهل كل سماء صف على حدة قال الضحاك أهل كل سماء إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفاً محيطين بالأرض ومن فيها فيكونون سبعة صفوف .

﴿ وجيء يومئذ ﴾ منصوب بجيء والقائم مقام الفاعل قوله : ﴿ بجهنم ﴾ وجوز مكي أن يكون يومئذ هو القائم مقام الفاعل وليس بذاك ، قال الواحدي قال جماعة المفسرين جيء بها يوم القيامة مزمومة بسبعين ألف

زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها حتى تنصب عن يسار العرش ، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا لركبتيه يقول : يا رب نفسي نفسي .

وهذا الذي نقله عن جماعة المفسرين قد أتى مرفوعاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أخرج مسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها »[1] وعلى هذا فالآية مجراة على ظاهرها وقيل المعنى أنها برزت لأهلها كقوله : ﴿ وبرزت الجحيم للغاوين ﴾ والأول أولى .

﴿ يومئذ ﴾ بدل من يومئذ الذي قبله أي يوم جيء بجهنم ﴿ يتذكر الإنسان ﴾ أي يتعظ ويذكر ما فرط منه ويندم على ما قدمه في الدنيا من الكفر والمعاصي ، وقيل إن قوله : ﴿ يومئذ ﴾ الثاني بدل من قوله ﴿ إذا دكت ﴾ والعامل فيهما هو قوله : يتذكر الإنسان ﴿ وأنى له الذكرى ﴾ أي ومن أين له التذكرة والاتعاظ . وقيل هو على حذف مضاف أي ومن أين له منفعة الذكرى ، قال الزجاج : يظهر التوبة ومن أين له التوبة .

﴿ يقول يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ بدل اشتمال من يتذكر أو مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل ماذا يقول الإنسان فقيل يقول الخ والمعنى أنه يتمنى أنه قدم الخير والعمل الصالح لأجل حياته . والمراد حياة الآخرة فإنها الحياة بالحقيقة ، لأنها دائمة غير منقطعة ، وقيل أن اللام بمعنى في ، والمراد حياة الدنيا أي يا ليتني قدمت الأعمال الصالحة في وقت حياتي في الدنيا أنتفع بها يوم القيامة ، والأول أولى ، قال الحسن علم والله أنه صادف حياة طويلة لا موت فيها .

﴿ فيومئذ ﴾ أي يوم يكون زمان ما ذكر من الأحوال ﴿ لا يعذب عذابه

---

(١) صحيح مسلم ٤/٢١٨٤ .

أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ أي لا يعذب كعذاب الله أحد ، ولا يوثق كوثاقه ولا يتولى عذاب الله ووثاقه أحد سواه إذ الأمر كله له ، والضميران في عذابه ووثاقه لله عز وجل ، وهذا على قراءة الجمهور يعذب ويوثق مبنيين للفاعل ، وقرىء على البناء للمفعول فيهما فيكون الضميران راجعين إلى الإنسان أي لا يعذب كعذاب ذلك الإنسان أحد ولا يوثق كوثاقه أحد ، والمراد بالإنسان الكافر أي لا يعذب من ليس بكافر كعذاب الكافر ، وقيل إبليس وقيل المراد به أبيّ بن خلف .

قال الفراء المعنى أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد ، لتناهيه في الكفر والعناد ، وقيل المعنى إنه لا يعذب مكانه أحد ولا يوثق مكانه أحد فلا تؤخذ منه فدية وهو كقوله ؛ ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ والعذاب بمعنى التعذيب والوثاق بمعنى التوثيق .

واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة المبني للمفعول وقالا تكون الهاء في الموضعين ضميراً لكافر لأنه معروف أنه لا يعذب كعذاب الله أحد ، وقال أبو علي الفارسي يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة أي لا يعذب أحد أحداً مثل تعذيب هذا الكافر .

ولما فرغ سبحانه من حكاية أحوال الأشقياء ذكر بعض أحوال السعداء فقال : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ والقائل هو الله سبحانه إكراماً للمؤمن كما كلم موسى ، أو الملك ، وإنما يقال لها ذلك عند الموت أو البعث أو عند دخول الجنة ، والنفس المطمئنة هي الساكنة الموقنة بالإيمان وتوحيد الله الواصلة إلى ثلج اليقين بحيث لا يخالطها شك ولا يعتريها ريب .

قال الحسن هي المؤمنة الموقنة ، وقال مجاهد الراضية بقضاء الله التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها ، وقال مقاتل هي الآمنة المطمئنة . وقال ابن كيسان المطمئنة بذكر الله تعالى وقيل المخلصة ، قال ابن زيد المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ،

وقال ابن عباس المطمئنة المؤمنة .

﴿ إرجعي إلى ربك راضية ﴾ بالثواب الذي أعطاك ﴿ مرضية ﴾ عنده . والمعنى ارجعي إلى الله وقيل إلى موعده وقيل إلى أمره ، وقال عكرمة وعطاء إلى جسدك الذي كنت فيه ، واختاره ابن جرير ، ويدل على هذا قراءة ابن عباس ﴿ فادخلي في عبدي ﴾ بالإفراد والأول أولى .

قال القفال : هذا وإن كان أمراً في الظاهر فهو خبر في المعنى ، والتقدير أن النفس إذا كانت مطمئنة رجعت في القيامة إلى الله بسبب هذا الأمر . قال ابن عباس : « نزلت هذه الآية وأبو بكر جالس ، فقال : يا رسول الله ما أحسن هذا فقال أما أنه سيقال لك هذا » أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة ، وعن سعيد بن جبير نحوه مرسلاً ، وعن أبي بكر الصديق نحوه .

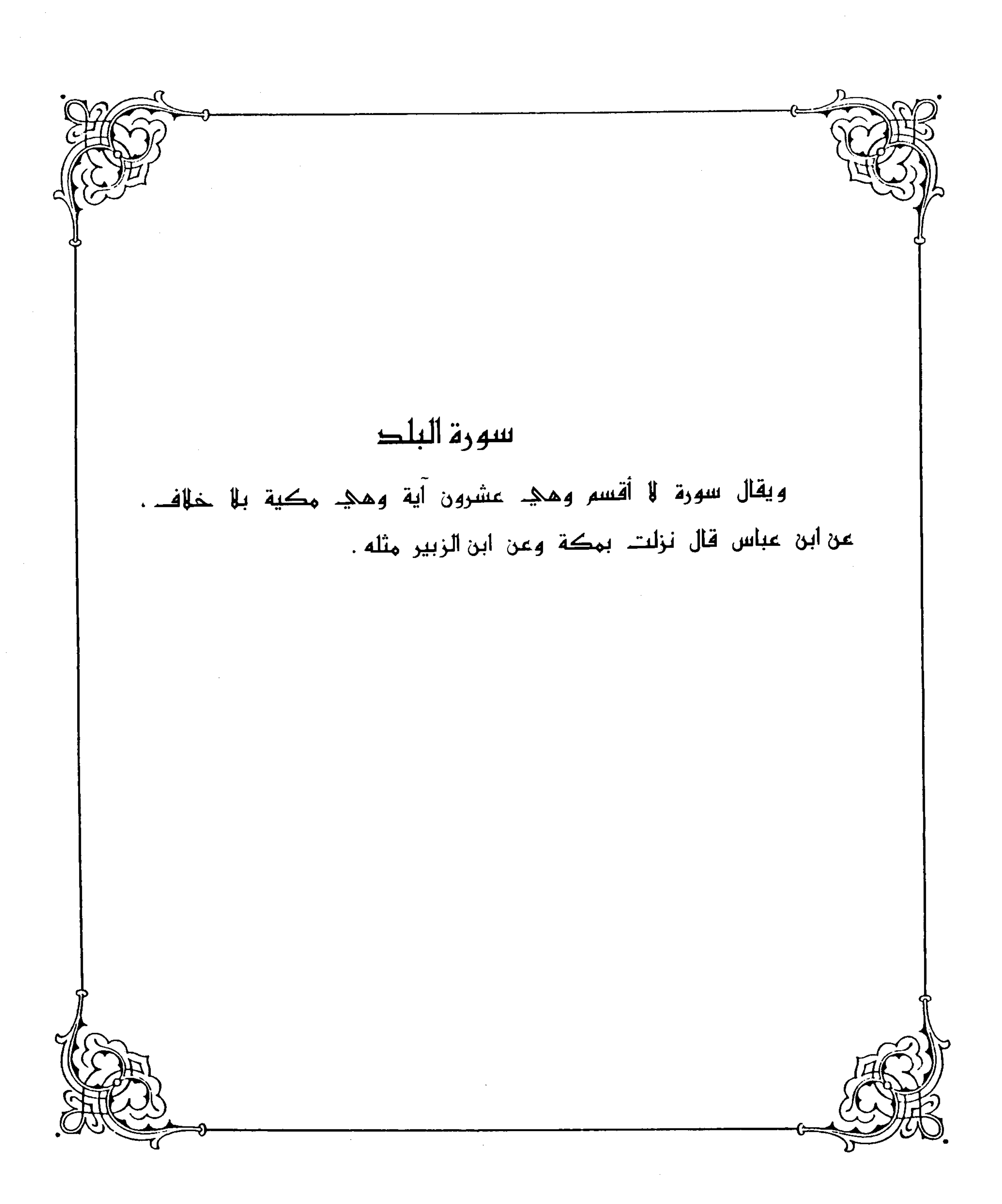
وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ قال هو النبي صلى الله عليه وسلم ، وعنه قال : المطمئنة المصدقة ، وعنه قال ترد الأرواح يوم القيامة في الأجساد ، وعنه قال : راضية بما أعطيت من الثواب ، مرضية عنها بعملها .

﴿ فادخلي في عبادي ﴾ المؤمنين أي في زمرة عبادي الصالحين وكوني من جملتهم ، وانتظمي في سلكهم : وهذا يشعر بأن النفس بمعنى الذات ، ويجوز أن تكون بمعنى الروح كما أشار له البيضاوي ﴿ وادخلي جنتي ﴾ معهم قيل أنه يقال لها ارجعي إلى ربك عند خروجها من الدنيا ويقال لها ادخلي في عبادي وادخلي جنتي يوم القيامة .

وأتى بالفاء فيما لم يتراخ عن الموت وبالواو فيما يتراخى عنه .

والمراد بالآية كل نفس مطمئنة على العموم لأن السورة مكية ولا ينافي ذلك نزولها في نفس معينة فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

عن سعيد بن جبير قال : « مات ابن عباس في الطائف فجاء طير لم ير على خلقته فدخل نعشه ثم لم ير خارجاً منه ، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا ندري من تلاها ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ . الآية أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني ، وعن عكرمة مثله ، أخرجه أبو نعيم في الدلائل .



سورة البلد

ويقال سورة لا أقسم وهي عشرون آية وهي مكية بلا خلاف.

عن ابن عباس قال نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾

﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ قد تقدم الكلام على هذا في تفسير ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ ولا زائدة ومن زيادة لا في الكلام في غير القسم قول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة ... وكاد صميم القلب لا يتصدع

أي يتصدع ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ أي أن تسجد ، قال الواحدي : أجمع المفسرون على أن هذا قسم بالبلد الحرام وهو مكة ، وبه قال ابن عباس : قرأ الجمهور لا أقسم وقرىء لأقسم من غير ألف ، وقيل هو نفي للقسم .

والمعنى لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه ، وقال مجاهد إن « لا » رد على من أنكر البعث ثم ابتدأ فقال : « أقسم » والمعنى ليس الأمر كما تحسبون والأول أولى .

والمعنى أقسم بالبلد الحرام وقال الواسطي : أن المراد بالبلد المدينة وهو مع كونه خلاف إجماع المفسرين هو أيضاً مدفوع بكون السورة مكية لا مدنية ، ومكة جعلها الله تعالى : ﴿ حراماً آمناً ﴾ ﴿ ومثابة للناس ﴾ وجعل مسجدها قبلة لأهل المشرق والمغرب ، وشرفه بمقام إبراهيم وحرم فيه الصيد ، وجعل البيت المعمور بإزائه ، ودحيت الأرض من تحته فهذه الفضائل وغيرها لما اجتمعت في مكة دون غيرها أقسم بها .

﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ البلد يذكر ويؤنث والجمع بلدان ، والبلدة البلد وجمعها بلاد مثل كلبة وكلاب ، وقال الواحدي الحل والحلال والمحل

واحد ، وهو ضد الحرام ، أحل الله لنبيه صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح حتى قاتل وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي ولم تحل لي إلا ساعة من نهار » .

قال والمعنى أن الله تعالى لما ذكر القسم بمكة دل ذلك على عظيم قدرها مع كونها حراماً فوعد نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يحلها له حتى يقاتل فيها ويفتحها على يده فهذا وعد من الله تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حلاً انتهى .

فالمعنى وأنت حل بهذا البلد في المستقبل كما في قوله : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ قال النسفي رحمه الله وكفاك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال وإن تفسيره بالحال محال أن السورة مكية بالإتفاق ، وأين الهجرة من وقت نزولها ، فما بال الفتح انتهى .

قال مجاهد المعنى ما صنعت فيه من شيء فأنت حل ، قال قتادة أنت حل به لست بآثم يعني أنك غير مرتكب في هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر والمعاصي .

وقيل المعنى لا أقسم بهذا البلد وأنت حال به ومقيم فيه وهو محلك ، فعلى القول بأن لا نافية غير زائدة يكون المعنى لا أقسم به وأنت حال به فأنت أحق بالإقسام بك ، وعلى القول بأنها زائدة يكون المعنى أقسم بهذا البلد الذي أنت مقيم به تشريفاً لك وتعظيماً لقدرك لأنه قد صار بإقامتك فيه عظيماً شريفاً ، وزاد على ما كان عليه من الشرف والعظم .

ولكن هذا إذا تقرر في لغة العرب أن لفظ حل يجيء بمعنى حال ، وكما يجوز أن تكون الجملة معترضة يجوز أن تكون في محل نصب على الحال .

قال ابن عباس في الآية يعني بذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحل الله له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء ويستحيي من شاء فقتل يومئذ ابن خطل صبراً وهو آخذ بأستار الكعبة فلم يحل لأحد بعد النبي صلى الله

عليه وآله وسلم أن يفعل فيها حراماً حرمه الله فأحل الله ما صنع بأهل مكة ، وعنه فيها قال أنت يا محمد يحل لك أن تقاتل فيه وأما غيرك فلا .

وعن أبي برزة الأسلمي قال : « نزلت هذه الآية فيَّ خرجت فوجدت عبد الله ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة فضربت عنقه بين الركن والمقام » أخرجه ابن مردويه .

وقوله : ﴿ ووالد وما ولد ﴾ عطف على البلد قال قتادة ومجاهد والضحاك والحسن وأبو صالح : ووالد أي آدم وما ولد أي وما تناسل من ولده ، ومثله عن ابن عباس .

وأقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق الله على وجه الأرض لما فيهم من البيان والعقل والتدبير ، واستخراج العلوم ، وفيهم الأنبياء والأولياء والصالحون والدعاة إلى الله والانتصار لدينه ، وكل ما في الأرض من مخلوق لأجلهم ، وأمر الملائكة بالسجود لآدم وعلمه الاسماء كلها ، فيكون قد أقسم بجميع الآدميين صالحهم وطالحهم .

وقيل هو قسم بآدم والصالحين من ذريته ، وأما الطالحون فكأنهم ليسوا من أولاده وكأنهم بهائم ، وفائدة التنكير في ﴿ والد ﴾ التعجب والمدح ، قاله الرازي .

وقال أبو عمران الجوني ﴿ الوالد ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿ وما ولد ﴾ ذريته ، قال الفراء إن ﴿ ما ﴾ عبارة عن الناس كقوله : ﴿ ما طاب لكم ﴾ وقيل الوالد إبراهيم والولد اسماعيل ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال عكرمة وسعيد بن جبير ﴿ ووالد ﴾ يعني الذي يولد له ﴿ وما ولد ﴾ يعني العاقر الذي لا يولد له وكأنهما جعلا ﴿ ما ﴾ نافية هو بعيد ولا يصح ذلك إلا باضمار الموصول أي ووالد والذي ما ولد ولا يجوز اضمار الموصول عند البصريين ، وقال عطية العوفي هو عام في كل والد ومولود من جميع الحيوانات واختار هذا ابن جرير .

وعن ابن عباس ﴿ الوالد ﴾ الذي يلد ﴿ وما ولد ﴾ العاقر لا يلد من الرجال والنساء ، وقد استدل بعض الجهال بهذه الآية على جواز الاحتفال لمولده صلى الله عليه وسلم ، وهذا تحريف لمعاني كتاب الله لم يذهب إليه أحد من المفسرين بل هو خلاف إجماع المسلمين .

﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ هذا جواب القسم ، والإنسان هو هذا النوع الإنساني والكبد الشدة والمشقة ، يقال كابدت الأمر قاسيت شدته ، والإنسان لا يزال في مكابدة الدنيا ومقاساة شدائدها حتى يموت .

قال ذو النون لم يزل مربوطاً بحبل القضاء ، مدعواً إلى الائتمار والانتهاء ، وأصل الكبد الشدة ومنه تكبد اللبن إذا اشتد وغلظ ، ويقال كبد الرجل إذا وجعت كبده ثم استعمل في كل مشقة وشدة ، قال الحسن يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة وقال أيضاً يكابد الشكر على السراء ويكابد الصبر على الضراء لا يخلو عن أحدهما .

قال الكلبي : نزلت هذه الآية في رجل من بني جمح يقال له أبو الأشدين وكان يأخذ الاديم العكاظي ويجعله تحت رجليه ويقول من أزالني عنه فله كذا فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه ، وكان من أعداء النبي صلى الله عليه وسلم وفيه نزل :

﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ يعني لقوته ويكون معنى في كبد على هذا في شدة خلق ، وقيل معنى في كبد انه جريء القلب غليظ الكبد ، وقال ابن عباس في كبد في اعتدال وانتصاب ، وعنه قال في نصب ، وعنه قال في شدة ، وقال أيضاً في شدة خلق ولادته ونبت أسنانه ومعيشته وختانه .

وقال أيضاً : خلق الله كل شيء يمشي على أربعة إلا الإنسان فإنه خلق منتصباً ، وقال أيضاً منتصباً في بطن أمه أنه قد وكل به ملك إذا نامت الأم أو اضطجعت رفع رأسه ، لولا ذلك لغرق في الدم ، والكبد الاستواء والاستقامة فهذا امتنان عليه في الخلقة ولم يخلق الله جل جلاله دابة في بطن أمها إلا منكبة

على وجهها إلا ابن آدم فإنه منتصب انتصاباً .

قال اليماني : لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم وهو مع ذلك أضعف الخلق .

قال العلماء : أول ما يكابد قطع سرته ، ثم إذا قمط قماطاً وشدد عليه يكابد الضيق والتعب ، ثم يكابد الارتضاع ولو فاته لضاع ، ثم يكابد نبت أسنانه وتحريك لسانه ثم يكابد الفطام الذي هو أشد من اللطام ثم يكابد الختان والأوجاع والأحزان ثم يكابد المعلم وصولته والمؤدب وسياسته ، والاستاذ وهيبته ، ثم يكابد شغل التزويج والتعجيل فيه والترويج ثم يكابد شغل الأولاد والخدم والأجناد ثم يكابد شغل الدور وبناء القصور ثم الكبر والهرم وضعف الركبة والقدم ، في مصائب يكثر تعدادها ونوائب يطول إيرادها من صداع الرأس ووجع الأضراس ، ورمد العين وغم الدين ووجع السن ، وألم الأذن ويكابد محناً من المال والنفس مثل الضرب والحبس ولا يمضي عليه يوم إلا يقاسي فيه شدة ويكابد مشقة ثم الموت بعد ذلك كله ثم سؤال الملك وضغطة القبر وظلمته ثم البعث والعرض على الله تعالى إلى أن يستقر به القرار إما في جنة وإما في نار .

فلو كان الأمر إليه لما اختار هذه الشدائد ودل على أن له خالقاً دبره وقضى عليه بهذه الأحوال فليمتثل أمره ، ذكره القرطبي .

﴿ أيحسب ﴾ الانسان ﴿ أن لن يقدر عليه أحد ﴾ أي أيظن ابن آدم أن لن يقدر عليه ولا ينتقم منه أحد أو يظن أبو الأشدين أن لن يقدر عليه أحد ، وأن هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن مقدر .

ثم أخبر سبحانه عن مقال هذا الإنسان فقال : ﴿ يقول ﴾ مفتخراً ﴿ أهلكت مالاً لبداً ﴾ أي كثيراً مجتمعاً بعضه على بعض ، قال الليث مال لبد لا يخاف فناؤه من كثرته ، قال الكلبي ومقاتل : يقول أهلكت في عداوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم مالاً كثيراً ، وفي أبي السعود يريد كثرة ما أنفقه فيما

كان أهل الجاهلية يسمونه مكارم ويدعونه معالي ومفاخر .

وقال مقاتل نزلت في الحرث بن عامر بن نوفل أذنب فاستفتى النبي صلى الله عليه وسلم فأمره أن يكفر فقال لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات منذ دخلت في دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

قرأ الجمهور ﴿ لبداً ﴾ بضم اللام وفتح الباء مخففاً وقرىء بضمها بالتخفيف وقرىء بضم اللام وفتح الباء مشدداً قال أبو عبيدة لبد فعل من التلبيد وهو المال الكثير بعضه على بعض ، قال الزجاج : فعل للكثرة يقال رجل حطم إذا كان كثير الحطم ، قال الفراء واحدته لبدة والجمع لبد ، وقد تقدم بيان هذا في سورة الجن .

﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ استفهام على سبيل الإنكار أي أيظن أنه لم يعاينه أحد ، قال قتادة أيظن ان الله سبحانه لم يره ولا يسأله عن ماله من أين كسبه وأين أنفقه ، وقال الكلبي كان كاذباً لم ينفق ما قال ، فقال الله أيظن أن الله لم ير ذلك منه فعل أو لم يفعل ، أنفق أو لم ينفق .

ثم ذكر سبحانه ما أنعم عليه ليعتبر فقال : ﴿ ألم نجعل له عينين ﴾ يبصر بهما المرئيات شققناهما وهو في الرحم في ظلمات ثلاث على مقدار مناسب . لا تزيد إحداهما على الأخرى شيئاً وقدرنا البياض والسواد والسمرة والزرقة وغير ذلك على ما ترون ، وأودعناهما البصر على كيفية يعجز الخلق عن إدراكها .

﴿ ولساناً ﴾ ينطق به ويعبر عما في ضميره ﴿ وشفتين ﴾ يستر بهما ثغره وفاه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ وغير ذلك ، قال الزجاج : المعنى ألم نفعل به ما يدله على أن الله قادر على أن يبعثه ، والشفة محذوفة اللام وأصلها شفهة بدليل تصغيرها على شفيهة وجمعها على شفاه نظير سنة في إحدى اللغتين وشافهته أي كلمته من غير واسطة ، ولا تجمع بالألف والتاء استغناء بتكسيرها عن تصحيحها .

وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

﴿ وهديناه النجدين ﴾ النجد الطريق في ارتفاع ، قال المفسرون : بيّنا له طريق الخير وطريق الشر ، قال الزجاج المعنى ألم نعرفه طريق الخير وطريق الشر مبينتين كتبيين الطريقين العاليتين .

وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن المسيب والضحاك : النجدان الثديان لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه ، والأول أولى .

وأصل النجد المكان المرتفع وجمعه نجود ، ومنه سميت نجد لارتفاعها عن انخفاض تهامة فالنجدان الطريقان العاليان .

قال ابن مسعود في الآية : سبيل الخير والشر ، وقال ابن عباس : الهدى والضلالة ، وعنه نحو قول ابن مسعود ، وعن أنس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « هما نجدان فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير » أخرجه ابن أبي حاتم تفرد به سنان بن سعد ، ويقال سعد بن سنان وقد وثقه يحيى بن معين ، وقال الامام أحمد والنسائي والجوزجاني منكر الحديث ، وقال أحمد تركت حديثه لاضطرابه قد روى خمسة عشر حديثاً منكرة كلها ما أعرف منها حديثاً واحداً ، يشبه حديثه حديث البصري لا يشبه حديث أنس .

وروي نحوه عن الحسن وقتادة مرسلاً ، ويشهد له ما أخرجه الطبراني عن أبي امامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يا أيها الناس أنهما نجدان نجد خير ونجد شر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير » .

ويشهد له أيضاً ما أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « انما هما نجد الخير ونجد الشر ، فلا يكن نجد الشر أحب اليكم من نجد الخير » .

قال الشهاب لا يخفى أنه ذكره في سياق الامتنان والمراد الامتنان عليه بأن هداه وبين له الطريق فسلكها تارة وعدل عنها أخرى ، فلا امتنان عليه بالشر ولذا جعله الإمام بمعنى قوله تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ ووصف مكان الخير بالرفعة والنجدية ظاهر بخلاف الشر فإنه هبوط من ذروة الفطرة إلى حضيض الشقوة فهو على سبيل التغليب أوعلى توهم المخيلة أن فيه صعوداً فتدبر انتهى .

قلت الامتنان بالهداية إلى سبيل الشر يصح بمعنى أن الله عرف الإنسان طريق الشر ليجتنبه وطريق الخير ليسلكه ، ولو لم يعرفه سبيل الشر لما اجتنبه ، والأشياء تعرف بأضدادها ، فالامتنان بهدايته إليه ثابت عقلاً . والمعنى بينا ووضحنا له أن سلوك الأول ينجي وأن سلوك الثاني يردي . وأن سلوك الأول ممدوح وأن سلوك الثاني مذموم ، فالذي ذكره الشهاب تدفعه الأحاديث المرفوعة المتقدم ذكرها .

﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ الاقتحام الرمي بالنفس في شيء من غير روية ، يقال منه قحم في الأمر قحوماً أي رمى بنفسه في الأمر من غير روية وتقحيم النفس في الشيء إدخالها فيه عن غير روية ، والقحمة بالضم المهلكة ، والعقبة في الأصل الطريق الصعب التي في الجبل سميت بذلك لصعوبة سلوكها .

وهو مثل ضربه الله سبحانه لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة .

قال الفراء والزجاج : ذكر سبحانه هنا ﴿ لا ﴾ مرة واحدة والعرب لا تكاد تفرد ﴿ لا ﴾ مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع حتى يعيدوها في كلام

آخر كقوله : ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ وإنما أفرد ههنا لدلالة آخر الكلام على معناه فيجوز أن يكون قوله : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ قائماً مقام التكرير ، كأنه قال فلا اقتحم العقبة ولا آمن .

قال المبرد وأبو علي الفارسي : أن « لا » هنا بمعنى لم أي فلم يقتحم ، وروي نحو ذلك عن مجاهد ، فلهذا لم يحتج إلى التكرير ، وقيل هو جار مجرى الدعاء كقوله لا نجا .

قال ابن زيد وجماعة من المفسرين : معنى الكلام هنا الاستفهام الذي بمعنى الإنكار تقديره أفلا اقتحم العقبة أو هلا اقتحم العقبة ، قال ابن عمر في العقبة جبل زلال في جهنم ، وقال ابن عباس العقبة النار ، وعنه قال عقبة بين الجنة والنار ، وقال قتادة وكعب : هي نار دون الجسر فاقتحموها بطاعة الله ، وقال الحسن : هي والله عقبة شديدة مجاهدة نفسه وهواه وعداوة الشيطان . وقيل العقبة خلاصه من هول العرض ، وقال مجاهد والضحاك والكلبي هي الصراط الذي يضرب على جهنم كحد السيف .

وعن عائشة قالت لما نزل ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ قيل يا رسول الله ما عند أحدنا ما يعتق إلا أن عند أحدنا الجارية السوداء تخدمه فلو أمرناهن بالزنا فجئن بالأولاد فأعتقناهم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لأن أمتع بسوط في سبيل الله أحب إلي من أن آمر بالزنا ثم أعتق الولد » أخرجه الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي وأخرجه ابن جرير عنها بلفظ « لعلاقة سوط في سبيل الله أعظم أجراً من هذا » .

ثم بين سبحانه العقبة فقال : ﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ أي أيُّ شيء أعلمك ما اقتحامها والمعرف باللام إذا أعيد كان الثاني عين الأول فتكون الجملة معترضة مقحمة لبيان العقبة مقررة لمعنى الإبهام والتفسير ، فإن ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ مفسرة بقوله : ﴿ فك رقبة ﴾ والمفسر منفي والمفسر كذلك لاتحادهما في الاعتبار كأنه قيل فلا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً .

قال محيي السنة ذكر العقبة ههنا مثل ضربه الله لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة .

قال صاحب الفرائد هذا تنبيه على أن النفس لا توافق صاحبها في الإنفاق لوجه الله البتة فلا بد من التكليف وتحمل المشقة ، والذي توافقه النفس هو الافتخار والمراآتفكأنه تعالى ذكر هذا المثل بإزاء ما قال : ﴿ أهلكت مالاً لبداً ﴾ والمراد الإنفاق المفيد ، وأن ذلك الإنفاق لمضر انتهى .

وفي التمثيل بالعقبة بعد ذكر النجدين ترشيح ثم التقريع عليه بالاقتحام قرينة لتلك المبالغة ذكره الكرخي ، ومعنى ﴿ فك رقبة ﴾ إعتاق رقبة وتخليصها من إسار الرق وكل شيء أطلقته فقد فككته ، ومنه فك الرهن وفك الكتاب ، فقد بين سبحانه أن العقبة هي هذه القرب المذكورة التي تكون بها النجاة من النار ، قرئ فك رقبة على أنه فعل ماض وهكذا أطعم ، وقرئ فك وإطعام على أنهما مصدران ، وعلى الأولى المعنى فلا أفك ولا أطعم ، والفك في الأصل حل القيد سمي العتق فكاً لأن الرق كالقيد ، وسمي المرقوق رقبة لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته .

وقد ثبت الترغيب في عتق الرقاب بأحاديث كثيرة منها ما في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من النار حتى الفرج بالفرج » .

﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴾ أي مجاعة . والسغب الجوع ، والساغب الجائع ، قال الراغب يقال منه سغب الرجل سغباً وسغوباً فهو ساغب وسغبان والمسغبة مفعلة منه ، قال النخعي في يوم ذي مسغبة أي عزيز فيه الطعام .

قال ابن عباس مسغبة مجاعة ، وعنه جوع ، وقيد الإطعام في هذا اليوم لأن إخراج المال في ذلك الوقت أثقل على النفس وأوجب للأجر ، قرأ الجمهور

بالجر على أنه صفة ليوم ، ويتيماً هو مفعول إطعام ، وقرأ الحسن بالنصب على أنه مفعول إطعام أي يطعمون ذا مسغبة ويتيماً بدلاً منه .

﴿ يتيماً ذا مقربة ﴾ أي قرابة قاله ابن عباس . يقال فلان ذو قرابتي وذو مقربتي ، واليتيم في الأصل الضعيف يقال يتم الرجل إذا ضعف ، واليتيم عند أهل اللغة من لا أب له ، وقيل هو من لا أب له ولا أم ، ومنه قول قيس بن الملوح .

إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيم

﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾ أي لا شيء له كأنه لصق بالتراب لفقره ، وليس له مأوى إلا التراب ، يقال ترب الرجل يترب ترباً ومتربة إذا افتقر حتى لصق بالتراب ضراً ، قال مجاهد هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره ، وقال قتادة هو ذو العيال وقال عكرمة هو المديون ، وقال أبو سنان هو ذو الزمانة وقال ابن جبير هو الذي ليس له أحد ، وقال عكرمة أيضاً هو البعيد التربة الغريب عن وطنه وبه قال ابن عباس ، والأول أولى ومنه قول الهذلي .

وكنا إذا ما الضيف حل بأرضنا سفكنا دماء البدن في تربة الحال

وعن ابن عباس أيضاً قال هو المطروح الذي ليس له بيت ، وفي لفظ هو الذي لا يقيه من التراب شيء ، وفي لفظ هو اللازق بالتراب من شدة الفقر ، وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال : « هو الذي مأواه المزابل » أخرجه ابن مردويه والمتربة والمقربة والمسغبة أي كل واحد منها مصدر ميمي على وزن مفعلة .

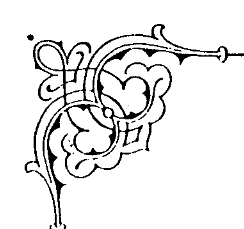
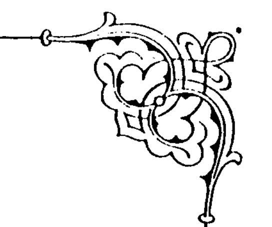
﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ عطف على المنفي بلا ، وجاء بثم للدلالة على تراخي رتبة الإيمان ورفعة محله وفيه دليل على أن هذه القرب إنما تنفع مع الإيمان وقيل التراخي في الذكر ، وقيل المعنى ثم كان من الذين آمنوا بأن هذا نافع لهم وقيل المعنى أنه أتى بهذه القرب لوجه الله .

﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ معطوف على آمنوا أي أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله وعن معاصيه وعلى ما أصابهم من البلايا والمصائب والمحن والشدائد ﴿ وتواصوا بالمرحمة ﴾ أي بالرحمة على عباد الله فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين ، واستكثروا من فعل الخير بالصدقة ونحوها قال ابن عباس: يعني بذلك رحمة الناس .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بتلك الصفات هم ﴿ أصحاب الميمنة ﴾ أي أصحاب جهة اليمين أو أصحاب اليمين أو الذين يعطون كتبهم بأيمانهم وقيل غير ذلك مما قدمنا ذكره في سورة الواقعة .

﴿ والذين كفروا بآياتنا ﴾ أي بالقرآن أو بما هو أعم منه فتدخل الآيات التنزيلية والآيات التكوينية التي تدل على الصانع سبحانه ﴿ هم أصحاب المشأمة ﴾ أي أصحاب الشمال أو أصحاب الشؤم أو الذين يعطون كتبهم في شمائلهم أو غير ذلك مما تقدم .

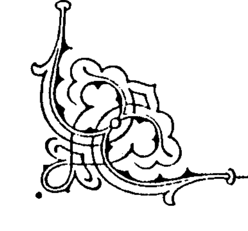
﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ أى مطبقة مغلقة يقال أصدت الباب وأوصدته إذا أغلقته وأطبقته . قرأ الجمهور موصدة بالواو ، وقرىء بالهمزة وهما لغتان والمعنى واحد قال ابن عباس مغلقة الأبواب ، وقال أبو هريرة مطبقة .

سورة الشمس

هي خمس عشرة آية وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة ، وعن ابن الزبير مثله ، وعن بريده «أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة العشاء ﴿ والشمس وضحاها ﴾ وأشباهها من السور » أخرجه أحمد والترمذي وحسنه والنسائي ، وقد تقدم حديث جابر في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لمعاذ هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها والليل اذا يغشى .

وعن ابن عباس « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمره أن يقرأ في صلاة الصبح بالليل اذا يغشى والشمس وضحاها » أخرجه الطبراني ، وعن عقبة بن عامر قال : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نصلي ركعتي الضحى بسورتيهما بالشمس وضحاها والضحى » أخرجه البيهقي في الشعب .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾

﴿ والشمس وضحاها ﴾ أقسم سبحانه بهذه الأمور ، وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته وقال قوم إن القسم بهذه الأمور ونحوها مما تقدم ومما سيأتي هو على حذف مضاف أي ورب الشمس ، وهكذا سائرها ، ولا ملجىء إلى هذا ولا موجب له ، وقوله : ﴿ وضحاها ﴾ هو قسم ثان ، وقال الرازي المقصود من هذه السورة الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي .

وقد أقسم تعالى بأنواع مخلوقاته المشتملة على المنافع العظيمة ليتأمل المكلف فيها ويشكر عليها لأن ما أقسم الله تعالى به يحصل منه وقع في القلب ، وأقسم الله في هذه السورة بسبعة أشياء إلى قوله : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ فأقسم بالشمس وضحاها فإن أهل العالم كانوا كالأموات في الليل ، فلما ظهر أثر الصبح صارت الأموات أحياء ، وتكاملت الحياة وقت الضحوة ، وهذه الحالة تشبه أحوال القيامة ، ووقت الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها انتهى .

قال مجاهد أي ضوؤها وإشراقها ، وأضاف الضحى إلى الشمس لأنه إنما يكون عند ارتفاعها ، وكذا قال الكلبي ، وقال قتادة : ضحاها نهارها كله ، قال الفراء : الضحى هو النهار ، وقال المبرد : أصل الضحى الصبح ، وهو نور الشمس ، وقيل الضحوة ارتفاع النهار ، والضحى فوق ذلك .

قال القرطبي : الضحى مؤنثة يقال ارتفعت الضحى فوق الضحو ، وقد تذكر ، فمن أنث ذهب إلى أنها جمع ضحوة ومن ذكّر ذهب إلى أنها اسم فعل

نخو صرد ونغر ، قال أبو الهيثم : الضحى نقيض الظل : وهو نور الشمس على وجه الأرض ، وأصله الضحى فاستثقلوا الياء فقلبوها ألفاً قيل والمعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس وبعد ذلك قليلاً ، فإذا زاد فهو الضحاء بالمد .

قال المبرد : الضحى والضحوة مشتقان من الضح وهو النور فأبدلت الألف والواو من الحاء .

واختلف في جواب القسم ماذا هو ، فقيل هو قوله : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ قاله الزجاج وغيره وحذفت اللام لأن الكلام قد طال فصار طوله عوضاً منها ، وقيل محذوف أي لتبعثن وقيل تقديره ليدمدمن الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحاً ، وأما قوله : ﴿قد أفلح من زكاها﴾ فكلام تابع لقوله : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم في شيء ، وقيل هو على التقديم والتأخير بغير حذف ، والمعنى ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ ﴿ والشمس وضحاها ﴾ والأول أولى .

﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ أي تبعها وذلك بأن طلع بعد غروبها ، يقال تلا يتلو تلواً إذا تبع ، قال المفسرون وذلك إنما يكون في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر في الاضاءة وخلفها في النور ، وقال الزجاج تلاها حين استدار فكان يتلو الشمس في الضياء والنور ، يعني إذا كمل ضوؤه فصار تابعاً للشمس في الإنارة يعني كان مثلها في الإضاءة وذلك في الليالي البيض .

وقيل إذا تلا طلوعه طلوعها ، قال قتادة إن ذلك ليلة الهلال إذا سقطت رؤى الهلال ، قال ابن زيد إذا غربت الشمس في النصف الأول من الشهر تلاها القمر بالطلوع ، وفي آخر الشهر يتلوها بالغروب ، وقال الفراء تلاها أخذ منها يعني أن القمر يأخذ من ضوء الشمس ، قال ابن عباس تلاها تبعها .

والأولى أن يفسر تلوه لها بكون ضوئه يخلفها ويجيء بعد مغيبها سواء كان ذلك من غير تراخ وهو في النصف الأول من الشهر ، أو بعد مدة وذلك في النصف الثاني من الشهر فإن القمر إذا طلع في نصف الليل يقال أنه تلاها في ظهور الضوء أي خلفها فيه ولو بعد تخلل مدة ظلمة فليتأمل .

﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ أي أضاءها ، قاله ابن عباس ، وذلك أن الشمس عند انبساط النهار تنجلي تمام الإنجلاء فكأنه جلاها مع أنها التي تبسطه وقيل الضمير عائد إلى الظلمة أي جلى الظلمة وإن لم يجر للظلمة ذكر لأن المعنى معروف ، قال الفراء تقول أصبحت باردة أي أصبحت غداتنا باردة ، والأول أولى ، ومنه قول قيس ابن الخطيم :

تجلت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب

وقيل المعنى جلى ما في الأرض من الحيوانات وغيرها بعد أن كانت مستترة في الليل ، وقيل جلى الدنيا وقيل جلى الأرض .

﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ أي يغشى الشمس فيذهب بضوئها فتغيب وتظلم الآفاق وقيل يغشى الآفاق وقيل الأرض ، وإن لم يجر لهما ذكر لأن ذلك معروف ، والأول أولى .

قال الخطيب : وجيء به مضارعاً دون ما قبله وما بعده مراعاة للفواصل إذ لو أتى به ماضياً لكان التركيب : إذا غشيها فتفوت المناسبة اللفظية بين الفواصل والمقاطع انتهى .

والمعنى يغطيها بظلمته أي فيزيل ضوؤها فالنهار يجليها ويظهرها والليل يغطيها ويزيل ضوؤها فالضمير في الفواصل من أول السورة إلى هنا للشمس .

وهذه الأقسام الأربعة ليست إلا للشمس في الحقيقة لكن بحسب أربعة أوصاف أولها الضوء الحاصل منها عند ارتفاع النهار ، وذلك هو الوقت الذي يكمل فيه انتشار

الحيوان وتحرك الإنسان للمعاش ، ومنها تلو القمر للشمس بأخذه الضوء عنها ،ومنها تكامل طلوعها وبروزها بمجيء النهار ، ومنها وجود خلاف ذلك بمجيء الليل ، ومن تأمل قليلاً في عظمة الشمس انتقل منها إلى عظمة خالقها فسبحانه ما أعظم شأنه .

﴿ والسماء وما بناها ﴾ يجوز أن تكون ما مصدرية أي والسماء وبنيانها ، ويجوز أن تكون موصولة وبه قال أبو البقاء أي والذي بناها ، وايثار (ما) على (من) لإرادة الوصفية لقصد التفخيم كأنه قال والقادر العظيم الشأن الذي بناها ورجح الأول الفراء والزجاج ولا وجه لقول من قال أن جعلها مصدرية مخل بالنظم ورجح الثاني ابن جرير قال ابن عباس الله بنى السماء .

﴿ والأرض وما طحاها ﴾ الكلام في ﴿ ما ﴾ هذه كالكلام في التي قبلها ومعنى طحاها بسطها على الماء كذا قال عامة المفسرين كما في قوله : ﴿ دحاها ﴾ قالوا طحاها ودحاها واحد أي بسطها من كل جانب ، والطحو البسط ، وقيل معنى طحاها قسمها وقيل خلقها والأول أولى ، والطحو أيضاً الذهاب ، قال أبو عمرو بن العلاء طحا الرجل إذا ذهب في الأرض ، يقال ما أدري أين طحا ، ويقال طحا به قلبه إذا ذهب به .

﴿ ونفس وما سواها ﴾ الكلام في (ما) هذه كما تقدم ، ومعنى سواها خلقها وأنشأها وسوى أعضائها وعدلها على هذا القانون الأحكم في أعضائها وما فيها من الجواهر والأعراض والمعاني وغير ذلك . قال عطاء يريد جميع ما خلق من الأنس والجن ، التنكير للتفخيم أو للتكثير ، وقيل المراد نفس آدم :

﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ أي عرفها وأفهمها حالها وما فيهما من الحسن والقبح ، والإلهام القاء الشيء في القلب بطريق الفيض ينشرح له الصدر ويطمئن ، فإطلاقه على الفجور تسامح ، وقد دفع بحمل الإلهام على مطلق البيان .

قال مجاهد عرفها طريق الفجور والتقوى والطاعة والمعصية ، قال الفراء

فألهمها عرفها طريق الخير والشر كما قال : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ .

قال محمد بن كعب : إذا أراد الله بعبده خيراً ألهمه الخير فعمل به ، وإذا أراد به الشر ألهمه الشر فعمل به ، قال ابن زيد جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى وخذلانه اياها للفجور ، واختار هذا الزجاج ، وحمل الالهام على التوفيق والخذلان .

قال الواحدي : وهذا هو الوجه لتفسير الالهام فإن التبيين والتعليم والتعريف دون الإلهام ، والالهام أن يوقع في قلبه ويجعل فيه ، وإذا أوقع الله في قلب عبد شيئاً فقد ألزمه ذلك الشيء قال : وهذا صريح في أن الله خلق في المؤمن تقواه ، وفي الكافر فجوره ، قال ابن عباس : في الآية علمها الطاعة والمعصية ، وعنه قال ألهمها من الخير والشر وعنه قال : ألزمها فجورها وتقواها .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عمران بن حصين أن رجلاً قال : « يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه شيء قد قضي عليهم ومضى في قدر قد سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم واتخذت عليهم به الحجة قال بل شيء قد قضي عليهم ، قال فلم يعملون اذن ؟ قال من كان الله خلقه لواحدة من المنزلتين يهيئه لعملها ، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ وسيأتي في السورة التي بعد هذه نحو هذا الحديث .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي عن زيد بن أرقم قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم آت نفسي تقواها ، » وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » وأخرجه ابن المنذر والطبراني وابن مردويه من حديث ابن عباس ، وزاد كان إذا تلا هذه الآية ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ قال فذكره وزاد أيضاً وهو في الصلاة ، وأخرج حديث زيد بن أرقم مسلم أيضاً وأخرج نحوه أحمد من حديث عائشة .

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾

﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ أي قد فاز من زكى نفسه وأنماها وأعلاها بالتقوى بكل مطلوب وظفر بكل محبوب ، وقد قدمنا ان هذا جواب القسم على الراجح ، قال الزجاج : صار طول الكلام عوضاً عن اللام ، أي والأصل فيه (لقد) وتبعه القاضي قال الشهاب وعند النحاة أن الماضي المثبت المتصرف الذي لم يتقدم معموله إذا وقع جواباً للقسم تلزمه اللام وقد ، ولا يجوز الاقتصار على احداهما إلا عند طول الكلام أو في ضرورة ، وأصل الزكاة النمو والزيادة ومنه زكا الزرع إذا كثر ، قال ابن عباس يقول قد أفلح من زكى الله نفسه أي بالطاعة .

﴿ وقد خاب من دساها ﴾ أي خسر من أضلها وأغواها بالمعصية قال أهل اللغة دساها أصله دسسها من التدسيس وهو إخفاء الشيء في الشيء ، فمعنى دساها في الآية أخفاها وأخملها ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح .

وكانت أجواد العرب تنزل الأمكنة المرتفعة ليشتهر مكانها فتقصدها الضيوف ، وكانت لئام العرب تنزل الهضاب والأمكنة المنخفضة ليخفى مكانها عن الوافدين .

وقال ابن الأعرابي المعنى دس نفسه في جملة الصالحين وليس منهم قال ابن عباس قد خاب من دس الله نفسه فأضله ، وعنه قال دساها يعني مكر بها ، وعنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في الآية « أفلحت نفس زكاها الله وخابت نفس خيبها الله من كل خير » أخرجه أبو حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي من طريق جويبر عن الضحاك ،

وجويبر ضعيف ، وتكرير (قد) فيه لإبراز الاعتناء بتحقيق مضمونها والإيذان بتعلق القسم به أيضاً اصالة .

﴿ كذبت ثمود ﴾ رسولها صالحاً ﴿ بطغواها ﴾ أنث الفعل لضعف أثر تكذيبهم لأن كل سامع له يعرف ظلمهم فيه لوضوح آيتهم ، والطغوى اسم من الطغيان كالدعوى .

قال الواحدي قال المفسرون : معناه الطغيان حملهم على التكذيب ، والطغيان مجاوزة الحد في المعاصي والباء للسببية كما قاله مجاهد وقتادة وغيرهما ، وقيل بطغواها أي بعذابها الذي وعدت به وسمي العذاب طغوى لأنه طغى عليهم فتكون الباء على هذا للتعدية ، وبدأ في الكشاف بأنها للاستعانة مجازاً يعني فعلت التكذيب بطغيانها كما تقول ظلمني بجرأته على الله ، وقال محمد بن كعب بطغواها أي بأجمعها .

قرأ الجمهور بفتح الطاء وهو مصدر بمعنى الطغيان ، وإنما قلبت الياء واواً للفرق بين الاسم والصفة لأنهم يقلبون الياء في الأسماء كثيراً نحو تقوى وسروى ، وقرىء بضم الطاء وهو مصدر أيضاً كالرجعى والحسنى ونحوهما ، وقيل هما لغتان ، واختير التعبير بالطغوى لأنه أشبه برؤوس الآيات قال ابن عباس اسم العذاب الذي جاءها الطغوى فقال كذبت ثمود بعذابها .

﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ العامل في الظرف كذبت أو بطغواها أي حين قام أشقى ثمود ، وهو قدار بن سالف فعقر الناقة ، ومعنى انبعث انتدب لذلك وقام به يقال بعثته على الأمر فانبعث به ، ويضرب بقدار المثل فيقال أشأم من قدار ، وهو أشقى الأولين وكان رجلاً أشقر أزرق قصيراً ، ومعنى قدار في الأصل الجزار ، وقد تقدم بيان هذا في الأعراف .

﴿ فقال لهم رسول الله ﴾ يعني صالحاً بسبب الانبعاث أو التكذيب الذي دل على قصدهم لها بالأذى ﴿ ناقة الله ﴾ قال الزجاج أي ذروا ناقة الله ، وقال الفراء حذرهم اياها وكل تحذير فهو نصب أي ذروا عقرها ،

والاضافة للتشريف كبيت الله ﴿ و ﴾ احذروا ﴿ سقياها ﴾ وهو شربها من الماء وكان لها يوم ولهم يوم ، قال الكلبي ومقاتل قال لهم صالح ذروا ناقة الله فلا تعقروها وذروا سقياها وهو شربها من النهر فلا تعرضوا لها يوم شربها .

﴿ فكذبوه ﴾ بتحذيره اياهم واستمروا على تكذيبه ﴿ فعقروها ﴾ أي عقرها الأشقى وإنما اسند العقر إلى الجميع لأنهم رضوا بما فعله ، قال قتادة انه لم يعقرها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم ، قال الفراء عقرها اثنان ، والعرب تقول هذان أفضل الناس ،وهذان خير الناس ، فلهذا لم يقل أشقياها .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن زمعة قال : « خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال : ﴿ إذ انبعث اشقاها ﴾ قال انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة »(١) .

وعن عمار بن ياسر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي « ألا أحدثك بأشقى الناس قال بلى قال رجلان احيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك على هذا يعني قرنه ـ حتى تبتل منه هذه ، يعني لحيته » أخرجه أحمد وابن أبي حاتم والبغوي والطبراني وابن مردويه والحاكم وأبو نعيم في الدلائل .

﴿ فدمدم عليهم ربهم ﴾ أي أهلكهم وأطبق عليهم العذاب ﴿ بذنبهم ﴾ الذي هو الكفر والتكذيب والعقر ، وحقيقة الدمدمة تضعيف العذاب وترديده يقال دمدمت على الشيء أي أطبقت عليه ودمدم عليه القبر

---

(١) وهو قدار بن سالف . روى البخاري في « صحيحه » ٨/٥٤٢ عن عبد الله بن زمعة أنه سمع النبي ﷺ يخطب وذكر الناقة ، والذي عقر ، فقال رسول الله ﷺ : ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة » ورواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم .

أي أطبقه ، وناقة مدمومة إذا لبسها الشحم والدمدمة إهلاك باستئصال ، كذا قال المؤرج .

قال في الصحاح دمدمت الشيء إذا ألزقته بالأرض وطحطحته ، ودمدم الله عليهم أهلكهم ودمدمت على الميت التراب أي سويته عليه .

قال ابن الأنباري دمدم أي غضب ، والدمدمة الكلام الذي يزعج الرجل ، وقال ابن الاعرابي دمدم إذا عذب عذاباً تاماً .

والضمير في ﴿ فسواها ﴾ يعود إلى الدمدمة أي فسوى الدمدمة عليهم وعمهم بها فاستوت في صغيرهم وكبيرهم ، وقيل : يعود إلى الأرض أي فسوى الأرض عليهم فجعلهم تحت التراب ، وقيل يعود إلى الأمة أي ثمود ، قال الفراء : سوى الأمة أنزل العذاب بصغيرها وكبيرها بمعنى سوى بينهم فلم يفلت منهم أحداً إلا من آمن مع صالح وكانوا أربعة آلاف .

قرأ الجمهور فدمدم بميم بين الدالين وقرأ ابن الزبير فدهدم بهاء بينهما : قال القرطبي وهما لغتان كما يقال امتقع لونه واهتقع لونه ، وفي القاموس دمم الأرض سواها كدهدم ودمدم عليهم ، فتلخص ان دمدم بدال واحدة ودمدم بدالين معناهما واحد .

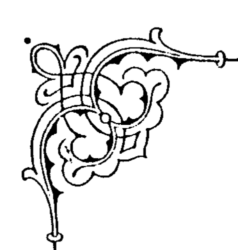
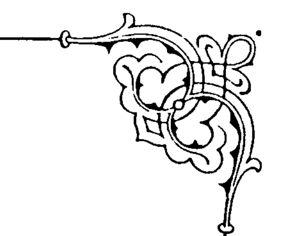
﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ أي فعل الله بهم ذلك غير خائف من عاقبة ولا تبعة ، والضمير في عقباها يرجع إلى الفعلة ، أو إلى الدمدمة المدلول عليها بدمدم .

قال السدي والضحاك والكلبي إن الكلام يرجع إلى العاقر لا إلى الله سبحانه أي لم يخف الذي عقرها عقبى ما صنع ، وقيل لا يخاف رسول الله عليه الصلاة والسلام عاقبة اهلاك قومه ولا يخشى ضرراً يعود عليه من عذابهم ، لأنه قد أنذرهم ، والأول أولى .

قرأ الجمهور ولا يخاف بالواو ، وقرىء بالفاء وهما قراءتان سبعيتان ، أما

الواو فيجوز أن تكون للحال أو لاستئناف الأخبار ، والفاء للتعقيب ، وهو ظاهر ، والمعنى لا يخاف عاقبتها كما تخاف الملوك عاقبة ما تفعله ، فهو استعارة تمثيلية لإهانتهم ، وأنهم أذلاء عند الله .

وفي القاموس أعقبه الله بطاعته جازاه ، والعقبى جزاء الأمر .

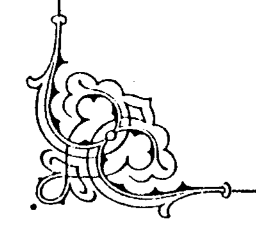



سورة والليل

هي احدى وعشرون آية وهي مكية عند الجمهور، وقيل مدنية قال ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله، عن جابر بن سمرة قال: «كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في الظهر والعصر ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ ونحوها» أخرجه البيهقي في سننه.

وعن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الهاجرة فرفع صوته فقرأ والشمس وضحاها، والليل اذا يغشى، فقال له أبيّ بن كعب يا رسول الله أمرت في هذه الصلاة بشيء قال لا ولكن أردت أن أوقت لكم» أخرجه الطبراني في الاوسط وقد تقدم حديث فهلا صليت بسبح اسم ربك الاعلى والشمس وضحاها والليل إذا يغشى.

وعن ابن عباس إني لأقول أن هذه السورة نزلت في السماحة والبخل، قال الرازي نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وانفاقه على المسلمين، وفي أمية بن خلف وبخله وكفره بالله، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.




بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾

﴿ والليل إذا يغشى ﴾ أي يغطي بظلمته ما كان مضيئاً ، قال الزجاج يغشى الليل الأفق وجميع ما بين السماء والأرض ، فيذهب ضوء النهار وقيل يغشى النهار وقيل يغشى الأرض ، والأول أولى ، قال ابن عباس إذا يغشى إذا أظلم .

وعن ابن مسعود قال « إن أبا بكر الصديق اشترى بلالاً من أميّة بن خلف ببردة وعشر أواق فأعتقه لله فأنزل الله ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ إلى قوله ، ﴿إن سعيكم لشتى ﴾ سعى أبي بكر وأمية وأبيّ إلى قوله ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ قال لا إلّه إلا الله إلى قوله ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ قال النار » أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر .

أقسم سبحانه بالليل الذي يأوي فيه كل حيوان إلى مأواه وتسكن الخلق فيه عن التحرك ويغشاهم النوم الذي جعله الله راحة لأبدانهم ، وغذاء لأرواحهم ، ثم أقسم بالنهار فقال ﴿ والنهار إذا تجلى ﴾ أي ظهر وانكشف ووضح لزوال الظلمة التي كانت في الليل بطلوع الشمس لأن النهار إذا جاء انكشف بضوئه ما كان في الدنيا من الظلمة ، وجاء الوقت الذي يتحرك فيه الناس لمعايشهم وتتحرك الطير من أوكارها والهوام من مكانها ، فلو كان الدهر كله ليلاً لتعذر المعاش ، ولو كان كله نهاراً لبطلت الراحة فكانت المصلحة في تعاقبهما .

﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ ﴿ ما ﴾ هنا الموصولة أي والذي خلقهما وعبر عن من بما للدلالة على الوصفية ولقصد التفخيم أي والقادر العظيم الذي خلق صنفي الذكر والأنثى ، قال الحسن والكلبي معناه الذي خلق الذكر والأنثى ، فيكون قد أقسم بنفسه الكريمة ، قال أبو عبيدة وما خلق أي ومن خلق .

وقال مقاتل يعني وخلق الذكر والأنثى فتكون (ما) على هذا مصدرية قال الكلبي ومقاتل يعني آدم وحواء والظاهر العموم .

قرأ الجمهور ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ وقرأ ابن مسعود ﴿ والذكر والأنثى ﴾ بدون ما خلق ، قال المحلي والخنثى المشكل عندنا ذكر أو أنثى عند الله تعالى فيحنث بتكليمه من حلف لا يكلم ذكراً ولا أنثى انتهى ، وعبارة الخطيب الخنثى وان أشكل أمره عندنا فهو عند الله غير مشكل معلوم بالذكورة أو الأنوثة انتهت ، وقال الكرخي يحنث بتكليمه لأن الله تعالى لم يخلق من ذوي الأرواح من ليس ذكراً ولا أنثى ، والخنثى إنما هو مشكل بالنسبة إلينا ، خلافاً لأبي الفضل الهمداني فيما حكاه وجهاً أنه نوع ثالث ، ويدفعه قوله ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ ونحو ذلك قاله الأسنوي .

﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ هذا جواب القسم أي أن عملكم مختلف فمنه عمل للجنة ومنه عمل للنار أو منكم مؤمن وكافر أو منكم مثاب بالجنة ومعاقب بالنار ، أو منكم راحم وقاس وحليم وطائش وجواد وبخيل[1] .

قال جمهور المفسرين السعي العمل ، فساع في فكاك نفسه وساع في عطبها ، وشتى جمع شتيت كمرضى جمع مريض ، وقيل للمختلف شتى لتباعد

---

(٢) روى مسلم في « صحيحه « ١/٢٠٣ عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها » أي : كل إنسان يسعى بنفسه ، فمنهم من يبيعها لله بطاعته فيعتقها من العذاب ، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعها فيوبقها ، أي : يهلكها .

ما بين بعضه وبعض ، والشتات هو الافتراق ، وسعيكم مصدر مضاف فيفيد العموم فهو جمع معنى وإن كان مفرداً في اللفظ ولذا أخبر عنه بالجمع وهو شتى فهو بمعنى مساعيكم .

﴿ فأما من أعطى ﴾ أي بذل ماله في وجوه الخير ﴿ واتقى ﴾ محارم الله التي نهى عنها ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ أى أيقن بالخلف الذي من الله ، قال المفسرون فأما من أعطى المعسرين ، وقال قتادة أعطى حق الله الذي عليه ، وقال الحسن أعطى الصدق من قلبه وصدق بالحسنى أي بـ﴿لا إله إلا الله﴾ وبه قال الضحاك والسلمي وابن عباس . وقال مجاهد بالحسنى بالجنة ، وقال زيد ابن أسلم بالصلاة والزكاة والصوم ، والأول أولى ، قال قتادة بالحسنى أي بموعود الله الذي وعده أن يثيبه ، قال الحسن بالخلف من عطائه ، واختار هذا ابن جرير ، وقال ابن عباس أعطى من الفضل واتقى ربه وصدق بالخلف من الله .

﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ أي فسنهيئه للخصلة التي هي حسنى وهي عمل الخير حتى يسهل عليه فعله ، والمعنى فسنيسر له الانفاق في سبيل الخير والعمل بالطاعة لله ، والسين في الموضوعين للتسويف وهو من الله محقق ، وذكر القسطلاني أن هذه السين للتلطيف .

قال الشريف الصفوي مرادهم به ترقيق الكلام بمعنى أن لا يكون نصاً في المقصود بل يكون محتملاً لغير المقصود فهو كالشيء الرقيق الذي يمكن تغييره ويسهل ويقابله الكثيف بمعنى أن يكون نصاً في المقصود لأنه لا يمكن تغييره ، وتبديله فهو كالشيء الكثيف الذي لا يمكن فيه ذلك .

فالمقصود ههنا أن التيسير حاصل في الحال لكن أتى بالسين الدالة على الاستقبال والتأخير لتلطيف الكلام وترقيقه باحتمال أن لا يكون التيسير حاصلاً في الحال لنكات تقتضي ذلك والله أعلم .

قال الواحدي قال المفسرون : نزلت هذه الآيات في أبي بكر الصديق

اشترى ستة نفر من المؤمنين كانوا في أيدي أهل مكة يعذبونهم في الله ، قال ابن عباس لليسرى للخير من الله ، وقال زيد بن أسلم للجنة .

وعن عامر بن عبدالله بن الزبير قال « كان ابو بكر الصديق يعتق على الإسلام بمكة وكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن فقال له أبوه أي بني أراك تعتق ناساً ضعفاء فلو أنك تعتق رجالاً جلداً يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك قال أي أبت إنما أريد ما عند الله ، قال فحدثني بعض أهل بيتي ان هذه الآية نزلت فيه[1] »

﴿ وأما من بخل ﴾ بماله فلم يبذله في سبل الخير ﴿ واستغنى ﴾ أي زهد في الأجر والثواب أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة ، قال ابن عباس بخل بماله واستغنى عن ربه ، وعنه قال يقول من أغناه الله فبخل بالزكاة ، وعنه هو أبو سفيان بن حرب ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ أي بالخلف من الله عز وجل ، وقال مجاهد بالجنة ، وعنه قال بلا إله إلا الله .

﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ أي فسنهيئه للخصلة العسرى ونسهلها له حتى يتعسر عليه أسباب الخير والصلاح ويضعف عن فعلها فيؤديه ذلك إلى النار ، قال مقاتل يعسر عليه أن يعطي خيراً ، قيل العسرى الشر ، وذلك أن الشر يؤدي إلى العذاب ، والعسرة في العذاب والمعنى سنهيئه للشر بأن نجريه على يديه ، قال الفراء سنيسره سنهيئه ، والعرب تقول قد يسرت الغنم إذا ولدت أو تهيأت للولادة ، قال ابن عباس للعسرى للشر من الله وقيل للنار .

وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن علي بن أبي طالب قال « كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة فقال ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل ؟ فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فييسر

---

(١) رواه الواحدي في اسباب النزول ٣٣٥ .

لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاء ثم قرأ فأما من أعطى ، إلى قوله ، للعسرى »

واخرج احمد ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبدالله أن سراقة بن مالك قال « يا رسول الله في أي شيء يعمل ، أفي شيء ثبتت فيه المقادير وجرت به الأقلام أم في شيء يستقبل فيه العمل ، قال بل في شيء ثبتت فيه المقادير ، وجرت فيه الأقلام ، قال سراقة: ففيم العمل اذن يا رسول الله ؟ قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية فأما من أعطى ، إلى آخرها »

وقد تقدم حديث عمران بن حصين في السورة التي قبل هذه ، وفي الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة قال الفراء : لقائل أن يقول كيف قال ذلك وهل في العسرى تيسير؟ انتهى .

وإيضاح الجواب عن هذا ما ورد في الحديث «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»أي عليكم بشأن العبودية وما خلقتم لأجله وأمرتم به ، وكلوا أمور الربوبية الغيبية إلى صاحبها فلا عليكم بشأنها ، ونظيره الرزق المقسوم مع الأمر بالكسب ، والأجل المضروب في العمر مع المعالجة بالطب ، فانك تجد المغيب فيهما علة موجبة ، والظاهر البادي سبباً مخيلاً وقد اصطلح الناس خاصتهم وعامتهم أن الظاهر فيهما لا يترك بسبب الباطن ، قاله الكرخي .

﴿ وما ﴾ أي لا ﴿ يغني عنه ﴾ شيئاً ﴿ ماله ﴾ الذي بخل به وتركه لوارثه ولم يصحبه منه إلى آخرته التي هي موضع فقره وحاجته شيء أو أي شيء يغني عنه ﴿ إذا تردى ﴾ أي هلك ، يقال ردي الرجل يردى ردى وتردى يتردى إذا هلك ، وقال قتادة وأبو صالح وزيد بن أسلم إذا تردى إذا سقط في جهنم ، يقال ردى في البئر وتردى إذا سقط فيها ، ويقال ما أدري أين ردي أي أين ذهب .

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

﴿ إن علينا للهدى ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها أي علينا البيان بموجب قضائنا المبني على الحكم البالغة حيث خلقنا الخلق للعبادة ، قال الزجاج : علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال أي وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه حيث بينا حل من سلك كِلا الطريقين ترغيباً وترهيباً .

قال قتادة على الله البيان ، بيان حرامه وطاعته ومعصيته ، قال الفراء من سلك الهدى فعلى الله سبيله لقوله ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ يقول من أراد الله فهو على السبيل القاصد ، قال الفراء أيضاً المعنى إن علينا للهدى والاضلال فحذف الاضلال كقوله ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ أي والبرد ، وقيل المعنى ان علينا ثواب هداه الذي هديناه ، والأول أولى .

﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ أي لنا كل ما في الآخرة وكل ما في الدنيا نتصرف به كيف نشاء ، فمن أرادهما أو أخذهما ذلك منا ، وقيل المعنى أن لنا ثواب الآخرة وثواب الدنيا فمن طلبها من غيرنا فقد أخطأ الطريق .

﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى ﴾ أي حذرتكم وخوفتكم ناراً تتوقد وتتوهج ، وأصله تتلظى فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً ، وقرىء على الأصل ﴿ لا يصلاها ﴾ صلياً لازماً على جهة الخلود ﴿ إلا الاشقى ﴾ وهو الكافر وان صليها غيره من العصاة فليس صليه كصليه والمعنى يدخلها أو يجد صليها وهو حرها .

ثم وصف الأشقى فقال ﴿ الذي كذب وتولى ﴾ أي كذب بالحق الذي جاءت به الرسل وأعرض عن الطاعة والإيمان ، قال الفراء إلا الأشقى إلا من

كان شقياً في علم الله جل ثناؤه ، وقال أيضاً لم يكن كذب برد ظاهر ، ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة فجعل تكذيباً كما تقول لقي فلان العدو فكذب ، إذا نكل ورجع عن اتباعه .

قال الزجاج : هذه الآية هي التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر .

ولأهل النار منازل فمنها ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، والله سبحانه كلما وعد عليه بجنس من العذاب فجدير أن يعذب به ، وقد قال الله ﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فلو كان من لم يشرك لم يعذب لم يكن في قوله ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فائدة .

وقال في الكشاف الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين فأريد أن يبالغ في صفتهما المتناقضتين فقيل الأشقى وجعل مختصاً بالصلي كأن النار لم تخلق إلا له ، وقيل الأتقى وجعل مختصاً بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلا له .

وقيل المراد بالأشقى أبو جهل أو أمية بن خلف ، وبالأتقى أبو بكر الصديق .

قال المحلي وهذا الحصر مؤول لقوله تعالى ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فيكون المراد الصلي المؤبد انتهى أي مصروف عن ظاهره فلا يرد الفاسق لأنه إما أن لا يدخلها إن عفي عنه أو يدخلها ويخلص منها ، فالمعنى لا يدخلها دخولاً مؤبداً إلا الكافر الذي هو شقي لأنه كذب النبي .

والأولى أن يقال مؤول بحمل الصلي على التأبيد والخلود .

وعن أبي هريرة قال«لتدخلن الجنة إلا من يأبى قالوا ومن يأبى أن يدخل الجنة فقرأ ﴿ الذي كذب وتولى ﴾»أخرجه ابن جرير .

وعن أبي أمامة « لا يبقى أحد من هذه الأمة إلا أدخله الجنة إلا من

شرد على الله كما يشرد البعير السوء على أهله فمن لم يصدقني فإن الله يقول ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى ﴾ كذب بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتولى عنه ». أخرجه سعيد بن منصور وغيره.

وعنه أنه سئل عن ألين كلمة سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ألا كلكم يدخل الله الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على اهله » اخرجه احمد والحاكم والضياء .

وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل النار الا الاشقى ، قيل ومن الشقي قال: الذي لا يعمل لله بطاعة ولا يترك لله معصية » أخرجه أحمد وابن ماجه وابن مردويه .

وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل أمتي يدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى قالوا ومن يأبى يا رسول الله قال: من اطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى » اخرجه احمد والبخاري .

﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ اي سيباعد عنها المتقي للكفر اتقاء بالغاً ، قال الواحدي الأتقى أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين اهـ ، والاولى حمل الاشقى والأتقى على كل متصف بالصفتين المذكورتين ، ويكون المعنى انه لا يصلاها صلياً تاماً لازماً إلا الكامل في الشقاء وهو الكافر ، ولا يجنبها ويبعد عنها تبعيداً كاملاً بحيث لا يحوم حولها فضلاً عن أن يدخلها إلا الكامل في التقوى ، فلا ينافي هذا دخول بعض العصاة من المسلمين النار دخولاً غير لازم ، ولا تبعيد بعض من لم يكن كامل التقوى عن النار تبعيداً غير بالغ تبعيد الكامل في التقوى عنها .

والحاصل أن من تمسك من المرجئة بقوله ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى ﴾ زاعماً ان الاشقى الكافر لأنه الذي كذب وتولى ، ولم يقع التكذيب من عصاة المسلمين .

فيقال له فماذا تقول في قوله ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ فإنه يدل على انه

لا يجنب النار إلا الكامل في التقوى ، فمن لم يكن كاملاً فيها كعصاة المسلمين لم يكن ممن يجنب النار ، فإن أولت الأتقى بوجه من وجوه التأويل لزمك مثله في الأشقى .فخذ اليك هذه مع تلك وكن كما قال الشاعر :

على أنني راض بأن أحمل الهوى   وأخرج منه لا علي ولا ليا

وقيل أراد بالأشقى والأتقى الشقي والتقي كما قال طرفة بن العبد:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت   فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أي بواحد ، ولا يخفاك أنه ينافي هذا وصف الأشقى بالتكذيب ، فإن ذلك لا يكون إلا من الكافر فلا يتم ما اراده قائل هذا القول من شمول الوصفين لعصاة المسلمين .

عن عروة « ان ابا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب في الله : بلال وعامر بن فهيرة والنهدية وابنتها وزنيرة وام عيسى وأمة بني المؤمل ، وفيه نزلت ﴿ وسيجنبها الاتقى ﴾ الى آخر السورة » اخرجه ابن ابي حاتم ، وفي الباب روايات .

ثم ذكر سبحانه صفة الأتقى فقال ﴿ الذي يؤتي ماله ﴾ اي يعطيه ويصرفه في وجوه الخير ، وقوله ﴿ يتزكى ﴾ في محل يصب على الحال من فاعل يؤتي اي حال كونه يطلب ان يكون عند الله زكياً لا يطلب رياء ولا سمعة ، ويجوز ان يكون بدلاً من يؤتي داخلاً معه في حكم الصلة ، قرأ الجمهور يتزكى مضارع تزكى ، قرأ علي بن الحسين رضي الله عنهما بادغام التاء في الزاي .

﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ قال أبو السعود أي من شأنها ان تجازى وتكافأ ، والجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها من كون التزكي على جهة الخلوص غير مشوب بشائبة تنافي الخلوص ، اي ليس ممن يتصدق بماله ليجازي بصدقته نعمة لأحد من الناس عنده ويكافئه عليها ، وإنما يبتغي بصدقته وجه الله تعالى .

ومعنى الآية أنه ليس لأحد من الناس عنده نعمة من شأنها ان يجازى عليها حتى يقصد بايتاء ما يؤتي من ماله مجازاتها ، وإنما قال نجزي مضارعاً مبنياً للمفعول لأجل الفواصل ، والأصل يجزيها إياه أو يجزيه إياها .

﴿ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ قرأ الجمهور بالنصب على الإستثناء المنقطع لعدم اندراجه تحت جنس النعمة أي لكن ابتغاء وجه ربه ، ويجوز ان يكون منصوباً على انه مفعول له على المعنى اي لا يؤتي إلا لابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة ، قال الفراء هو منصوب على التأويل أي ما اعطيتك ابتغاء جزائك بل ابتغاء وجه الله ، وقرىء بالرفع على البدل من محل نعمة لأن محلها الرفع إما على الفاعلية وإما على الابتداء او (من) مزيدة والرفع لغة تميم لأنهم يجوزون البدل في المنقطع في غير الإيجاب ويجرونه مجرى المتصل .

قال مكي وأجاز الفراء في ابتغاء على البدل من موضع نعمة وهو بعيد .

قلت كأنه لم يطلع عليها قراءة ، واستبعاده هو البعيد فإنها لغة فاشية ، وقرأ الجمهور أيضاً ابتغاء بالمد ، وقرىء بالقصر . والأعلى نعت للرب .

﴿ ولسوف يرضى ﴾ اللام هن الموطئة للقسم أي وتالله لسوف يرضى بما نعطيه من الكرامة والجزاء العظيم ، وهو وعد من الكريم تعالى لأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه بنيل جميع ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجلها إذ به يتحقق الرضا ، قاله أبو السعود ، وقرأ الجمهور يرضى مبنياً للفاعل وقرىء مبنياً للمفعول من أرضاه الله وهو قريب من قوله تعالى في آخر طه ﴿ لعلك ترضى ﴾ وترضى .

سورة الضحى

هي احدى عشرة آية وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة . وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طريق أبي الحسن المقري قال : « سمعت عكرمة ابن سليمان يقول قرأت على اسماعيل بن قسطنطين . فلما بلغت ﴿ والضحى ﴾ قال كبر حتى تختم . وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك . وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك وأخبره ابن عباس أن أبيّ بن كعب أخبره بذلك . وأخبره أبيّ أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمره بذلك » وأبو الحسن المقري المذكور هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقري .

قال ابن كثير فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن المقري وكان اماما في القرآت . وأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وقال لا أحدث عنه . وكذلك أبو جعفر العقيلي قال هو منكر الحديث .

قال ابن كثير ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفيته فقال بعضهم يكبر من آخر الليل اذا يغشى . وقال آخرون من آخر الضحى . وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول الله أكبر ويقتصر . ومنهم من يقول الله أكبر لا آله الا الله . الله أكبر .

وذكروا في مناسبة التكبير من أول الضحى أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفتر تلك المدة ثم جاء الملك فأوحى اليه ﴿ والضحى ﴾ كبر فرحاً وسروراً. ولم يرووا ذلك باسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن جندب البجلي قال: «اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثة فأتته امرأة فقالت يا محمد ما أرى شيطانك الا قد تركك فلم يقربك ليلتين أو ثلاثة فأنزل الله والضحى».

وعن جندب قال: «أبطأ جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال المشركون قد ودع محمد صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت ﴿ ما ودعك ﴾ وعنه قال: «احتبس جبريل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت بعض بنات عمه ما أرى صاحبك الا قد قلاك. فنزلت ﴿والضحى﴾[2]» وقيل في سبب نزولها غير ذلك وما ذكرنا هو الاولى.

---

(١) رواه البخاري في « صحيحه » ٨/٥٤٥ ومسلم ٣/١٤٢٣ وأحمد في « المسند « ٤/٣١٢ وابن جرير الطبري ٣٠/٢٣١ والواحدي في « أسباب النزول » وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٣٦٠ وزاد نسبته للترمذي ، والنسائي ، والبيهقي وأبي نعيم معاً في « الدلائل » عن جندب بن عبد الله بن شفيان البجلي رضي الله عنه .

(٢) قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٨/٥٤٥ : وجدت في الطبري باسناد فيه من لا يعرف أن سبب نزولها وجود جرو كلب تحت سريره ﷺ لم يشعر به ، فأبطأ عنه جبريل لذلك ، وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة ، لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب ، بل شاذ مردود بما في الصحيح والله أعلم . وورد لذلك سبب ثالث ، وهو ما أخرجه الطبري من طريق العوفي عن ابن عباس قال : لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن أبطأ عنه جبريل أياماً ، فتغير بذلك ، قالوا : ودعه ربه وقلاه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ . . ومن طريق اسماعيل مولى آل الزبير قال : فتر الوحي حتى شق ذلك على النبي ﷺ وأحزنه ، فقال : لقد خشيت أن . . .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)

﴿ والضحى ﴾ المراد بالضحى هنا النهار كله لقوله ﴿ والليل إذا سجى ﴾ فلما قابل الضحى بالليل دل على أن المراد به النهار كله لا بعضه ، وهو في الأصل إسم لوقت ارتفاع الشمس كما تقدم في قوله ﴿ والشمس وضحاها ﴾ وعلى هذا يكون في الكلام مجاز من إطلاق إسم الجزء وإرادة الكل ، والظاهر أن المراد به الضحى من غير تعيين ، وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق أن المراد به الضحى الذي كلم الله فيه موسى والمراد بقوله الآتي ﴿ والليل إذا سجى ﴾ ليلة المعراج .

وقيل المراد بالضحى هو الساعة التي خر فيها السحرة سجداً كما في قوله ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ وقيل المقسم به مضاف مقدر كما تقدم في نظائره أي ورب الضحى وقيل تقديره وضحاوة الضحى ، ولا وجه لهذا فللّه سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه . وقيل الضحى نور الجنة والليل ظلمة النار ، وقيل الضحى نور قلوب العارفين ، والليل سواد قلوب الكافرين ، والأول أولى .

وقدم هنا الضحى ، على الليل . وفي السورة قبلها قدم الليل لأن لكل منهما أثراً في صلاح العالم وللليل فضيلة السبق ، وللنهار فضيلة النور ، فقدم هذا تارة وهذا أخرى ، أو أنه قدم الليل في سورة أبي بكر لأن أبا بكر سبق له كفر ، وقدم الضحى في سورة محمد لأنه نور محض ولم يتقدمه ذنب ، ولم يفصل بين السورتين إشارة إلى أنه لا واسطة بين النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر .

قلت هذه الأقوال من قبيل لطائف النكات وليس من تفسير كتاب الله في شيء .

﴿ والليل إذا سجى ﴾ أي سكن كذا قال قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة وغيرهم ، يقال ليلة ساجية أي ساكنة ، ويقال للعين إذا سكن طرفها ساجية ، يقال سجى الشيء يسجو سجواً إذا سكن ، قال عطاء إذا سجا إذا غطى بالظلمة . وروى ثعلب عن ابن الأعرابي سجا امتد ظلامه ، وقال الأصمعي سجو الليل تغطيته النهار مثل ما يسجى الرجل بالثوب ، وقال الحسن غشى بظلامه كل شيء ، وقال سعيد بن جبير أقبل ، وقال مجاهد أيضاً استوى والأول أولى وعليه جمهور المفسرين وأهل اللغة ، ومعنى سكونه استقرار ظلامه واستواؤه فلا يزاد بعد ذلك ، وقال ابن عباس إذا أقبل وعنه قال إذا ذهب .

﴿ ما ودعك ربك ﴾ أي ما تركك ، قاله ابن عباس وهذا جواب القسم أي ما قطعك قطع المودع ، قرأ الجمهور بتشديد الدال من التوديع وهو توديع المفارق ، وقرىء بتخفيفها من قولهم ودعه أي تركه والتوديع أبلغ من الودع لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ في ترك .

قال المبرد لا يكادون يقولون ودع ولا وزر لضعف الواو إذا قدمت واستغنوا عنها بترك ، قال أبو عبيدة ودعك من التوديع كما يودع المفارق ، وقال الزجاج لم يقطع الوحي ، والتوديع مستعار استعارة تبعية للترك فإن الوداع إنما يكون بين الأحباب ومن تعز مفارقته ، وهذه الحقيقة لا تتصور هنا .

﴿ وما قلى ﴾ أي ما أبغضك ، قاله ابن عباس : القلاء البغض ، يقال قلاه يقليه قلاً وقال ما قلى ، ولم يقل وما قلاك لموافقة رؤوس الآي .

﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ اللام جواب قسم محذوف أي الجنة خير لك من الدنيا مع أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أوتي في الدنيا من شرف النبوة ما يصغر عنده كل شرف ، وتتضاءل بالنسبة إليه كل مكرمة في

الدنيا ، ولكنها لما كانت الدنيا بأسرها مشوبة بالأكدار منغصة بالعوارض البشرية ، وكانت الحياة فيها كأحلام نائم أو كظل زائل ، لم تكن بالنسبة إلى الآخرة شيئاً ، ولما كانت طريقاً إلى الآخرة وسبباً لنيل ما أعده الله لعباده الصالحين من الخير العظيم بما يفعلونه فيها من الأعمال الموجبة للفوز بالجنة كان فيها خير في الجملة من هذه الحيثية .

وإنما قيد بقوله « لك » لأنها ليست خيراً لكل أحد .

قال البقاعي إن الناس على أربعة أقسام منهم من له الخير في الدارين وهم أهل الطاعة الأغنياء ، ومنهم من له الشر فيهما وهم الكفرة الفقراء ومنهم من له صورة خير في الدنيا وشر في الآخرة وهم الكفرة الأغنياء ، ومنهم من له صورة شر في الدنيا وخير في الآخرة وهم الفقراء المؤمنون ، ذكره الخطيب .

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « عرض عليَّ ما هو مفتوح لأمتي بعدي فأنزل الله » ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ أخرجه[1] الطبراني في الأوسط والبيهقي في الدلائل ، وعنه قال « عرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما هو مفتوح على أمته من بعده فسر بذلك فأنزل الله » .

﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ قيل هي لام الابتداء دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة والمبتدأ محذوف تقديره ولأنت سوف يعطيك ، وليست للقسم لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة ، وقيل هي

(١) رواه ابن جرير الطبري ٣٠/٢٣٢ من رواية الإمام الأوزاعي عن اسماعيل بن عبيد الله ابن أبي المهاجر المخزومي عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عبد الله بن عباس ، ورواه ابن أبي حاتم من طريقه به . قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ، ومثل هذا ما يقال عن توقيف . ورواه الواحدي في « أسباب النزول » ٣٣٨ والحاكم ٢/٥٢٦ ورواه الطبراني في « الكبير » . قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٧/١٣٩ : وإسناد الطبراني في « الكبير » حسن . وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٣٦١ وزاد نسبته لعبد بن حميد ، والبيهقي وأبي نعيم كلاهما في « الدلائل » وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

للقسم ، قال أبو علي الفارسي ليست هذه اللام هي التي في قولك إن زيداً لقائم بل هي التي في قولك لأقومن ، ونابت سوف عن إحدى نوني التأكيد فكأنه قال ولنعطيك أي أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة .

قيل والمعنى ولسوف يعطيك ربك الفتح في الدنيا والثواب في الآخرة فترضى ، وقال البيضاوي هذا وعد شامل لما أعطاه له من كمال النفس وظهور الأمر وإعلاء الدين ، ولما ادخر له مما لا يعرف كنهه سواه ، وقيل الحوض والشفاعة في الأمة ، وقيل ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك ، وبه قال ابن عباس وزاد في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم وعنه قال رضاه أن يدخل أمته كلهم الجنة .

وأخرج ابن جرير عنه قال من رضا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار .

وأخرج الخطيب في التلخيص من وجه آخر عنه قال لا يرضي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وواحد من أمته في النار[1] .

ويدل على هذا ما أخرجه مسلم عن ابن عمرو « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تلا قول الله في إبراهيم ﴿ فمن تبعني فإنه مني ﴾ وقول عيسى ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ الآية فرفع يديه وقال اللهم أمتي أمتي وبكى ، فقال الله يا جبريل إذهب إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك » .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح قال قلت لابي جعفر محمد بن علي بن الحسين « أرأيت هذه الشفاعة التي يتحدث بها أهل العراق أحق هي ؟ قال أي والله حدثني محمد بن الحنفية

---

(١) أي من أمته الذين ساروا على نهجه عقيدة وعبادة لا أولئك الذين اكتفوا من الدين بالأسماء .

عن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أشفع لأمتي حتى يناديني ربي أرضيت يا محمد فأقول نعم يا رب رضيت » ثم أقبل علي فقال إنكم تقولون يا معشر أهل العراق إن أرجى آية في كتاب الله ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ قلت إنا لنقول ذلك ، قال فكنا أهل البيت نقول إن أرجى آية في كتاب الله ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وهي الشفاعة » .

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنَّا أهل البيت اختارَ اللهُ لنا الآخرةَ على الدنيا ولسوف يعطيك ربك فترضى » أخرجه ابن أبي شيبة .

وعن جابر بن عبدالله قال « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من جلد الإبل ، فلما نظر إليها قال يا فاطمة تعجلي مرارة الدنيا بنعيم الآخرة فأنزل الله ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ أخرجه العسكري في المواعظ وابن مردويه وابن النجار .

قيل في الآية غير ذلك ، والظاهر انه سبحانه يعطيه ما يرضى به من خيري الدنيا والآخرة ، ومن أهم ذلك عنده وأقدمه قبول شفاعته لأمته

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

﴿ ألم يجدك يتيماً ﴾ هذا شروع في تعداد ما أفاضه الله سبحانه عليه من النعم الثلاث والقصد من تعداد هذه النعم تقوية قلبه صلى الله عليه وآله وسلم بخلاف قوله تعالى ﴿ألـم نـربك فينا وليداً ﴾ لأنه في معرض الذم .

ثم أمره بعد ذلك أن يذكر نعم ربه كأنه قال له فالطريق في حقك أن تفعل مع عبيدي مثل ما فعلت في حقك ، والهمزة لإنكار النفي وتقرير المنفى على أبلغ وجه فكأنه قال قد وجدك يتيماً والوجود بمعنى العلم ، وقيل بمعنى المصادفة ، والمعنى وجدك يتيماً لا أب لك قبل ولادتك أي بعد حمله بشهرين وهو الارجح ، وقيل غير ذلك ، والتفصيل في المواهب وشرحه .

وكانت وفاة أبيه بالمدينة ، ودفن في دار التابعة وقيل بالابواء من أعمال الفرع ، وتوفيت أمه وهو ابن أربع أو خمس أو ست أو سبع أو ثمان أو تسع أو اثنتي عشرة سنة وشهر وعشر أيام ، وكانت وفاتها بالابواء ، وقيل بالحجون ، ومات جده وهو صلى الله عليه وآله وسلم ابن ثمان .

﴿ فآوى ﴾ أي جعل لك مأوى تأوي إليه ، قرأ الجمهور فآوى بالالف بعد الهمزة رباعياً من آواه يؤويه ، وقرىء ثلاثياً وهو إما بمعنى الرباعي أو هو من أوى له إذا رحمه ، وعن مجاهد قال معنى الآية ألم يجدك واحداً في شرفك لا نظير لك فأواك الله بأصحاب يحفظونك ويحوطونك ، فجعل يتيماً من قولهم درة يتيمة ، وهو بعيد جداً .

﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ معطوف على المضارع المنفي وقيل على ما يقتضيه الكلام الذي قبله كما ذكرنا أي قد وجدك يتيماً الخ والضلال هنا بمعنى الغفلة كما في قوله ﴿ لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ وكما في قوله ﴿ وإن كنت من

قبله لمن الغافلين ﴾ والمعنى أنه وجدك غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة ، واختار هذا الزجاج وقيل معنى ضالاً لم تكن تدري القرآن ولا الشرائع فهداك لذلك ، يعنى ليس المراد به الإنحراف عن الحق ، فهذا كقوله تعالى ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ تأمل .

وقال الكلبي والسدي والفراء وجدك في قوم ضلال فهداهم الله بك ، أو فهداك إلى إرشادهم أو ضالاً عما أنت عليه الآن من الشريعة فهداك الله تعالى إليها ، وقيل وجدك ضالاً عن الهجرة فهداك إليها ، وقيل ناسياً شأن الاستثناء حين سئلت عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح فذكرك كقوله تعالى ﴿ أن تضل إحداهما ﴾ وقيل وجدك طالباً للقبلة فهداك إليها كما في قوله ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ ويكون الضلال بمعنى الطلب لأن الضال طالب .

وقيل وجدك ضائعاً في قومك فهداك إليهم .ويكون الضلال بمعنى الضياع ، وقيل وجدك محباً للهداية فهداك إليها ، ويكون الضلال بمعنى المحبة ، كقوله تعالى ﴿ إنك لفي ضُلالك القديم ﴾ وقيل وجدك ضالاً في شعاب مكة فهداك أي ردك إلى جدك عبدالمطلب .

وعن ابن عباس قال وجدك بين الضالين فاستنقذك من ضلالتهم ، وقيل ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب فرده إلى القافلة .

ولا يجوز أن يفهم به عدول عن حق ووقوع في باطل ، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم من أول حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان ، وقاذورات أهل الفسق والعصيان .

وقيل ضالاً نفسك لا تدري من انت فعرفك نفسك وحالك ، وقيل ضالاً ليلة المعراج حين انصرف عنك جبريل وأنت لا تعرف الطريق فهداك إلى ساق العرش ، وقيل معناه لا أحد على دينك بل أنت وحيد ليس معك أحد فهديت بك الخلق ، وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمراد غيره

وفيه بعد ، وأيضاً يأباه النظم الكريم .

وعندي أن الضلال والهدى عامان في هذ الآية فيشملان كل نوع من أنواع الضلالة والهداية بيد الكفر والشرك لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ أي وجدك فقيراً لا مال لك فأغناك ، يقال عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر ، قال الكلبي فأغنى أي رضاك بما أعطاك من الرزق واختار هذا الفراء قال : لأنه لم يكن غنياً من كثرة ، ولكن الله سبحانه رضاه بما آتاه وذلك حقيقة الغنى ، وقيل بإعانة الأنصار حين الهجرة وقيل فأغنى بما فتح لك من الفتوح والغنائم ، وفيه نظر ، لأن السورة مكية وقيل بمال خديجة بنت خويلد وتربية أبي طالب أولاً وبمال أبي بكر ثانياً ، وقيل وجدك فقيراً من الحجج والبراهين فأغناك بها وفيه بعد .

قرأ الجمهور عائلاً وقرىء عيلاً بزنة سيد ، عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته قلت قد كانت قبلي أنبياء منهم من سخرت له الريح ومنهم من كان يحيي الموتى فقال تعالى يا محمد ألم أجدك يتيماً فآويتك ألم أجدك ضالاً فهديتك ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ألم أشرح لك صدرك ألم أضع عنك وزرك ألم أرفع لك ذكرك قلت بلى يا رب » أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه البيهقي وأبو نعيم وابن عساكر .

وأخرج ابن مردويه عنه قال « لما نزلت والضحى على رسول صلى الله عليه وآله وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمن عليّ ربي وأهل أن يمن ربي » .

ثم أوصاه سبحانه باليتامى والفقرء فقال ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ أي لا تقهره بوجه من وجوه القهر كائناً ما كان قال مجاهد لا تحتقر اليتيم فقد كنت يتيماً قال الاخفش لا تسلط عليه بالظلم ادفع إليه حقه واذكر يتمك ، قال

الفراء والزجاج لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه وكذا كانت العرب تفعل في حق اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم حقوقهم ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحسن إلى اليتيم ويبره ويوصي باليتامى .

قرأ الجمهور فلا تقهر بالقاف وقرىء بالكاف ، والعرب تعاقب بين القاف والكاف ، قال النحاس إنما يقال كهره إذا اشتد عليه وغلظ ، وقيل القهر الغلبة والكهر الزجر ، قال أبو حيان هي لغة يعني قراءة الكاف مثل قراءة الجمهور .

عن سهل بن سعد قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة وفرج بينهما » أخرجه البخاري وفي الباب أحاديث[1] .

واليتيم منصوب بتقهر ، وبه استدل ابن مالك على أنه لا يلزم من تقديم المعمول تقديم العامل ألا ترى أن اليتيم منصوب بالمجزوم ، وقد تقدم على الجازم ، ولو قدمت تقهر على « لا » امتنع لأن المجزوم لا يتقدم على جازمه كالمجرور لا يتقدم على جاره قاله السمين .

﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ يقال نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره فهو نهى عن زجر السائل والاغلاظ له ، ولكن يبذل اليسير القليل ، أو يرده بالجميل .

قال الواحدي قال المفسرون يريد السائل على الباب ، يقول لا تنهره إذا سألك فقد كنت فقيراً ، فإما أن تطعمه وإما أن ترده رداً لينا قال قتادة معناه رد السائل برحمة ولين .

وقيل المراد بالسائل طالب العلم والذي يسأل عن الدين فلا تنهره بالغلظة والجفوة وأجبه برفق ولين ، كذا قال سفيان ، والسائل منصوب بتنهره

---

(١) صحيح البخاري .

والتقدير مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم ولا تنهر السائل ، وهذه النواهي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي نواه له ولأمته صلى الله عليه وآله وسلم لانهم أسوته ، فكل فرد من أفراد هذه الأمة منهى بكل فرد من أفراد هذه النواهي .

﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ أمره سبحانه بالتحدث بنعم الله عليه وإظهارها للناس واشهارها بينهم ، والظاهر النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها أو نوع من أنواعها ، وقال مجاهد والكلبي المراد بالنعمة هنا القرآن ، قال الكلبي وكان القرآن أعظم ما أنعم الله به عليه فأمره أن يقرأه ، قال الفراء وكان يقرأه ويحدث به ، وقال مجاهد أيضاً المراد بالنعمة النبوة التي أعطاه الله ، واختار هذا الزجاج فقال أي بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي أعطاك الله وهي أجل النعم ، وقال مقاتل يعني أشكر ما ذكر من النعمة عليك في هذه السورة من الهدى بعد الضلالة وجبر اليتيم والاغناء بعد العيلة ، فاشكر هذه النعم ، والتحدث بنعمة الله شكر .

وهذا الامر له صلى الله عليه وآله وسلم هو أمر له ولأمته لأنهم اسوته في كل ما يأتي ويذر ، قال الحسن بن علي في الآية ما عملت من الخير وعنه قال إذا أصبت خيراً فحدث اخوانك ، وعن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركه كفر ، والجماعة رحمة » أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد المسند والبيهقي في الشعب والخطيب في المتفق ، قال السيوطي بسند ضعيف .

وعن جابر بن عبدالله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من أبلى بلاء فذكره فقد شكره وإن كتمه فقد كفره » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن حبان والبيهقي والضياء .

وأخرج البخاري في الادب وأبو داود والضياء عنه قال: قال رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم « من أعطى عطاء فوجد فليجز به فإن لم يجد فليثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ومن كتمه فقد كفره ، ومن تحلى بما لم يعط فإنه كلابس ثوبي زور » .

وعن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أوليَ معروفاً فليكافىء به فإن لم يستطع فليذكره فإن من ذكره فقد شكره » أخرجه أحمد والطبراني في الأوسط والبيهقي .

قال الكرخي والجار والمجرور متعلق بحدث والفاء غير مانعة من ذلك لانها كالزائدة والتحدث بها نشرها بالشكر والثناء عليه تعالى .

وقوله تعالى ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ مقابل لقوله ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ وقوله ﴿ وأما السائل ﴾ الخ مقابل لقوله ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ وأما قوله ﴿ وأما بنعمة ربك ﴾ الخ فجيء به على العموم .

وفي حكمة تأخير حق الله تعالى عن حق اليتيم والسائل وجوه .

احدهما أن الله غني وهما محتاجان ، وتقديم المحتاج أولى .

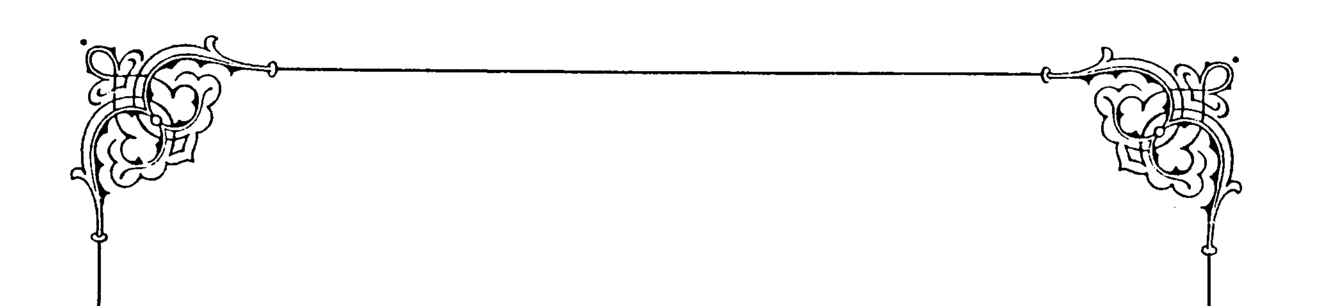
وثانيها انه وضع في حظهما الفعل ورضى لنفسه بالقول .

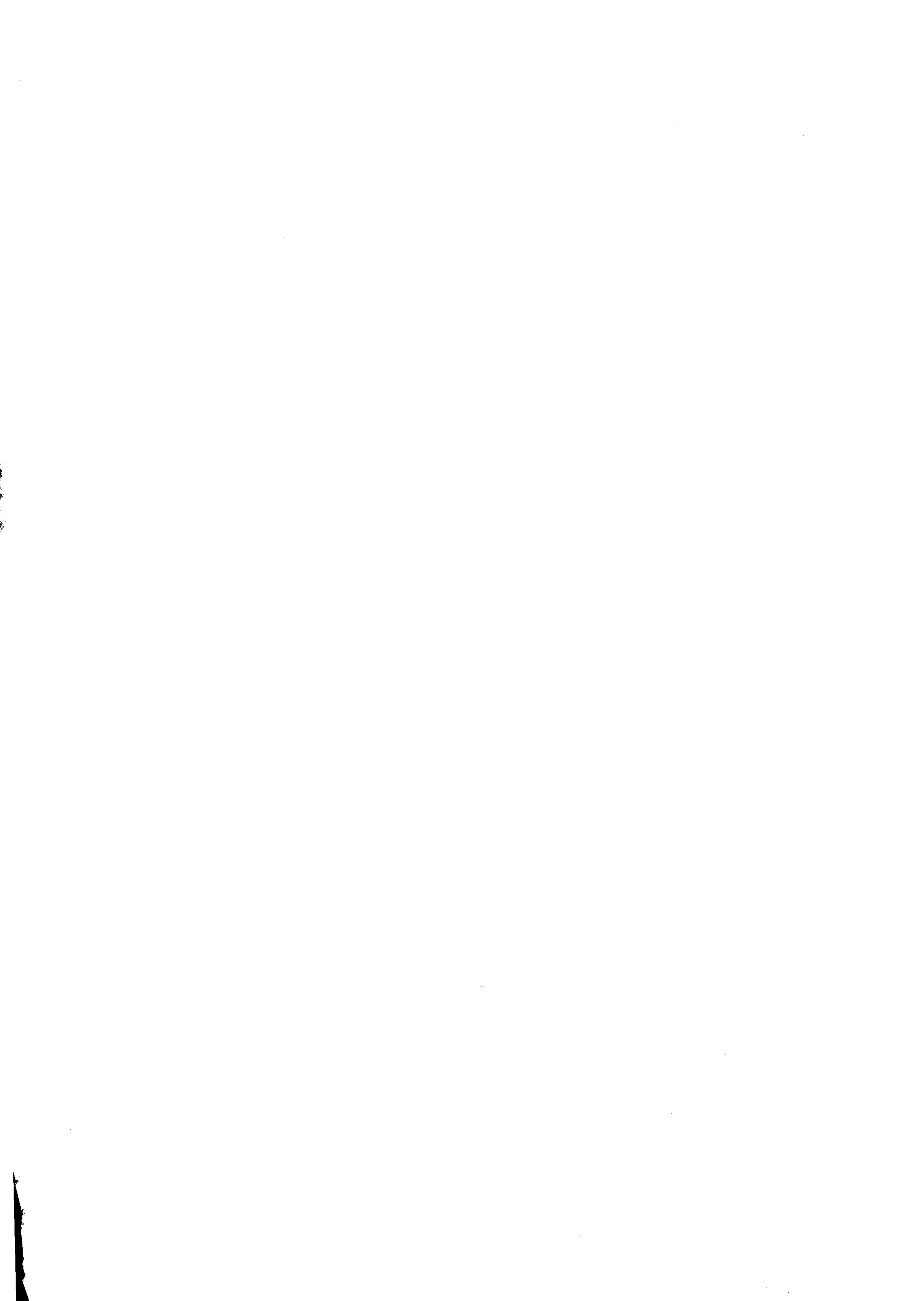
وثالثها أن المقصود من جميع الطاعات استغراق القلب في ذكر الله فختمت به ، وأوثر فحدث على فخبر ليكون عنده حديثاً لا ينساه .



سورة ألم نشرح

هي ثمان آيات وهي مكية بلا خلاف. عن عائشة قالت نزلت سورة ألم نشرح بمكة ومثله عن ابن عباس وزاد بعد الضحى.





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب (٨)

﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ معنى شرح الصدر فتحه باذهاب ما يصدرعن الادراك ، والاستفهام التقريري إذا دخل على النفي قرره فصار المعنى قد شرحنا لك صدرك حتى وسع مناجاة الحق ، ودعوة الخلق ، فكان غائباً عنهم بروحه ، وحاضراً معهم بجسده الشريف .

والمعنى ألم نفسحه بما اودعنا فيه من الحكم وأزلنا عنه ضيق الجهل ، أو بما يسرنا لك من تلقي الوحي بعد ما كان يشق عليك .

قال الراغب أصل الشرح بسط اللحم ونحوه يقال شرحت اللحم وشرحته ، ومنه شرح الصدر وهو بسطه بنور إلهي وسكينته من جهة الله وروح منه وإنما خص الصدر لانه محل أحوال النفس من العلوم والادراكات ، وقيل لان الصدر محل الوسوسة كما قال تعالى ﴿ يوسوس في صدور الناس ﴾ فإزالة تلك الوسوسة وإبدالها بدواعي الخير هي الشرح .

والقلب محل العقل والمعرفة وهو الذي يقصده الشيطان فيجىء أولاً إلى الصدر الذي هو حصن القلب فإذا وجد مسلكاً نزل فيه هو وجنده وبث فيه الغموم والهموم والحرص ، فيضيق القلب حينئذ ولا يجد للطاعة لذة ولا للإسلام حلاوة ، وإذا لم يجد له مسلكاً وطرد حصل الأمن وانشرح الصدر ، وتيسر القيام بأداء العبودية .

ولم يقل نشرح صدرك تنبيهاً على أن منافع الرسالة عائدة عليه صلى الله عليه وآله وسلم كأنه يقول إنما شرحنا صدرك لأجلك لا لأجلي ، والمراد بالامتنان عليه صلى الله عليه وآله وسلم بفتح صدره وتوسيعه حتى قام بما قام به من الدعوة وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء وحفظ الوحي . وقد مضى القول في هذا عند تفسير قوله ﴿ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ﴾ قال ابن عباس في الآية شرح الله صدره للاسلام .

قرأ الجمهور نشرح بسكون الحاء بالجزم ، وبفتحها قرأ أبو جعفر المنصور العباسي قال الزمخشري قالوا : لعله بين الحاء وأشبعها في مخرجها فظن السامع أنه فتحها .

وقال ابن عطية إن الأصل ألم نشرحن بالنون الخفيفة ثم إبدالها ألفاً ثم حذفها تخفيفاً ، وهذا مبني على جواز توكيد المجزوم بلم وهو قليل جداً ، وخرجها بعضهم على لغة بعض العرب الذين ينصبون بلم ويجزمون بلن ، وهذه ما أظنها تصح . وإن صحت فليست من اللغات المعتبرة فإنها جاءت بعكس ما عليه لغة العرب بأسرها .

وعلى كل حال فقراءة هذ الرجل مع شدة جوره ومزيد ظلمه وكثرة جبروته وقلة علمه ليست بحقيقة بالاشتغال بها .

﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ معطوف على معنى ما تقدم لا على لفظه أي قد شرحنا لك صدرك ووضعنا الخ والوزر الذنب أي وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية ، قال الحسن وقتادة والضحاك ومقاتل المعنى حططنا عنك الذي سلف منك في الجاهلية ، وهذا كقوله ﴿ ليغفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ وعنك متعلق بوضعنا وتقديمه على المفعول الصريح مع أن حقه التأخر عنه لتعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر .

ولما أن في وصفه نوع طول فتأخير الجار والمجرور عنه مخل بتجاوب أطراف النظم الكريم .

ثم وصف هذا الوزر فقال ﴿ الذي أنقض ظهرك ﴾ قال المفسرون : أي ثقل ظهرك ، قال الزجاج : أثقله حتى سمع له نقيض أي صوت . وهذا مثل معناه أنه لو كان حملاً يحمل لسمع نقيض ظهره ، وأهل اللغة يقولون ، أنقض الحمل ظهر الناقة إذا سمع له صرير من شدة الحمل ، قال قتادة : كان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ذنوب قد أثقلته فغفرها الله له .

وقوم يذهبون إلى أن هذا تخفيف أعباء النبوة التي تثقل الظهر من القيام بأمرها سهل الله ذلك عليه حتى تيسرت له ، وكذا قال أبو عبيدة وغيره ، وقرأ ابن مسعود ﴿ وحللنا عنك وقرك ﴾ وقيل معناه عصمناك من الوزر الذي ينقض ظهرك ولو كان ذلك الوزر حاصلاً ، قاله الرازي وفيه استعارة تمثيلية حيث سمى العصمة وضعاً مجازاً .

ثم ذكر سبحانه منته وكرامته عليه فقال ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ وزيادة لك في الموضعين وعنك في موضع تفيد إبهام المشروح والموضوع والمرفوع ثم توضيحه . والإيضاح بعد الإبهام أوقع في الذهن ، قال الحسن وذلك أن الله لا يذكر في موضع إلا ذكر صلى الله عليه وسلم معه .

قال قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ؛ ولا صاحب صلاة إلا ينادي فيقول أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله ، قال مجاهد يعني بالتأذين ، وعبارة الخطيب تذكر معي في الأذان والإقامة والتشهد ويوم الجمعة على المنابر ويوم الفطر ، ويوم الأضحى ، ويوم عرفة وأيام التشريق وعند الجمار وعلى الصفا والمروة ، وفي خطبة النكاح ومشارق الأرض ومغاربها ، ولو أن رجلاً عبدالله وصدق بالجنة والنار وكل شيء ولم يشهد أن محمداً رسول الله لم ينتفع بشيء وكان كافراً انتهى .

وقيل المعنى ذكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك وأمرناهم بالبشارة بك ، ولا دين إلا ودينك يظهر عليه ، وقيل رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء وعند المؤمنين في الأرض ، ونرفع ذكرك في الآخرة بما نعطيك من المقام

المحمود وكرائم الدرجات وجلائل المراتب ، قال الضحاك لا تقبل صلاة إلا به ولا تجوز خطبة إلا به .

وقيل رفع ذكره بأخذ ميثاقه على النبيين وإلزامهم الإيمان به والإقرار بفضله .

والظاهر أن هذا الرفع لذكره الذي امتن الله به عليه يتناول جميع هذه الأمور ، فكل واحد منها من أسباب رفع الذكر ، وكذلك أمره بالصلاة والسلام عليه وإخباره صلى الله عليه وآله وسلم عن الله عز وجل أن من صلى عليه واحدة صلى الله عليه بها عشراً .

وكم من موضع في القرآن يذكر فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع الله سبحانه من ذلك قوله تعالى ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ وأمر الله بطاعته صلى الله عليه وآله وسلم كقوله ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ وقوله ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا عنه ﴾ وقوله : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ وغير ذلك .

وبالجملة فقد ملأ ذكره الجميل السموات والأرضين ، وجعل الله له من لسان الصدق والذكر الحسن والثناء الصالح ما لم يجعله لأحد من عباده ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله عدد ما صلى عليه المصلون بكل لسان في كل زمان .

وما أحسن قول حسان رضي الله تعالى عنه :

أغر عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهور يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي مع اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « أتاني جبريل فقال إن ربك يقول تدري كيف رفعت ذكرك . قلت الله ورسوله

أعلم ، قال إذا ذكرت ذكرت معي»[١] أخرجه آبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل وقد روي بطرق .

وقال ابن عباس في الآية لا يذكر الله إلا ذكر معه فهو الذي يطوى به الذكر الجميل ويبدأ .

﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ أي أن مع الضيقة سعة ، ومع الشدة رخاء ومع الكرب فرجاً ، وفي هذا وعد منه سبحانه بأن كل عسير يتيسر ، وكل شديد يهون ، وكل صعب يلين ، ومع بمعنى (بعد) ، وفي التعبير بها إشعار بغاية سرعة مجيء اليسر كأنه مقارن .

عن أنس قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم جالساً وحياله جحر فقال : « لو دخل العسر هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه فأنزل الله ﴿ إن مع العسر يسراً ﴾ الخ ولفظ الطبراني : وتلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ﴾ » وأخرج الطبراني وابن مردويه عنه مرفوعاً نحوه . قال السيوطي وسنده ضعيف .

وعن ابن مسعود مرفوعاً « لو كان العسر في جحر لتبعه اليسر حتى يدخل فيه فيخرجه ولن يغلب عسر يسرين إن الله يقول إن مع العسر يسراً »[٢] الخ أخرجه عبدالرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في الصبر ، وابن المنذر والبيهقي في الشعب ، قال البزار لا نعلم رواه عن أنس

---

(١) سقطت هذه الكلمة من الأصل ، واستدركناها من الطبري وغيره .

(٢) رواه ابن جرير الطبري ٣٠/٢٣٥ من رواية يونس عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري ، ودراج ، وإن كان صدوقاً في حديثه فإنه في روايته عن أبي الهيثم ضعيف ، كما قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » ومع ذلك فقد صححه ابن حبان . وقال ابن كثير : وكذا روى الحديث ابن أبي حاتم عن يونس عن عبد الأعلى به ، ورواه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة عن دراج . وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٣٦٤ وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في « الدلائل » عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

إلا عائذ بن شريح قال فيه أبو حاتم الرازي في حديثه ضعف ، ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قرة عن رجل عن ابن مسعود .

ثم زاد سبحانه هذا الوعد تقريراً وتوكيداً فقال مكرراً له بلفظ ﴿ إن مع العسر يسراً ﴾ أي أن مع ذلك العسر المذكور سابقاً يسراً آخر لما تقرر من أنه إذا أعيد المعرف يكون الثاني عين الأول سواء كان المراد به الجنس أو العهد بخلاف المنكر إذا أعيد فإنه يراد بالثاني فرد مغاير لما أريد بالفرد الأول في الغالب ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في معنى هذه الآية أنه لن يغلب عسر يسرين .

قال الواحدي : وهذا قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة والمفسرين على أن العسر واحد واليسر إثنان قال الزجاج ذكر العسر مع الألف واللام ، ثم ثنى ذكره فصار المعنى أن مع العسر يسرين ، قيل والتنكير في اليسر للتفخيم والتعظيم وهو في مصحف ابن مسعود غير مكرر .

قرأ الجمهور بسكون السين في العسر واليسر في الموضعين ، وقرىء بضمها في الجميع وفيه خلاف هل هو أصل أو مثقل من المسكن

وعن الحسن قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فرحاً مسروراً وهو يضحك ويقول لن يغلب عسر يسرين إن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً » أخرجه عبدالرزاق وابن جرير والحاكم والبيهقي ، وهذا مرسل وروي نحوه مرفوعاً مرسلاً عن قتادة .

ولما عدد سبحانه عليه-صلى الله عليه وسلم-نعمه السالفة ووعده بالنعم الآتية بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة فقال ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ أي إذا فرغت من صلاتك إو من التبليغ أو من الغزو فاجتهد في الدعاء واطلب من الله حاجتك ، أو فانصب في العبادة أو اتعب في الدعاء قبل السلام وبعده ، والنصب التعب يقال نصب ينصب نصباً أي تعب .

قال قتادة والضحاك ومقاتل والكلبي : إذا فرغت من الصلاة المكتوبة

فانصب إلى ربك في الدعاء وارغب اليه في المسألة يعطك ، وكذا قال مجاهد .

قال الشعبي إذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك ، وكذا قال الزهري وقال الكلبي أيضاً إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب أي ﴿ استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ .

وقال الحسن وقتادة وزيد بن أسلم : إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب لعبادة ربك ، وفيه نظر ، لان السورة مكية والامر بالجهاد انما كان بعد الهجرة فلعله تفسير الذاهب إلى أن السورة مدنية ، قال مجاهد أيضاً : إذا فرغت من دنياك فانصب في صلاتك .

وقال ابن عباس : إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء واسأل الله وارغب اليه ، وعنه قال: قال الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم إذا فرغت من الصلاة وتشهدت فانصب إلى ربك واسأله حاجتك .

وعن ابن مسعود قال : فانصب إلى الدعاء وإلى ربك فارغب في المسألة ، وعنه قال إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل ، قال عمر ابن الخطاب : اني أكره أن أرى أحدكم فارغاً لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة .

﴿ وإلى ربك ﴾ المحسن اليك بفضائل النعم خصوصاً بما ذكر في هاتين السورتين ﴿ فارغب ﴾ أي أجعل رغبتك اليه خصوصاً ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه ، وقيل تضرع اليه ، قال الزجاج أي اجعل رغبتك إلى الله وحده وقال عطاء يريد أنه يضرع اليه راهباً من النار ، راغباً في الجنة .

والمعنى انه يرغب اليه سبحانه لا إلى غيره كائناً من كان فلا يطلب حاجاته إلا منه ، ولا يعول في جميع أموره إلا عليه ، قرأ الجمهور فارغب وقرأ زيد بن علي وابن أبي عبلة فرغب بتشديد الغين أي فرغب الناس إلى الله وشوقهم إلى ما عنده من الخير .

سورة التين

هي ثمان آيات وهي مكية في قول الجمهور وروى القرطبي عن ابن عباس أنها مدنية ويخالف هذه الرواية ما أخرجه ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال أنزلت سورة التين بمكة ، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن البراء بن عازب « قال كان النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم في سفر فصلى العشاء فقرأ في إحدى الركعتين بالتين والزيتون فما سمعت أحداً أحسن صوتاً ولا قراءة منه » .

وعنه قال : « صليت مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم المغرب فقرأ بالتين » أخرجه الخطيب وعن عبد اللّه بن يزيد نحوه عند الطبراني وابن شيبة .

وعن زرعة بن خليفة قال : « أتيت النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم من اليمامة فعرض علينا الاسلام فأسلمنا فلما صلينا الغداة قرأ بالتين والزيتون وإنا أنزلناه في ليلة القدر » وأخرجه ابن قانع وابن الساكن والشيرازي في الألقاب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

﴿ والتين ﴾ قال أكثر المفسرين هو التين الذي يأكله الناس ، وإنما أقسم بالتين لأنه فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص ، وفيها أعظم عبرة لدلالتها على من هيأها لذلك وجعلها على مقدار اللقمة .

قال كثير من أهل الطب : إن التين أنفع الفواكه للبدن وأكثرها غذاء ، وذكروا له فوائد كما في كتب المفردات والمركبات وهو غذاء ودواء .

أما كونه غذاء فالأطباء زعموا أنه طعام لطيف سريع الهضم لا يمكث في المعدة يلين الطبع ويخرج بطريق الرشح ، ويقلل البلغم ويطهر الكليتين ويزيل ما في المثانة من الرمل ، ويسمن البدن ، ويفتح مسام الكبد وسدده والطحال ويقطع البواسير ، ويزيل نكهة الفم ، ويطول الشعر ، وهو أمان من الفالج .

وأما كونه دواء فلأنه سبب في إخراج فضلات البدن وهو مأكول الظاهر والباطن دون غيره كالجوز والتمر .

والتين في النوم رجل غير جبار ، ومن نالها في المنام نال مالاً ومن أكلها مناماً رزقه الله أولاداً ، وتستر آدم بورق التين حين فارق الجنة ، ويشبه فواكه الجنة لأنه بلا عجم وفاكهة طيبة لا فضل له ينفع من النقرس .

وقال الضحاك : التين المسجد الحرام ، وقيل : مسجد أصحاب الكهف ، وقال ابن زيد : مسجد دمشق ، وقال قتادة التين الجبل الذي عليه

دمشق ، وقال عكرمة وكعب الاحبار : التين دمشق ، وعن ابن عباس : قال التين بلاد الشام ، وفي سنده مجهول وعنه قال مسجد نوح الذي بني على الجودي ، وعنه قال الفاكهة التي يأكلها الناس .

﴿ والزيتون ﴾ وهو الذي يعصرون منه الزيت الذي هـو إدام غالب البلدان ودهنهم ويدخل في كثير من الأدوية ، وقال الضحاك المسجد الأقصى ، وقال ابن زيد مسجد بيت المقدس ، وقـال قتادة الجبـل الذي عليـه بيت المقدس ، وقال عكرمة وكعب الأحبار بيت المقدس ، وعن ابن عباس قال بلاد فلسطين وفي سنده مجهول ، وقال أيضاً بيت المقدس .

وليت شعري ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقي في اللغة العربية والعدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى ، المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل ونقل ، وأعجب من هذا اختيار ابن جرير للآخر منها مع طول باعه في علم الرواية والدراية ، قال الفراء ؛ سمعت رجلاً يقول التين جبال حلوان إلى همدان ، والزيتون جبال الشام .

قلت هب إنك سمعت هذا الرجل فكان ماذا ، فليس بمثل هذا تثبت اللغة ، ولا هو نقل عن الشارع ، وقال محمد بن كعب الزيتون مسجد إيليا ، وقيل إنه على حذف مضاف أي ومنابت التين والزيتون ، قال النحاس لا دليل على هذا من ظاهر التنزيل ولا من قول من لا يجوز خلافه .

قال الرازي أما الزيتون فهو فاكهة من وجه ودواء من وجه ، ويستصبح به ، ومن رأى ورق الزيتون في المنـام استمسك بالعروة الوثقى .

﴿ وطور سينين ﴾ وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام اسمه الطور ، ومعنى سينين المبارك الحسن بلغة الحبشة قاله قتادة ، وقال مجاهد هو المبارك بالسريانية وقال مجاهد والكلبي سينين كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين وسينا بلغة النبط ، قال الأخفش طور جبل وسينين شجر ، واحدته سينة .

قال أبو علي الفارسي سينين فعليل فكررت اللام التي هي نون فيه ولم ينصرف سينين كما لم ينصرف سينا لأنه جعل اسماً للبقعة

وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام وهي الأرض المقدسة كما في قوله ﴿ إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ﴾ وأعظم بركة حلت به ووقعت عليه تكليم الله لموسى عليه السلام ، قرأ الجمهور سينين بكسر السين وقرىء بفتحها وهي لغة بكر وتميم ، وقرىء سيناء بالكسر والمد ، وهذه لغات اختلفت في هذا الإسم السرياني على عادة العرب في تلاعبها بالاسماء العجمية .

﴿ وهـذا البلد الأمين ﴾ يعني مكة سمـاه أميناً لأنـه آمن كما قـال الله تعـالى ﴿ إنا جعلنا حرماً آمناً ﴾ يقال أمن الرجل أمانة فهـو أمين ، قال الفـراء وغيره الأمين بمعنى الآمن أو فعيل بمعنى مفعول من أمنه لأنه مأمون الغوائل ، قال ابن عباس أي مكة يعنى لأمن الناس فيها جاهلية وإسلاماً[١] .

﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ هذا جواب القسم أي خلقنا جنس الإنسان كائناً في أحسن تقويم وتعديل لصورته ، وقال ابن عباس في أحسن خلق .

قال الواحدي قال المفسرون : إن الله خلق كل ذي روح مكباً على وجهه إلا الإنسان خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده ، مزيناً بالعلم والفهم

---

(١) قال ابن كثير : وقال بعض الأئمة : هذه محال ثلاثة ، بعث الله في كل واحد منها نبيا مرسلا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار ، فالأول محلة التين والزيتون ، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى بن مريم عليه السلام ، والثاني : طور سينين ، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ، والثالث : مكة ، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً ، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ ، قالوا : وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله في طور سيناء ـ يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ـ وأشرق من ساعير ـ يعني جبل بيت المقدس الـذي بعث الله منه عيسى ، ـ واستعلن من جبال فاران ـ يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ ، فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان ، ولهذا أقسم بالأشرف ، ثم الأشرف منه ، ثم الأشرف منهما .

والنطق والعقل ، والتمييز والأدب ، فهو أحسن الخلق بحسب الظاهر والباطن ، ومعنى التقويم التعديل يقال قومته فاستقام والمراد القوام لأن التقويم فعل الباري تعالى .

قال القرطبي هو اعتداله واستواء شأنه ، كذا قال عامة المفسرين ، قال ابن العربي : ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان فإن الله خلقه حياً عالماً قادراً مريداً متكلماً سميعاً بصيراً مدبراً حكيماً ، وهذه صفات الرب سبحانه وعليها حمل بعض العلماء قوله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » يعني على صفاته التي تقدم ذكرها .

قلت وينبغي أن يضم إلى كلامه هذا قوله سبحانه ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وقوله ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ .

ومن أراد أن يقف على حقيقة ما اشتمل عليه الإنسان من بديع الخلق وعجيب الصنع فلينظر في كتاب العبر والإعتبار للجاحظ ، وفي الكتاب الذي عقده النيسابوري على قوله ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وهو في مجلدين ضخمين .

روي أن رجلاً قال لامرأته إن لم تكوني أحسن من القمر فأنت طالق فأفتى بعض أهل العلم بأنها صارت مطلقة ، وقال الشافعي لم تطلق لأنها من جنس الإنسان ، والله تعالى يقول ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ فلو كان القمر أحسن صورة من الإنسان لم يصفه الله سبحانه بأحسن تقويم ، ولنعم ما قيل :

ما أنت مادحها يا من يشبهها ... بالشمس والبدر لا بل أنت هاجيها[1]

من أين للشمس خال فوق وجنتها ... ومضحك من نظام الدر في فيها

من أين للبدر أجفان مكحلة ... بالسحر والغنج تجري في حواشيها

---

(٢) البيت من شواهد الفراء (٣٧١) ، وهو في الطبري ٢٤١/٣٠ ، والقرطبي ١١٣/٢٠ .

﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ أي رددناه إلى أرذل العمر ، قاله ابن عباس وهو الهرم والضعف بعد الشباب والقوة حتى يصير كالصبي فيخرف وينقص عقله ، كذا قال جماعة من المفسرين ، قال الواحدي : والسافلون هم الضعفاء والزمناء والأطفال ، والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعاً لأنه لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً لضعف بدنه وسمعه وبصره وعقله ، قاله الخازن .

وقال مجاهد وأبو العالية والحسن : المعنى ثم رددنا الكافر إلى النار ، وذلك أن النار درجات بعضها أسفل من بعض فالكافر يرد إلى أسفل الدرجات السافلة ، ولا ينافي هذا قوله تعالى ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ فلا مانع من كون الكفار والمنافقين مجتمعين في ذلك الدرك الأسفل .

وقوله أسفل سافلين إما حال من المفعول أي رددناه حال كونه أسفل سافلين أو صفة لمقدر محذوف أي مكاناً أسفل سافلين .

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ هذا الاستثناء منقطع على القول الأول أي لكن الذين آمنوا الخ ووجهه أن الهرم والرد إلى أرذل العمر يصاب به المؤمن كما يصاب به الكافر فلا يكون لاستثناء المؤمنين على وجه الإتصال معنى ، وعلى القول الثاني متصل من ضمير رددناه فإنه في معنى الجمع أي رددنا الإنسان أسفل سافلين من النار إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وقال الشهاب الإستثناء منقطع لأنه لم يقصد إخراجهم من الحكم وهو مدار الاتصال والانقطاع كما صرح به في الأصول لا الخروج والدخول كما توهم ، فلا يرد عليه أنه كيف يكون منقطعاً مع أنهم مردودون أيضاً فهو للإستدراك لدفع ما يتوهم من أن التساوي في أرذل العمر يقتضي التساوي في غيره ، ويكون ﴿ الذين ﴾ حينئذ مبتدأ والفاء داخلة في خبره لا للتفريع كما في الإتصال ، وقيل المعنى رددناه إلى الضلال كما قال ﴿ إن الإنسان لفي خسر إلا

الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي إلا هؤلاء فلا يردون إلى ذلك .

﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ أي غير مقطوع فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعاتهم . فهذه الجملة على القول الأول مبينة لكيفية حال المؤمنين ، وعلى الثاني مقررة لما يفيده الإستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الرد .

قال ابن عباس في الآية أجر غير منقوص ، يقول فإذا بلغ المؤمن أرذل العمر وكان يعمل في شبابه عملاً صالحاً كتب له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته وشبابه ولم يضره ما عمل في كبره ، ولم تكتب عليه الخطايا التي يعمل بعد ما يبلغ أرذل العمر ، وعنه قال من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر . وذلك قوله ﴿ ثم رددناه ـ إلى قوله ـ الصالحات ﴾ قال لا يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً ، وعنه قال يقول إلى الكبر وضعفه فإذا كبر وضعف عن العمل كتب له مثل أجر ما كان يعمل في شبيبته .

وأخرج أحمد والبخاري وغيرهما عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً » .

﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ الخطاب للإنسان الكافر والإستفهام للتقريع والتوبيخ ولإلزام الحجة أي إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم وأنه يردك أسفل سافلين ، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء ، وعليه ينبغي أن يذهب إلى الإلتفات من الغيبة إلى الخطاب لما جرى من قوله ﴿ ولقد خلقنا الانسان ﴾ وعليه جرى في الكشاف .

وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم اي اي شيء يكذبك يا محمد بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة فاستيقن مع ما جاءك من الله أنه أحكم الحاكمين ، وإلى هذا ذهب القاضي وقدمه على القول الأول .

قال الفراء المعنى فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين كأنه قال من يقدر على ذلك أي على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما ظهر من

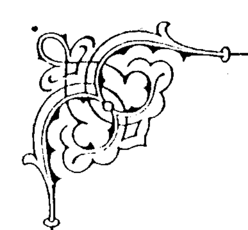
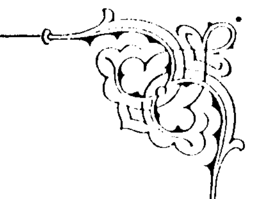
قدرتنا على خلق الانسان ما ظهر ، واختار هذا ابن جرير ، والدين الجزاء .

﴿ أليس الله ﴾ أي أليس الذي فعل ما فعل مما ذكرنا ﴿ بأحكم الحاكمين ﴾ صنعاً وتدبيراً ، وأقضى القاضين وأصحهم وأنفذهم حكماً وقضاء حتى تتوهم عدم الاعادة والجزاء ، وفيه وعيد شديد للكفار ، والمعنى اتقن الحاكمين في كل ما يخلق ، وقيل أحكم الحاكمين قضاء وعدلاً ، والاستفهام إذا دخل على النفي صار الكلام إيجاباً وتقريراً كما تقدم في ﴿ ألم نشرح ﴾ .

وعن أبي هريرة مرفوعاً « من قرأ والتين والزيتون فقرأ أليس الله بأحكم الحاكمين فليقل : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » أخرجه الترمذي وابن مردويه .

وعن جابر مرفوعاً « إذا قرأت التين فقرأت أليس الله الخ فقل بلى » أخرجه ابن مردويه وعن ابن عباس « أنه كان إذا قرأ الآية قال : سبحانك اللهم فبلى » أخرجه ابن جرير وابن المنذر .



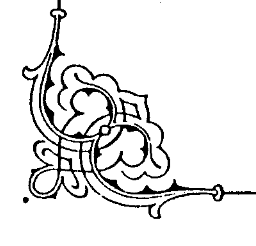



سورة اقرأ

ويقال لها سورة العلق وسورة القلم. وهي تسع عشرة آية وقيل عشرون آية، وهي مكية بلا خلاف وهي أول ما نزل من القرآن. قاله ابن عباس وعن أبي موسى الأشعري قال هي أول سورة أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم وعن عائشة رضي الله تعالى عنها نحوه.

ويدل على هذا الحديث الطويل الثابت في البخاري ومسلم وغيرهما من حديثها وفيه: فجاءه الحق وهو في غار حراء فقال له الملك اقرأ. الحديث. وفي الباب أحاديث وآثار عن جماعة من الصحابة، وقد ذهب الجمهور الى أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن ثم بعده نون والقلم ثم المزمل ثم المدثر الى آخر ما ذكره الخازن في أول تفسيره، فانه استوفى الكلام على ترتيب السور من جهة النزول بمكة ثم بالمدينة.

قال القاضي أبو بكر بن الطيب ترتيب السور على ما هي عليه اليوم في المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة، وذكر



ذلك مكي في تفسير سورة براءة . وذكر أن ترتيب الآيات ووضع البسملة في الأوائل هو من النبي صلى الله عليه وسلم. ولما لم يؤمر بذلك في أول سورة براءة تركت بلا بسملة وهذا أصح ما قيل في ذلك .

وقال قوم ان ترتيب السور عن توقيف من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأما ما روي من اختلاف مصحف أبيّ وعلي وعبد اللّه فانما كان قبل عرض القرآن على جبريل في المرة الاخيرة وان رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم رتب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك .

روى يونس عن ابن وهب قال سمعت مالكاً يقول انما ألف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذكر أبو بكر ابن الانباري في كتاب الرد أن الله أنزل القرآن جملة الى سماء الدنيا ثم فرقه على النبي صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة . فكانت السورة تنزل في أمر يحدث .والآية تنزل جواباً لمستخبر يسأل ويوقف جبريل النبي صلى الله عليه وسلم على موضع السورة والآية . فانتظام السور كانتظام الآيات والحروف فكله عن رسول الله خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام عن رب العالمين . فمن أخر سورة مقدمة أو قدم أخرى مؤخرة كمن أفسد نظم الآيات . وغير الحروف والكلمات . ولا حجة على أهل الحق في تقديم البقرة على الانعام. والانعام نزلت قبل البقرة لان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ عنه هذا الترتيب وهو كان يقول « ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن » وكان جبريل عليه السلام يوقفه على مكان الآيات . انتهى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾

﴿ اقرأ ﴾ قرأالجمهور بسكون الهمزة أمراً من القراءة وقرىء بفتح الراء وكأنه قلب الهمزة ألفاً ثم حذفها للأمر ، والأمر بالقراءة يقتضي مقروءاً فالتقدير اقرأ ما يوحى إليك أو ما نزل عليك أو ما أمرت بقراءته .

وقوله ﴿ باسم ربك ﴾ متعلق بمحذوف هو حال أي اقرأ متلبساً باسم ربك أو مبتدأ به أو مفتتحاً أو الباء زائدة أي اقرأ اسم ربك قاله أبو عبيدة ، وقال أيضاً والاسم صلة أي اذكر ربك ، وقيل الباء بمعنى على أي اقرأ على اسم ربك ، يقال افعل كذا باسم الله وعلى اسم الله قاله الأخفش ، وقيل الباء للاستعانة أي مستعيناً به ، وبسم الله تكتب من غير ألف استغناء عنها بباء الالصاق في اللفظ والخط لكثرة الاستعمال بخلاف قوله تعالى ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ فانها لم تحذف فيه لقلة الاستعمال .

عن عبدالله بن شداد قال « أتى جبريل محمداً صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد اقرأ فقال وما اقرأ فضمه ثم قال يا محمد اقرأ قال وما اقرأ قال اقرأ باسم ربك-حتى بلغ-ما لم يعلم » اخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وأبو نعيم في الدلائل .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة فجاءه الملك فقال اقرأ فقال قلت ما أنا بقارىء قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلي فقال

اقرأ فقلت ما أنا بقارىء فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد فقال اقرأ باسم ربك الخ » .

ثم الظاهر أن هذه الجملة ليست من القرآن لأن الأمر بتحصيل الشيء غير ذلك الشيء ، ولكن قام الاجماع على أنها من جملة القرآن خصوصاً مع اثباتها في المصاحف بخطها سلفاً وخلفاً من غير نكير ، فعلم منه أنها من جملة القرآن ، تأمل .

قال السيوطي في اتقانه إن أول سورة اقرأ مشتمل على نظير ما اشتملت عليه الفاتحة من براعة الاستهلال لكونها أول ما نزل من القرآن فان فيها الأمر بالقراءة وفيها البداءة باسم الله وفيها الاشارة إلى علم الاحكام ، وفيها ما يتعلق بتوحيد الرب واثبات ذاته وصفاته من صفة ذات وصفة فعل ، وفي هذا الاشارة إلى أصول الدين وفيها ما يتعلق بالاخبار من قوله ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ ولهذا قيل انها جديرة أن تسمى عنوان القرآن لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله انتهى ذكره ابن لقيمة في حاشية البيضاوي ، والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وآله وسلم للاشعار بتبليغه صلى الله عليه وآله وسلم إلى الغاية القاصية من الكمالات ، البشرية ، قاله أبو السعود .

ثم وصف الرب بقوله ﴿ الذي خلق ﴾ لتذكير أول النعم الفائضة عليه منه تعالى ، لأن الخلق هو أعظم النعم وعليه يترتب سائر النعم ، قال الكلبي يعني الخلائق وفيه تنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان على ما هو عليه من الحياة وما يتبعها من الكمالات قادر على تعليم القراءة .

﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ يعني بني آدم ، والعلقة الدم الجامد ، وإذا جرى فهو المسفوح ، وقال من علق بجمع علقة لأن المراد بالإنسان الجنس ،

والمعنى خلق جنس الإنسان من جنس العلق ، وإذا كان المراد بقوله ﴿ الذي خلق ﴾ كل المخلوقات فيكون تخصيص الإنسان بالذكر تشريفاً له لما فيه من بديع الخلق وعجيب الصنع ، وإذا كان المراد بالذي خلق ، الذي خلق الإنسان فيكون الثاني تفسيراً للأول ، والنكتة ما في الابهام ثم التفسير من التفات الذهن وتطلعه إلى معرفة ما أبهم أولاً ثم فسر ثانياً ، وقال من علق ولم يقل من نطفة مراعاة للفواصل .

ثم كرر الأمر بالقراءة للتأكيد والتقرير فقال ﴿ اقرأ ﴾ أي افعل ما أمرت به من القراءة وجملة ﴿ وربك الأكرم ﴾ مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به صلى الله عليه وسلم من قوله « ما أنا بقارىء » يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ ، وهو أمي فقيل له اقرأ وربك الذي أمرك بالقراءة هو الأكرم ، قال الكلبي يعني الحليم عن جهل العباد فلم يعجل بعقوبتهم .

وقيل انه أمره بالقراءة أولاً لنفسه ثم أمره بالقراءة ثانياً للتبليغ ، فلا يكون من باب التأكيد والأول أولى ، والأكرم صفة تدل على المبالغة في الكرم إذ كرمه يزيد على كل كرم ، لأنه ينعم بالنعم التي لا تحصى .

قال في البحر : ومن غريب ما رأينا تسمية النصارى بهذه الصفة التي هي صفة الله تعالى يسمون الأكرم والرشيد وفخر السعداء وسعيد السعداء في ديار مصر ويدعوهم بها المسلون ويزيدون عليها على سبيل التعظيم : الشيخ الأكرم ، والشيخ الأسعد والشيخ الرشيد ، فيالها من خزي يوم عرض الأقوال والأفعال على الله تعالى .

﴿ الذي علم بالقلم ﴾ أي علم الإنسان الخط بالقلم فكان بواسطة ذلك يقدر على أن يعلم كل مكتوب ، قال الزجاج علم الإنسان الكتابة بالقلم قال قتادة : بالقلم نعمة من الله عز وجل عظيمة لولا ذلك لم يقم دين ولم يصلح عيش ، فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة

التي لا يحيط بها إلا هو ، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولا هي ما استقامت أمور الدين ولا أمور الدنيا ، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا القلم والخط لكفى به ، وسمي قلماً لأنه يقلم أي يقطع وأول من خط به ادريس ، وقيل آدم وقد حققنا أحوال القلم وما يتعلق به في كتابنا الاكبر في أصول التفسير فإن شئت فارجع إليه .

وجملة ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ بدل اشتمال من التي قبلها أي علمه بالقلم من الأمور الكلية والجزئية ما لم يعلم به منها قيل المراد بالإنسان هنا آدم كما في قوله ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ وقيل الإنسان هنا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأولى حمل الإنسان على العموم ، والمعنى أن من علمه الله سبحانه من هذا الجنس بواسطة القلم فقد علمه ما لم يعلم .

﴿ كلا ﴾ ردع وزجر لمن كفر نعم الله عليه بسبب طغيانه وان لم يتقدم له ذكر ، وقيل معناه حقاً ، وهو مذهب الكسائي ومن تبعه لأنه ليس قبله ولا بعده شيء يكون ﴿ كلا ﴾ رداً له كما قالوا في كلا والقمر ، ومذهب أبي حيان أنها بمعنى ألا الاستفتاحية وصوبه ابن هشام لكسر همزة إن بعدها أي لكونه مظنة جملة كما بعد حرف التنبيه نحو ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ ولو كانت بمعنى حقاً لما كسرت إن بعدها لكونها مظنة مفرد ، وفي الكواشي يجوز في ﴿ كلا ﴾ أن تكون تنبيهاً فيقف على ما قبلها ، وردعاً فيقف عليها .

ومعنى ﴿ ان الإنسان ليطغى ﴾ أنه يجاوز الحد ويستكبر على ربه ، قيل المراد بالإنسان هنا أبو جهل وهو المراد بهذا وما بعده إلى آخر السورة ، وانه تأخر نزول هذا وما بعده عن الخمس الآيات المذكورة في أول هذه السورة .

وقوله ﴿ أن رآه استغنى ﴾ علة ليطغى أي ليطغى أن رأى نفسه مستغنياً ، والرؤية هنا بمعنى العلم ولو كانت بصرية لامتنع الجمع بين الضميرين في فعلها لشيء واحد ، لأن ذلك من خواص باب علم ونحوه ، قال الفراء : لم يقل رأى نفسه كما قيل قتل نفسه لأن رأى من الأفعال التي ترد

اسماً وخبراً نحو الظن والحسبان فلا يقتصر فيه على مفعول واحد ، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول رأيتني وحسبتني ومتى نراك خارجاً ومتى نظنك خارجاً .

قيل والمراد هنا انه استغنى بالعشيرة والأنصار والأموال ، قرأ الجمهور أن رآه بمد الهمزة وقرىء بقصرها ، قال مقاتل كان أبو جهل إذا أصاب مالاً زاد في ثيابه ومركبه وطعامه وشرابه فذلك طغيانه وكذا قال الكلبي .

قال الرازي أول السورة يدل على مدح العلم ، وآخرها يدل على ذم المال وكفى بذلك مرغباً في الدين والعلم ، ومنفراً عن الدنيا والمال .

ثم هدد سبحانه وخوف فقال ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ أي المرجع ، والرجعى والمرجع والرجوع مصادر ، يقال رجع إليه مرجعاً ورجوعاً ورجعى ، وتقدم الجار والمجرور للقصر أي الرجعى إليه سبحانه لا إلى غيره ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب تهديداً له وتحذيراً من عاقبة الطغيان ، فإن الله يرده ويرجعه إلى النقصان والفقر والموت كما رده من النقصان إلى الكمال حيث نقله من الجمادية إلى الحيوانية ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن الذل إلى العز ، فما هذا التعزز والقوة ، قاله الرازي .

﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ قال المفسرون الذي ينهى أبو جهل ، والمراد بالعبد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال ابن عباس هو أبو جهل بن هشام حين رمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسلى[1] على ظهره وهو ساجد لله عز وجل ، وفيه تقبيح لصنعه وتشنيع لفعله ، حتى كأنه بحيث يراه كل من تتأتى منه الرؤية .

وعن ابن عباس قال: قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن عنقه فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال لو فعل لأخذته الملائكة عياناً .

---

(١) كرش الجزور بما فيه من القاذورات .

أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

﴿ أرأيت إن كان على الهدى ﴾ يعني العبد المنهي إذا صلى ، وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ أو أمر بالتقوى ﴾ أي بالاخلاص والتوحيد والعمل الصالح الذي تتقي به النار .

﴿ أرأيت إن كذب وتولى ﴾ يعني أبا جهل كذب بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتولى عن الايمان ، وقوله ﴿ أرأيت ﴾ في الثلاثة المواضع بمعنى أخبرني ، لأن الرؤية لما كانت سبباً للأخبار عن المرئي أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستفهام عن متعلقها ، والخطاب لكل من يصلح له .

وقد ذكر هنا أرأيت ثلاث مرات ، وصرح بعد الثالثة منها بجملة استفهامية فيكون في موضع المفعول الثاني لها ، ومفعولها الأول محذوف وهو ضمير يعود على الذي ينهى الواقع مفعولاً أول لأرأيت الأولى ، ومفعول أرأيت الأولى الثاني محذوف وهو جملة استفهامية كالجملة الواقعة بعد أرأيت الثانية ، وأما أرأيت الثانية فلم يذكر لها مفعول لا أول ولا ثان ، حذف الأول لدلالة مفعول أرأيت الثالثة عليه ، فقد حذف الثاني من الأولى ، والأول من الثالثة ، والاثنان من الثانية ، وليس طلب كل من رأيت للجملة الاستفهامية على سبيل التنازع ، لأنه يستدعي إضماراً ، والجمل لا تضمر إنما تضمر المفردات ، وإنما ذلك من باب الحذف للدلالة .

وأما جواب الشرط المذكور مع أرأيت في الموضعين الأخيرين فهو محذوف تقديره إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى .

﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط

الثاني ، ومعنى ألم يعلم الخ أي ألم يطلع على أحواله فيجازيه بها فكيف اجترأ على ما اجترأ عليه ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، وقيل أرأيت الأولى مفعولها الأول الموصول ومفعولها الثاني الشرطية الأولى بجوابها المحذوف المدلول عليه بالمذكور ، وأرأيت في الموضعين تكرير للتأكيد ، وقيل كل واحد من أرأيت بدل من الأولى ، وألم يعلم بأن الله يرى : الخبر .

﴿ كلا ﴾ ردع للناهي ومنع له عن نهيه ، واللام في ﴿ لئن لم ينته ﴾ هي الموطئة للقسم أي والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر ﴿ لنسفعاً بالناصية ﴾ السفع الجذب الشديد ، ويقال سفعت الشيء إذا قبضته وجذبته ، ويقال سفع بناصية فرسه .

قال الراغب : السفع الأخذ بسفعة الفرس أي بسواد ناصيته ، وباعتبار السواد قيل به سفعة غضب ، اعتباراً بما يعلو من اللون الدخاني من اشتد به الغضب ، وقيل للصقر أسفع لما فيه من لمع السواد ، أو امرأة سفعاء اللون . انتهى .

وقيل مأخوذ من سفعته النار والشمس إذا غيرت وجهه إلى سواد ، والمعنى لنأخذن بناصيته ولنجرنه إلى النار ، وهذا كقوله ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ وقيل في الدنيا يوم بدر فقد جره المسلمون إلى القتل فقتله ابن مسعود وهو طريح بين الجرحى وبه رمق وهو يخور ، وعبر بالناصية عن جميع الشخص ، واكتفى بتعريف العهد عن الاضافة لأنه علم أنها ناصية الناهي .

﴿ ناصية ﴾ وهي شعر مقدم الرأس ، وإنما أبدل النكرة من المعرفة لوصفها بقوله ﴿ كاذبة ﴾ أي في قولها ﴿ خاطئة ﴾ في فعلها ، وهذا على مذهب الكوفيين ، فإنهم لا يجيزون إبدال النكرة من المعرفة إلا بشرط وصفها ، وأما على مذهب البصريين فيجوز بلا شرط .

قرأ الجمهور بالجر وقرىء بالرفع على إضمار مبتدأ أي هي ناصية ، وقرىء بالنصب على الذم ، قال مقاتل أخبر عنه بأنه فاجر خاطىء فقال ناصية

كاذبة خاطئة ، تأويلها صاحبها كاذب خاطىء ، وفي هذا الاسناد المجازي من الحسن والجزالة ما ليس في قولك ناصية كاذب خاطىء .

﴿ فليدع ناديه ﴾ أي أهل ناديه لأن النادي هو المجلس الذي يجلس وينتدي فيه القوم ويجتمعون فيه من الأهل والعشيرة ، ولا يسمى المكان نادياً حتى يكون فيه أهله ، والمعنى ليدع عشيرته وأهله ليعينوه وينصروه ، قيل إن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً فنزلت ﴿ فليدع ناديه ﴾ قال ابن عباس أي ناصره .

﴿ سندع الزبانية ﴾[1] أي الملائكة الغلاظ الشداد وهم خزنة جهنم كذا قال الزجاج ، وقال الكسائي والأخفش وعيسى بن عمر : واحدهم زابن ، وقال أبو عبيدة زبنية[2] وقيل زباني بتشديد الياء ، وقيل هو اسم للجمع لا واحد له من لفظه كعباديد وأبابيل ، وقال قتادة هم الشرط[3] في كلام العرب ، وأصل الزبن الدفع ، والعرب تطلق هذا الإسم على من اشتد بطشه .

قرأ الجمهور سندع بالنون ، ولم يرسم الواو كما في قوله ﴿ يوم يدع الداع ﴾ وقرىء سيدعى على البناء للمفعول ، ورفع الزبانية على النيابة ، والسين في ﴿ سندع ﴾ ليست للشك فإنه من الله واجب لأنه ينتقم لرسوله من عدوه .

وعن ابن عباس قال « كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي ، فجاء أبو جهل فقال ألم أنهك عن هذا إنك لتعلم أن ما بها رجل أكثر نادياً مني ، فأنزل الله هذه الآية فجاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي فقيل ما يمنعك فقال

---

(١) راجع تعليق هام على هذه الأية في آخر سورة المدثر .

(٢) بكسر أوله وسكون ثانيه وكسر ثالثه وتخفيف الياء من الزبن وهو الدفع أو واحدها زبني على النسب وأصله زباني بتشديد الياء فالتاء عوض عن الياء قاله البيضاوي وفي المختار واحد الزبانية زبان أو زابان أ هـ .

(٣) وهم الشرطة (البوليس) في لغة العصر .

قد اسود ما بيني وبينه ، قال ابن عباس والله لو تحرك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه » أخرجه أحمد والترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والطبراني وغيرهم[١]

وأخرج أحمد ومسلم والنسائي والبيهقي وغيرهم عن ابي هريرة قال : قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ، قالوا نعم قال واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ليطأن على رقبته ، قال فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيده ، فقيل له مالك فقال إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً قال وأنزل الله ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ﴾ إلى آخر السورة يعني أبا جهل ﴿ فليدع ناديه ﴾ يعني قومه ﴿ سندع الزبانية ﴾ يعني الملائكة[٢] .

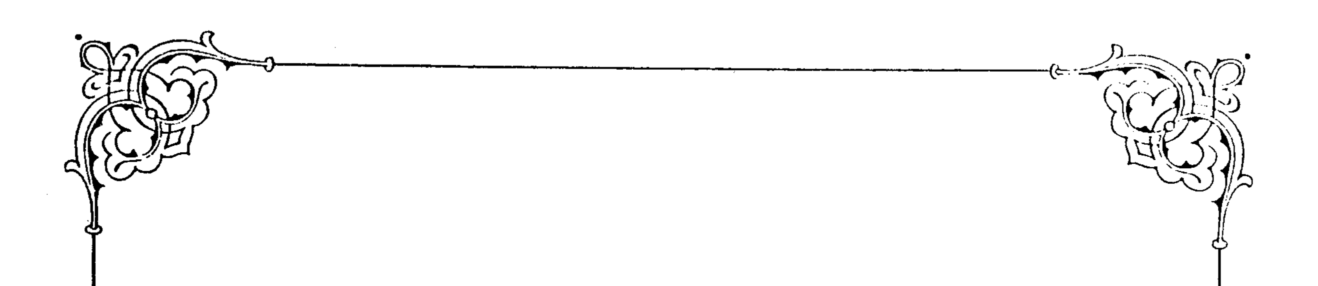
ثم كرر سبحانه الردع والزجر فقال ﴿ كلا لا تطعه ﴾ فيما دعاك إليه من ترك الصلاة ﴿ واسجد ﴾ أي صل لله غير مكترث به ولا مبال بنهيه ﴿ واقترب ﴾ أي تقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة ، وقيل المعنى إذا سجدت فاقترب من الله بالدعاء ، وقال زيد ابن أسلم واسجد أنت يا محمد واقترب أنت يا أبا جهل من النار ، والأول أولى .

والسجود هذا الظاهر أن المراد به الصلاة وعبر عنها بالسجود لأنه أفضل أركانها بعد القيام ، وقيل سجود التلاوة ، ويدل على هذا ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من السجود عند تلاوة هذه الآية ، وقد قدمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسجد في ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ وفي ﴿ اقرأ باسم ربك الذي

(١) مسلم/ ٢١٥٤ .

(٢) البخاري ٨/٥٥٧ .

خلق ﴾ وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فاكثروا من الدعاء » أخرجه مسلم [1].



سورة القدر

وهي خمس آيات ، قال المحلي أو ست آيات قال سليمان الجمل ولم يذكر غيره هذا القول من المفسرين فيما رأينا بل اقتصروا على كونها خمساً . ولعل قائل هذا القول يعد ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم ﴾ آية مستقلة ، ثم رأيت في السمين ما يشير اليه انتهى ، وهي مكّية عند أكثر المفسرين ، كذا قال الماوردي ، وقال الثعلبي هي مدنية في قول أكثر المفسرين وهو الاصح ، وذكر الواقدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة وعن ابن عباس وابن الزبير وعائشة أنها نزلت بمكة .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

﴿ إنا أنزلناه ﴾ الضمير للقرآن وإن لم يتقدم له ذكر ، عظمه حيث أسند إنزاله إليه دون غيره وجاء بضميره دون اسمه الظاهر للاستغناء عن التنبيه عليه ، ورفع مقدار الوقت الذي أنزله فيه ، والنون في إنا للتعظيم ، روي أنه أنزل جملة واحدة ﴿ في ليلة القدر ﴾ الى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ ، ثم كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، نجوماً على حسب الحاجة وكان بين نزول أوله وآخره على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثلاث وعشرون سنة .

وفي آية أخرى ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ وهي ليلة القدر ، وفي آية أخرى ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ﴾ وليلة القدر في شهر رمضان ، قال مجاهد في ليلة القدر ، ليلة الحكم .

وقد أخرج ابن الضريس وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل وغيرهم عن ابن عباس « أنزل القرآن في ليلة القدر حتى وضع في بيت العزة في السماء الدنيا ثم جعل جبريل ينزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، بجواب كلام العباد وأعمالهم » .

ومعلوم أن الإنزال مستعار للمعاني من الأجرام ، شبه نقل القرآن من اللوح الى السماء وثبوته فيها بنزول جسم من علو إلى سفل ، فعلى هذا هو مجاز مستعار قيل : سميت ليلة القدر لأن الله سبحانه يقدر فيها ما شاء من أمره

الى السنة القابلة من أمر الموت والأجل والرزق وغير ذلك .

وقيل انها سميت بذلك لعظم قدرها وشرفها ، من قولهم لفلان قدر ، أي شرف ومنزلة كذا قال الزهري : وقيل سميت بذلك لأن للطاعات فيها قدراً عظيماً وثواباً جزيلاً وقال الخليل : سميت ليلة القدر لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة كقوله ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ أي ضيق .

والأحاديث في فضل ليلة القدر كثيرة وكذا في تعيينها وليس هذا موضع بسطها وقد اختلف في تعيين ليلة القدر على أكثر من أربعين قولاً قد ذكرناها بأدلتها وبيّنا الراجح منها في شرحنا لبلوغ المرام المسمى بمسك الختام ، وذكرها الشوكاني في شرحه لمنتقى الأخبار المسمى بنيل الأوطار .

﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ في هذا الاستفهام تفخيم لشأنها حتى كأنها خارجة عن دراية الخلق لا يدريها إلا الله سبحانه ، والمعنى ما غاية فضلها ومنتهى علو قدرها . قال سفيان : كل ما في القرآن من قوله وما أدراك فقد أدراه ، وكل ما فيه من قوله ﴿ وما يدريك ﴾ فلم يدره ، وكذا قال الفراء . والمعنى أي شيء يجعلك دارياً بها .

ثم بين فضلها من ثلاثة أوجه أولها قوله ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ وهي ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، قال كثير من المفسرين : أي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، واختار هذا الفراء والزجاج ، وذلك أن الأوقات إنما يفضل بعضها على بعض بما يكون فيها من الخير والنفع ، فلما جعل الله الخير الكثير في ليلة كانت خيراً من ألف شهر لا يكون فيها من الخير والبركة ما في هذه الليلة .

وقيل أراد بقوله ألف شهر جميع الدهر لأن العرب تذكر الألف في كثير من الأشياء على طريق المبالغة ، وقيل وجه ذكر ألف شهر أن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابداً حتى يعبد الله ألف شهر ، فجعل الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ،عبادة ليلة خيراً من عبادة ألف شهر كانوا يعبدونها .

وقيل أن النبي صلى الله عليه وسلم ، رأى أعمار أمته قصيرة فخاف أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر وجعلها خيراً من ألف شهر لسائر الأمم ، وقيل غير ذلك مما لا طائل تحته .

عن أنس في الآية قال العمل في ليلة القدر والصدقة والصلاة والزكاة أفضل من ألف شهر ، وعن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أرى بني أمية على منبره فساءه ذلك فنزلت إنا أعطيناك الكوثر يا محمد يعني نهر في الجنة ونزلت ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ إلى قوله ﴿ ألف شهر ﴾ يملكها بعدك بنو أمية ، قال القاسم فعددنا فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوما ولا تنقص يوما » والمراد بالقاسم هو القاسم بن الفضل المذكور في إسناده أخرجه الترمذي وضعفه وابن جرير والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي .

قال الترمذي أن يوسف هذا مجهول يعني يوسف بن سعد الذي رواه عن الحسن بن علي ، قال ابن كثير فيه نظر فإنه قد روى عنه جماعة منهم حماد بن سلمة وخالد الحذاء ويونس بن عبيد ، وقال فيه يحيى بن معين هو مشهور وفي رواية عنه هو ثقة ، ورواه ابن جرير من طريق القاسم ابن الفضل عن عيسى بن مازن .

قال ابن كثير ثم هذا الحديث على كل تقدير منكر جداً ، قال المزني هو حديث منكر .

وقول القاسم بن الفضل أنه حسب مدة بني أمية فوجدها ألف شهر الخ ليس بصحيح فان جملة مدتهم من عند أن استقل بالملك معاوية وهي سنة أربعين إلى أن سلبهم الملك بنو العباس ، وهي سنة اثنتين وثلاثين ومائة مجموعها اثنتان وتسعون سنة ، وعن ابن عباس نحو ما روي عن الحسن بن علي ، وعن سعيد بن المسيب مرفوعاً مرسلاً نحوه .

﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم ﴾ هي مستأنفة مبينة لوجه

فضلها موضحة للعلة التي صارت بها خيراً من ألف شهر ، وهذا هو الوجه الثاني ، والمعنى متلبسين بإذن ربهم والاذن الأمر ، ومعنى تنزل تهبط من السموات إلى الأرض ، والروح هو جبريل عند جمهور المفسرين أي ومعهم جبريل ، ووجه ذكره بعد دخوله في الملائكة التعظيم له والتشريف لشأنه ، وقيل الروح صنف من الملائكة هم أشرافهم ، وقيل هم جند من جنود الله من غير الملائكة وقيل الروح الرحمة .

وقد تقدم الخلاف في الروح عند قوله ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ قرأ الجمهور تنزل بفتح التاء وقرىء بضمها على البناء للمفعول .

﴿ من ﴾ أجل ﴿ كل أمر ﴾ من الأمور التي قضى الله بها في تلك السنة ، وقيل أن من بمعنى اللام أي لكل أمر ، وقيل هي بمعنى الباء أي بكل أمر ، فهي للتعدية ، قاله أبو حاتم ، قرأ الجمهور « أمر » وهو واحد الأمور ، وقرىء امرىء مذكر امرأة أي من أجل كل إنسان ، وتأولها الكلبي على أن جبريل ينزل مع الملائكة فيسلمون على كل إنسان ، فـ ﴿ من ﴾ على هذا بمعنى على ، والأول أولى .

وقد تم الكلام عند قوله ﴿ من كل أمر ﴾ ثم ابتدأ بفضلها الثالث فقال ﴿ سلام هي ﴾ أي ما هي إلا سلامة وخير كلها لا شر فيها ، وقيل هي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن أو مؤمنة ، قال مجاهد هي ليلة سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ولا أذى .

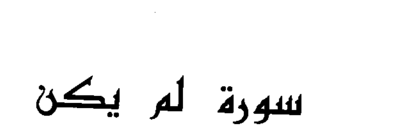
وقال الشعبي هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر ، يمرون على كل مؤمن ويقولون السلام عليك أيها المؤمن ، وقيل يعني سلام الملائكة بعضهم على بعض ، وقال عطاء يريد سلام على أولياء الله وأهل طاعته .

وعن ابن عباس في الآية قال في تلك الليلة تصفد مردة الشياطين وتغل عفاريت الجن وتفتح فيها أبواب السماء كلها ويقبل الله فيها التوبة لكل تائب ،

فلذا قال سلام هي ﴿ حتى مطلع الفجر ﴾ قـال وذلك من غـروب الشمس الى أن يطلع الفجر أي حتى وقت طلوعه .

قرأ الجمهور مـطلع بفتح الـلام ، وقرىء بكسـرها فقيـل هما لغتـان في المصدر ، والفتح أكثر نحو المخرج والمقتل ، وقيل بالفتح اسم مكان وبالكسر المصدر ، وقيل العكس و « حتى » متعلقـة بتنزل على أنهـا غايـة لحكم التنزل أي لمكثهم في محل تنزلهم بأن لا ينقطع تنزلهم فوجاً بعد فوج إلى طلوع الفجر وقيل متعلقة بسلام بناءً على أن الفصل بين المصدر ومعموله بالمبتدأ مغتفر .



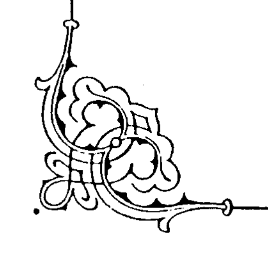


سورة لم يكن

تسمى سورة البينة، وسورة المنفكين، وسورة القيامة، وسورة البرية، هي ثمان آيات أو تسع آيات وهي مدنية في قول الجمهور. وقيل مكيّة، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس نزلت بالمدينة، وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: نزلت سورة لم يكن بمكة.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. أن يقرأ عليه.

وعن أبي حية البدري قال: «لما نزلت (لم يكن) الى آخرها قال جبريل يا رسول الله ان الله يأمرك أن تقرئها أبياً فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبيّ إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة فقال أبيّ وقد ذكرت ثَمّ يا رسول الله قال نعم فبكى»[1]، أخرجه أحمد وابن قانع في معجم الصحابة والطبراني وابن مردويه.



قيل ان أبياً كان أسرع أخذاً لألفاظ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، فأراد بقراءته صلى اللّه عليه وآله وسلم، عليه أن يأخذ ألفاظه ويقرأ كما سمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، يقرأ ويعلم غيره .

وعن اسمعيل بن أبي حكيم المزني أحد بني فضل سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، يقول : « أن اللّه يستمع قراءة ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ فيقول أبشر عبدي وعزتي وجلالي لأمكنن لك في الجنة حتى ترضى »[2] أخرجه أبو نعيم في المعرفة . قال ابن كثير حديث غريب جداً، وأخرجه أبو موسى المديني عن مطر المزني أو المدني بنحوه .

---

(١) ثَمَّ بفتح الثاء أي هناك وتأمل تجد أنه بكى خشية لله ولم يغتر .

(٢) مسلم ١٩١٥/٤ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾

﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ المراد بهم اليهود والنصارى ، ومن للبيان ﴿ والمشركين ﴾ المراد بهم مشركو العرب ، وهم عبدة الأوثان ، وقرأ ابن مسعود ﴿ لم يكن المشركون وأهل الكتاب ﴾ قال ابن العربي وهي قراءة في معرض البيان لا في معرض التلاوة .

وقرأ أبيّ : فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون ، وقرأ الأعمش والنخعي والمشركون بالرفع عطفاً على الموصول .

وسمي أهل الكتاب كفاراً مع إيمانهم بكتابهم ونبيهم لأنهم عدلوا عن الطريق المستقيم في التوحيد فكفروا بذلك ، فإنه قيل إن اليهود مجسمة وكذلك النصارى لقولهم بالتثليث ، وهذا يقتضي كفر جميع أهل الكتاب قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والظاهر خلافه ، ولذا قال الماتريدي أن (من) تبعيضية لأن منهم من آمن .

﴿ منفكين ﴾ يقال فككت الشيء فانفك أي انفصل ، والمعنى أنهم لم يكونوا مفارقين لكفرهم ولا منتهين عما هم عليه ﴿ حتى تأتيهم ﴾ أي أتتهم ﴿ البينة ﴾ أي الحجة الواضحة وقيل الانفكاك بمعنى الانتهاء وبلوغ الغاية التي لم يكونوا يبلغون نهاية أعمارهم فيموتوا حتى تأتيهم البينة .

وقيل منفكين زائلين أي لم تكن مدتهم لتزول حتى تأتيهم البينة ، يقال

ما انفك فلان قائماً أي ما زال فلان قائماً ، وأصل الفك الفتح ومنه فك الخلخال وقال الأزهري : ليس هو من باب ما انفك وما برح ، وانما هو من باب انفكاك الشيء عن الشيء وهو انفصاله عنه .

وقيل منفكين بارحين أي لم يكونوا ليبرحوا ويفارقوا الدنيا حتى تأتيهم البينة ، وقال ابن كيسان المعنى لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى بعث ، فلما بعث حسدوه وجحدوه وهو كقوله : ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ وعلى هذا فيكون معنى قوله ﴿ والمشركين ﴾ انهم ما كانوا يسيئون القول في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى بعث فإنهم كانوا يسمونه الأمين ، فلما بعث عادوه وأساؤوا القول فيه .

وقيل منفكين هالكين ، من قولهم انفك صلبه أي انفصل فلم يلتئم فيهلك ، والمعنى لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم ، وقيل إن المشركين هم أهل الكتاب فيكون وصفاً لهم لأنهم قالوا المسيح ابن الله وعزير ابن الله .

قال أبو السعود منفكين عما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق والايمان بالرسول المبعوث في آخر الزمان ، والعزم على انجازه ، وهذا الوعد من أهل الكتاب مما لا ريب فيه ، وأما من المشركين فلعله قد وقع من متأخريهم بعد ما شاع ذلك من أهل الكتاب واعتقدوا صحته بما شاهدوا من نصرتهم على أسلافهم .

وانفكاك الشيء عن الشيء أن يزيله بعد التحامه كالعظم إذا انفك من مفصله ، وفيه إشارة إلى كمال وكادة وعدهم ، انتهى ملخصاً .

قال الواحدي : ومعنى الآية إخبار الله تعالى عن الكفار انهم لم ينتهوا عن كفرهم وشركهم بالله حتى أتاهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن ، فبين لهم ضلالتهم وجهالتهم ودعاهم إلى الإيمان ، وهذا بيان عن النعمة والانقاذ به من الجهل والضلالة ، والآية فيمن آمن من الفريقين .

قال : وهذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً ، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء وسلكوا في تفسيرها طرقاً لا تفضي بهم إلى الصواب ، والوجه ما أخبرتك فاحمد الله إذ أتاك بيانها من غير لبس ولا إشكال .

قال ويدل على كون البينة محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إنه فسرها وأبدل بقوله الآتي ﴿ رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ﴾ يعني ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها وهو القرآن ، ويدل على ذلك انه كان يتلو عن ظهر قلبه لا عن كتاب ، انتهى كلامه .

وقيل إن الآية حكاية لما كان يقوله أهل الكتاب والمشركون إنهم لا يفارقون دينهم حتى يبعث النبي الموعود به ، فلما بعث تفرقوا كما حكاه الله عنهم في هذه السورة ، والمراد بالبينة على ما قاله الجمهور هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه في نفسه بينة وحجة ، ولذلك سماه ﴿ سراجاً منيراً ﴾ .

وقد فسر الله سبحانه هذه البينة المجملة بقوله ﴿ رسول من الله ﴾ فاتضح الأمر وتبين أنه المراد بالبينة ، وقال قتادة وابن زيد البينة هي القرآن كقوله ﴿ أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ﴾ وقال أبو مسلم المراد بها مطلق الرسل والمعنى حتى تأتيهم رسل من الله وهم الملائكة ، والأول أولى .

قرأ الجمهور برفع رسول على أنه بدل كل من كل على سبيل المبالغة أو بدل اشتمال ، قال الزجاج : رسول رفع على البدل من البينة ، وقال الفراء : رفع على أنه خبر مبتدأ مضمر أي هي رسول أو هو رسول ، وقرأ ابن مسعود وأبيّ رسولاً بالنصب على القطع ، وقوله ﴿ من الله ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لرسول أي كائن من الله ويجوز تعلقه بنفس رسول .

﴿ يتلو صحفاً مطهرة ﴾ صفة أخرى لرسول أو حال ، وقال أبو البقاء : التقدير يتلو صحفاً مطهرة منزلة من الله ، ومعنى يتلو يقرأ يقال تلا يتلو تلاوة ، والصحف جمع صحيفة وهي ظرف المكتوب ، ومعنى مطهرة أنها منزهة من

الزور والضلال ، قال قتادة : مطهرة من الباطل .

قال الشهاب : تطهير الصحف كناية عن كونها ليس فيها باطل على الاستعارة المصرحة أو المكنية وقيل مطهرة من الكذب والشبهات والكفر ، والمعنى واحد ، وقيل معظمة وقيل لا ينبغي أن يمسها الا المطهرون ، والأول أولى .

والمعنى أنه يقرأ ما تتضمنه الصحف والقراطيس من المكتوب فيها فالكتب بمعنى المكتوبات في القراطيس ، فالقرآن يجمع ثمرة كتب الله المتقدمة عليه ، والرسول وان كان أمياً لكنه لما تلا ما في الصحف كان كالتالي لها فصح نسبة تلاوة الصحف اليه وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب وإنما يقرأ بالوحي عن ظهر قلب .

﴿ فيها كتب ﴾ صفة لصحف من كتاب أو حال من ضميرها والمراد الآيات والأحكام المكتوبة فيها التي هي مدلول القرآن المكتوب لفظه ونقشه ﴿ قيمة ﴾ أي مستقيمة مستوية محكمة ، من قول العرب قام الشيء إذا استوى وصح ، قال صاحب النظم : الكتب بمعنى الحكم كقوله ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ أي حكم ، وقوله صلى الله عليه وسلم ، في قصة العسيف لأقضين بينكما بكتاب الله ، ثم قضى بالرجم وليس الرجم في كتاب الله فالمراد لأقضين بينكما بحكم الله ، وبهذا يندفع ما قيل أن الصحف هي الكتب ، فكيف قال ﴿ صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة ﴾ وقال الحسن يعني بالصحف التي في السماء يعني في اللوح المحفوظ كما في قوله تعالى : ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ .

﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ مستأنفة لتوبيخ أهل الكتاب وتقريعهم وبيان أن ما نسب اليهم من عدم الانفكاك لم يكن لاشتباه الأمر بل كان بعد وضوح الحق وظهور الصواب ، وأيضاً تصريح بما أفادته الغاية قبله ، وإفراد أهل الكتاب بالذكر بعد الجمع بينهم وبين

المشركين للدلالة على شناعة حالهم وإنهم لما تفرقوا مع علمهم كان غيرهم بذلك أولى ، فاقتصر عليهم لأنهم أشد جرماً ، أو أنه يعلم حال غيرهم بالطريق الأولى فهو من باب الاكتفاء .

فالمعنى وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ولا المشركون إلا من بعد الخ قال المفسرون لم يزل أهل الكتاب مجتمعين حتى بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما بعث تفرقوا في أمره واختلفوا فآمن به بعضهم وكفر آخرون .

والاستثناء مفرغ من أعم الأوقات أي وما تفرقوا في وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة ، وهي بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بالشريعة الغراء والمحجمة البيضاء أو هو صلى الله عليه وسلم ، وقيل البينة القرآن وقيل البينة هو البيان الواضح الذي في كتبهم أنه نبي مرسل كقوله ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ .

قال القرطبي قال العلماء : من أول السورة الى قوله ﴿ كتب قيمة ﴾ حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين ، وقوله ﴿ وما تفرق الذين ﴾ الخ فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب والمشركين بعد قيام الحجج .

وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

وجملة ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله ﴾ حالية مقيدة لغاية قبح ما فعلوا وتقريعهم وتوبيخهم بما فعلوا من التفرق بعد مجيء البينة أي والحال انهم ما أمروا في كتبهم إلا لأجل أن يعبدوا الله ويوحدوه ، وقيل إن اللام في ليعبدوا بمعنى أن أي ما أمروا إلا بأن يعبدوا كقوله ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ أي أن يبين ، وقوله ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله ﴾ أي أن يطفئوا ، والعبادة هي التذلل ، ومن زعم أنها الطاعة فقد أخطأ لأن جماعة عبدوا المسيح والملائكة والأصنام وما أطاعوهم ، ولكنها في الشرع صارت إسما لكل طاعة أديت له على وجه التذلل والنهاية في التعظيم .

﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي حال كونهم جاعلين دينهم خالصاً له سبحانه أو جاعلين أنفسهم خالصة له في الدين ، قرأ الجمهور مخلصين بكسر اللام ، وقرأ الحسن بفتحها .

وهذه الآية من الأدلة الدالة على وجوب النية في العبادات لأن الإخلاص في العمل من عمل القلب ، قال الكرخي : الاخلاص أن لا يطلع على عملك إلا الله سبحانه ولا تطلب منه ثوابا ، وقال الشهاب الاخلاص عدم الشرك وانه ليس بمعنى الإخلاص المتعارف .

وانتصاب ﴿ حنفاء ﴾ على الحال من ضمير مخلصين فيكون من باب

التداخل ، ويجوز أن يكون من فاعل يعبدوا ، والمعنى مائلين عن الأديان كلها إلى دين الاسلام وقيل متبعين ملة ابراهيم ، وقيل حجاجاً ، وقيل مختونين محرمين لنكاح المحارم ، وقيل الحنيف الذي آمن بجميع الأنبياء والرسل ، ولا يفرق بين أحد منهم ، والأول أولى .

وأصل الحنف في اللغة الميل وخصه العرف بالميل الى الخير ، وسموا الميل الى الشر إلحاداً .

والحنيف المطلق هو الذي يكون متبرئاً عن أصول الملل الخمسة اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين ، وعن فروعها من جميع النحل إلى الاعتقادات ، وعن توابعها من الخطأ والنسيان إلى العمل الصالح ، وهو مقام التقى ، وعن المكروهات إلى المستحبات ، وهو المقام الأول من الورع ، وعن الفضول شفقة على خلق الله وهو ما لا يعني إلى ما يعني وهو المقام الثاني من الورع ، وعما يجر الى الفضول وهو مقام الزهد فالآية جامعة لمقامي الاخلاص الناظر أحدهما إلى الحق ، والثاني إلى الخلق .

﴿ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة﴾ أي يفعلوا الصلوات في أوقاتها ويعطوا الزكاة عند محلها ، وخص الصلاة والزكاة لأنهما من أعظم أركان الدين ، قيل إن أريد بالصلاة والزكاة ما في شريعة أهل الكتاب من الصلاة والزكاة فالأمر ظاهر ، وإن أريد ما في شريعتنا فمعنى أمرهم بهما في الكتابين أمرهم باتباع شريعتنا وهما من جملة ما وقع الأمر به فيها .

﴿ وذلك ﴾ المذكور من عبادة الله وإخلاصها وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿ دين القيمة ﴾ أي دين الملة المستقيمة والشريعة المتبوعة ، قاله الزجاج ، فالقيمة صفة لموصوف محذوف ، قال الخليل القيمة جمع القيم ، والقيم القائم .

قال الفراء أضاف الدين إلى القيمة وهو نعته لاختلاف اللفظين ، وأنث القيمة رداً إلى الملة ، وقال الفراء أيضاً هو من إضافة الشيء إلى نفسه ،

ودخلت الهاء للمدح والمبالغة ، وما في الاشارة من معنى البعد للاشعار بعلو رتبته وبعد منزلته وسمو مكانته .

ثم بيّن سبحانه حال الفريقين في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا فقال ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴾ عطف على الموصول أو المجرور ، وخبر إن ﴿ في نار جهنم ﴾ أي أنهم يصيرون إليها يوم القيامة . وبدأ بأهل الكتاب لأنهم كانوا يطعنون في نبوته فجنايتهم أعظم لأنهم أنكروه مع العلم به .

﴿ خالدين فيها ﴾ حال من المستكن في الخبر ، ولم يقل خالدين فيها أبداً كما قال بعد في صفة أهل الثواب لأن رحمته أزيد من غضبه ، فلم يتفق الخلودان في الأبدية ﴿ أولئك ﴾ المذكورون من أهل الكتاب والمشركين المتصفين بالكون في نار جهنم والخلود فيها ﴿ هم شر البرية ﴾ يقال برأ أي خلق والبارىء الخالق ، والبرية الخليقة .

قرأَ الجمهور البرية في الموضعين بغير همز وقرىء بالهمز فيهما قال الفراء إن أخذت البرية من البراء وهو التراب لم تدخل الملائكة تحت هذا اللفظ ، وإن أخذتها من بريت القلم أي قدرته دخلت ، وقيل أن الهمز هو الأصل لأنه يقال برأ الله الخلق بالهمز أي ابتدعه واخترعه ، ومنه قوله ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ ولكنها خففت الهمزة والتزم تخفيفها عند عامة العرب ، وظاهر الآية العموم ، وقيل شر البرية الذين عاصروا الرسول إذ لا يبعد أن يكون في كفار الأمم من هو شر من هؤلاء كفرعون وعاقر ناقة صالح (عليه السلام).

وشر البرية أفعل تفضيل أي لأنهم يخفون من كتاب الله صفة محمد وأشر من قطاع الطريق لأنهم قطعوا طريق دين الحق على الخلق ، وأشر من الجهال لأن الكفر مع العلم يكون عناداً ، وهذا فيه تنبيه على أن وعيد علماء السوء أعظم من وعيد كل أحد .

ثم بيّن سبحانه حال الفريق الآخر فقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي جمعوا بين الايمان والعمل الصالح ﴿ أولئك ﴾ المنعوتون

بهذا ﴿ هم خير البرية ﴾ أي في عصره صلى الله عليه وسلم ، ولا يبعد أن يكون في مؤمني الأمم السالفة من هو خير منهم .

وعن أبي هريرة قال أتعجبون من منزلة الملائكة من الله ، والذي نفسي بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من منزلة ملك . واقرأوا إن شئتم ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ الآية .

وعن عائشة قالت : قلت يا رسول الله من أكرم الخلق على الله قال : يا عائشة أما تقرأين ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ الآية : أخرجه ابن مردويه :

وعن جابر بن عبد الله قال : « كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فأقبل علي فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة ونزلت ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ الآية فكان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، إذا أقبل قالوا قد جاء خير البرية » أخرجه ابن عساكر .

وعن ابن عباس قال : « لما نزلت هذه الآية قال رسول الله لعلي هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين » أخرجه ابن مردويه ، وأخرج الضياء عن علي مرفوعاً نحوه .

وأخرج ابن عدي وابن عساكر عن أبي سعيد مرفوعاً « عليّ خير البرية » وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ألا أخبركم بخير البرية قالوا بلى يا رسول الله قال رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، كلما كانت هيعة استوى عليه . ألا أخبركم بشر البرية قالوا بلى قال الذي يسأل بالله ولا يعطي به » أخرجه أحمد .

﴿ جزاؤهم عند ربهم ﴾ أي ثوابهم عند خالقهم بمقابلة ما وقع منهم من الإيمان والعمل الصالح ﴿ جنات عدن ﴾ هذا من مقابلة الجمع بالجمع وهو يقتضي انقسام الآحاد على الآحاد فيكون لكل واحد جنة ، وقيل الجمع باق على حقيقته وأن لكل واحد جنات كما يدل عليه قوله ﴿ ولمن خاف مقام ربه

جنتان ﴾ ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ فذكر للواحد أربع جنات وأدنى تلك الجنات مثل الدنيا بما فيها عشر مرات .

والمراد بجنات عدن هي أوسط الجنات وأفضلها يقال عدن بالمكان يعدن عدناً أي أقام ومعدن الشيء مركزه ومستقره ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ الأربعة وهي الخمر والماء والعسل واللبن ، وقد قدمنا في غير موضع انه إن أريد بالجنات الأشجار الملتفة فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ، وإن أريد مجموع قرار الأرض والشجر فجري الأنهار من تحتها باعتبار جزئها الظاهر وهو الشجر .

﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ لا يخرجون منها ولا يظعنون عنها بل هم دائمون في نعيمها مستمرون في لذاتها .

وجملة ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ مستأنفة لبيان ما تفضل الله به عليهم من الزيادة على مجرد الجزاء وهو رضوانه عنهم حيث أطاعوا أمره ، وقبلوا شرائعه ، ورضاهم عنه حيث بلغوا من المطالب « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ويجوز أن تكون الجملة خبراً ثانياً وأن تكون في محل نصب على الحال بإضمار قد .

﴿ ذلك لمن خشي ربه ﴾ أي ذلك الجزاء والرضوان لمن وقعت منه الخشية لله سبحانه في الدنيا وانتهى عن معاصيه بسبب تلك الخشية التي وقعت له لا مجرد الخشية مع الانهماك في معاصي الله سبحانه فانها ليست بخشية على الحقيقة .



سورة الزلزلة

هي ثمان أو تسع آيات . وهي مدنية في قول ابن عباس وقتادة ، ومكية في قول ابن مسعود وعطاء وجابر .

عن عبد الله بن عمرو قال أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « أقرئني يا سول الله قال اقرأ ثلاثاً من ذوات آلر فقال الرجل كبر سني واشتد قلبي وغلظ لساني . قال اقرأ ثلاثاً من ذوات حمٓ فقال مثل مقالته الاولى . فقال اقرأ ثلاثاً من المسبحات فقال مثل مقالته الاولى وقال ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة فأقرأه اذا زلزلت الارض حتى فرغ منها قال الرجل والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أفلح الرويجل . أفلح الرويجل » أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي ومحمد بن نصر والحاكم وصححه والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب .

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ اذا زلزلت الارض عدلت له بنصف القرآن . ومن قرأ قل هو الله أحد عدلت له بثلث القرآن . ومن قرأ قل يا أيها الكافرون عدلت له بربع القرآن . أخرجه الترمذي وابن مردويه والبيهقي .

وعن ابن عباس قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم اذا زلزلت الأرض تعدل نصف القرآن ، وقل هو اللّه أحد تعدل ثلث القرآن ، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن ، أخرجه الترمذي وابن الضريس ومحمد بن نصر والحاكم وصححه والبيهقي ، قال الترمذي غريب لا نعرفه الا من حديث يمان بن المغيرة .

وأخرج الترمذي عن أنس أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال لرجل من أصحابه «هل تزوجت يا فلان قال : لا واللّه يا رسول اللّه ولا عندي ما أتزوج به، قال: أليس معك قل هو اللّه أحد قال بلى، قال ثلث القرآن،قال أليس معك اذا جاء نصر اللّه والفتح ، قال بلى ، قال ربع القرآن ، قال أليس معك قل يا أيها الكافرون ، قال بلى قال ربع القرآن ، قال أليس معك اذا زلزلت الأرض ؟ قال بلى ، قال ربع القرآن ، تزوج » قال الترمذي هذا حديث حسن .

وعن أبي هريرة قال سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : « من قرأ في ليلة اذا زلزلت كان له عدل نصف القرآن » أخرجه ابن مردويه .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٦﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ أي إذا حركت حركة شديدة وجواب الشرط «تحدث» والمراد تحركها عند قيام الساعة فإنها تضطرب من شدة صوت إسرافيل حتى ينكسر كل شيء عليها ، قال مجاهد وهي النفخة الأولى لقوله تعالى ﴿ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ﴾ .

وفي الخازن في وقت هذه الزلزلة قولان :

(أحدهما) وهو قول الأكثرين أنها في الدنيا وهي من أشراط الساعة .

(والثاني) أنها زلزلة يوم القيامة إنتهى .

ويؤيد القول الثاني قوله تعالى ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ فإن الإخراج إنما هو في النفخة الثانية ، وكذا شهادتها بما وقع عليها إنما هو بعد النفخة الثانية ، وكذلك إنصراف الناس من الموقف إنما يكون بعد الثانية تأمل .

وذكر المصدر للتأكيد ثم أضافه إلى الأرض فهو مصدر مضاف إلى فاعله والمعنى زلزالها المخصوص الذي يستحقه ويقتضيه جرمها وعظمها ، قرأ الجمهور زلزالها بكسر الزاي ، وقرىء بفتحها وهما مصدران بمعنى . وقيل المكسور مصدر . والمفتوح إسم قال القرطبي : والزلزال بالفتح مصدر كالوسواس والقلقال ، قال ابن عباس في الآية أي تحركت من أسفلها .

« ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ » أي ما في جوفها من الأموات والدفائن ، والأثقال جمع ثقل . قال أبو عبيدة والأخفش إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها ، وإذاكان فوقها فهو ثقل عليها ، قال مجاهد أثقالها موتاها تخرجهم في النفخة الثانية ، وقد قيل للجن والإنس الثقلان ، وإظهار الأرض في موضع الإضمار لزيادة التقرير قال ابن عباس : أثقالها الموتى والكنوز .

وأخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي . ويجيء السارق فيقول في هذا قطعت يدي . ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً » .

﴿ وقال الإنسان ما لها ﴾ أي قال كل فرد من أفراد الإنسان ما لها زلزلت ، لما يدهمه من أمرها ويبهره من خطبها ، وقيل المراد بالإنسان الكافر ، وقوله ما لها مبتدأ وخبر ، وفيه معنى التعجب أي أيّ شيء لها أو لأي شيء زلزلت وأخرجت أثقالها . قال ابن عباس الكافر يقول ما لها .

وقوله ﴿ يومئذ ﴾ بدل من إذا والعامل فيهما قوله ﴿ تحدث أخبارها ﴾ ويجوز أن يكون العامل في إذا محذوفاً والعامل في يومئذ تحدث ، والمعنى يوم إذا زلزلت وأخرجت تخبر بأخبارها وتحدثهم بما عمل عليها من خير وشر ، وذلك إما بلسان الحال حيث يدل على ذلك دلالة ظاهرة أو بلسان المقال بأن ينطقها الله سبحانه ، وقيل هذا متصل بقوله ﴿ وقال الإنسان ما لها ﴾ أي قال ما لها تحدث أخبارها متعجباً من ذلك .

وقال يحيى بن سلام تحدث أخبارها بما أخرجت من أثقالها ، وقيل تحدث بقيام الساعة وأنها قد أتت ، وأن الدنيا قد انقضت ، قال ابن جرير تبين أخبارها بالرجفة والزلزلة وإخراج الموتى ، ومفعول تحدث الأول محذوف ، والثاني هو أخبارها أي تحدث الخلق أخبارها .

عن أبي هريرة قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال « أتدرون ما أخبارها ، قالوا الله ورسوله أعلم ، قال فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، تقول عمل كذا وكذا فهذا أخبارها ». أخرجه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وغيرهم[1] .

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن الأرض لتجيء يوم القيامة بكل عمل عُمِلَ على ظهرها . وقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ حتى بلغ ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ أخرجه ابن مردويه والبيهقي .

وعن ربيعة الجرشي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « تحفظوا من الأرض فإنها أمكم وأنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة » أخرجه الطبراني .

﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ متعلق بتحدث أو بنفس أخبارها والباء زائدة ، وقيل سببية أي بسبب إيحاء الله إليها ، قال الفراء تحدث أخبارها بوحي الله وإذنه لها ، واللام في لها بمعنى (إلى) وإنما أوثرت على (إلى) لموافقة الفواصل ، والعرب تضع لام الصفة موضع إلى ، كذا قال أبو عبيدة .

وقيل إن أوحى يتعدى باللام تارة وبإلى أخرى ، وقيل إن اللام على بابها من كونها العلة والموحى إليه محذوف وهو الملائكة ، والتقدير أوحى إلى الملائكة لأجل الأرض أي لأجل ما يفعلون فيها ، والأول أولى .

وقوله ﴿ يومئذ ﴾ إما بدل من يومئذ الذي قبله ، وإما منصوب بمقدر هو أذكر ، وإما منصوب بما بعده والمعنى يوم إذ يقع ما ذكر ﴿ يصدر الناس ﴾ من قبورهم إلى موقف الحساب ﴿ أشتاتاً ﴾ أي متفرقين ، والصدر الرجوع ، وهو ضد الورود ، وقيل يصدرون من موضع الحساب إلى الجنة أو النار ،

---

(١) الترمذي ٢ /١٧١ .

وانتصاب أشتاتاً على الحال والمعنى أن بعضهم آمن وبعضهم خائف، وبعضهم بلون أهل الجنة وهو البياض، وبعضهم بلون أهل النار وهو السواد، وبعضهم ينصرف إلى جهة اليمين وبعضهم إلى جهة الشمال مع تفرقهم في الأديان وإختلافهم في الأعمال.

﴿ليروا أعمالهم﴾ متعلق بيصدر وقيل فيه تقديم وتأخير أي تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها ليروا أعمالهم يومئذ يصدر الناس أشتاتاً. قرأ الجمهور ليروا مبنياً للمفعول وهو من رؤية البصر أي ليريهم الله أعمالهم، وقرىء مبنياً للفاعل والمعنى ليروا جزاء أعمالهم.

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ أي وزن نملة وهي أصغر ما يكون من النمل. قرأ الجمهور يره في الموضعين بضم الهاء وصلاً وسكونها وقفاً وقرأ هشام بسكونها وصلاً ووقفاً.

وقرأ الجمهور أيضاً مبنياً للفاعل في الموضعين، وقرىء على البناء للمفعول فيهما أي يريه الله إياه، وقرىء يراه على توهم أن من موصولة أو على تقدير الجزم بحذف الحركة المقدرة في الفعل.

قال مقاتل: فمن يعمل في الدنيا مثقال ذرة خيراً يره يوم القيامة في كتابه فيفرح به، وكذلك من يعمل مثقال ذرة في الدنيا شراً يره يوم القيامة فيسوؤه، ومثل هذه الآية قوله ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾.

وقال بعض أهل اللغة أن الذرة هو أن يضرب الرجل بيده على الأرض فما علق من التراب فهو ذرة، وقيل الذر ما يرى في شعاع الشمس من الهباء، والأول أولى.

و «من» الأولى عبارة عن السعداء، ومن الثانية عبارة عن الأشقياء، وقال محمد بن كعب فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر فيرى ثوابه في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وماله

وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر ، والأول أولى .

قال مقاتل نزلت في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة ، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير كالكذبة والغيبة والنظرة ويقول إنما أوعد الله النار على الكفارين .

قال ابن مسعود : هذه الآية أحكم آية في القرآن وأصدق ، وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية .

قال كعب الأحبار لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم آيتان أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف ﴿ فمن يعمل ﴾ إلخ .

وروى محيي السنة : عن ابن عباس ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً كان أو شراً إلا أراه الله تعالى : فأما المؤمن فيغفر له سيئآته ويثيبه بحسناته ، وأما الكافر فترد حسناته تحسراً ويعذب بسيئآته، وهذا الإحتمال يساعده النظم والمعنى .

عن أنس قال بينما أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يأكل مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ نزلت عليه ﴿ فمن يعمل ﴾ إلخ فرفع أبو بكر يده وقال يا رسول الله « إني لراء ما عملت من مثقال ذرة من شر ، فقال يا أبا بكر أرأيت ما ترى في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ، ويدخر لك ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة » أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والحاكم في تاريخه وابن مردويه والبيهقي في الشعب .

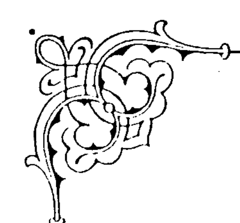
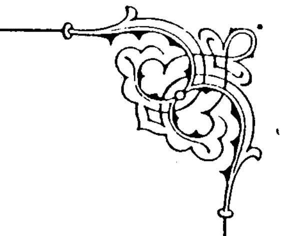
عن أبي أسماء قال بينما أبو بكر يتغدى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نزلت هذه الآية فأمسك أبو بكر وقال يا رسول الله ما عملنا من شر رأيناه فقال ما ترون مما تكرهون فذاك مما تجزون ، ويؤخر الخير لأهله في الآخرة . أخرجه إسحق بن راهويه وعبد بن حميد والحاكم وابن مردويه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال أنزلت إذا زلزلت وأبو بكر الصديق قاعد فبكى فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يبكيك يا

أبا بكر قال تبكيني هذه السورة فقال« لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر لكم لخلق الله قوماً يخطئون ويذنبون فيغفر لهم» . أخرجه ابن أبي الدنيا وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب .

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الخيل لثلاثة لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر ، الحديث قال.

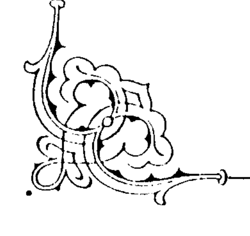
وسئل عن الحمر[٢] فقال ما أنزل عليّ إلا هذه الآية الجامعة الفاذة، ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾. أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

سورة العاديات

في إحدى عشرة آية وهي مكية في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء، ومدنية في قول ابن عباس وأنس بن مالك وقتادة.

وعن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن والعاديات تعدل نصف القرآن» وهو مرسل، اخرجه ابو عبيدة في فضائله، وعن ابن عباس مرفوعاً مثله، أخرجه محمد بن نصر من طريق عطاء بن أبي رباح وزاد «وقل هو الله احد تعدل ثلث القرآن، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن».





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١)

﴿ والعاديات ﴾ جمع عادية وهي الجارية بسرعة من العدو ، وهو المشي بسرعة فقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها كالغازيات من الغزو ، والمراد بها الخيل العادية في الغزو نحو العدو ، و﴿ ضبحاً ﴾ مصدر مؤكد لإسم الفاعل فإن الضبح نوع من السير ونوع من العدو ، ويقل ضبح الفرس إذا عدا بشدة مأخوذ من الضبح وهو الدفع ، وكأن الحاء بدل من العين ، قال أبو عبيدة والمبرد الضبح من اضباعها في السير .

ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال أي ضابحات أو ذوات ضبح ، ويجوز أن يكون مصدراً لفعل محذوف أن يضبح ضبحاً . وقيل الضبح صوت حوافرها إذا عدت . وقال الفراء الضبح صوت أنفاس الخيل إذا عدت قيل كانت تكمم لئلا تصهل فيعلم العدو ، فكانت تتنفس في هذه الحالة بقوة .

وقيل الضبح صوت يسمع من صدور الخيل عند العدو وليس بصهيل .

وقد ذهب الجمهور إلى ما ذكرنا من أن العاديات ضبحاً هي الخيل ، وقال عبيد ابن عمير ومحمد بن كعب والسدي هي الإبل ، ونقل أهل اللغة إن أصل الضبح للثعلب فاستعير للخيل .

قال ابن عباس بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خيلاً فاستمرت شهراً لا يأتيه منها خبر ، فنزلت ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ ضبحت بأرجلها وفي

لفظ ضبحت بمناخرها وعنه قال بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سرية إلى العدو فأبطأ خبرها فشق ذلك عليه فأخبره الله خبرهم وما كان من أمرهم فقال ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ قال هي الخيل والضبح نخير الخيل حين تنخر .

وعنه قال هي الخيل في القتال وضبحها حين ترخي مشافرها إذا عدت ، وعن ابن مسعود قال هي الإبل ، قال إبراهيم النخعي قال علي هي الإبل ، وقال ابن عباس هي الخيل ، فبلغ علياً قول ابن عباس فقال ما كانت لنا خيل يوم بدر ، قال ابن عباس إنما كانت تلك في سرية بعثت .

وعن عامر الشعبي قال تمارى علي وابن عباس في العاديات ضبحاً فقال ابن عباس هي الخيل[1] وقال علي كذبت يا ابن فلانة والله ما كان معنا يوم بدر فارس إلا المقداد كان على فرس أبلق ، قال وكان يقول هي الإبل فقال ابن عباس ألا ترى أنها تثير نقعاً فما شيء يثير إلا بحوافرها ، وعن ابن عباس قال هي الخيل في القتال وعن ابن مسعود قال في الحج ، وعن ابن عباس ليس شيء من الدواب يضبح إلا الكلب أو الفرس ، وقد روي عنه بطرق أنه الخيل ، وعنه قال الخيل ضبحها زخيرها ألم تر أن الفرس إذا عدا قال اح اح

---

(١) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال بينما أنا في الحجر جالس إذ أتاني رجل يسأل عن العاديات ضبحاً فقلت الخيل حين تغير في سبيل الله ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم ويورون نارهم فانفتل عني فذهب إلى علي بن أبي طالب وهو جالس تحت سقاية زمزم فسأله عن العاديات ضبحاً فقال سألت عنها أحداً قبلي ؟ قال : نعم سألت عنها ابن عباس فقال هي الخيل حين تغير في سبيل الله فقال اذهب فادعه لي ، فلما وقفت على رأسه قال تفتي الناس بما لا علم لك ، والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير ، وفرس للمقداد بن الأسود ، فكيف يكون العاديات ضبحاً إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة فإذا أووا إلى المزدلفة أوقدوا النيران ، والمغيرات صبحاً من المزدلفة إلى منى فذلك جمع ، وأما قوله فأثرن به نقعاً فهي نقع الأرض حتى تطؤه بأخفافها وحوافرها قال ابن عباس فنزعت من قولي ورجعت إلى الذي قال علي رضي الله عنه ، ذكره الشوكاني رحمه الله في فتح القدير انتهى سيد ذو الفقار أحمد .

فذلك ضبحها ، وعن علي قال الضبح من الخيل الحمحمة ومن الإبل النفس .

﴿ فالموريات قدحاً ﴾ هي الخيل حين توري النار بسنابكها ، والإيراء إخراج النار ، والقدح الصك ، فجعل ضرب الخيل بحوافرها كالقدح بالزناد .

قال الزجاج : إذا عدت الخيل بالليل وأصاب حوافرها الحجارة انقدح منها النيران والكلام في انتصاب قدحاً كالكلام في انتصاب ضبحاً والخلاف في كونها الخيل أو الإبل كالخلاف الذي تقدم في العاديات ، والراجح أنها الخيل كما ذهب إليه الجمهور ، وكما هو الظاهر من هذه الأوصاف المذكورة في هذه السورة ما تقدم منها وما سيأتي فإنها في الخيل أوضح منها في الإبل ، وتقدم ما في ذلك من الخلاف بين الصحابة .

قال ابن عِباس في الآية قدحت بحوافرها الحجارة ، وعنه قال حين تجَرْي الخيل توري ناراً أصابت سنابكها الحجارة ، وعنه قال الرجل إذا أورى زنده ، وعنه قال هو مكر الرجل قدح فأورى ، وقال ابن مسعود إذا سفت الحصى بمناسمها فضرب الحصى بعضه بعضاً فتخرج منه النار .

﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ أي التي تغير على العدو وقت الصباح ، يقال أغار يغير إغارة إذا باغت عدوه لقتل أو أسر أو نهب ، وأسند الإغارة إليها وهي لأهلها للإشعار بأنها عمدتهم في إغارتهم ، وصبحاً منصوب على الظرفية قال ابن عباس صبحت القوم بغارة .

وعنه قال هي الخيل أغارت فصبحت العدو ، وعنه قال إذا أصبحت العدو ، وعنه قال الخيل تصبح العدو ، وقال أيضاً غارت الخيل صبحاً ، وقال ابن مسعود حين يفيضون من جمع ، وإنما أقسم الله عز وجل بخيل الغزاة تنبيهاً على فضلها وفضل رباطها في سبيل الله ، ولما فيها من المنافع الدينية والدنيوية والأجر والغنيمة .

﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ معطوف على الفعل الذي دل عليه اسم الفاعل إذ المعنى واللاتي غدرن فأثرن أو على إسم الفاعل نفسه لكونه في تأويل الفعل لوقوعه صلة للموصول فإن الألف واللام في الصفات أسماء موصولة ، فالكلام في قوة واللاتي غدرن فأورين فأغرن فأثرن ، والنقع الغبار الذي أثارته في وجه العدو عند الغزو .

وتخصيص إثارته بالصبح لأنه وقت الإغارة ولكونه لا يظهر أثر النقع في الليل الذي اتصل به الصبح . وقيل المعنى فأثرن بمكان عدوهن نقعاً يقال ثار النقع وأثرته أي هاج وهيجته .

قرأ الجمهور فأثرن بتخفيف الثاء وقريء بتشديدها أي فأظهرن غباراً ، وقال أبو عبيدة النقع رفع الصوت ، وعلى هذا رأيت قول أكثر أهل العلم ، انتهى .

والمعروف عند جمهور أهل اللغة والمفسرين أن النقع الغبار ، وهذا هو المناسب لمعنى الآية وليس لتفسير النقع بالصوت فيها كثير معنى ، فإن قولك أغارت الخيل على بني فلان صبحاً فأثرن به صوتاً قليل الجدوى مغسول المعنى ، بعيد من بلاغة القرآن المعجزة .

وقيل النقع شق الجيوب ، وقال محمد بن كعب النقع ما بين مزدلفة إلى منى ، وقيل أنه طريق الوادي ، قال في الصحاح النقع الغبار والجمع انقاع والنقع محبس الماء وكذلك ما اجتمع في البئر منه . والنقع الأرض الحرة الطين يستنقع فيها الماء .

قال ابن عباس في الآية أثارت بحوافرها التراب وقال أيضاً هي الخيل أثرن بحوافرها يقول بعدو الخيل والنقع الغبار . وعنه قال التراب وقال أيضاً نقعاً غباراً وقال ابن مسعود إذا سرن يثرن التراب .

﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ أي توسطن بذلك الوقت أو توسطن متلبسات بالنقع جمعاً من جموع الأعداء أو صرن بعدوهن وسط جمع الأعداء ، والباء إما

للتعدية أو للحالية أو زائدة يقال وسطت القوم والمكان أسط وسطاً من باب وعد إذا توسطت بين ذلك . والفاعل واسط وبه سمي البلد المشهور بالعراق لأنه توسط الإقليم . تقول جلست وسط القوم بالتسكين لأنه ظرف وجلست وسط الدار بالتحريك لأنه اسم لما يكتنفه غيره من جهاته .

وكل موضع صلح فيه بين فهو وسط بالسكون وإن لم يصلح فيه بين فهو وسط بالتحريك ، وربما سكن وليس بالوجه ، و ﴿جمعاً﴾ مفعول به ، والفاآت في المواضع الأربعة للدلالة على ترتب ما بعد كل واحدة منها على ما قبلها .

قرأ الجمهور فوسطن بتخفيف السين وقرىء بالتشديد قال ابن عباس في الآية صبحت القوم جميعاً وفي لفظ الجمع العدو وفي لفظ إذا توسطت العدو ، وفي لفظ جمع العدو .

﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ هذا جواب القسم والمراد بالإنسان بعض أفراده وهو الكافر والكنود الكفور للنعمة ، وقوله لربه متعلق بكنود قدم لرعاية الفواصل وقيل هو الجاحد للحق ، وقيل الكنود مأخوذ من الكند وهو القطع كأنه قطع ما ينبغي أن يواصله من الشكر ، يقال كند الحبل إذا قطعه ، وقيل الكنود البخيل بلغة بني مالك وقيل الحسود وقيل الجهول لقدره ، وقيل العاصي بلغة كند .

وتفسير الكنود بالكفور للنعمة أولى بالمقام والجاحد للنعمة كافر لها ، ولا يناسب المقام سائر ما قيل . وعن ابن عباس قال الكنود بلساننا أهل البلد الكفور . وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الكنود الكفور » أخرجه ابن عساكر وعنه قال : « الكنود الذي يمنع رفده وينزل وحده ويضرب عبده »[1] ، وروي نحوه مرفوعاً عنه وسنده ضعيف . والموقوف أصح .

---

(١) الطبري ٣٠/٢٧٨ .

﴿ وإنه على ذلك ﴾ أي وأن الإنسان على كنوده ﴿ لشهيد ﴾ يشهد على نفسه به لظهور أثره عليه ، وقيل المعنى وإن الله جل ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد ؛ وبه قال الجمهور؛ وقال بالأول الحسن وقتادة ومحمد بن كعب؛ وهو أرجح من قول الجمهور لقوله ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ فإن الضمير راجع إلى الإنسان والمعنى أنه لحب المال قوي مجد في طلبه وتحصيله متهالك عليه .

يقال هو شديد لهذا الأمر وقوي له . إذا كان مطيقاً له . ومنه قوله تعالى ﴿ إن ترك خيراً ﴾ وقيل المعنى وإن الإنسان من أجل حب المال لبخيل والأول أولى ، واللام في ﴿ لحب ﴾ متعلقة بشديد ، قال ابن زيد سمى الله المال خيراً وعسى أن يكون شراً ولكن الناس يجدونه خيراً فسماه خيراً .

قال الفراء أصل نظم الآية أن يقال وإنه لشديد الحب للخير ، فلما قدم الحب قال لشديد وحذف من آخره ذكر الحب لأنه قد جرى ذكره ولرؤوس الآي كقوله ﴿ في يوم عاصف ﴾ والعصوف للريح لا لليوم كأنه قال في يوم عاصف الريح ، قال ابن عباس الخير المال .

﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ﴾ الإستفهام للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أيفعل ما يفعل من القبائح فلا يعلم ، وهذا تهديد ووعيد ، وبعثر معناه نثر وبحث أي نثر ما في القبور من الموتى وبحث عنهم وأخرجوا قال أبو عبيدة : بعثرت المتاع جعلت أسفله أعلاه ، وقال الفراء سمعت بعض العرب من بني أسد يقول بحثر بالحاء مكان العين ، وقد تقدم الكلام على هذا في قوله ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ .

﴿ وحصل ما في الصدور ﴾ أي ميز وبين ما فيها من الخير والشر ، والتحصيل التمييز ، كذا قال المفسرون ،وقيل حصل أبرز ، قرأ الجمهور حصل بضم الحاء وتشديد الصاد مكسوراً مبنياً للمفعول ، وقريء حصل بفتح

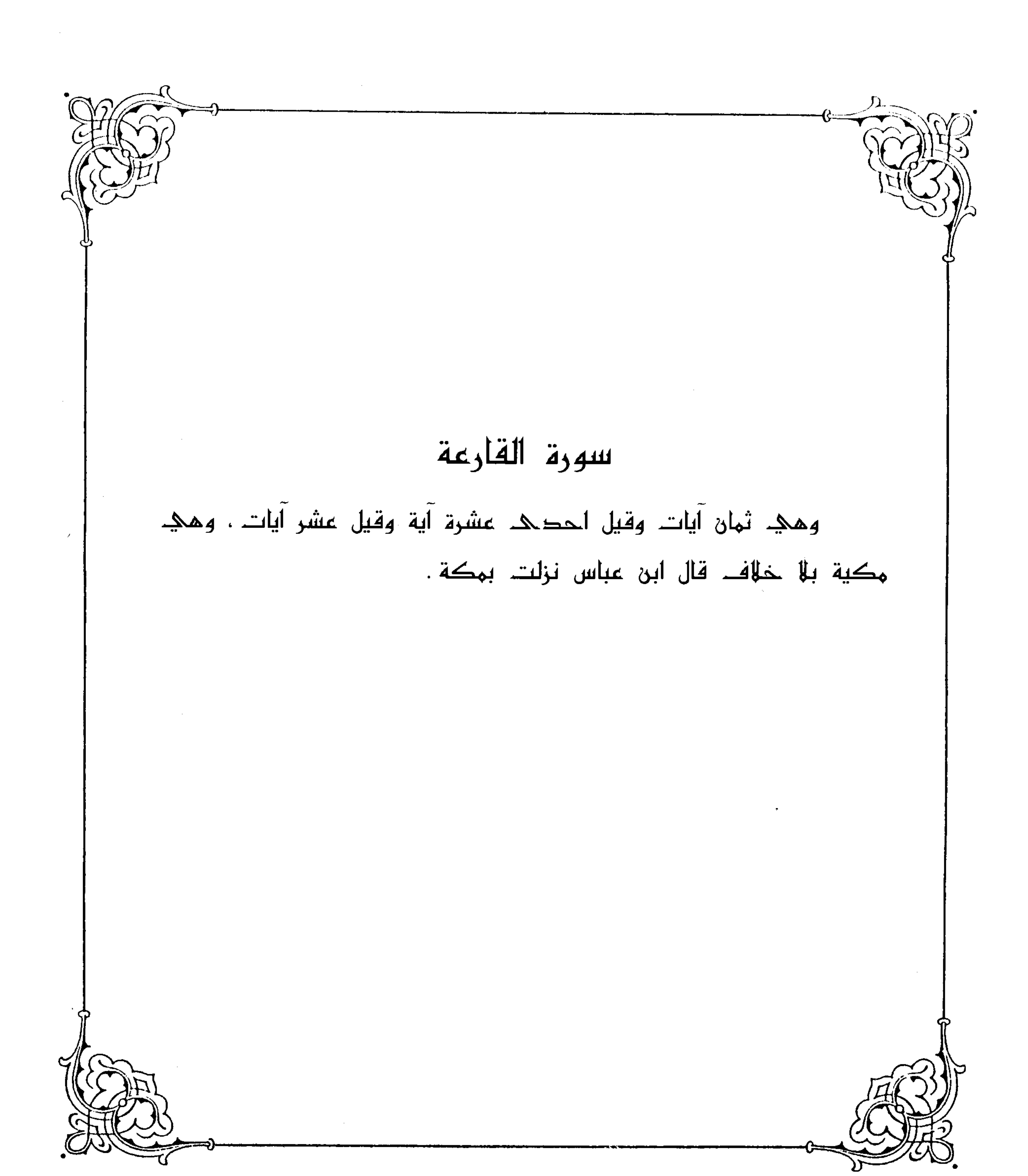
الحاء وتخفيف الصاد مبنياً للفاعل أي ظهر ، قال ابن عباس : بعثر بحث ، وحصل أبرز .

والمعنى أخرج وجمع بغاية السهولة ما في الصدور من خير وشر مما يظن مضمره إنه لا يعلمه أحد أصلاً وظهر مكتوباً في صحائف الأعمال ، وهذا يدل على أن الإنسان يحاسب بها كما يحاسب على ما يظهر من آثارها وخص أعمال القلوب بالذكر ، وترك ذكر أعمال الجوارح لأنها تابعة لأعمال القلوب ، فإنه لولا تحقق البواعث والإرادات في القلوب لما حصلت أفعال الجوارح .

﴿ إن ربهم ﴾ أي إن رب المبعوثين ﴿ بهم يومئذ لخبير ﴾ لا تخفى عليه خافية فيجازيهم بالخير خيراً وبالشر شراً ، قال الزجاج الله خبير بهم في ذلك اليوم وفي غيره ولكن المعنى أن الله يجازيهم على كفرهم في ذلك اليوم ، ومثله قوله تعالى ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم ، معناه أولئك الذين لا يترك الله مجازاتهم .

قال الإمام دلت الآية على أنه تعالى عالم بالجزئيات الزمانيات وغيرها لأنه تعالى نص على كونه عالماً بكيفية أحوالهم في ذلك اليوم ، فكيف لا يكون منكره كافراً ذكره الكرخي .

قرأ الجمهور بكسر إن وباللام في الخبير ، وقرأ أبو السماك بفتح الهمزة وإسقاط اللام .



سورة القارعة

وهي ثمان آيات وقيل احدى عشرة آية وقيل عشر آيات ، وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

﴿ القارعة ﴾ هي من أسماء القيامة ، قاله ابن عباس لأنها تقرع القلوب بالفزع ، وتقرع أعداء الله بالعذاب . والعرب تقول قرعتهم القارعة إذا وقع بهم أمر فظيع . وقيل أصل القرع الصوت الشديد ، ومنه قوارع الدهر ، وسميت قارعة بصوت إسرافيل لأنه إذا نفخ في الصور مات جميع الخلائق من شدة صوت نفخته وهي مبتدأ وخبره ﴿ ما القارعة ﴾ .

قرأ الجمهور بالرفع وقريء بنصبها على تقدير احذروا القارعة ، والإستفهام للتفخيم والتعظيم لشأنها كما تقدم بيانه في قوله ﴿ الحاقة ما الحاقة ﴾ وقيل معنى الكلام على التحذير .

قال الزجاج والعرب تحذر وتغري بالرفع كالنصب ، والحمل على معنى التفخيم والتعظيم أولى ويؤيده وضع الظاهر موضع المضمر ، فإنه أدل على هذا المعنى ويؤيده أيضاً قوله :

﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ فإنه تأكيد لشدة هولها ومزيد فظاعتها حتى كأنها خارجة عن دائرة علوم الخلق بحيث لا تنالها دراية أحد منهم ، وما الإستفهامية مبتدأ وإدراك خبرها ، وما القارعة مبتدأ وخبر ، والجملة في محل نصب على أنها المفعول الثاني ، والمعنى وأي شيء أعلمك ما شأن القارعة .

ثم بين سبحانه متى تكون القارعة فقال ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ إنتصاب الظرف بفعل محذوف تدل عليه القارعة أي تقرعهم يوم يكون إلخ ، ويجوز أن يكون منصوباً بتقدير أذكر .

وقال ابن عطية ومكي وأبو البقاء هو منصوب بنفس القارعة وقيل هو خبر مبتدأ محذوف وإنما نصب لإضافته إلى الفعل ، فالفتحة فتحة بناء لا فتحة إعراب أي هي يوم يكون إلخ وقيل التقدير ستأتيكم القارعة يوم يكون إلخ .

وقرأ زيد بن علي برفع يوم على الخبرية للمبتدأ المقدر . والفراش الطير الذي تراه يتساقط في النار والسراج ، الواحدة فراشة كذا قال أبو عبيدة وغيره .

قال الفراء الفراش هو الطائر من بعوض وغيره ومنه الجراد قال وبه يضرب المثل في الطيش والهوج ، يقال أطيش من فراشة .

والمراد بالمبثوث المتفرق المنتشر يقال بثه إذا فرقه . ومثل هذا قوله سبحانه في آية أخرى ﴿ كأنهم جراد منتشر ﴾ .

وقال المبثوث ولم يقل مبثوثة لأن الكل جائز كما في قوله ﴿ أعجاز نخل منقعر ﴾ ﴿ أعجاز نخل خاوية ﴾ وقد تقدم بيان وجه ذلك .

وفي تشبيه الناس بالفراش مبالغات شتى منها الطيش الذي يلحقهم وإنتشارهم في الأرض وركوب بعضهم بعضاً . والكثرة والضعف والتذلل إجابة الداعي من كل جهة والتطاير إلى النار .

﴿ وتكون الجبال ﴾ بعد أن تتفتت كالرمل السائل ﴿ كالعهن المنفوش ﴾ ي كالصوف الملون بالألوان المختلفة الذي نفش بالندف . والعهن عند أهل اللغة الصوف المصبوغ بالألوان المختلفة ، وقد تقدم بيان هذا في سورة ﴿ سأل سائل ﴾ وقد ورد في الكتاب العزيز أوصاف للجبال يوم القيامة ، وقد قدمنا بيان الجمع بينها .

ثم ذكر سبحانه أحوال الناس وتفرقهم فريقين على جهة الإجمال فقال : « ﴿ فـأما من ثقلت موازينه ﴾ » بإتباعه الحق ، وقدتقدم القول في الميزان في سورة الأعراف وسورة الكهف وسورة الأنبياء ، وقد اختلف فيها هنا فقيل هي جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله ، وبه قال الفراء وغيره وقيل هي جمع ميزان وهو الآلة التي توضع فيها صحائف الأعمال ، وعبر عنه بلفظ الجمع كما يقال لكل حادثة ميزان . وقيل المراد بالموازين الحجج والدلائل .

« ﴿ فهو في عيشة ﴾ » حياة « ﴿ راضية ﴾ » طيبة أو مرضية فهو إسناد مجازي أو استعارة مكنية وتخييلية أو هي بمعنى المفعول على التجوز في الكلمة نفسها ، قال الزجاج : أي ذات رضا يرضاها صاحبها يعني أنها للنسب . وقيل المعنى فاعلة للرضاء وهو اللين والإنقياد لأهلها ، والعيشة كلمة تجمع النعم التي في الجنة .

« ﴿ وأما من خفت موازينه ﴾ » أي رجحت سيئآته على حسناته أو لم تكن له حسنات يعتد بها « ﴿ فأمه هاوية ﴾ » أي فمسكنه جهنم وسماها أمه لأنه يأوي إليها كما يأوي إلى أمه ، والهاوية من أسماء جهنم ، وهي آخر الطبقات السبع وسميت هاوية لأنه يهوي فيها مع بعد قعرها ، والمهوى والمهواة ما بين الجبلين ، وتهاوى القوم في المهواة إذا سقط بعضهم في إثر بعض .

قال قتادة يعني فمصيره إلى النار ، قال عكرمة لأنه يهوي فيها على أم رأسه ، قال الأخفش أمه مستقرة ، قال ابن عباس هاوية كقوله هوت أمه ، وعن عكرمة قال أم رأسه هاوية في جهنم .

قال الخطيب أي نار نازلة سافلة جداً فهو بحيث لا يزال يهوي فيها نازلاً فهو في عيشة ساخطة فالآية من الإحتباك : ذكر العيشة أولاً دليلاً على حذفها ثانياً وذكر الأم ثانياً دليلاً على حذفها أولاً .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

(إذا مات المؤمن تلقته أرواح المؤمنين يسألونه ما فعل فلان ، ما فعلت فلانة فإذا كان مات ولم يأتهم قالوا خولف به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربية) وأخرج ابن مردويه من حديث أبي أيوب الأنصاري نحوه ، وأخرج ابن المبارك من حديثه نحوه أيضاً .

وبقي قسم ثالث غير مذكور في الآية وهو من استوت حسناته وسيئآته ، قال المناوي من رجحت حسناته بسبب زيادتها على السيئآت فهو في الجنة بغير حساب ، ومن استوت حسناته وسيئآته فيحاسب حساباً يسيراً ، ومن رجحت سيئآته على حسناته أي بسبب زيادتها فيشفع فيه أو يعذب .

﴿ وما أدراك ماهيه ﴾ هذا الإستفهام للتهويل والتفظيع ببيان أنها خارجة عن المعهود بحيث لا تحيط بها علوم البشر ، ولا تدري كنهها ، والضمير يعود إلى الهاوية والهاء للسكت .

ثم بينها سبحانه بقوله ﴿ نار حامية ﴾ أي قد انتهى حرها وبلغ في الشدة إلى الغاية ، وارتفاع نار على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هي نار حامية ، نعوذ بالله منها .

سورة التكاثر

هي ثمان آيات وهي مكية عند الجميع وروى البخاري أنها مدنية: قال ابن عباس نزلت بمكة.

عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم. قالوا ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية في كل يوم. قال أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾» أخرجه الحاكم والبيهقي في الشعب. قال المنذري رجال اسناده ثقات الّا أن عقبة لا أعرفه.

وعن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من قرأ في ليلة ألف آية لقى الله وهو ضاحك في وجهه قيل يا رسول الله ومن يقوى على ألف آية فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ألهاكم التكاثر الى آخرها ثم قال والذي نفسي بيده إنها لتعدل ألف آية. أخرجه الخطيب في المتفق والمفترق والديلمي.

وأخرج مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن عبد الله بن الشخير قال: «انتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ

ألهاكم التكاثر، وفي لفظ وقد أنزلت عليه ألهاكم التكاثر وهو يقول: «يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مال إلا ما أكلت فأفنيت» وأخرجه مسلم وغيره من حديث أبي هريرة ولم يذكر فيه قراءة هذه السورة ولا نزولها بلفظ «يقول العبد مالي مالي وإنما له من ماله ثلاثة ما أكل فأفنى وما لبس فأبلى وما تصدق فأبقى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس»

وعن جرير بن عبدالله قال: قال لنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «إني قارئ عليكم سورة ألهاكم التكاثر فمن بكى فله الجنة، فقرأها فمنا من بكى، ومنا من لم يبك فقال الذين لم يبكوا قد جهدنا يا رسول اللّه أن نبكي فلم نقدر عليه، فقال إني قارئها عليكم الثانية فمن بكى فله الجنة، ومن لم يقدر أن يبكي فليتباك» أخرجه البيهقي في الشعب وضعفه، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾

﴿ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ﴾ أي شغلكم التباري في التكاثر بالأموال والأولاد ، والتباهي والتفاخر بكثرتها عن طاعة الله تعالى والتغالب فيها ، يقال ألهاه عن كذا وأقهاه إذا شغله ، وقال الحسن معناه أنساكم حتى أدرككم الموت وأنتم على تلك الحال ، وقال قتادة إن التكاثر التفاخر بالقبائل والعشائر ، وقال الضحاك ألهاكم التشاغل بالمعاش وقيل المعنى متم ودفنتم في المقابر والمقابر جمع مقبرة وقال مقاتل وقتادة أيضاً وغيرهما نزلت في اليهود حين قالوا نحن أكثر من بني فلان ، وبنو فلان أكثر من بني فلان ، ألهاهم ذلك حتى ماتوا .

وقال الكلبي نزلت في حيين من قريش بني عبد مناف وبني سهم وتعادوا أو تكاثروا بالسيادة والإشراف في الإسلام ، فقال كل حي منهم نحن أكثر سيداً وأعز عزيزاً وأعظم نفراً وأكثر قائداً فكثر بنو عبد مناف بني سهم ، ثم تكاثروا بالأموات فكثرتهم بهم ، فنزلت ألهاكم التكاثر فلم ترضوا حتى زرتم المقابر مفتخرين بالأموات .

وعن أبي بردة في الآية قال : « نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار في بني حارثة وبني الحرث تفاخروا وتكاثروا فقالت إحداهما فيكم مثل فلان وفلان ، وقال الآخرون مثل ذلك تفاخروا بالأحياء ثم قالوا انطلقوا بنا إلى القبور ، فجعلت إحدى الطائفتين تقول فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبر ، ومثل فلان وفعل الآخرون مثل ذلك فأنزل الله هذه الآية » أي لقد كان لكم فيما زرتم

عبرة وشغل ، أخرجه ابن أبي حاتم[1] .

وفي الآية دليل على أن الإشتغال بالدنيا والمكاثرة بها والمفاخرة فيها من الخصال المذمومة ، والشرع دل على أن التكاثر والتفاخر في السعادات الحقيقية غير مذموم ، فيجوز للإنسان أن يفتخر بطاعاته وحسن أخلاقه إذا كان يظن أن غيره يقتدي به .

وقال سبحانه ألهاكم التكاثر ولم يقل عن كذا بل أطلقه لان الإطلاق أبلغ في الذم لأنه يذهب فيه الوهم كل مذهب ، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام ، لأن حذف المتعلق مشعر بالتعميم كما تقرر في علم البيان .

والمعنى أنه شغلكم التكاثر عن علم كل شيء يجب عليكم الإشتغال به من طاعة الله .

والعمل للآخرة ، وعبر عن موتهم بزيارة المقابر لأن الميت قد صار إلى قبره كما يصير الزائر إلى الموضع الذي يزوره ، هذا على قول من قال إن معنى زرتم المقابر متم ، وأما على قول من قال إن معنى زرتم المقابر ، ذكرتم الموتى وعددتموهم للمفاخرة والمكاثرة فيكون ذلك على طريق التهكم بهم وقيل إنهم كانوا يزورون المقابر فيقولون هذا قبر فلان وهذا قبر فلان يفتخرون بذلك .

﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ ردع وزجر لهم عن التكاثر وتنبيه على أنهم سيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة ، وفيه وعيد شديد ، قال الفراء أي ليس

---

(١) روى مسلم في « صحيحه » رقم (٢٩٥٨) عن مطرف عن أبيه قال : أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿ الهاكم التكاثر ﴾ ، قال : « يقول ابن آدم : مالي ، مالي (قال) وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » . وروى مسلم أيضاً رقم (٢٩٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يقول العبد : مالي ، مالي ، إنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فاقتنى (ادخره لآخرته) وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس » . وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يتبع الميت ثلاثة ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله » .

الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر والتفاخر.

ثم كرر الردع والزجر والوعيد فقال ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾ ثم للدلالة على، أن الثاني أبلغ من الأول، وقيل الأول عند الموت أو في القبر، والثاني يوم القيامة قال الفراء: هذا التكرار على وجه التغليظ والتأكيد، قال مجاهد: هو وعيد بعد وعيد، وكذا قال الحسن ومقاتل.

وجعله الشيخ جمال الدين بن مالك من التوكيد اللفظي مع توسط حرف العطف، وقال الزمخشري والتكرير تأكيد للردع والرد عليهم، ونقل عن علي ﴿كلا سوف تعلمون﴾ في الدنيا ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾ في الآخرة، فعلى هذا يكون غير مكرر لحصول التغاير بينهما لأجل تغاير المتعلقين، وثم على بابها من المهلة وحذف متعلق العلم في الأفعال الثلاثة لأن الغرض هو الفعل لا متعلقه، والعلم بمعنى المعرفة فيتعدى لمفعول واحد قاله السمين.

﴿كلا لو تعلمون علم اليقين﴾ أي لو تعلمون الأمر الذي أنتم صائرون إليه علماً يقينياً كعلمكم ما هو متيقن عندكم في الدنيا، وجواب لو محذوف أي لشغلكم ذلك عن التكاثر والتفاخر أو لفعلتم ما ينفعكم من الخير، وتركتم ما لا ينفعكم مما أنتم فيه.

وقال الأخفش: التقدير لو تعلمون علم اليقين ما ألهاكم، و ﴿كلا﴾ في هذا الموضع الثالث للردع والزجر كالموضعين الأولين، وقال الفراء: هي بمعنى حقاً، وقيل هي في المواضع الثلاثة بمعنى ألا، قاله ابن أبي حاتم، قال قتادة اليقين هنا الموت، وعنه قال هو البعث، وعنه كنا نحدث أن علم اليقين أن يعلم أن الله باعثه بعد الموت.

وإضافة العلم إلى اليقين من إضافة الموصوف إلى صفته، وفي السمين وعلم اليقين مصدر قيل وأصله العلم اليقين، وقيل لا حاجة إلى ذلك لأن العلم يكون يقيناً وغير يقين فأضيف إليه إضافة العلم للخاص، وهذا يدل على أن اليقين أخص.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

وقوله ﴿لترون الجحيم﴾ جواب قسم محذوف ، وفيه زيادة وعيد وتهديد أي والله لترون الجحيم في الآخرة ، قال الرازي وليس هذا جواب لو لان جواب لو يكون منفياً وهذا مثبت ، ولأنه عطف عليه ﴿ثم لتسئلن﴾ وهو مستقبل لا بد من وقوعه ، قال وحذف جواب ﴿لو﴾ كثير ، والخطاب لكفار ، وقيل عام كقوله ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ .

قرأ الجمهور لترون بفتح التاء مبنياً للفاعل وقرىء بضمها مبنياً للمفعول ، والرؤية هنا بصرية فلذلك تعدت إلى مفعول واحد .

ثم كرر الوعيد والتهديد للتأكيد فقال ﴿ثم لترونها عين اليقين﴾ أي ثم لترون الجحيم الرؤية التي هي نفس اليقين ، وهي المشاهدة والمعاينة ، وقيل المعنى لترون الجحيم بأبصاركم على البعد منكم ثم لترونها مشاهدة على القرب ، وقيل المراد بالأول رؤيتها قبل دخولها ، وبالثاني رؤيتها حال دخولها ، وقيل هو إخبار عن دوام بقائهم في النار أي هي رؤية دائمة متصلة ، وقيل المعنى لو تعلمون اليوم علم اليقين وأنتم في الدنيا لترون الجحيم بعيون قلوبكم ، وهو أن تتصوروا أمر القيامة وأهوالها .

﴿ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم﴾ أي عن نعيم الدنيا الذي ألهاكم عن العمل للآخرة ، وثم للترتيب الإخباري لا المعنوي ، لأن السؤال قبل رؤية الجحيم .

قال قتادة : يعني كفار مكة كانوا في الدنيا في الخير والنعمة فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه ، ولم يشكروا رب النعم حيث عبدوا غيره وأشركوا به ، قال الحسن : لا يسأل عن النعم إلا أهل النار .

وقال قتادة : إن الله سبحانه سائل كل ذي نعمة عما أنعم عليه وهذا هو الظاهر ولا وجه لتخصيص النعيم بفرد من الأفراد ، أو نوع من الأنواع ، لأن

تعريفه للجنس أو للاستغراق .

ومجرد السؤال لا يستلزم تعذيب المسؤول على النعمة التي سئل عنها فقد يسأل الله المؤمن عن النعم التي أنعم بها عليه فيم صرفها وبم عمل فيها ليعرف تقصيره وعدم قيامه بما يجب عليه من الشكر .

قيل السؤال عن الأمن والصحة ، وقيل عن الصحة والفراغ ، وقيل عن الإدراك بالحواس ، وقيل عن ملاذ المؤكول والمشروب ، وقيل عن الغداء والعشاء ، وقيل عن بارد الشراب وظلال المساكن ، وقيل عن اعتدال الخلق ، وقيل عن لذة النوم ، وقيل غير ذلك والأولى العموم كما ذكرنا .

وعن ابن عباس في الآية قال صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ يعني عن الطاعة ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ يقول حتى يأتيكم الموت » ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ يعني لو قد دخلتم قبوركم ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ يقول لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ قال لو قد وقفتم على أعمالكم بين يدي ربكم ﴿ لترون الجحيم ﴾ وذلك أن الصراط يوضع وسط جهنم فناج مسلم ومخدوش مسلم ومكدوش في نار جهنم ﴿ ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم ﴾ يعني شبع البطون وبارد الشراب وظلال المساكن واعتدال الخلق ولذة النوم .

وأخرج ابن مردويه عن عياض بن غنم مرفوعاً نحوه ، وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال : « الأمن والصحة » رواه عبد الله بن أحمد في زائد الزهد وابن أبي حاتم وغيرهما .

وعن علي قال النعيم العافية ، وعنه قال من أكل خبز البر وشرب ماء

الفرات مبرداً وكان له منزل يسكنه فذلك من النعيم الذي يسأل عنه .

عن أبي الدرداء قال: قال رسول صلى الله عليه وآله وسلم في الآية : « أكل خبز البر والنوم في الظل وشرب ماء الفرات مبرداً » أخرجه ابن مردويه ، ولعل رفع هذا لا يصح فربما كان من قول أبي الدرداء .

وعن أبي قلابة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال : « ناس من أمتي يعقدون السمن والعسل بالنقى فيأكلونه » أخرجه أحمد في الزهد وابن مردويه وهذا مرسل .

وعن عكرمة قال لما نزلت هذه الآية قال الصحابة يا رسول الله أي نعيم نحن فيه ، وإنما نأكل في انصاف بطوننا خبز الشعير ، فأوحى الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أن قل لهم « أليس تحتذون النعال وتشربون الماء البارد ، فهذا من النعيم » أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم .

وعن محمود بن لبيد قال لما نزلت ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ فقرأ حتى بلغ النعيم ، قالوا يا رسول الله أي نعيم نسأل عنه ، وإنما هما الأسودان الماء والتمر وسيوفنا على رقابنا والعدو حاضر ، فعن أي نعيم نسأل ؟ قال « أما إن ذلك سيكون » أخرجه ابن أبي شيبة وهناد وأحمد وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الشعب .

وأخرجه الترمذي وغيره من حديث أبي هريرة .

وأخرجه أحمد والترمذي وحسنه وغيرهما من حديث الزبير بن العوام .

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أن أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له ألم نصح لك جسدك ونرويك من الماء البارد »[1] أخرجه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم والبيهقي

---

(١) روى البخاري في « صحيحه » ١١/١٩٦ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح »

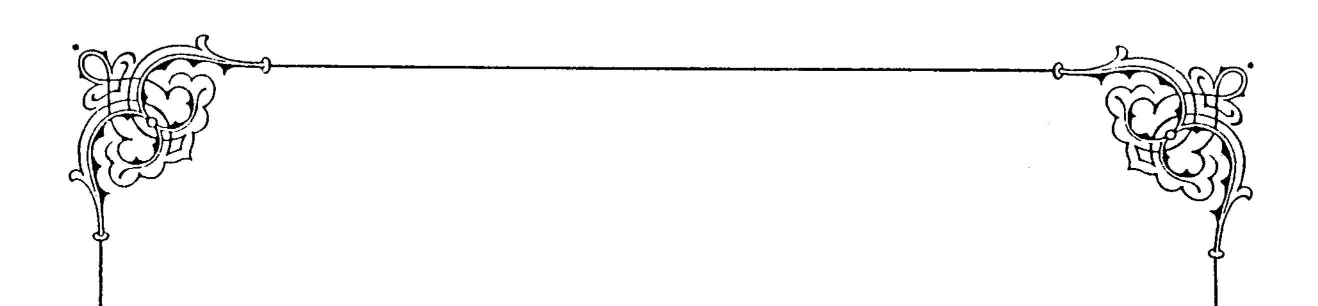
وغيرهم .

وعن جابر بن عبد الله قال : جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر فأطعمناهم رطباً وسقيناهم ماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا من النعيم الذي تسألون عنه » أخرجه أحمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد وغيرهم .

وأخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبي هريرة قال : « خرج النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال ما أخرجكما من بيوتكما الساعة ؟ قالا : الجوع يا رسول الله ، قال والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما فقوما فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته فلما رأته المرأة قالت مرحباً فقال النبي صلى الله عليه وسلم أين فلان؟ فقالت انطلق يستعذب لنا الماء إذ جاء الأنصاري ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه فقال الحمدلله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني ، فانطلق فجاء بعذق فيه بسر وتمر فقال كلوا من هذا ، وأخذ المدية فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم إياك والحلوب ، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر وعمر « والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة » وفي الباب أحاديث .

١١/١٩٧ : وقوله في الحديث : « مغبون فيهما كثير من الناس » كقوله تعالى : ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ فالكثير في الحديث في مقابلة القليل في الآية ، ونقل عن ابن بطال أن معنى الحديث : أن المرء لا يكون فارغاً حتى يكون مكفياً صحيح البدن ، فمن حصل له ذلك ، فليحرص على أن لا يغبن بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه ، ومن شكره امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، فمن فرط في ذلك فهو المغبون . قال ابن حجر : وأشار بقوله : « كثير من الناس » إلى أن الذي يوفق لذلك قليل . ونقل عن ابن الجوزي قوله : قد يكون الانسان صحيحاً ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش ، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً ، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون ، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة ، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط ، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون ، لأن الفراغ يعقبه الشغل ، والصحة يعقبها السقم .





سورة العصر

هي ثلاث آيات وهي مكية عند الجمهور، وقال قتادة: هي مدنية قال ابن عباس نزلت بمكة: عن أبي مزينة الدارمي وكانت له صحبة قال «كان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ احدهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلم احدهما على الآخر» اخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

﴿ والعصر ﴾ أقسم سبحانه بالعصر وهو الدهر لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار على تقدير الأدوار وتعاقب الظلام والضياء ، فإن في ذلك دلالة بينة على الصانع عز وجل وعلى توحيده ، ويقال لليل عصر ، وللنهار عصر ، ويقال للغداة والعشي عصران .

قال الرازي أقسم تعالى بالدهر لما فيه من الأعاجيب لأنه يحصل فيه السراء والضراء والصحة والسقم والغنى والفقر ، ولأن بقية عمر المرء لا قيمة له ، فلو ضيعت ألف سنة فيما لا يعني ثم ثبتت السعادة في اللمحة الأخيرة من العصر بقيت في الجنة أبد الآباد ، فعلمت أن أشرف الأشياء حياتك في تلك اللمحة ، فكان الدهر والزمان من جملة أصول النعم ، ولأن الزمان أشرف من المكان ، فأقسم به لكونه نعمة خالصة لا غيب فيه .

وقال قتادة والحسن : المراد به في الآية العشي وهو ما بين زوال الشمس وغروبها . وعن قتادة أيضاً أنه آخر ساعة من ساعات النهار ، وقال مقاتل : إن المراد به صلاة العصر ، وهي الصلاة الوسطى التي أمر الله سبحانه وتعالى بالمحافظة عليها ، وأخرجه أحمد والترمذي وحسنه وغيرهما من حديث الزبير بن العوام .

وقيل هو قسم[1] بعصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(١) قال الرازي أقسم سبحانه بمكانه صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ وأقسم بعمره

قال الزجاج : قال بعضهم معناه ورب العصر والأول أولى وبه قال ابن عباس ، وعنه هو ساعة من ساعات النهار ، وقال أيضاً هو ما قبل مغيب الشمس من العشي .

وأخرج الفريابي وأبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن الانباري في المصاحف عن علي بن أبي طالب « أنه كان يقرأ والعصر ونوائب الدهر إن الإنسان لفي خسر وانه فيه إلى آخر الدهر » وعن ابن مسعود أيضا أنه كان يقرأ « إن الإنسان لفي خسر وانه لفيه إلى آخر الدهر » ، أخرجه عبد بن حميد .

﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ هذا جواب القسم ، والخسر والخسران النقصان وذهاب رأس المال ، والمعنى ان كل إنسان في المتاجر والمساعي وصرف الأعمار في أعمال الدنيا لفي نقص وضلال عن الحق حتى يموت ، وقيل المراد بالإنسان الكافر ، وقيل جماعة من الكفار وهم الوليد بن المغيرة والعاص ابن وائل والأسود بن عبد المطلب بن أسد ، والأول أولى لما في لفظ الإنسان من العموم ، ولدلالة الاستثناء عليه

قال الأخفش : في خسر في هلكة ، وقال الفراء : في عقوبة ، وقال ابن زيد : لفي شر ، وقيل لفي نقص ، والمعاني متقاربة ، قرأ الجمهور ﴿ والعصر ﴾ بسكون الصاد وقرىء بكسر الصاد وقرأ الجمهور أيضاً ﴿ خسر ﴾ بضم الخاء وسكون السين وقرىء بضمها .

والتنكير في خسر يفيد التعظيم أي في خسر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله ، فقد جعل الانسان معموراً في الخسر للمبالغة وانه أحاط به من كل جانب لأن كل ساعة تمر بالإنسان فإن كانت مصروفة إلى المعصية فلا شك في الخسر ، وإن كانت مشغولة بالمباحثات فالخسران أيضاً حاصل ، وإن كانت

في قوله : ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ وبعصره هنا فكأنه قال وعصرك وبلدك وعمرك فأقسم بهذه الظروف الثلاثة فإذا وجب تعظيم الظرف فحال المظروف من باب أولى انتهى .

مشغولة بالطاعات فهي غير متناهية ، وترك الأعلى والاقتصار على الأدنى نوع خسران ، ولا ينافيه قوله : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ لأن الكلام ثَمّ في[1] أحوال البدن وهنا في أحوال النفس .

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح فانهم في ربح لا في خسر ، لأنهم عملوا للآخرة ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها ، والاستثناء متصل ، ومن قال ان المراد بالإنسان الكافر فقط فيكون منقطعاً ، ويدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن ومؤمنة ، ولا وجه لما قيل ان المراد الصحابة أو بعضهم فان اللفظ عام لا يخرج عنه أحد ممن يتصف بالإيمان والعمل الصالح .

﴿ وتواصوا ﴾ أي أوصى[2] بعضهم بعضاً ﴿ بالحق ﴾ الذي يحق القيام به وهو الإيمان بالله والتوحيد والقيام بما شرعه الله ، واجتناب ما نهى عنه ، قال قتادة بالحق أي بالقرآن وقيل بالتوحيد والحمل على العموم أولى .

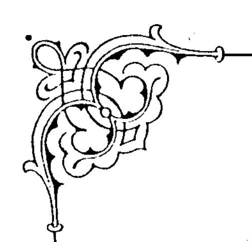
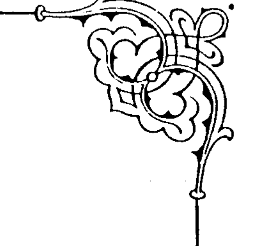
﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ عن معاصي الله سبحانه وعلى فرائضه وعلى البلايا ، وفي جعل التواصي بالصبر قريناً للتواصي بالحق دليل على عظيم قدره وفخامة شرفه ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه ان الله مع الصابرين .

وأيضاً التواصي بالصبر مما يندرج تحت التواصي بالحق فإفراده بالذكر وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق ومزيد شرفه عليها ، وارتفاع طبقته عنها ، وكرر الفعل لاختلاف المفعولين .

---

(١) ثم بفتح الثاء أي هناك .

(٢) أشار به إلى أن تواصوا فعل ماض لا أمر ، ويؤخذ منه أن الوصية هي التقديم إلى الغير بما يعمل به مقروناً بوعظ ونصيحة من قولهم أرض واصية أي متصلة النبات ، يقال قدمت إليه بكذا إذا أمرته قبل وقت الحاجة إلى الفعل ،(سيد ذو الفقار أحمد).

سورة الهمزة

هي تسع آيات وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة وقال المحلي أو مدنية والاول أولى .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

﴿ ويل ﴾ هو مرتفع على الإبتداء ، وسوغ الابتداء به مع كونه نكرة كونه دعاء عليهم ، وخبره ﴿ لكل همزة لمزة ﴾ والمعنى خزي أو عذاب أو هلكة أو واد في جهنم لكل همزة لمزة ، والتاء فيهما للمبالغة في الوصف ، وقد أطرد أن بناء فعلة لمبالغة الفاعل أي المكثر لمأخذ الاشتقاق ، واذا سكنت العين يكون لمبالغة المفعول ، يقال رجل لعنة بفتح العين لمن كان يكثر لعن غيره ، ولعنة بسكون العين اذا كان ملعوناً للناس يكثرون لعنه :

قال أبو عبيدة والزجاج الهمزة اللمزة الذي يغتاب الناس ، وعلى هذا هما بمعنى ، وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبي رباح (الهمزة) الذي يغتاب الرجل في وجهه ﴿ واللمزة ﴾ الذي يغتابه من خلفه ، وقال قتادة عكس هذا ، وروي عن قتادة ومجاهد أيضاً أن الهمزة الذي يغتاب الناس في أنسابهم وعن مجاهد أيضاً أن الهمزة الذي يهمز الناس بيده ، واللمزة الذي يلمزهم بلسانه .

وقال سفيان الثوري يهمزهم بلسانه ويلمزهم بعينه ، وقال ابن كيسان الهمزة الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ واللمزة الذي يكسر عينه على جليسه ويشير بيده وبرأسه وبحاجبه ، وقيل هم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون العيب للبريء .

وحاصل هذه الأقاويل يرجع الى أصل واحد وهو الطعن وإظهار العيب ،

ويدخل في ذلك من يحاكي الناس في أقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا منه . والأولى أولى .

وأصل الهمزة الكسر يقال همز رأسه كسره ، وقيل أصل الهمز واللمز الضرب والدفع ، يقال همزه يهمزه همزاً ولمزه يلمزه لمزاً اذا دفعه وضربه .

قرأ الجمهور يقال همزة لمزة بضم أولهما وفتح الميم فيهما ، وقرىء بسكون الميم فيهما وقرأ أبو وائل والنخعي والأعمش ﴿ ويل للهمزة اللمزة ﴾ والآية تعم كل من كان متصفاً بذلك ولا ينافيه نزولها على سبب خاص ، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وعن ابن عباس أنه سئل عن همزة لمزة قال : هو المشاء بالنميمة المفرق بين الجمع المغري بين الأخوان ، وعنه قال همزة طعان ولمزة مغتاب .

وقوله ﴿ الذي جمع مالاً وعدده ﴾ بدلَ من كل ، أو في محل نصب على الذم ، وهذا أرجح لأن البدل يستلزم أن يكون المبدل منه في حكم الطرح أو تعليل لما قبله ، وإنما وصفه سبحانه بهذا الوصف لأنه يجري مجرى السبب والعلة في الهمز واللمز وهو اعجابه بما جمع من المال ، وظنه انه الفضل فلأجل ذلك يتنقص غيره .

قرأ الجمهور جمع مخففاًوقرىء مثقلاً . قال الرازي الفرق أن التشديد يفيد انه جمعه من ههنا ومن ههنا ولم يجمعه في يوم واحد ، ولا في يومين ، ولا في شهر ولا في شهرين ، وان التخفيف لا يفيد ذلك ، ونكر ﴿ مالاً ﴾ للتعظيم اي مالاً بلغ في الخبث والفساد أقصى النهايات فكيف يليق بالعاقل أن يفتخر به .

وقرأ الجمهور ﴿ وعدده ﴾ مشدداً وقرىء بالتخفيف والتشديد في الكلمتين يدل على التكثير ، وهو جمع الشيء بعد الشيء وتعديده مرة بعد أخرى ، قال الفراء معنى عدده أحصاه فهو مأخوذ من العد ، وقال الزجاج

وعدده لنوائب الدهور يقال أعددت الشيء وعددته اذا أمسكته ، قال السدي أحصى عدده ، وقال الضحاك أعد ماله لمن يرثه ، وقيل المعنى فاخر بكثرته وعدده .

والمقصود ذمه على جمع المال وإمساكه وعدم انفاقه في سبل الخير ، وقيل المعنى على قراءة التخفيف في عدده أنه جمع عشيرته وأقاربه ، قال المهدوي من خفف وعدده فهو معطوف على المال أي وجمع عدده .

وجملة ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ مستأنفة لتقرير ما قبلها ، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من فاعل جمع أي يعمل عمل من يظن أن ماله يتركه حياً مخلداً لا يموت ، وأخلده ماض معناه المضارع أي يخلده ، وقال عكرمة يحسب أن ماله يزيد في عمره .

والاظهار في موضع الاضمار للتقريع والتوبيخ ، وقيل هو تعريض بالعمل الصالح وانه الذي يخلد صاحبه في الحياة الأبدية لا المال ، والخلد بالضم البقاء والدوام وبابه دخل ، وأخلده الله وخلد تخليداً .

﴿ كلا ﴾ ردع له عن ذلك الحسبان أي ليس الأمر كما يحسبه هذا الذي جمع المال وعدده أو معناه حقاً ﴿ لينبذن في الحطمة ﴾ اللام جواب قسم محذوف أي ليطرحن في النار وليلقين فيها . قرأ الجمهور لينبذن وقرىء لينبذان بالتثنية اي لينبذ هو وماله في النار ، وقرىء لينبذن أي لينبذن ماله في النار .

والمعنى تحطم وتكسر كل ما القي فيها ففي الحطمة مماثلة لعمله لفظاً ومعنى لأنها على وزن همزة لمزة وفيهما كسر كما فيها ، وحطمة من باب ضرب ، والتحطيم التكسير والحطمة من أسماء النار لأنها تحطم ما تلتقم .

﴿ وما أدراك ما الحطمة ﴾ هذا الاستفهام للتهويل والتفظيع حتى كأنها ليست مما تدركه العقول ، وتبلغه الأفهام ، قيل هي الطبقة السادسة من طبقات جهنم وقيل الطبقة الثانية منها ، وقيل الطبقة الرابعة .

ثم بيّنها سبحانه فقال ﴿ نار الله الموقدة ﴾ بأمر الله سبحانه التي لا تخمد أبداً ووجب وتحتم إيقادها ، وفي إضافتها الى الاسم الشريف تعظيم لها وتفخيم ، وكذلك في وصفها بالايقاد .

﴿ التي تطلع على الأفئدة ﴾ أي يخلص حرها الى القلوب فيعلوها ويغشاها ، وخص الأفئدة بالذكر مع كونها تغشى جميع أبدانهم لأنها محل العقائد الزائغة والنيات الخبيثة ومنشأ الأعمال السيئة ، او لكون الألم اذا وصل اليها مات صاحبها لأن الفؤاد الطف ما في الجسد وأشد تألماً بأدنى أذى يمسه أي أنهم في حال من يموت وهم لا يموتون كما قال تعالى ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ وقيل المعنى انها تعلم بمقدار ما يستحقه كل واحد من العذاب وذلك بأمارات عرفها الله بها .

﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ أي مطبقة مغلقة كما تقدم بيانه في سورة البلد ، يقال أصدت الباب أذا أغلقته ، وقال ابن عباس مطبقة ، وجمع الضمير في عليهم رعاية لمعنى كل .

﴿ في عمد ممددة ﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في عليهم أي كائنين في عمد ممددة موثقين فيها أو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم في عمد أو صفة لمؤصدة أي مؤصدة بعمد ممددة .

قال مقاتل أطبقت الأبواب عليهم ثم شدت بأوتاد من حديد فلا يفتح عليهم باب ولا يدخل عليهم روح .

ومعنى كون العمدة ممددة أنها مطولة وهي أرسخ من القصيرة ، وقيل العمد أغلال في جهنم ، وقيل القيود ، وقال قتادة المعنى هم في عمد يعذبون بها ، واختار هذا ابن جرير .

قرأ الجمهور عمد بفتح العين والميم ، وقيل هو اسم جمع لعمود ، وقيل جمع له ، قال الفراء هي جمع لعمود كأديم وأدم ، وقال أبو عبيدة هي جمع عماد .

وقــرىء بضم العين والميم جمع عمــود ، قــال الفــراء همـا جمعــان صحيحان لعمود ، واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الجمهور .

قال الجوهـري : العمود عمـود البيت وجمع القلة أعمـدة وجمع الكثـرة عمد وعمد ، وقرىء بهما وهما سبعيتان .

قـال أبو عبيـدة : العمود كـل مستطيـل من خشب أو حـديـد ، قـال ابن عبـاس عمد من نـار ، وقـال ابن مسعـود هي الأدهم ، وعن ابن عبـاس أيضـاً الأبواب هي الممددة ، وعنـه قال أدخلهم في عمـد فمدت عليهم في أعنـاقهم فسدت بها الأبواب .

قـال ابن جزي : المعنى أن أبـواب جهنم أغلقت عليهم بعمـد ممـدودة على أبـوابها تشـديداً في الاغـلاق ، وقيل معنـاه في دهر ممـدود أي لا انقطاع له ، قال القشيري أن العمد أوتاد الأطباق التي تـطبق على أهل النـار تشد تلك الأطباق حتى يرجع عليهم غمها وحرها فلا يدخل عليهم روح .



سورة الفيل

هي خمس آيات وهي مكية بلا خلاف . قال ابن عباس نزلت بمكة



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

﴿ألم تر كيف فعل ربك﴾ الاستفهام بتقرير رؤيته صلى الله عليه وسلم بإنكار عدمها ، والمراد بالرؤية هنا رؤية القلب ، وهي العلم عبر عنه بالرؤية لكونه علماً ضرورياً مساوياً في القوة والجلاء للمشاهدة والعيان ، وحذفت الألف من ﴿ تر ﴾ للجازم ، قال الفراء المعنى ألم تخبر ، وقال الزجاج ألم تعلم .

وهو تعجيب له صلى الله عليه وآله وسلم بما فعله الله ﴿ بأصحاب الفيل ﴾ الذين قصدوا تخريب الكعبة من الحبشة ، وكيف منصوب على المصدرية أو الحالية واختار الأول ابن هشام في المغني ، والمعنى أي فعل فعل .

وأما نصبه على الحالية من الفاعل فممتنع لأن فيه وصفه تعالى بالكيفية وهو غير جائز ، والجملة سدت مسد مفعولي ترى ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويجوز أن يكون لكل من يصلح له .

والمعنى قد علمت يا محمد أو علم الناس الموجودون في عصرك ومن بعدهم بما بلغكم من الأخبار المتواترة من قصة أصحاب الفيل ، وما فعل الله بهم ، فما لكم لا تؤمنون ، وصاحب الأفيال أبرهة ملك اليمن واسمه الأشرم سمي بذلك لأن أباه ضربه بحربة فشرم أنفه وجبينه ، قال القرطبي ، وأبرهة لقب لكل من فيه بياض وكان نصرانياً .

والفيل هو الحيوان المعروف وجمعه فيول وأفيال وفيلة . وقال ابن

السكيت ولا تقول أفيلة وصاحبه فيال وكانت الفيلة ثلاثة عشر ، وإنما وحده لأنه نسبهم الى الفيل الأعظم الذي كان يقال له محمود وهو الذي برك وضرب في رأسه ، وقيل انما وحده موافقة لرؤوس الآي .

وعن ابن عباس قال : « جاء أصحاب الفيل حتى نزلوا الصفاح فأتاهم عبد المطلب فقال إن هذا بيت الله لم يسلط عليه أحد قالوا لا نرجع حتى نهدمه ، وكانوا لا يقدمون فيلهم إلا تأخر فدعا الله الطير الأبابيل فأعطاها حجارة سوداء عليها الطين فلما حاذتهم رمتهم فما بقي منهم أحد إلا أخذته الحكة وكان لا يحك الانسان منهم جلده الا تساقط لحمه »[1] أخرجه ابن المنذر وعبد بن حميد وأبو نعيم والبيهقي .

﴿ ألم يجعل كيدهم ﴾ أي مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة وهدمها واستباحة أهلها ﴿ في تضليل ﴾ أي في خسارة وهلاك عما قصدوا اليه حتى لم يصلوا الى البيت ولا الى ما أرادوا بكيدهم ، والهمزة للتقرير ، كأنه قيل قد جعل كيدهم في تضليل .

والكيد هو إرادة المضرة بالغير ، لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشاً بالقتل والسبي . ويكيدوا البيت الحرام بالتخريب والهدم .

قال ابن عباس « أقبل أصحاب الفيل حتى اذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب فقال لملكهم ما جاء بك الينا ألا بعثت فنأتيك بكل شيء فقال أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله احد إلا أمن فجئت أخيف أهله ، فقال إنا نأتيك بكل شيء تريد . فارجع فأبى إلا أن يدخله ، وانطلق يسير نحوه وتخلف عبد المطلب ، فقام على جبل فقال لا أشهد مهلك هذا البيت وأهله ، فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر حتى أظلتهم طير أبابيل التي قال الله ﴿ ترميهم بحجارة من سجيل ﴾ فجعل الفيل يعج عجاً ﴿ فجعلهم كعصف

---

(١) زاد السير ٢٣٢ .

مأكول ﴾[1] أخرجه البيهقي وابن المنذر والحاكم وغيرهم ، وقصة أصحاب الفيل مبسوطة في كتب التفسير والتاريخ والسير فلا نطول بذكرها .

﴿ وأرسل عليهم ﴾ عطف على ﴿ ألم يجعل ﴾ لأن الاستفهام فيه للتقرير فكان المعنى قد جعل ذلك وأرسل ﴿ طيراً ﴾ هو اسم جنس يذكر ويؤنث ﴿ أبابيل ﴾ نعت لطير لأنه اسم جمع أي أقاطيع يتبع بعضها بعضاً كالابل المؤبلة ، فرجعوا هاربين يتساقطون بكل طريق . وكان هلاكهم قرب عرفة قبل دخول الحرم على الأصح .

وقال جماعة : بوادي محسر بين مزدلفة ومنى ، قاله ابن حجر ، قال ابو عبيدة : أبابيل جماعات في تفرقة يقال جاءت الخيل أبابيل أي جماعات من ههنا وههنا ، قال النحاس : وحقيقته أنها جماعات عظام ، يقال فلان يؤبل على فلان أي يعظم عليه ويكبره ، وهو مشتق من الإبل ، وهو من الجمع الذي لا واحد له ، وقال بعضهم واحده إبول بكسر الهمزة مثل عجول ، وقال بعضهم إبيل كسكين .

قال الواحدي : ولم نر أحداً يجعل لها واحداً ، قال الفراء : لا واحد له من لفظه ، وزعم الرؤاسي وكان ثقة أنه سمع في واحدها إبالة مشدداً ، وحكى الفراء : أيضاً إبالة بالتخفيف .

---

(١) ذكر أهل التفسير أن أبرهة لما سار بجنوده إلى الكعبة ليهدمها خرج معه بالفيل ، فلما دنا من مكة أمر أصحابه بالغارة على نعم الناس ، فأصابوا إبلاً لعبد المطلب ، وبعث بعض جنوده ، فقال : شب عن شريف مكة ، وأخبره أني لم آتِ لقتال ، وإنما جئت لأهدم هذا البيت ، فانطلق حتى دخل مكة ، فلقي عبد المطلب بن هاشم ، فقال : إن الملك أرسلني إليك لأخبرك أنه لم يأتِ لقتال إلا أن تقاتلوه، إنما جاء لهدم هذا البيت ، ثم ينصرف عنكم ، فقال عبد المطلب : ما له عندنا قتال، وما لنا به يد ، إنا سنخلي بينه وبين ما جاء له ، فإن هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه ، فهو بيته وحرمه ، وإن يخلِّ بينه وبين ذلك ، فوالله ما لنا به قوة . قال : فانطلق معي إلى الملك ، فلما دخل عبد لمطلب على أبرهة أعظمه ، وكرمه ، ثم قال لترجمانه : قل له : ما حاجتك إلى الملك ؟ فقال له الترجمان ، فقال : حاجتى أن يرد عليّ بعير أصابها . فقال أبرهة لترجمانه : . . .

قال سعيد بن جبير كانت طيرا من السماء لم ير قبلها ولا بعدها قال قتادة هي طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً مع كل طائر ثلاثة أحجار حجران في رجليه وحجر في منقاره لا يصيب شيئاً إلا هشمه ، وقيل كانت طيراً خضراً خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع .

وقيل كان لها خراطيم كخراطيم الطير . وأكف كأكف الكلاب ، وقيل أنها العنقاء المغرب التي تضرب بها الأمثال ، وقيل في صفتها غير ذلك ، والعرب تستعمل الأبابيل في الطير وفي غير الطير .

ولما تم هلاكهم رجعت الطير من حيث جاءت .

﴿ ترميهم بحجارة من سجيل ﴾ قرأ الجمهور بالفوقية ، وقرأ أبو حنيفة وأبو معمر وعيسى وطلحة بالتحتية واسم الجمع يذكر ويؤنث . وقيل الضمير في القراءة الثانية لله عز وجل والجملة في محل نصب صفة أخرى لطير .

قال الزجاج ﴿ من سجيل ﴾ أي مما كتب عليهم العذاب به مشتقاً من السجل .

قال في الصحاح قالوا هي حجارة من طين طبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم وأصله سنك وكل ، وقيل السجيل الشديد ، وقال عبد الرحمن بن أبزي من سجيل من السماء وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط وقيل من الجحيم التي هي سجين ، ثم أبدلت النون لاماً ، قال عكرمة كانت ترميهم بحجارة معها فاذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدري . وكان الحجر كالحمصة وفوق العدسة ، وقد قدمنا الكلام في سجيل في سورة هود .

وعن ابن عباس قال حجارة كالبندق وبها نضح حمرة مختمة مع كل طائر ثلاثة أحجار حجران في رجليه وحجر في منقاره حلقت عليهم من السماء ثم أرسلت عليهم تلك الحجارة فلم تعد عسكرهم ، وعنه أن أبرهة الأشرم قدم من اليمن يريد هدم الكعبة فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل يريد مجتمعة لها

خراطيم تحمل حصاتين في رجليها وحصاة في منقارها ترسل واحدة على رأس الرجل فيسيل لحمه ودمه ، ويبقى عظاماً خاوية لا لحم عليها ولا جلد ولا دم ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ أي جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع اذا أكلته الدواب فرمت به من اسفل ، شبه لقطع أوصالهم بتفرق أجزائه ، وقيل المعنى أنهم صاروا كورق زرع قد أكلت منه الدواب وبقي منه بقايا أو أكلت حبه فبقي بدون حبه والعصف جمع عصفه وعصافة وعصيفة وقد قدمنا الكلام في العصف في سورة الرحمن فارجع اليه .

قال ابن عباس يقول كالتبن ، وعن عائشة قالت لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان ونحوه عن أسماء بنت أبي بكر .

وعن ابن عباس قال ولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم عام الفيل ، قال القرطبي أي قبل مولده لخمسين يوماً ، قال الخازن وهذا هو القول الأصح فإنهم يقولون ولد عام الفيل ، ويجعلونه تاريخاً لمولده صلى الله عليه وآله وسلم .

وعن قيس بن محرم قال ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام الفيل ، وقيل كان عام الفيل قبل ولادته صلى الله عليه وآله وسلم بأربعين سنة ، وقيل بثلاث وعشرين سنة ، وقيل غير ذلك .



سورة قريش

ويقال سورة لإيلاف هي أربع آيات وهي مكية عند الجمهور، وقال الضحاك والكلبي هي مدنية والاول أصح، قال ابن عباس نزلت بمكة، وعن أم هانئ بنت أبي طالب أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: «فضل اللّه قريشاً بسبع خصال لم يعطها أحداً قبلهم ولا يعطيها أحداً بعدهم أني فيهم، وفي لفظ النبوة فيهم والخلافة فيهم والحجابة فيهم، والسقاية فيهم، ونصروا على الفيل وعبدوا اللّه سبع سنين، وفي لفظ عشر سنين لم يعبده أحد غيرهم، ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم لايلاف قريش» أخرجه البخاري في تاريخه والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي.

قال ابن كثير هو حديث غريب ويشهد له ما أخرجه الطبراني في الاوسط وابن مردويه وابن عساكر عن الزبير بن العوام قال: قال رسول

اللّه صلى اللّه عليه وسلم « فضل اللّه قريشاً بسبع خصال : فضلهم بأنهم عبدوا اللّه عشر سنين لا يعبده الا قرشي وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون ، وفضلهم بأنها نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين غيرهم وهي لإيلاف قريش ، وفضلهم بأن فيهم النبوة والخلافة والسقاية ».

وأخرج الخطيب في تاريخه عن سعيد بن المسيب مرفوعاً نحوه وهو مرسل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

﴿لإيلاف قريش﴾ اللام قيل متعلقة بآخر السورة التي قبلها كأنه قال سبحانه أهلكت أصحاب الفيل لأجل تألف قريش ، قال الفراء هذه السورة متصلة بالسورة الأولى لأنه ذكر سبحانه أهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة ، ثم قال لايلاف قريش ، أي فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش ، وذلك ان قريشاً كانت تخرج في تجارتها فلا يغار عليها في الجاهلية ، يقولون هم أهل بيت الله عز وجل حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة ويأخذ حجارتها فيبني بها بيتاً في اليمن يحج الناس إليه فأهلكهم الله عز وجل ، فذكرهم نعمته ؛ أي فعل ذلك لإيلاف قريش أي ليألفوا الخروج ولا يجترىء عليهم ؛ وذكر هذا ابن قتيبة .

قال الزجاج : والمعنى فجعلهم كعصف مأكول لايلاف قريش ، أي أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف ولهذا جعل أبيّ بن كعب هذه السورة وسورة الفيل واحدة ولم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة .

والذي عليه الجمهور من الصحابة وغيرهم وهو المستفيض المشهور أن هذه السورة منفصلة عن سورة الفيل وأنه لا تعلق بينهما .

وقال في الكشاف ان اللام متعلقة بقوله ﴿ فليعبدوا ﴾ أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلاف الرحلتين ، ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط لأن المعنى إما لا فليعبدوه .

وقد تقدم صاحب الكشاف الى هذا القول الخليل بن أحمد ؛ والمعنى ان لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة ، وقال الكسائي والأخفش : اللام لام العجب أي إعجبوا لايلاف قريش وقيل هي بمعنى الى وقرىء لإلف وقرىء ليألف بفتح اللام على أنها لام الأمر ، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود وفتح لام الأمر لغة معروفة .

قال سليمان الجمل قرأ ابن عامر لإلاف قريش دون ياء قبل اللام الثانية والباقون لإيلاف بياء قبلها ، وأجمع الكل على إثبات الياء في الثاني وهو إيلافهم .

ومن غريب ما اتفق في هذين الحرفين ان القراء اختلفوا في سقوط الياء وثبوتها في الأول مع اتفاق المصاحف على اثباتها خطاً واتفقوا على إثبات الياء في الثاني مع اتفاق المصاحف على سقوطها منه خطاً فهو أدل دليل على أن القراء متبعون الأثر والرواية لا مجرد الخط انتهى .

وقريش هم بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي ومن لم يلد النضر فليس بقرشي ، وقريش يأتي منصرفاً إن أريد به الحي ، وغير منصرف إن أريد به القبيلة ، وقيل إن قريشاً بنو فهر بن مالك بن النضر والأول أصح .

وقوله ﴿إيلافهم﴾ تأكيد لفظي ولذلك اتصل بضمير ما أضيف اليه الأول وقيل هو بدل لأنه أطلق المبدل منه وقيد البدل بالمفعول وهو قوله ﴿ رحلة الشتاء والصيف﴾ لما فيه من الابهام في المبدل منه ثم التبيين في البدل ، وإنما أفرد الرحلة ولم يقل رحلتي الشتاء لأمن الإلباس ، وقيل إن رحلة منصوبة بمصدر مقدر أي ارتحالهم رحلة الشتاء وقيل منصوبة على الظرفية والرحلة الارتحال وكانت إحدى الرحلتين الى اليمن في الشتاء لأنها بلاد حارة ، والرحلة الأخرى الى الشام في الصيف لأنها بلاد باردة ، وروي أنهم كانوا يشتون بمكة ويصيفون في الطائف والأول أولى فان ارتحال قريش للتجارة

معلوم معروف في الجاهلية والاسلام .

قال ابن قتيبة إنما كانت تعيش قريش بالتجارة ، وكانت لهم رحلتان كل سنة رحلة في الشتاء الى اليمن ، ورحلة في الصيف الى الشام ، ولولا هاتان الرحلتان لم يمكن بها مقام ، ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف .

قال ابن عباس في الآية نعمتي على قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف ، وعنه قال إيلافهم لزومهم ، وقيل رحلة اسم جنس وكانت لهم أربع رحلات وجعله بعضهم غلطاً ، وليس كذلك وأول من سن لهم الرحلة هاشم بن عبد مناف .

﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن ذكر لهم ما أنعم به عليهم أي إن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الخاصة المذكورة ، والبيت الكعبة وعرفهم سبحانه بأنه رب هذا البيت لأنها كانت لهم أوثان يعبدونها ، فميز نفسه عنها وقيل لأنهم شرفوا بالبيت على سائر العرب فذكر لهم ذلك تذكيراً لنعمته .

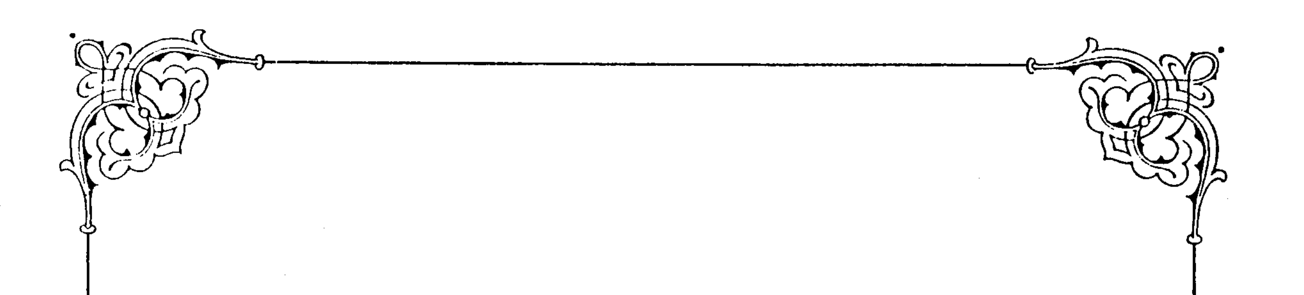
﴿ الذي أطعمهم من جوع ﴾ أي أطعمهم بسبب تينك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما ، وقيل إن هذا الاطعام هو إنهم لما كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال اللهم إجعلها عليهم سنين كسني يوسف ، فاشتد القحط فقالوا يا محمد ادع الله لنا فإنا مؤمنون فدعا فأخصبوا وزال عنهم الجوع وارتفع القحط ، قال ابن عباس يعني قريشاً أهل مكة بدعوة ابراهيم حيث قال ﴿ وارزق أهله من الثمرات ﴾ .

﴿وآمنهم من خوف ﴾ أي من خوف شديد كانوا فيه ، قال ابن زيد كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبي بعضها بعضاً فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم .

وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان آمنهم من خوف الحبشة مع

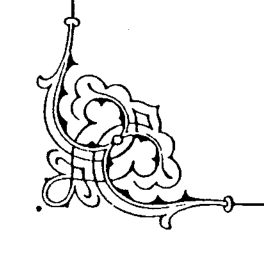
الفيل ، وقال ابن عباس من الجذام وعنه في الآية قال آمنهم من خوف حيث قال ابراهيم ﴿ رب اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ قال ابن عباس نهاهم عن الرحلة وأمرهم أن يعبدوا رب هذا البيت ، وكفاهم المؤنة وكانت رحلتهم في الشتاء والصيف ولم تكن لهم راحة في شتاء ولا صيف ، فأطعمهم الله بعد ذلك من جوع وآمنهم من خوف ، وكان ذلك من نعمة الله عليهم ، وعنه قال أمروا أن يألفوا عبادة رب هذا البيت كإلفهم رحلة الشتاء والصيف .

وقد وردت أحاديث في فضل قريش وإن الناس تبع لهم في الخير والشر ، وإن هذا الأمر يعني الخلافة لا يزال فيهم ما بقي منهم اثنان وهي في دواوين الاسلام .



سورة أرأيت

ويقال لها سورة الدين وسورة الماعون وسورة اليتيم وهي ست أو سبع آيات وهي مكية في قول عطاء وجابر وأحد قولي ابن عباس. ومدنية في قول قتادة وآخرين. وعن ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله. وقيل نصفها الأول مكي ونصفها الثاني مدني. والأول في العاص بن وائل والثاني في عبد اللّه بن أبيّ ابن سلول. وقال مقاتل والكلبي نزلت في العاص بن وائل السهمي. وقال السدي في الوليد بن المغيرة. وقال الضحاك في عمرو بن عائذ وقال ابن جريج في أبي سفيان. وقيل في رجل من المنافقين.





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

﴿ أرأيت ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح له ، والاستفهام لقصد التعجيب من حال ﴿ الذي يكذب بالدين ﴾ أي بالجزاء والحساب في الآخرة . وقال ابن عباس بحكم الله .

قرأ الجمهور أرأيت بإثبات الهمزة الثانية وقرىء بإسقاطها ، قال الزجاج : لا يقال في رأيت ريت ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة الفاً ، والرؤية بمعنى المعرفة وقيل هي البصرية فتتعدى الى مفعول واحد ، وهو الموصول أي أبصرت المكذب وقيل إنها بمعنى أخبرني فتتعدى الى مفعولين الثاني محذوف أي من هو ، والأول أولى ، قيل وفي الكلام حذف والمعنى ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ﴾ أمصيب هو أم مخطىء .

﴿ فذلك الذي يدع اليتيم ﴾ الفاء جواب شرط مقدر أي إن تأملته او طلبته فذلك الخ ويجوز ان تكون عاطفة على الذي يكذب إما عطف ذات على ذات او صفة على صفة ، فعلى الأول يكون اسم الاشارة مبتدأ وخبره الموصول أو خبر لمبتدأ محذوف أي فهو ذلك والموصول صفته ، وعلى الثاني يكون في محل نصب لعطفه على الموصول الذي هو في محل نصب ، ومعنى يدع يدفع دفعاً بعنف وجفوة أي يدفع اليتيم عن حقه دفعاً شديداً ، ومنه قوله سبحانه ﴿ يوم يدعون الى نار جهنم دعاً ﴾ وقد كانوا لا يورثون النساء والصبيان ، قال ابن عباس يدفعه عن حقه .

﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أي لا يحض نفسه ولا أهله ولا غيرهم على ذلك بخلاً بالمال أو تكذيباً للجزاء ، وهو مثل قوله في سورة الحاقة ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ .

﴿ فويل للمصلين ﴾ الفاء جواب لشرط محذوف كأنه قيل اذا كان ما ذكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين فويل لهم ، ووضع المصلين موضع لهم للتوسل بذلك الى بيان أن لهم قبائح أخر غير ما ذكر ، والمعنى عذاب لهم أو هلاك أو واد في جهنم لهم كما سبق الخلاف في معنى الويل ، ويجوز أن يكون الفاء لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما ذكر من قبائحهم .

﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ أي غافلون غير مبالين . وإنما عبر بعن دون في لأن صلاة المؤمن لا تخلو عن سهو بدليل وقوعه للأنبياء ولأن المراد السهو عن الصلاة بتأخيرها عن وقتها لا السهو فيها .

قال الواحدي نزلت في المنافقين الذين لا يرجون بصلاتهم ثواباً ان صلوا ولا يخافون عليها عقاباً ان تركوا فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها ، واذا كانوا مع المؤمنين صلوا رياء واذا لم يكونوا معهم لم يصلوا .

قال النخعي الذي هم عن صلاتهم ساهون هو الذي اذا سجد قال برأسه هكذا وهكذا ملتفتاً . وقال قطرب هو الذي لا يقرأ ولا يذكر الله ؛ وقرأ ابن مسعود لاهون مكان ساهون قال ابن عباس هم المنافقون يتركون الصلاة في السر ويصلون في العلانية .

عن مصعب بن سعد قال : قلت لأبيّ أرأيت قول الله ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ أينا لا يسهو أينا لا يحدث نفسه ، قال إنه ليس كذلك إنه إضاعة الوقت .

وعن سعد بن أبي وقاص قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الآية قال « هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها » قال الحاكم والبيهقي الموقوف

أصح إسناداً ، قال ابن كثير : ضعف البيهقي رفعه وصحح وقفه وكذلك الحاكم .

وعن أبي برزة الأسلمي قال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الله أكبر هذه الآية خير لكم من أن يعطي كل رجل منكم جميع الدنيا هو الذي إن صلى لم يرج خير صلاته . وان تركها لم يخف ربه » رآه ابن جرير وابن مردويه ، قال السيوطي بسند ضعيف ففي اسناده جابر الجعفي وهو ضعيف ، وشيخه مبهم لم يسم ، وعن ابن عباس قال هم الذين يؤخرونها عن وقتها .

﴿ الذين هم يراؤون ﴾ الناس بصلاتهم إن صلوا أو يراؤون الناس بكل ما عملوه من أعمال البر ليثنوا عليهم ، قال ابن عباس هم المنافقون يراؤون الناس بصلاتهم اذا حضروا ويتركونها اذا غابوا ، قال الخازن أما من يظهر النوافل ليقتدى به ويأمن على نفسه من الرياء فلا بأس بذلك وليس بمراء .

﴿ ويمنعون ﴾ الناس أو الطالبين ﴿ الماعون ﴾ فاعول من المعن الشيء وهو القليل يقال مال معن أي قليل ، قاله قطرب ، أو اسم مفعول من عانه يعينه ، والأصل معوون ، وكان من حقه على هذا ان يقال معون ، كمصون ومقول اسمي مفعول من صان وقال ، ولكنه قلبت الكلمة بأن قدمت عيناً على فائها فصار موعون ، ثم قلبت الواو الأولى ألفاً فوزنه الآن معقول .

قال اكثر المفسرين : الماعون اسم لما يتعاوره الناس بينهم من الدلو والفاس والقدر ، وما لا يمنع كالماء والملح ، وقيل هو الزكاة أي يمنعون زكاة أموالهم ، قال الزجاج وأبو عبيد والمبرد الماعون في الجاهلية كل ما فيه منفعة حتى الفاس والدلو والقدر والقادحة ، وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير .

وقالوا أيضاً الماعون في الاسلام الطاعة والزكاة ، وقال الفراء سمعت بعض العرب يقول الماعون الماء ، وقيل الماعون هو الحق على العبد على العموم ، وقيل هو المستقل من منافع الأموال ، مأخوذ من المعن وهو القليل .

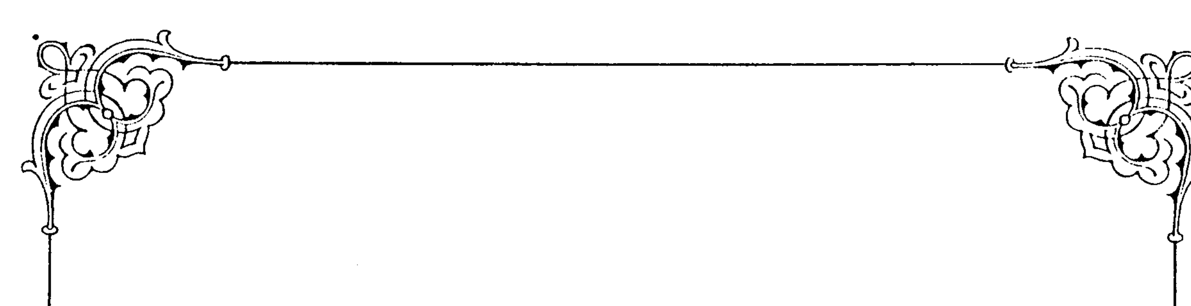
قال قطرب أصل الماعون من القلة والمعن الشيء القليل فسمى الله الصدقة والزكاة ونحو ذلك من المعروف ماعوناً لأنه قليل من كثير ، وقيل هو ما يبخل به كالماء والملح والنار .

وعن ابن مسعود قال « كنا نعد الماعون على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عارية الدلو والقدر والفاس والميزان وما تتعاطون بينكم » وعنه قال « كان المسلمون يستعيرون من المنافقين القدر والفاس وشبهه فيمنعونهم فانزل الله ويمنعون الماعون .

وعن ابي هريرة عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلم في الآية قال « ما تعاور الناس بينهم الفاس والقدر والدلو وأشباهه » أخرجه ابو نعيم والديلمي وابن عساكر .

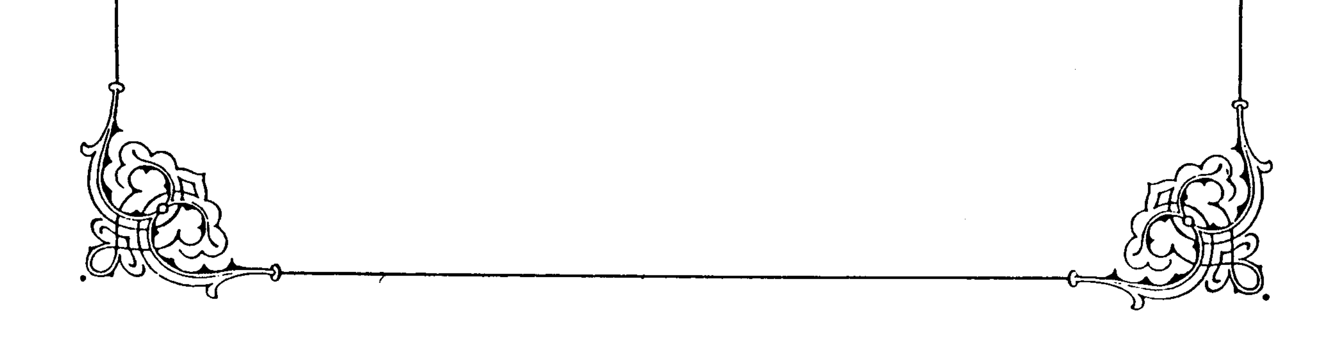
وعن قره بن دعموص النمري أنهم وفدوا الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا يا رسول الله ما تعهد الينا قال « لا تمنعوا الماعون قالوا وما الماعون قال في الحجر والحديدة وفي الماء قالوا فأي الحديدة قال قدركم النحاس ، وحديد الفاس الذي تمتهنون به ، قالوا وما الحجر ، قال قدوركم الحجارة » أخرجه ابن ابي حاتم وابن مردويه . قال ابن كثير غريب جداً ورفعه منكر ، وفي إسناده من لا يعرف .

وعن سعيد بن عياض عن اصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم الماعون الفاس والقدر والدلو وقال ابن عباس عارية متاع البيت ، وعن علي ابن أبي طالب قال الماعون الزكاة المفروضة يراؤون بصلاتهم ويمنعون زكاتهم .



سورة الكوثر

وتسمى سورة النحر هي ثلاث آيات وهي مكية في قول ابن عباس والكلبي ومقاتل ومدنية في قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة ، وعن ابن عباس وابن الزبير وعائشة انها نزلت سورة الكوثر بمكة .





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قرأ الجمهور هكذا ، وقرأ الحسن وابن محيصن وطلحة والزعفراني أنطيناك بالنون قيل هي لغة العرب العاربة أي قضينا لك وخصصناك به فهو لك ولأمتك من قبل وجودك وإن لم تستول عليه وتتصرف فيه إلا في القيامة ، فالعطاء ناجز والتمكن والاستيلاء مستقبل ، والكوثر فوعل من الكثرة وصف به للمبالغة في الكثرة مثل النوفل من النفل ، والجوهر من الجهر ، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو القدر أو الخطر كوثراً .

فالمعنى على هذا إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير البالغ في الكثرة الى الغاية ، وذهب اكثر المفسرين كما حكاه الواحدي الى أن الكوثر نهر في الجنة ، وقيل هو حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الموقف ، قاله عطاء وقال عكرمة الكوثر النبوة ، وقال الحسن هو القرآن وقال الحسن بن الفضل هو تفسير القرآن وتخفيف الشرائع .

وقال ابو بكر بن عياش هو كثرة الأصحاب والأمة ، وقال ابن كيسان هو الايثار ، وقيل هو الاسلام ، وقيل رفعة الذكر ، وقيل نور القلب ، وقيل الشفاعة ، وقيل المعجزات ، وقيل إجابة الدعوة ، وقيل لا إله إلا الله وقيل الفقه في الدين ، وقيل الصلوات الخمس ، وسيأتي بيان ما هو الحق .

وعن أنس قال أغفى رسول الله إغفاءة فرفع رأسه متبسماً فقال : « إنه أنزل عليّ آنفاً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر ، حتى ختمها قال هل تدرون ما الكوثر ، قالوا الله ورسوله أعلم ، قال هو نهر أعطانيه

ربي في الجنة عليه خير كثير ، ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته كعدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول يا رب إنه من أمتي فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعدك » أخرجه احمد وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه ، وأخرجه أيضاً مسلم في صحيحه[١] .

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء فإذا مسك أذفر ، قلت ما هذا يا جبريل ؟ « قال هذا الكوثر الذي أعطاكه الله » أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما[٢] .

وقد روي عن أنس من طرق كلها مصرحة بأن الكوثر هو النهر الذي في الجنة ، وعن عائشة قالت هو نهر أعطيه نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم في بطنان الجنة ، وعن ابن عباس انه نهر في الجنة وعن حذيفة قال « نهر في الجنة » وحسن السيوطي إسناده .

وعن أسامة بن زيد مرفوعاً أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنك أعطيت نهراً في الجنة يدعى الكوثر فقال أجل وأرضه ياقوت ومرجان وزبرجد ولؤلؤ ، هو نهر من أنهار الجنة أعطانيه الله » أخرجه ابن مردويه .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً قال يا رسول الله ما الكوثر ؟ قال « هو نهر من أنهار الجنة أعطانيه الله » أخرجه ابن مردويه .

---

(١) رواه البخاري في « صحيحه » بهذا اللفظ في كتاب الرقاق ، باب الحوض ٤١٢/١١ وشك الراوي في آخره ، وهو (هدبة بن خالد) في رواية ، « فإذا طينه أو طيبه » قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٤١٢/١١ : أراد بذلك أن أبا الوليد لم يشك في روايته ، أنه بالنون ، وهو المعتمد . قال : وتقدم في تفسير سورة الكوثر من طريق شيبان عن قتادة : فأهوى الملك بيده فاستخرج من طينه مسكاً أذفر . والأذفر : طيب الريح .

(١) أي ليلة الإسراء ، كما في رواية البخاري في التفسير ٥٦٢/٨ : عن أنس رضي الله عنه قال : لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال : « أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوف ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر » .

فهـذه الأحاديث تـدل على أن الكوثـر هو النهـر الـذي في الجنـة فيتعين المصير اليها ، وعدم التعويـل على غيرهـا ، وإن كان معنى الكـوثر هـو الخير الكثيـر في لغة العـرب ، فمن فسره بمـا هو أعم ممـا ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو تفسير ناظر الى المعنى اللغوي كما أخرج أحمد والترمذي وصححه وابن ماجة وغيرهم عن عطاء بن السائب قال:قال محارب بن دثار قال سعيد بن عبيد في الكوثر قلت حـدثنا عن ابن عبـاس انه قـال هو الخيـر الكثير فقال صدق انه للخير الكثير ، ولكن حدثنـا ابن عمر قـال نزلـت إنـا أعطينـاك الكوثر فقال رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم « الكـوثر نهـر في الجنة حـافتاه من ذهب يجري على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل »

وأخرج البخاري وابن جـرير والحـاكم من طريق أبي بشـر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال في الكوثر هو الخير الذي أعطاه الله اياه ، قال ابـو بشر قلت لسعيد ابن جبير فان ناساً بزعمون أنـه نهر في الجنـة قال النهـر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه .

وهذا التفسير من حبر الأمة ابن عباس رضي الله تعالى عنهمـا ناظـر الى المعنى اللغوي كما عرفناك ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد فسره فيما صح عنه أنه النهر الذي في الجنة ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل .

قال القرطبي أصح هذه الأقوال أنه النهر أو الحوض لأنـه ثابت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نصاً في الكوثر .

قـال القاضي عيـاض : أحاديث الحـوض صحيحـة والإيمـان بـه فـرض والتصديق به من الإيمان وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة لا يتأول ولا يختلف فيه ، وحديثه متواتر النقل ، رواه خلائق من الصحابة ، وقد جمع ذلك كله البيهقي في كتابه البعث والنشور بأسانيده وطرقه المتكاثرة .

وذهب صـاحب القوت وغيـره الى أن حوض النبي صلى الله عليـه وآلـه

وسلم إنما هو بعد الصراط ، والصحيح أن له صلى الله عليه وآله وسلم حوضين وكلاهما يسمى كوثراً .

واختلف في الميزان والحوض أيهما قبل الآخر فقيل الميزان وقيل الحوض قال ابو الحسن الفاسي والصحيح ان الحوض قبل .

قلت والمعنى يقتضيه فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشاً فيقدم قبل الصراط والميزان والله أعلم .

﴿ فصل لربك ﴾ وكان الظاهر ان يقول لنا فانتقل الى الاسم المظهر على طريق الالتفات لأنه يوجب عظمة ومهابة ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، والمراد الأمر له صلى الله عليه وآله وسلم بالدوام على إقامة الصلوات المفروضة ، قال ابن عباس الصلاة المكتوبة وقيل صلاة عيد النحر ، وهذا يناسب كونها مدنية ، والأول يناسب كونها مكية .

﴿ وانحر ﴾ البدن التي هي خيار اموال العرب ، قال محمد بن كعب : أن ناساً كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله فأمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون صلاته ونحره له ، وقال قتادة وعطاء وعكرمة المراد صلاة العيد ونحر الأضحية ، وقال سعيد بن جبير : صل لربك صلاة الصبح المفروضة بجمع ، وانحر البدن في منى .

وقيل النحر وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة حذاء النحر ، قاله محمد بن كعب ، وقيل هو أن يرفع يديه في الصلاة عند التكبيرة الى حذاء نحره ، وقيل هو أن يستقبل القبلة بنحره ، قاله الفراء والكلبي وأبو الأحوص ، قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول نتناحر أي نتقابل نحر هذا الى نحر هذا أي قبالته .

وقال ابن الأعرابي هو انتصاب الرجل في الصلاة بازاء المحراب ، من قولهم : منازلهم تتناحر أي تتقابل ، وروي عن عطاء أنه قال أمره أن يستوي بين السجدتين جالساً حتى يبدو نحره ، وقال سليمان التيمي المعنى وارفع

يديك بالدعاء الى نحرك .

وظاهر الآية الأمر له صلى الله عليه وآله وسلم بمطلق الصلاة ومطلق النحر ، وأن يجعلهما لله عز وجل لا لغيره ، وما ورد في السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص فهو في حكم المقيد له .

عن علي بن أبي طالب قال لما نزلت هذه السورة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لجبريل « ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي ، فقال إنها ليست بنحيرة ولكن يأمرك اذا تحرمت للصلاة ان ترفع يديك اذا كبرت واذا ركعت واذا رفعت رأسك من الركوع فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع ، وان لكل شيء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم رفع اليدين من الاستكانة التي قال الله ﴿ فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ » أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في سننه وهو من طريق مقاتل بن حيان عن الأصبغ بن نباتة عن علي .

وعن ابن عباس في الآية قال إن الله أوحى الى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن ارفع يديك حذاء نحرك اذا كبرت للصلاة ، فذاك النحر ، وعن علي في الآية قال : « وضع يده اليمنى على وسط ساعده اليسرى ثم وضعهما على صدره في الصلاة » وعن أنس « عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثله » أخرجه أبو الشيخ والبيهقي في سننه .

وعن ابن عباس أيضاً اذا صليت فرفعت رأسك من الركوع فاستو قائماً ، وعنه قال هو الذبح يوم الأضحى يقول اذبح يوم النحر .

﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ أي مبغضك هو المنقطع عن الخير على العموم ، فيعم خيري الدنيا والآخرة ، أو الذي لا عقب له أو الذي لا يبقى ذكره بعد موته .

وظاهر الآية العموم ، وإن هذا شأن كل من يبغض النبي صلى الله عليه

وسلم ولا ينافي ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل كما سيأتي فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما مر غير مرة .

قيل كان أهل الجاهلية اذا مات الذكور من أولاد الرجل قالوا قد بتر فلان ، فلما مات ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ابراهيم خرج أبو جهل الى أصحابه فقال بتر محمد ، فنزلت الآية ، وقيل القائل بذلك عقبة بن أبي معيط .

قال أهل اللغة الأبتر من الرجال الذي لا ولد له ، ومن الدواب الذي لا ذنب له ، وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر ، وأصل البتر القطع ، يقال بترت الشيء بتراً قطعته ، وفي المختار بتره قطعه قبل التمام ، وبابه نصر ، والانبتار الانقطاع ، والأبتر المقطوع الذنب ، وبابه طرب .

وعن ابن عباس قال : « قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش أنت خير أهل المدينة وسيدهم ، ألا ترى الى هذا الصابىء المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السقاية وأهل السدانة ، قال أنتم خير منه فنزلت ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ ونزلت ﴿ الم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب الى قوله فلن تجد له نصيراً ﴾ » أخرجه البزار وابن أبي حاتم وابن مردويه ، قال ابن كثير وإسناده صحيح .

وعن أبي أيوب قال : « لما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مشى المشركون بعضهم الى بعض فقالوا إن هذا الصابىء قد بتر الليلة ، فأنزل الله ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ إلى آخر السورة أخرجه الطبراني وابن مردويه .

وأخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال « كان أكبر ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، القاسم ثم زينب ثم عبد الله ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية رضي الله تعالى عنهم ، فمات القاسم وهو أول ميت من أهله وولده بمكة ، ثم مات عبد الله فقال العاص بن

وائل السهمي قد انقطع نسله فهو أبتر ، فأنزل الله ﴿ إن شانئك هو الأبتـر ﴾ » وفي اسناده الكلبي ، وعنه قال هو أبـو جهل وعنـه قال يقـول عدوك وقيـل ولد القاسم ثم زينب ثم عبد الله قال الكلبي : ولدت زينب ثم القاسم ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية ثم عبد الله ، وكان يقال له الطيب والـطاهر ، قـال وهذا هـو الصحيح ، وغيره تخليط .



سورة الكافرون

هي ست آيات وهي مكية في قول ابن مسعود والحسن وعكرمة . ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك . وعن ابن الزبير أنها نزلت بالمدينة .

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر : « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . قرأ بهذه السورة وبقل هو الله أحد في ركعتي الطواف » .

وفي مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . قرأ بهما في ركعتي الفجر » . وعن ابن عمر قال : « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بضعاً وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ﴿ وقل هو الله أحد ﴾ » أخرجه أحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه وابن حبان وابن مردويه .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبيّ قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . يوتر بـ ﴿ سبح ﴾ و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ تعدل ربع القرآن ، وكان يقرأ بهما في ركعتي الفجر » أخرجه محمد بن نصر والطبراني في الاوسط .

وعن نوفل بن معاوية الاشجعي أنه قال يا رسول الله علمني ما أقول اذا أويت الى فراشي قال اقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ثم نم على خاتمتها فانها براءة من الشرك » . أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ألا أدلكم على كلمة تنجيكم من الاشراك بالله تقرأون قل يا أيها الكافرون عند منامكم » . أخرجه أبو يعلى والطبراني .

وعن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لقي الله بسورتين فلا حساب عليه ﴿ قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ﴾ » أخرجه ابن مردويه .

وعن خباب أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : اذا أخذت مضجعك فاقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لم يأت فراشه قط الا قرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ حتى ختمها » أخرجه البزار والطبراني وابن مردويه ، وفي الباب أحاديث كثيرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ الألف واللام للجنس ، ولكنها لما كانت الآية خطاباً لمن سبق في علم الله أنه يموت على كفره كان المراد بهذا العموم خصوص من كان كذلك لأن من الكفار عند نزول هذه الآية من أسلم وعبد الله سبحانه .

وسبب نزول هذه السورة إن الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة فأمره الله سبحانه أن يقول لهم ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ أي لا أفعل في الحال ما تطلبون مني من عبادة ما تعبدون من الأصنام . قيل والمراد فيما يستقبل من الزمان لأن لا النافية لا تدخل في الغالب إلا على المضارع الذي في معنى الاستقبال كما أن (ما) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال .

وذكر الحافظ ابن القيم في بدائع الفوائد عشر مسائل تحت هذه الآية وقال وقع (ما) فيها بدلا عن (من) ومعناه أنتم لا تعبدون معبودي فالمقصود المعبود لا العبادة ، ولا يصح في النظم البديع والمعنى الرفيع إلا لفظ (ما) لإيهامها ومطابقتها الغرض الذي تضمنته الآية انتهى .

عن ابن عباس : « أن قريشاً دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء ، فقالوا هذا لك يا محمد وكف عن شتم آلهتنا ، ولا تذكرها بسوء فإن لم تفعل فإنا نعرض

عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح ، قال ما هي ؟ قالوا تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، قال حتى أنظر ما يأتيني من ربي فجاء الوحي من عند الله ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ﴾ إلى آخر السورة وأنزل الله ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ إلى قوله ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني .

وعن سعيد بن ميناء مولى أبي البختري قال : لقى الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأمية بن خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا ؛ « يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله ، فان كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظاً ، وإن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظاً فأنزل الله هذه السورة » أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري .

وعن ابن عباس أن قريشاً قالت لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك فأنزل الله هذه السورة كلها .

﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ أي ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهي .

قال الحافظ ابن القيم في البدائع : اشتمال هذه على النفي المحض خاصة هذه السورة العظيمة فانها سورة براءة من الشرك كما جاء في وصفها فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلقة بين الموحدين والمشركين ، ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة ، هذا مع انها متضمنة للاثبات صريحاً .

فقوله ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ براءة محضة ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ اثبات أن له معبوداً يعبده وأنهم بريئون من عبادته ، فتضمنت النفي والاثبات فطابقت قول امام الحنفاء ﴿ انني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني ﴾ وطابقت

قول الفئة الموحدين ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾ .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يقرأ بها وبقل هو الله أحد في سنة الفجر وسنة المغرب ، فان هاتين السورتين سورتا الاخلاص ، وقد اشتملتا على نوعي التوحيد الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما وهما توحيد العمل والاعتقاد المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد وانه إلّه واحد صمد لم يلد ولم يولد .

والثاني توحيد القصد والارادة وهو أن لا يعبد إلا إياه فلا يشرك به في عبادته سواه بل يكون وحده المعبود ، وهذه السورة مشتملة على هذا التوحيد انتهى .

﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ أي ولا أنا قط فيما سلف عابد ما عبدتم فيه ، والمعنى أنه لم يعهد مني ذلك ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ أي وما عبدتم في وقت من الأوقات ما أنا على عبادته ، كذا قيل ، وهذا على قول من قال انه لا تكرار في هذه الآيات لأن الجملة الأولى لنفي العبادة في المستقبل لما قدمنا من أن (لا) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال .

والدليل على ذلك أن لن تأكيد لما ينفيه (لا) قال الخليل في لن أن أصله (لا) فالمعنى لا أعبد ما تعبدون في المستقبل ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أطلبه من عبادة إلهي .

ثم قال : ولا أنا عابد ما عبدتم أي ولست في الحال بعابد معبودكم ولا أنتم في الحال بعابدين معبودي وقيل بعكس هذا ،وهو أن الجملتين الأوليتين للحال ، والجملتين الآخرتين للاستقبال بدليل قوله ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ كما لو قال القائل أنا ضارب زيداً وأنا قاتل عمراً ، فانه لا يفهم منه إلا الاستقبال .

قال الأخفش والفراء : المعنى لا أعبد الساعة ما تعبدون ولا أنتم عابدون الساعة ما أعبد ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم ولا أنتم عابدون في

المستقبل ما أعبد .

قال الزجاج : نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بهذه السورة عبادة آلهتهم عن نفسه في الحال وفي المستقبل ، ونفى عنهم عبادة الله في الحال ، وفيما يستقبل ، وقيل ان كل واحد منهما يصلح للحال والاستقبال ولكنا نخص أحدهما بالحال والثاني بالاستقبال رفعاً للتكرار .

وكل هذا فيه من التكلف والتعسف ما لا يخفى على منصف ، فان جعل قوله لا أعبد ما تعبدون للاستقبال وإن كان صحيحاً على مقتضى اللغة العربية ولكنه لا يتم جعل قوله ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ للاستقبال لأن الجملة الاسمية تفيد الدوام والثبات في كل الأوقات فدخول النفي عليها يرفع ما دلت عليه من الدوام والثبات في كل الأوقات ، ولو كان حملها على الاستقبال صحيحاً للزم مثله في قوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ وفي قوله ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ فلا يتم ما قيل من حمل الجملتين الآخرتين على الحال .

وكما يندفع هذا يندفع ما قيل من العكس لأن الجملة الثانية والثالثة والرابعة كلها جمل اسمية مصدرة بالضمائر التي هي المبتدأ في كل واحد منها مخبر عنها باسم الفاعل العامل فيها بعده منفية كلها بحرف واحد وهو لفظ لا في كل واحد منها فكيف يصح القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها في الحال والاستقبال مختلفة .

وأما قول من قال ان كل واحد منها يصلح للحال والاستقبال فهو إقرار منه بالتكرار ، لأن حمل هذا على معنى ، وحمل هذا على معنى ، مع الاتحاد يكون من باب التحكم الذي لا يدل عليه دليل .

وإذا تقرر لك هذا فاعلم أن القرآن نزل بلسان العرب ، ومن مذاهبهم التي لا تجحد ، واستعمالاتهم التي لا تنكر ، انهم إذا أرادوا التأكيد كرروا كما أن من مذاهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أوجزوا ، هذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب ، وهذا مما لا يحتاج الى إقامة البرهان عليه ، لأنه إنما

يستدل على ما فيه خفاء ، ويبرهن على ما هو متنازع فيه .

وأما ما كان من الوضوح والظهور والجلاء بحيث لا يشك فيه شاك ولا يرتاب فيه مرتاب ، فهو مستغن عن التطويل ، غير محتاج الى تكثير القال والقيل .

وقد وقع في القرآن الكريم من هذا ما يعلمه كل من يتلو القرآن ، وربما يكثر في بعض السور كما في سورة الرحمن وسورة المرسلات ، وفي أشعار العرب من هذا ما لا يأتي عليه الحصر .

وقد ثبت عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو أفصح من نطق بلغة العرب أنه كان إذا تكلم بالكلمة أعادها ثلاث مرات .

وإذا عرفت هذا ففائدة ما وقع في السورة من التأكيد هو قطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم ، وإنما عبر سبحانه بما التي لغير العقلاء في المواضع الأربعة لأنه يجوز ذلك كما في قوله سبحان ما سخركن لنا ونحوه .

والنكتة في ذلك أن يجري الكلام على نمط واحد ، ولا يختلف ، وقيل أنه أراد الصفة كأنه قال لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق ، وقيل أن (ما) في المواضع الأربعة هي المصدرية لا الموصولة أي لا أعبد عبادتكم ولا أنتم عابدون عبادتي الخ .

وجملة ﴿ لكم دينكم ﴾ مستأنفة لتقرير قوله لا أعبد ما تعبدون وقوله ولا أنا عابد ما عبدتم كما أن قوله ﴿ ولي دين ﴾ تقرير لقوله ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ في الموضعين أي إن رضيتم بدينكم وشركرم فقد رضيت بديني وتوحيدي كما في قوله ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ والمعنى أن دينكم الذي هو الاشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه الى الحصول لي كما تطمعون ، وديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوزه إلى الحصول لكم .

وقيل المعنى لكم جزاؤكم ولي جزائي ، لأن الدين الجزاء .

قيل وهذه الآية منسوخة بآية السيف ، وقيل ليست بمنسوخة لأنها اخبار ، والاخبار لا يدخلها النسخ ، وقيل السورة كلها منسوخة .

وقال القاضي : ﴿ ولي ديني ﴾ الذي أنا عليه لا أرفضه ، فليس فيه إذن في الكفر ، ولا منع عن الجهاد فلا يكون منسوخاً بآية القتال ، وقد فسر الدين بالحساب والجزاء والعبادة .

وقال الحافظ بن القيم في البدائع : وقد غلط في السورة خلائق وظنوا انها منسوخة بآية السيف لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم ، وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب ، وكلا القولين غلط محض فلا نسخ في السورة ولا تخصيص ، بل هي محكمة عمومها نص محفوظ ، وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ فيها .

وهذه السورة أخلصت للتوحيد ، ولهذا تسمى سورة الاخلاص ، والآية اقتضت البراءة المحضة وإن ما أنتم عليه من الدين لا أوافقكم عليه فانه دين باطل ، فهو مختص بكم لانشرككم فيه ، ولا تشركوننا في ديننا الحق ، فهذا غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم ، فأين الاقرار حتى يدعى النسخ والتخصيص ؟ أفترى إذا جوهدوا بالسيف كما جوهدوا بالحجة لا يصح أن يقال لهم لكم دينكم ولي دين .

بل هذه الآية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يطهر الله منهم بلاده وعباده وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أهل سنته وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به الداعين إلى غير سنته إذ قال لهم خلفاء الرسول وذريته لكم دينكم ولنا ديننا هذا فلا يقتضي إقرارهم على بدعهم بل يقولون لهم هذا براءة منها وهم مع ذلك منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الامكان انتهى حاصله .

وقـرأ الجمهور ﴿ ولي ﴾ بـإسكان اليـاء وحذف اليـاء من (ديني) وصلاً ووقفاً ، وقرىء بفتح الياء من قوله لي وإثباتها من ديني وصلاً ووقفاً وقالوا لأنها إسم فلا تحذف ، ويجاب بأن حذفها لرعاية الفواصل سائغ وإن كانت اسمـاً ، ويجاب أيضاً بأنها من ياءات الزوائـد فيراعى فيـه اتباع رسم المصحف ، وهي غير ثابتة فيه اكتفاء بالكسرة .

سورة النصر

وتسمى سورة التوديع ، وهي ثلاث آيات وهي مدنية بالاجماع بلا خلاف قال ابن عباس أنزل بالمدينة اذا جاء نصر الله والفتح وعن ابن عمر قال هذه السورة « نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أوسط أيام التشريق بمنى وهو في حجة الوداع ﴿ اذا جاء نصر الله والفتح ﴾ حتى ختمها فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنها الوداع » أخرجه البزار وأبو يعلى والبيهقي[1] .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ اذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعيت الي نفسي » أخرجه أحمد وغيره ، وزاد ابن مردويه في لفظ : وقرب الي أجلي ، وفي لفظ لما نزلت نعيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسه حين أنزلت فأخذ في أشد ما كان قط اجتهاداً في أمر الآخرة .

وعن أم حبيبة قالت : « لما أنزل ﴿ اذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إن الله لم يبعث نبياً الا عمر من أمته شطر ما عمر النبي الماضي قبله ، فإن عيسى بن مريم كان أربعين سنة في بني اسرائيل وهذه لي عشرون سنة وأنا ميت في هذه السنة فبكيت فاطمة رضي الله تعالى عنها فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنت أول أهلي بي لحوقاً فتبسمت » أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه .

وعن ابن عباس قال لما نزلت ﴿ اذا جاء نصر الله والفتح ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاطمة وقال : « إنه قد نعيت الي نفسي فبكت ثم ضحكت .وقالت أخبرني أنه نعيت اليه نفسه فبكيت . فقال اصبري فانك أول أهلي لحاقاً بي فضحكت » أخرجه البيهقي[1] .

وتقد تقدم في سورة الزلزلة أن هذه السورة تعدل ربع القرآن وهي آخر سورة نزلت جميعاً .

---

(١) روى البخاري في « صحيحه » ٨/٥٦٥ : عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأنَّ بعضهم وجد في نفسه ، فقال : لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟! فقال عمر : إنه من حيث علمتم ، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم ، قال : ماتقولون في قول الله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لي : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له ، قال : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ وذلك علامة أجلك ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول .

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : وفي الحديث فضيلة ظاهرة لابن عباس ، وتأثير لإجابة دعوة النبي ﷺ أن يعلمه الله التأويل ويفقهه في الدين ، وفيه جواز تحديث المرء عن نفسه بمثل هذا ، لإظهار نعمة الله عليه ، وإعلام من لا يعرف قدره لينزله منزلته ، وغير ذلك من المقاصد الصالحة ، لا للمفاخرة والمباهاة ، وفيه جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات ، وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه في العلم ، ولهذا قال علي رضي الله عنه : أو فهماً يؤتيه الله رجلاً في القرآن .

(٢) روى مسلم في « صحيحه » رقم (٣٠٢٤) عن عبيد الله بن عتبة ، قال : قال لي ابن عباس : تعلم (وقال هارون : تدري) آخر سورة نزلت في القرآن ، نزلت جميعاً ؟ .

قلت : نعم ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال : صدقت . قال مسلم : وفي رواية ابن أبي شيبة (أحد الرواة): تعلم أي سورة ، ولم يقل : آخر . قال الحافظ في « الفتح » ٨/٥٦٤ : وأخرج النسائي من حديث ابن عباس أنها آخر سورة نزلت في القرآن . قال : وقد تقدم في تفسير (براءة) أنها آخر سورة نزلت ، قال : والجمع بينهما أن آخرية سورة النصر ، نزولها كاملة ، بخلاف (براءة) ، فالمراد نزول بعضها أو معظمها ، وإلا ففيها آيات كثيرة نزلت قبل سنة الوفاة النبوية ، وأوضح في ذلك أن أول (براءة) نزل عقب فتح مكة في سنة تسع عام حج أبي بكر ، وقد نزل (اليوم أكملت لكم دينكم) وهي في (المائدة) في حجة الوداع سنة عشر ، فالظاهر أن المراد معظمها ، ولا شك أن غالبها نزل في غزوة تبوك ، وهي آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ النصر العون مأخوذ من قولهم قد نصر الغيث الأرض إذا أعان على نباتها ومنع من قحطها ، يقال نصره على عدوه ينصره نصراً إذا أعانه ، والإسم النصرة واستنصره على عدوه إذا سأله أن ينصره عليه .

قال الواحدي قال المفسرون إذا جاءك يا محمد نصر الله على من عاداك وهم قريش ، وقيل المراد نصره صلى الله عليه وآله وسلم على قريش من غير تعيين ، وقيل نصره على من قاتله من الكفار ، وقيل « إذا » بمعنى قد وقيل بمعنى إذ ، ومعنى جاء حصل .

وإنما عبر عن الحصول بالمجيء تجوزاً للاشعار بأن المقدرات متوجهة من الازل إلى أوقاتها المعينة فتقرب منها شيئاً فشيئاً ، وقد قرب النصر من وقته فكن مترقباً لوروده مستعداً لشكره ، قاله القاضي وهو استعارة تبعية لكن قول الراغب المجيء الحصول ويكون في المعاني والأعيان يقتضي خلافه .

وفي الخطيب ﴿ جاء ﴾ بمعنى استقر وثبت في المستقبل بمجيء وقته

هذا بالنسبة للسورة ، وأما بالنسبة لآخر آية نزلت ، فقد روى البخاري عن ابن عباس : آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا وفي « الفتح » : وجاء عن ابن عباس أيضاً من وجه آخر : « آخر آية نزلت على النبي ﷺ : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ أخرجه الطبري من طرق . قال الحافظ : وطريق الجمع بين هذين القولين أن هذه الآية ختام الآيات المنزلة في الربا ، وهي معطوفة عليهن ، ثم قال : وأما ما سيأتي في آخر سورة (النساء) من حديث البراء : آخر آية نزلت ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ﴾ فيجمع بينه وبين قول ابن عباس ، بأن الآيتين نزلتا جميعاً ، فيصدق أن . . .

المضروب له في الأزل ، وإذا منصوبة بسبح الذي هو جوابها ونصر الله مصدر مضاف لفاعله ومفعوله محذوف أي نصره اياك والمؤمنين .

﴿ والفتح ﴾ أي فتح مكة وقيل هو فتح سائر البلاد ، وقيل هو ما فتح الله عليه من العلوم والأول أظهر والثاني أنسب والثالث أبعد .

عن ابن عباس أن عمر سألهم عن قول الله ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فقالوا فتح المدائن والقصور ، قال فأنت يا ابن عباس ما تقول ، قال قلت مثل ضرب لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نعيت له نفسه .

وأخرج البخاري غيره عن ابن عباس قال « كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، وكان بعضهم وجد في نفسه فقال لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله فقال عمر أنه من قد علمتم ، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم ، فقال ما تقولون في قول الله عز وجل ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً فقال لي أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت لا فقال ما تقول ، فقلت هو أجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعلمه الله له قال ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ فقال عمر لا أعلم منها إلا ما تقول .

قال الرازي الفرق بين النصر والفتح ان الفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان منغلقاً ، والنصر كالسبب للفتح ، فلهذا بدأ بذكر النصر ، وعطف عليه الفتح ، أو يقال النصر كمال الدين ، والفتح إقبال الدنيا الذي هو تمام النعمة ، أو يقال النصر الظفر ، والفتح الجنة هذا معنى كلامه ، ويقال الأمر أوضح من هذا وأظهر فإن النصر هو التأييد الذي يكون به قهر الأعداء وغلبهم والاستعلاء عليهم ، والفتح هو فتح مساكن الأعداء ودخول منازلهم .

﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ﴾ أي أبصرت الناس من العرب وغيرهم يدخلون في دين الله الذي بعثك به وهو الإسلام جماعات فوجاً

بعد فوج .

قال الحسن لما فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة قال العرب أما إذا ظفر محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأهل الحرم وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان فكانوا يدخلون في دين الله أفواجا أي جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً ، واثنين اثنين فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام .

قال عكرمة ومقاتل : أراد بالناس أهل اليمن ، وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين .

وانتصاب أفواجاً على الحال من فاعل يدخلون ومحل يدخلون النصب على الحال إن كان الرؤية بصرية ، وإن كانت بمعنى العلم فهو في محل نصب على أنه المفعول الثاني .

وعن أبي هريرة قال لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاء أهل اليمن وهم أرق قلوباً ، الايمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية » أخرجه ابن مردويه .

وعن ابن عباس قال بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة إذ قال « الله أكبر قد جاء نصر الله والفتح وجاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم ، لينة طباعهم ، الايمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية » أخرجه الطبراني وابن مردويه .

وعن جابر بن عبدالله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا » أخرجه ابن مردويه .

وعن أبي هريرة قال : « تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً قال ليخرجن منه أفواجاً ، كما دخلوا فيه أفواجاً » أخرجه الحاكم وصححه .

﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ هذا جواب الشرط وهو العامل فيه ، والتقدير فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله كما مر ، وقال مكي العامل في (إذا) هو جاء ، ورجحه أبو حيان وضعف الأول بأن ما جاء بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها .

وقوله ﴿ بحمد ربك ﴾ في محل نصب على الحال أي فقل سبحان الله متلبساً بحمده أو حامداً له ، وفيه الجمع بين تسبيح الله المؤذن بالتعجب مما يسره الله له مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس ، وبين الحمد له على جميل صنعه له وعظيم منته عليه بهذه النعمة التي هي النصر والفتح لأم القرى التي كان أهلها قد بلغوا في عداوته إلى أعلى المبالغ حتى أخرجوه منها بعد أن افتروا عليه من الأقوال الباطلة ، والأكاذيب المختلقة ما هو معروف من قولهم هو مجنون هو ساحر هو شاعر هو كاهن ونحو ذلك .

ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمره نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالاستغفار فقال ﴿ واستغفره ﴾ أي اطلب منه المغفرة لذنبك ، وسله الغفران هضماً لنفسك واستقصاراً لعملك ، واستدراكاً لما فرط منك من ترك ما هو الأولى .

وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يرى قصوره عن القيام بحق الله ويكثر من الاستغفار والتضرع وإن كان قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وقيل ان الاستغفار منه صلى الله عليه وآله وسلم ومن سائر الأنبياء هو تعبد تعبدهم الله به لا لطلب المغفرة لذنب كائن منهم ، وقيل إنما أمره الله سبحانه بالاستغفار تنبيها لأمته وتعريضاً بهم ، فكأنهم هم المأمورون بالاستغفار .

وقيل ان الله سبحانه أمره بالاستغفار لأمته لا لذنبه وقيل المراد بالتسبيح هنا الصلاة ، والأولى حمله على معنى التنزيه مع ما أشرنا إليه من كون فيه معنى التعجب سروراً بالنعمة ، وفرحاً بما حباه الله من نصر الدين وكبت أعدائه ونزول الذلة بهم ، وحصول القهر لهم .

قال الحسن : أعلم الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم انه قد اقترب أجله فأمره بالتسبيح والتوبة ليختم لـه في آخر عمـره بالـزيادة في العمـل الصالح ، فكان يكثر أن يقول «سبحانك اللهم وبحمدك اغفر لي أنك أنت التواب» .

قال قتادة ومقاتل : وعاش صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة سنتين .

وعن عائشة قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من قول « سبحان الله وبحمده وأستغفره وأتوب إليه » فقلت يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده واستغفر الله وأتوب إليه ، فقال أخبرني ربي اني سأرى علامة من أمتي فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه ، فقد رأيتها ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فتح مكة ورأيت الناس يدخلون الخ » أخرجه ابن أبي شيبة وابن جـرير وابن المنـذر وابن مردويه .

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن عائشة قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ، بتأويل القرآن تعني ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ وفي الباب أحاديث .

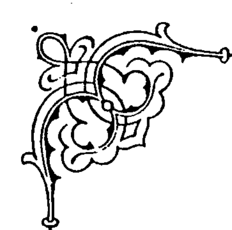
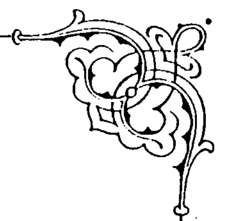
وقوله ﴿ إنه كان تواباً ﴾ تعليل لأمره سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستغفار أي من شأنه التوبة على المستغفرين له ، يتوب عليه ويرحمهم بقبول توبتهم ، وتواب من صيغ المبالغة ، ففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ في قبول توبة التائبين .

وقد حكى الرازي في تفسير اتفاق الصحابة رضي الله عنهم على أن هذه السورة دلت على نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن ابن عمر نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع ثم نزل ﴿ اليوم

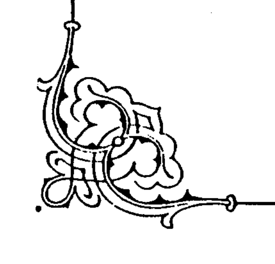
أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴾ فعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعدها ثمانين يوماً ثم نزلت آية الكلالة فعاش بعدها خمسين يوماً ، ثم نزل ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً ، وقيل سبعة أيام ، وقيل غير ذلك .

وكان فتح مكة في رمضان سنة ثمان ، وتوفي صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول على رأس العاشرة بالنظر لجعل التاريخ من الهجرة وإن كانت لشهرين وشيء مضت من الحادية عشرة إذا اعتبر التاريخ من أول السنة الشرعية وهو المحرم ، فلما هاجر صلى الله عليه وسلم لاثني عشر من ربيع الأول حسبوا الباقي من هذه السنة سنة مع أنها ناقصة شهرين واثني عشر يوماً ، فلما كانت وفاته لاثني عشر من ربيع الأول كان الماضي من هذه السنة وهو شهران واثنا عشر يوماً مكملاً ومتمماً لما نقصته السنة الأولى فصح قولهم أنه توفي في العاشرة أي على رأسها وحين كمالها بالنظر لجعل التاريخ من الهجرة ، ويصح أن يقال توفي في الحادية عشرة بالنظر لجعل التاريخ من أول السنة الشرعية تأمل والله تعالى أعلم .

سورة تبت

وتسمى سورة أبي لهب كما في البحر هي خمس آيات وهي مكية بلا خلاف وبه قال ابن عباس وابن الزبير وعائشة .



بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾

﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ قال مقاتل وابن عباس : خسرت ، وقيل خابت ، وقال عطاء : ضلت ، وقيل صفرت من كل خير ، ومنه قولهم شابت أم تابت أي هالكة من الهرم وقيل المعنى هلكت والأول أولى ، وخص اليدين بالتباب لأن أكثر العمل يكون بهما ، وقيل المراد باليدين نفسه وقد يعبر باليد عن النفس كما في قوله ﴿ بما قدمت يداك ﴾ أي نفسك ، والعرب تعبر كثيراً ببعض الشيء عن كله كقولهم أصابته يد الدهر وأصابته يد المنايا .

قرأ العامة لهب بفتح الهاء وقرىء بسكونها فقيل لغتان بمعنى كالنهر والنهر ، والشعر والشعر .

وقال الزمخشري هو من تغيير الأعلام ، ولم يختلف القراء في قوله ﴿ ذات لهب ﴾ إنها بالفتح ، والفرق أنها فاصلة فلو سكنت زال التشاكل .

وأبو لهب اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم ، وذكره سبحانه بكنيته لاشتهاره بها ولكن اسمه كما تقدم عبد العزى ، والعزى اسم صنم ، ولكون في هذه الكنية ما يدل على أنه ملابس للنار لأن اللهب هو لهب النار ، وإن كان إطلاق ذلك عليه في الأصل لكونه كان جميلاً وإن وجهه يتلهب لمزيد حسنه كما تتلهب النار .

قال القرطبي أو لأن الله أراد أن يحقق نسبته بأن يدخله النار فيكون أبا لهب تحقيقاً للنسب وامضاء للفأل والطيرة التي اختارها لنفسه ، وقيل اسمه

كنيته ، وروى صاحب الكشاف أنه قرىء تبت يدا أبو لهب وذكر وجه ذلك .

﴿ وتب ﴾ أي هلك ، قال الفراء : الأول دعاء عليه ، والثاني خبر كما تقول أهلكه الله وقد هلك ، والمعنى أنه قد وقع ما دعى به عليه ، وتدل عليه قراءة ابن مسعود (وقد تب) وقيل كلاهما إخبار أراد بالأول هلاك عمله وبالثاني هلاك نفسه ، وقيل كلاهما دعاء عليه ويكون في هذا شبه من مجيء العام بعد الخاص ، وإن كان حقيقة اليدين غير مرادة .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال : « لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى صعد الصفا فهتف يا صباحاه فاجتمعوا إليه فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي قالوا ما جربنا عليك كذباً قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب تباً لك إنما جمعتنا لهذا ، ثم قام فنزلت هذه السورة ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾[(١)] .

﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ أي ما دفع عنه ما حل به من التباب وما نزل به من عذاب الله ما جمع من المال ولا ما كسب من الأرباح والجاه ، أو المراد بقوله ﴿ ماله ﴾ ما ورثه من أبيه ﴿ وما كسب ﴾ الذي كسبه بنفسه .

قال مجاهد : وما كسب من ولد وولد الرجل من كسبه ، ويجوز أن تكون (ما) في قوله ما أغنى استفهامية أي أيّ شيء أغنى عنه وكذا في قوله (وما كسب) أي وأيّ شيء كسب أو مصدرية أي وكسبه .

والظاهر أن (ما) الأولى نافية والثانية موصولة .

عن عائشة « قالت إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ابنه من كسبه

---

(١) رواه البخاري ٥٦٧/٨ ورواه مسلم ١٩٤/١ بمعناه . وقوله : يا صباحاه : كلمة يعتادونها عند وقوع أمر عظيم ، فيقولونها ليجتمعوا ويتأهبوا له . ورواه ابن جرير الطبري ٣٣٦/٣٠ وأورده السيوطي في « الدر » ٤٠٨/٦ وزاد نسبته لسعيد بن منصور ، وابن المنذر .

ثم قرأت ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ قالت وما كسب ولده » أخرجه ابن أبي حاتم ، وعن ابن عباس قال كسبه ولده أي عتيبة بالتصغير وأما عتبة فقد أسلم ، وفسر الكسب بالولد ليغاير ما قبله فيسلم من التكرار .

ومات أبو لهب بالعدسة بعد وقعة بدر لسبع ليال ، قال الشهاب العدسة قرحة تعتري الانسان كانت العرب تهرب منها لأنها بزعمهم تعدي أشد العدوى .

ثم أوعده الله سبحانه بالنار فقال ﴿ سيصلى ناراً ﴾ قرأ الجمهور بفتح اللام واسكان الصاد وتخفيف اللام أي سيصلى هو بنفسه النار ويحترق بها ، وصلى من باب تعب ، وقرىء بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام والمعنى سيصليه الله .

ومعنى ﴿ ذات لهب ﴾ ذات اشتعال وتوقد وهي نار جهنم ﴿ وامرأته حمالة الحطب ﴾ معطوف على الضمير في يصلى وجاز ذلك للفصل ، أي وتصلى امرأته ناراً ذات لهب ، وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان ، وكانت عوراء تحمل الغضى والشوك والسعدان فتطرحها بالليل على طريق النبي صلى الله عليه وسلم ، كذا قال ابن زيد والضحاك والربيع بن أنس ومرة الهمداني .

وقال مجاهد وقتادة والسدي : أنها كانت تمشي بالنميمة بين الناس ، والعرب تقول فلان يحطب على فلان إذا نم به ، وقال سعيد بن جبير معنى حمالة الحطب انها حمالة الخطايا والذنوب من قولهم فلان يحتطب على ظهره كما في قوله ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ وقيل المعنى حمالة الحطب في النار .

قرأ الجمهور حمالة بالرفع على الخبرية على أنها جملة مسوقة للاخبار بأن امرأة أبي لهب حمالة الحطب ، وأما على ما قدمنا من عطف (وامرأته) على الضمير في (يصلى) فيكون رفع حمالة على النعت لامرأته والاضافة

حقيقية لأنها بمعنى المضي أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي حمالة .

وقرأ عاصم بالنصب على الذم أو على أنه حال من امرأته ، وقرىء حاملة الحطب ، وعن ابن عباس في الآية قال كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لتعقره وأصحابه ، وقال حمالة الحطب : نقالة الحديث .

﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ الجيد العنق والمسد الليف الذي تفتل منه الحبال ، قال أبو عبيدة المسد هو الحبل من صوف ، وقال الحسن هي حبال تكون من شجر ينبت باليمن يسمى بالمسد ، وقد تكون الحبال من جلود الابل أو من أوبارها والمسد أيضاً ليف المقل أو مطلق الليف ، والمقل شجر الدوم كما في المصباح والمختار .

وفي القاموس ﴿ المسد ﴾ بسكون السين مصدر بمعنى الفتل ، وبفتحها المحور من الحديد أو حبل من ليف أو كل حبل محكم الفتل ، والجمع مساد وأمساد .

قال الضحاك وغيره هذا في الدنيا كانت تعير النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، بالفقر وهي تحتطب في حبل تجعله في عنقها فخنقها اللّه به فأهلكها ، وهو في الآخرة حبل من نار .

وقال مجاهد وعروة بن الزبير هو سلسلة من نار يدخل في فيها ويخرج من أسفلها ، وقال قتادة هو قلادة من ودع كانت لها قال الحسن إنما كان خرزاً في عنقها ، وقال سعيد بن المسيب كانت لها قلادة فاخرة من جوهر فقالت واللات والعزى لأنفقتها في عداوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيكون ذلك عذاباً في جسدها يوم القيامة .

والمسد الفتل يقال مسد حبله يمسده مسداً أجاد فتله ، قال ابن عباس هي حبال تكون بمكة ، ويقال المسد العصا التي تكون في البكرة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو زرعة عن أسماء بنت أبي بكر قالت « لما نزلت

﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول :

مذمماً ابينا ودينه قلينا وأمره عصينا

ورسول الله صلى الله عليه وآله جالس في المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنها لن تراني » .

قال تعالى ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنـون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني ، قال لا ورب الكعبة ما هجاك فولت وهي تقول : قد علمت قريش أني ابنة سيدهاوأخرجه البزار بمعناه وقال لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الاسناد .

سورة الاخلاص

ولها أسماء كثيرة ذكرها الخطيب ، وزيادة اسماء تدل على شرف المسمى، وهذه السورة مصرحة بالتوحيد رادة على عباد الأصنام والاوثان والقائلين بالثنوية والتثليث ، هي أربع أو خمس آيات وهي مكية في قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر، ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي.

عن أبيّ بن كعب أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يا محمد انسب لنا ربك فأنزل الله ﴿قل هو الله أحد﴾ الخ اليس شيء يولد الا سيموت وليس شيء يموت الا سيورث وان الله لا يموت ولا يورث ولم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء رواه أحمد والبخاري في تاريخه وابن خزيمة والحاكم وصححه وغيرهم . ورواه الترمذي من طريق أخرى عن أبي العالية مرسلاً ولم يذكر أبياً ثم قال وهذا أصح .

وعن جابر قال « جاء أعرابي الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال انسب لنا ربك فأنزل الله ﴿ قل هو الله ﴾ الى آخر السورة أخرجه الطبراني والبيهقي وأبو نعيم وغيرهم وحسن السيوطي اسناده .

وعن ابن مسعود قال : « قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنسب لنا ربك فنزلت هذه السورة » أخرجه أبو الشيخ في العظمة والطبراني .

وعن ابن عباس «أن اليهود جاءت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم كعب ابن الأشرف وحيي بن أخطب فقالوا يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك فأنزل الله ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ﴾ فيخرج من الولد ﴿ ولم يولد ﴾ فيخرج من شيء » رواه البيهقي وغيره .

وعن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن » أخرجه أحمد والنسائي وغيرهما[3] .

---

(١) رواه مسلم في « صحيحه » ١/٥٥٧ ولفظه بتمامه : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : احشدوا (اجتمعوا) فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، فحشد من حشد ، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثم دخل ، فقال بعضنا لبعض : إني أرى هذا خبرٌ جاء من السماء ، فذاك الذي أدخله ، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال : « إني قلت لكم : سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا إنها تعدل ثلث القرآن » .

(٢) رواه أحمد في « المسند » ٥/١٣٣ ، والترمذي ٢/١٧٢ ، والطبري ٣٠/٣٤٢ ، والواحدي في « أسباب النزول » ٣٤٦ من حديث أبي سعد الصغاني عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبيّ بن كعب وفي سنده ضعف . ورواه الحاكم في « المستدرك » ٣/٥٤٠ أيضاً من حديث أبي سعد الصغاني به ، وصححه ، ووافقه الذهبي . وأورده السيوطي في « الدر » ٦/٤٠٩ وزاد نسبته للبخاري في « تاريخه » ، وابن خزيمة ، وابن أبي حاتم في « السنة » والبغوي في « معجمه » ، وابن المنذر في « العظمة » ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه . ورواه الترمذي ٢/١٧٢ عن عبد بن حميد عن عبيد الله بن موسى عن أبي جعفر عن الربيع عن أبي العالية فذكره مرسلاً ، ولم يذكر فيه عن أبيّ بن كعب ، وقال : وهذا أصح من حديث أبي سعد الصغاني . ورواه الطبري عن محمد بن عوف عن شريح بن إسماعيل بن مجالد عن مجالد عن الشعبي عن جابر . وذكره ابن كثير من رواية أبي يعلى الموصلي من طريق مجالد بن سعيد عن الشعبي عن جابر ، وأورده الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٧/١٤٦ من رواية الطبراني في « الأوسط » .

(٣) رواه البخاري في « صحيحه » ٦/١٠٥ باب فضل ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ولفظه بتمامه : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ يردِّدها ، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، وكأن الرجل يتقالُّها ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن » .

وعن أنس قال « جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اني أحب هذه السورة قل هو الله أحد . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حبك اياها أدخلك الجنة » رواه أحمد والترمذي وابن الضريس والبيهقي في سننه .

وقد وردت أحاديث كثيرة في أن من قرأ هذه السورة كذا غفر له ذنوب كذا وكذا . وهي في السنن وغيرها ولكنها ضعيفة غريبة . وفيها من هو متهم بالوضع . وقد روي من غير وجه أنها تعدل ثلث القرآن وفيها ما هو صحيح وفيها ما هو حسن .

فمن ذلك ما أخرجه أحمد والبخاري وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وسلم « والذي نفسي بيده انها لتعدل ثلث القرآن يعني ﴿ قل هو الله أحد ﴾ » قيل ولاشتمال هذه السورة مع قصرها على جميع المعارف الآلهية . والرد على من ألحد فيها جاء في الحديث أنها تعدل ثلث القرآن . فان مقاصده محصورة في بيان العقائد والاحكام والقصص . وما في الكشاف من أنها تعدل القرآن كله قال الدواني لم أره في شيء من كتب التفسير والحديث انتهى .

ولو لم يرد في فضل هذه السورة الا حديث عائشة عند البخاري ومسلم وغيرهما « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث رجلاً في سرية فكان يقرأ لاصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد . فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سلوه لاي شيء يصنع ذلك . فسألوه فقال لانها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها فقال أخبروه أن الله تعالى يحبه » .

هذا لفظ البخاري في كتاب التوحيد . وأخرج البخاري أيضاً في كتاب الصلاة من حديث أنس قال « كان رجل من الانصار يؤمهم في مسجد قباء فكان كلما افتتح سورة فقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو الله أحد حتى يفرغ منها ثم يقرأ سورة أخرى معها وكان يصنع ذلك في كل ركعة . فكلمه أصحابه فقالوا انك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بالاخرى . فاما أن تقرأ بها واما أن تدعها وتقرأ

بآخره قال ما أنا بتاركها ان أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت وان كرهتم تركتكم. وكانوا يرون أنه من أفضلهم. فكرهوا أن يؤمهم غيره. فلما أتاهم النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم أخبروه الخبر فقال يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة، فقال اني أحبها قال حبك اياها أدخلك الجنة » وقد روي بهذا اللفظ من غير وجه عند غير البخاري.

وهذه السورة قد تجردت للتوحيد والصفات، وفيه دليل على شرف علم التوحيد وكيف لا والعلم يشرف بشرف المعلوم. ويتضح بضعته، ومعلوم هذا العلم هو اللّه سبحانه وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز عليه. فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله.

وفي التوحيد وصفاته سبحانه كتب ورسائل مستقلة مفرزة تصدّى لجمعها وتأليفها عصابة من أهل العلم بالكتاب العزيز والسنة المطهرة منهم شيخ الاسلام أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني وتلميذه الحافظ محمد بن أبي بكر بن القيم وغيرهما من سلف الأئمة وخلفها كالمقريزي والشوكاني ومحمد ابن اسماعيل الامير اليماني ومحمد بن اسماعيل الدهلوي وأمثالهم رحمنا اللّه واياهم أجمعين. اللهم اجعلنا من الموحدين اياك واحشرنا في زمرة العالمين بك العاملين لك، الراجين لثوابك الخائفين من عقابك المكرمين بلقائك، وتقبل منا انك أنت السميع العليم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾

﴿ قل هو الله أحد ﴾ الضمير يجوز أن يكون عائداً إلى ما يفهم من السياق لما قدمنا من بيان سبب النزول وإن المشركين قالوا يا محمد انسب لنا ربك فيكون مبتدأ ، والله مبتدأ ثان واحداً خبر المبتدأ الثاني ، والجملة خبر المبتدأ الأول ، ويجوز أن يكون الله بدلاً من هو والخبر أحد ، ويجوز أن يكون الله خبراً أول وأحد خبراً ثانياً ، ويجوز أن يكون أحد خبراً لمبتدأ محذوف أي هو أحد ، ويجوز أن يكون هو ضمير شأن لأنه موضع تعظيم ، والجملة بعده مفسرة له وخبر عنه والأول أولى .

قال الزجاج هو كناية عن ذكر الله والمعنى أن ما سألتم تبيين نسبته هو الله أحد ، قيل وهمزة أحد بدل من الواو وأصله واحد ، ومن جملة القائلين بالقلب الخليل ، وقال أبو البقاء همزة أحد أصل بنفسها غير مقلوبة ، وذكر أن أحد يفيد العموم دون واحد .

ومما يفيد الفرق بينهما ما قاله الأزهري أنه لا يوصف بالأحدية غير الله تعالى ، لا يقال رجل أحد ولا درهم أحد كما يقال رجل واحد ودرهم واحد ، قيل والواحد يدخل في الأحد والأحد لا يدخل فيه ، فإذا قلت لا يقاومه واحد جاز أن يقال لكنه يقاومه إثنان بخلاف قولك لا يقاومه أحد .

وفرق ثعلب بين واحد وبين أحد بأن الواحد يدخل في العدد ، وأحد لا يدخل فيه ورد عليه أبو حيان بأنه يقال أحد وعشرون ونحوه فقد دخله العدد ، وهذا كما ترى انتهى .

وذكر أحد في الإثبات مع أن المشهور أنه يستعمل بعد النفي كما أن الواحد لا يستعمل إلا بعد الإثبات يقال في الدار واحد وما في الدار أحد .

فالجواب عنه ما قال ابن عباس أنه لا فرق بينهما في المعنى ، واختاره أبو عبيدة ويؤيده قوله تعالى ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم ﴾ وعليه فلا يختص أحدهما بمحل دون آخر ، وإن اشتهر استعمال أحدهما في النفي والآخر في الإثبات .

ويجوز أن يكون العدول عن المشهور هنا رعاية الفاصلة بعد فدل بقوله ﴿ الله ﴾ على جميع صفات الكمال وهي الثبوتية كالعلم والقدرة والارادة وبالأحد على صفات الجلال وهي الصفات السلبية كالقدم والبقاء كذا قال الكرخي .

قرأ الجمهور قل هو الله بإثبات قل ، وقرأ ابن مسعود وأبيّ ﴿ الله أحد ﴾ بدون قل ، وقرىء ﴿ قل هو الله الواحد ﴾ وقرأ الجمهور بتنوين أحد وهو الأصل وقرىء بحذفه للخفة ، وقيل إن ترك التنوين لملاقاته لام التعريف فيكون الترك لأجل الفرار من التقاء الساكنين ، ويجاب عنه بأن الفرار من التقاء الساكنين قد حصل مع التنوين بتحريك الأول منهما بالكسر .

﴿ الله الصمد ﴾ الإسم الشريف مبتدأ والصمد خبره ، والصمد هو الذي يصمد إليه في الحاجات أي يقصد لكونه قادراً على قضائها فهو فعل بمعنى مفعول كالقبض بمعنى المقبوض ، لأنه مصمود إليه أي مقصود إليه .

قال الزجاج : الصمد السيد الذي انتهى إليه السؤدد فلا سيد فوقه ، وقيل معنى الصمد الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزول ، وقيل معنى الصمد ما ذكر بعده من أنه الذي لم يلد ولم يولد ، وقيل هو المستغني عن كل أحد ، والمحتاج إليه كل أحد ، وقيل هو المقصود في الرغائب والمستعان به في المصائب ، وهذان القولان يرجعان إلى معنى القول الأول ، وقيل هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وقيل هو الكامل الذي لا عيب فيه .

وقال الحسن وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب

ومجاهد وعبدالله بن بريدة وعطاء وعطية العوفي والسدي : ﴿ الصمد ﴾ هو المصمت الذي لا جوف له ، وهذا لا ينافي القول الأول لجواز أن يكون هذا أصل معنى الصمد ثم استعمل في السيد المصمود إليه في الحوائج ، ولهذا أطبق على القول الأول أهل اللغة وجمهور أهل التفسير .

وتكرير الإسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية ، وحذف العاطف من هذه الجملة لأنها كالنتيجة للجملة الأولى .

وقيل أن الصمد صفة للإسم الشريف ، والخبر هو ما بعده والأول أولى لأن السياق يقتضي استقلال كل جملة .

وعن بريد قال : ﴿ الصمد ﴾ الذي لا جوف له وروي عنه مرفوعاً ولا يصح رفعه وعن ابن مسعود مثله وفي لفظ ليس له أحشاء ، وعن ابن عباس مثله ، وعنه قال الصمد الذي لا يطعم وهو المصمت ، وقد روي عنه أنه الذي يصمد إليه في الحوائج ، وفي لفظ الصمد السيد الذي قد كمل في سؤدده الشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والغني الذي قد كمل في غناه ، والجبار الذي قد كمل في جبروته ، والعالم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه ، هذه صفة لا تنبغي إلا له ، ليس له كفء وليس كمثله شيء .

وعن ابن مسعود قال الصمد وهو السيد الذي قد انتهى سؤدده فلا شيء أسود منه ، وعن ابن عباس قال الصمد الذي تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء .

﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ أي لم يصدر عنه ولد كما ولدت مريم . ولم يصدر هو عن شيء كما ولد عيسى وعزير لأنه لا يجانسه شيء ، ولاستحالة نسبة العدم إليه سابقاً ولاحقاً وقد دل على هذا قوله تعالى ﴿ أنى يكون له ولد ولم

تكن له صاحبة﴾ قال قتادة إن مشركي العرب قالوا الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، فأكذبهم الله فقال لم يلد ولم يولد .

قال الرازي قدم ذكر نفي الولد مع أن الوالد مقدم للاهتمام لأجل ما كان يقوله الكفار من المشركين الملائكة بنات الله واليهود عزيرابن الله والنصارى المسيح ابن الله ، ولم يدع أحد أن له والداً فلهذا السبب بدأ بالأهم فقال لم يلد .

ثم أشار إلى الحجة فقال ولم يولد كأنه قيل الدليل على امتناع الولد اتفاقنا على أنه ما كان ولداً لغيره ، وإنما عبر سبحانه بما يفيد انتفاء كونه لم يلد ولم يولد في الماضي ولم يذكر ما يفيد انتفاء كونه كذلك في المستقبل لأنه ورد جواباً عن قولهم (ولد الله) كما حكى الله عنهم بقوله ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله .

فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم وهم إنما قالوا ذلك بلفظ يفيد المنفي فيما مضى وردت الآية لدفع قولهم هذا .

﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها لأنه سبحانه إذا كان متصفاً بالصفات المتقدمة كان متصفاً بكونه لم يكافئه أحد ولم يماثله ولا يشاركه في شيء ، وآخر اسم كان لرعاية الفواصل .

وقوله (له) متعلق بقوله كفواً قدم عليه لرعاية الاهتمام لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته . وقيل أنه في محل نصب على الحال والأول أولى .

وقد رد المبرد على سيبويه بهذه الآية لأن سيبويه قال : إنه إذا تقدم الظرف كان هو الخبر وههنا لم يجعل خبراً مع تقدمه ، وقد رد على المبرد بوجهين .

(أحدهما) أن سيبويه لم يجعل ذلك حتماً بل جوزه .

(والثاني) أنا لا نسلم كون الظرف هنا ليس بخبر بل يجوز أن يكون خبراً ويكون كفواً منتصباً على الحال .

وحكي في الكشاف عن سيبويه أن الكلام العربي الفصيح ان يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ، واقتصر في هذه الحكاية على نقل أول كلام سيبويه ولم ينظر إلى آخره فإنه قال في آخر كلامه : والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير انتهى .

قال الشهاب ولعل الوصل بين هذه الجمل الثلاث وهي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد بالعاطف دون ما عداها من هذه السورة لأنها سيقت لمعنى وغرض واحد وهو نفي المماثلة والمناسبة عنه تعالى بوجه من الوجوه وهذه أقسامها لأن المماثل إما ولد أو والد أو نظير ، فلتغاير الأقسام واجتماعها في المقسم لزم العطف فيها بالواو وكما هو مقتضى قواعد المعاني . وترك العطف في الله الصمد لأنه محقق ومقرر لما قبله . وكذا ترك العطف في لم يلد لأنه مؤكد للصمدية لأن الغني عن كل شيء المحتاج إليه كل ما سواه لا يكون والداً ولا مولوداً انتهى .

قرأ الجمهور كفواً بضم الكاف والفاء وتسهيل الهمزة ، وقرأ الأعرج وسيبويه ونافع في رواية عنه بإسكان الفاء مع إبدال الهمزة واواً في الوقف وأبدلت الواو وصلاً ووقفاً أيضاً وقرىء كفاً بكسر الكاف وفتح الفاء من غير مد وكذلك مع المد ، والكفء في لغة العرب النظير ، تقول هذا كفؤك أي نظيرك والاسم الكفاءة بالفتح قال ابن عباس ليس له كفء ولا مثل ، ومن زعم أن نفي الكفء وهو المثل في الماضي لا يدل على نفيه للحال والكفار يدعونه في الحال فقد تاه في غيه ، لأنه إذا لم يكن فيما مضى لم يكن في الحال ضرورة إذ الحادث لا يكون كفأً للقديم ، وحاصل كلام الكفرة يؤول إلى الإشراك والتشبيه والتعطيل والسورة الكريمة تدفع الكل .

أخرج البخاري عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال

« كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك : فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .



سورة الفلق

هي خمس آيات وهي مكيّة في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة قيل وهو الصحيح، وعن ابن مسعود أنه كان يحك المعوذتين من المصحف يقول لا تخلطوا القرن بما ليس منه أنهما ليستا من كتاب اللّه انما أمر النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يتعوذ بهما وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما أخرجه أحمد الطبراني وابن مردويه من طرق قال السيوطي صحيحة، قال البزار لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة، وقد صح عن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم أنه قرأ بهما في الصلاة وأثبتتا في المصحف.

وأخرج أحمد والبخاري والنسائي وغيرهم عن زر بن حبيش قال أتيت المدينة فلقيت أبيّ بن كعب فقلت له أبا المنذر «اني رأيت ابن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه، فقال أما والذي بعث محمداً صلى اللّه عليه وآله وسلم بالحق لقد سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم عنهما وما سألني عنهما أحد منذ سألته غيرك، قال قيل لي قل فقلت فقولوا فنحن نقول كما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم».

قال القرطبي زعم ابن مسعود أن هاتين السورتين دعاء يتعوذ به وليستا من القرآن وقد خالف الاجماع من الصحابة وأهل البيت.

وقال ابن قتيبة لم يكتب ابن مسعود المعوذتين في مصحفه لأنه كان يسمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يعوذ الحسن والحسين بهما فقدر أنهما بمنزلة « أعيذكما بكلمات اللّه التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة » .

قال أبو بكر بن الانباري وهذا مردود على ابن قتيبة لأن المعوذتين من كلام رب العالمين المعجز لجميع المخلوقين . وأعيذكما الخ من كلام البشر . وكلام الخالق الذي هو آية لمحمد صلى اللّه عليه وآله وسلم وحجة له باقية على جماعة الكافرين لا يلتبس بكلام الآدمين فضلاً عن مثل عبد اللّه بن مسعود الفصيح اللسان العالم باللغة العارف بأجناس الكلام وأفانين القول .

وقال بعض الناس لم يكتب عبد الله المعوذتين لأنه أمن عليهما من النسيان فأسقطهما وهو يحفظهما كما أسقط فاتحة الكتاب من مصحفه .

وأخرج مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن عقبة بن عامر قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم « أنزلت عليّ الليلة آيات لم أر مثلهن قط . قل أعوذ برب الفلق . وقل أعوذ برب الناس » .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : « كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يتعوذ من عين الجان ومن عين الإنس . فلما نزلت سورة المعوذتين أخذ بهما وترك ما سوى ذلك »

وعن ابن مسعود أن النبي صلى اللّه عليه وسلم « كان يكره عشر خصال ومنها أنه كان يكره الرقي إلا بالمعوذتين » أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وصححه .

وعن أم سلمة قالت : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم « من أحب السور الى اللّه قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس » أخرجه ابن مردويه .

وعن عائشة قالت أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم « كان اذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث فلما اشتد وجعه كنت اقرأ

عليه وأمسح بيده عليه رجاء بركتها » أخرجه مالك في الموطأ وهو في الصحيحين من طريق مالك .

وعن زيد ابن أرقم قال : « سحر النبي صلى اللّه عليه وسلم رجل من اليهود فاشتكى فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين وقال ان رجلا من اليهود سحرك والسحر في بئر فلان . فأرسل علياً فجاء به فأمره أن يحل العقد ويقرأ بآية ويحل حتى قام النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم كأنما نشط من عقال » أخرجه عبد بن حميد في مسنده وأخرجه ابن مردويه من حديث عائشة مطولا وكذلك من حديث ابن عباس .

قيل وكانت مدة سحره صلى اللّه عليه وسلم أربعين يوما وقيل ستة أشهر وقيل عاماً قال الحافظ ابن حجر وهو المعتمد .

قال الراغب تأثير السحر في النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يكن من حيث أنه نبي . وانما كان في بدنه حيث أنه انسان أو بشر كما كان يأكل ويتغوط ويغضب ويشتهي ويمرض فتأثيره فيه من حيث هو بشر لا من حيث هو نبي .

وانما يكون ذلك قادحاً في النبوة لو وجد للسحر تأثير في امر يرجع للنبوة كما أن جرحه وكسر ثنيته يوم أحد لم يقدح فيما ضمن اللّه له من عصمته في قوله ﴿ واللّه يعصمك من الناس ﴾ وكما لا اعتداد بما يقع في الاسلام من غلبة بعض المشركين على بعض النواحي فيما ذكر من كمال الاسلام في قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) .

قال القاضي ولا يوجب ذلك صدق الكفرة في أنه مسحور لانهم أرادوا به أنه مجنون بواسطة السحراء .

ومذهب أهل السنة أن السحر حق وله حقيقة ويكون بالقول والفعل . ويؤلم ويمرض ويقتل ويفرق بين الزوجين . وتمام الكلام على هذا في حاشية سليمان الجمل فارجع اليه .

وقد ورد في فضل المعوذتين وفي قراءة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لهما في الصلاة وغيرها أحاديث . وفيما ذكرناه كفاية .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ الفلق الصبح يقال هو أبين من فلق الصبح ، وسمي فلقاً لأنه يفلق عنه الليل وهو فعل بمعنى مفعول ، قال الزجاج لأن الليل ينفلق عنه الصبح ويكون بمعنى مفعول وهذا قول جمهور المفسرين ، وقيل هو سجن في جهنم ، وقيل هو اسم من أسماء جهنم وقيل شجرة في النار ، وقيل هو الجبال والصخور لأنها تفلق بالمياه أي تشقق ، وقيل هو التفليق بين الجبال لأنها تنشق من خوف الله .

قال النحاس يقال لكل ما اطمأن من الأرض فلق ، وقيل هو كل ما انفلق عن جميع ما خلق الله من الحيوان والصبح والحب والنوى وكل شيء من نبات وغيره ، قاله الحسن والضحاك .

قال القرطبي : هذا القول يشهد له الإنشقاق فإن الفلق الشق يقال فلقت الشيء فلقاً شققته والتفليق مثله يقال فلقته فانفلق وتفلق فكل ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحب ونوى وماء فهو فلق ، قال الله سبحانه (فالق الأصباح) وقال (فالق الحب والنوى) انتهى .

والقول الأول أولى لأن المعنى وإن كان أعم منه وأوسع مما تضمنه لكنه المتبادر عند الإطلاق ، وقد قيل في وجه تخصيص الفلق الإيماء إلى أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضاً أن يدفع عن العائذ كل ما يخافه ويخشاه وقيل طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرج فكما أن الإنسان في الليل يكون منتظراً لطلوع الصباح كذلك الخائف يكون مترقباً لطلوع صباح النجاح .

وقيل غير هذا مما هو مجرد بيان مناسبة ليس فيها كثير فائدة تتعلق بالتفسير .

عن عمرو بن عبسة قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ وقال يا ابن عبسة أتدري ما الفلق ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال بئر في جهنم » أخرجه ابن مردويه ، وأخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً عليه غير مرفوع .

وعن عقبة بن عامر قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اقرأ ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ هل تدري ما الفلق ، باب في النار إذا فتح سعرت جهنم » أخرجه ابن مردويه .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فقال هو سجن في جهنم يحبس فيه الجبارون والمستكبرون وأن جهنم لتتعوذ بالله منه » أخرجه ابن مردويه والديلمي .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « الفلق جب في جهنم » أخرجه ابن جرير .

وهذه الأحاديث لو كانت صحيحة ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان المصير إليها واجباً ، والقول بها متعيناً .

وعن ابن عباس قال الفلق سجن في جهنم ، وعن جابر بن عبدالله قال الفلق الصبح ، وعن ابن عباس أيضاً الفلق الخلق .

﴿ من شر ما خلق ﴾ متعلق بأعوذ أي أعوذ بالله من شر كل ما خلقه من جميع مخلوقاته فيعم جميع الشرور ، فهذا عام وما بعده من الشرور الثلاثة خاص فهو من ذكر الخاص بعد العام ، وقيل هو إبليس وذريته ، وقيل جهنم ، ولا وجه لهذا التخصيص كما أنه لا وجه لتخصيص من خصص هذا العموم بالمضار البدنية .

وقد حرف بعض المتعصبين هذه الآية مدافعة عن مذهبه ، وتقويماً لباطله ، فقرأ بتنوين شر على أن ما نافية ، والمعنى من شر لم يخلقه ، ومنهم عمرو بن عبيد وعمرو بن فائد ، وفي المدارك قرأ أبو حنيفة رحمه الله تعالى من شر بالتنوين (وما) على هذا مع الفعل بتأويل المصدر في موضع الجر بدل من شر أي شر خلقه أي من خلق شر أو ما زائدة انتهى وفيه أيضاً بعد وضعف كما ترى .

﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ الغاسق الليل والغسق الظلمة ، قال الفراء يقال غسق الليل وأغسق إذا أظلم ، وقال الزجاج : قيل لليل غاسق لأنه ابرد من النهار والغاسق البارد ، والغسق البرد ، ولأن في الليل تخرج السباع من آجامها والهوام من أماكنها وينبعث أهل الشر على العبث والفساد كذا قال وهو قول بارد ، فإن أهل اللغة على خلافه ، وكذا جمهور المفسرين ، ووقوبه دخول ظلامه يقال وقبت الشمس إذا غابت ، وقيل الغاسق الثريا وذلك أنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين ، وإذا طلعت إرتفع ذلك ، وبه قال ابن زيد ، وهذا محتاج إلى نقل عن العرب أنهم يصفون الثريا بالغسوق .

وقال الزهري : هو الشمس إذا غربت ، وكأنه لاحظ معنى الوقوب ولم يلاحظ معنى الغسوق ، وقيل هو القمر إذا خسف ، وقيل إذا غاب ، وبهذا قال قتادة وغيره .

واستدلوا بحديث أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وصححه وغيرهم عن عائشة قالت « نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً إلى القمر لما طلع فقال يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا فإن هذا هو الغاسق إذا وقب » قال الترمذي بعد إخراجه حسن صحيح .

وهذا لا ينافي قول الجمهور لأن القمرآية الليل ولا يوجد له سلطان إلا فيه ، وهكذا يقال في جواب من قال أنه الثريا .

قال ابن الأعرابي في تأويل هذا الحديث : وذلك أن أهل الريب يتحينون وجبة القمر ، وقيل الغاسق الحية إذا لدغت وقيل الغاسق كل هاجم يضر كائناً ما كان من قولهم غسقت القرحة إذا جرى صديدها ، وقيل الغاسق هو السائل .

وقد عرفناك أن الراجح في تفسير هذه الآية هو ما قاله أهل القول الأول ووجه تخصيصه أن الشر فيه أكثر والتحرز من الشرور فيه أصعب ، ومنه قولهم الليل أخفى للويل .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « النجم هو الغاسق وهو الثريا » أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ وغيرهما ، وروي من وجه آخر عنه غير مرفوع .

وقد قدمنا تأويل ما ورد أن الغاسق القمر .

وأخرج أبو الشيخ عنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا ارتفعت النجوم رفعت كل عاهة عن كل بلد » وهذا لو صح لم يكن فيه دليل على أن الغاسق هو النجم أو النجوم » وعن ابن عباس في الآية قال : الليل إذا أقبل .

﴿ ومن شر النفاثات في العقد ﴾ النفاثات هن السواحر أي وأعوذ برب الفلق من شر النفوس النفاثات أو النساء النفاثات والنفث النفخ كما يفعل ذلك من يرقي ويسحر ، قيل مع ريق ، وقيل بدون ريق ، وهو دليل بطلان قول المعتزلة في إنكار تحقق السحر وظهور اثره .

والعقد جمع عقدة وذلك أنهن كن ينفثن في عقد الخيوط حين يسحرن بها . قال أبو عبيدة النفاثات هن بنات لبيد بن الأعصم اليهودي سحرن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

قرأ الجمهور النفاثات جمع نفاثة على المبالغة ، وقرىء النفاثات جمع نافثة والنفاثات بضم النون والنفثات بدون ألف. وقال ابن عباس الساحرات وعنه قال هو ما خالط السحر من الرقى .

وأخرج النسائي وابن مردويه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئاً وكل إليه » .

وعنه قال جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعوذني فقال : « ألا أرقيك برقية رقاني بها جبريل فقلت بلى بأبي أنت وأمي قال بسم الله أرقيك والله يشفيك من كل داء فيك ﴿ من شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ ، فرقى بها ثلاث مرات » أخرجه ابن ماجه وابن سعد والحاكم وغيرهم .

واختلفوا في جواز النفخ في الرقي والتعاويذ الشرعية فجوزه الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم يدل عليه حديث عائشة قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات » الحديث .

وأنكر جماعة التفل والنفث في الرقى وأجازوا النفخ بلا ريق ، قال عكرمة لا ينبغي للراقي أن ينفث ولا يمسح ولا يعقد .

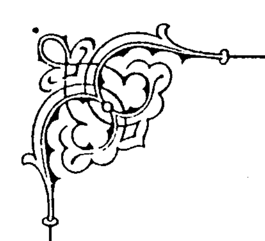
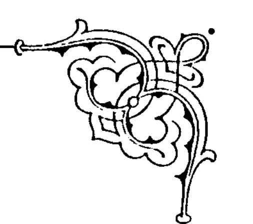
قال النسفي جوز الاسترقاء بما كان من كتاب الله وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا بماكان بالسريانية والعبرانية والهندية فإنه لا يحل اعتقاده ولا اعتماد عليه .

﴿ ومن شر حاسد ﴾ الحسد تمني زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود ، ومعنى ﴿ إذا حسد ﴾ إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه وحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود ، قال عمر بن عبد العزيز : لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من حاسد ، وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال :

قل للحسود إذا تنفس طعنة   يا ظالما وكأنه مظلوم

ذكر الله سبحانه في هذه السورة إرشاد رسوله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإستعاذة من شر كل مخلوقاته على العموم ، ثم ذكر بعض الشرور على

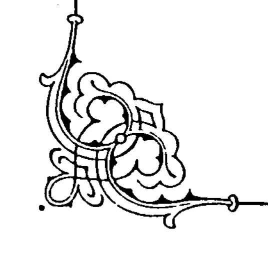
الخصوص مع اندارجه تحت العموم لزيادة شره ومزيد ضره وهو الغاسق والنفاثات والحاسد ، فكأن هؤلاء لما فيهم من مزيد الشر حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر ، وختم بالحسد ليعلم أنه أشد وأشر ، وهو أول ذنب عصى الله به في السماء من إبليس وفي الأرض من قابيل ، وإنما عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه لأن كل نفاثة شريرة فلذا عرفت النفاثات ونكر غاسق لأن كل غاسق لا يكون فيه الشر ، إنما يكون في بعض دون بعض ، وكذلك كل حاسد لا يضر ، وربما حسد يكون محموداً كالحسد في الخيرات ، ذكره النسفي في المدارك . وعن ابن عباس في قوله ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ قال نفس ابن آدم وعينه .

سورة الناس

هي ست آيات والخلاف في كونها مكية او مدنية كالخلاف الذي تقدم في سورة الفلق . قال ابن عباس انزل بمكة قل أعوذ برب الناس . وعن ابن الزبير قال انزل بالمدينة .

وقد قدمنا في سورة الفلق ما ورد في سبب نزول هذه السورة وما ورد في فضلها فارجع اليه . وأتى الحافظ ابن القيم في البدائع بفوائد بديعة كثيرة تتعلق بالمعوذتين . وكتب عشرين ورقة في بيان ذلك لا يتسع هذا المقام لبسطها ان شئت فراجعه .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

﴿ قل أعوذ ﴾ قرأ الجمهور بالهمزة وقرىء بحذفها ونقل حركتها إلى اللام ﴿ برب الناس ﴾ قرأ الجمهور بترك الامالة في الناس وقرىء بالإمالة ، والمعنى مالك أمرهم ومربيهم ومصلح أحوالهم وانما قال رب الناس مع انه رب جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم ولكون الاستعاذة وقعت من شر ما يوسوس في صدورهم .

وقوله ﴿ ملك الناس ﴾ عطف بيان جيء به لبيان ان رتبته سبحانه ليست كرتبة سائر الملاك لما تحت أيديهم من مماليكهم بل بطريق الملك الكامل والسلطان القاهر وقد أجمع جميع القراء في هذه السورة على إسقاط الألف بخلاف الفاتحة فاختلفوا فيها كما مضى .

﴿ إله الناس ﴾ هو أيضاً عطف بيان لبيان أن ربوبيته وملكه قد انضم إليهما المعبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي بالايجاد والإعدام .

وأيضاً الرب قد يكون ملكاً وقد لا يكون ملكاً كما يقال رب الدار ، ورب المتاع ، ومنه قوله ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ فبين أنه ملك الناس ، ثم الملك قد يكون إلهاً وقد لا يكون فبين إنه إله لأن اسم الإله خاص به لا يشاركه فيه أحد .

وأيضاً بدأ باسم الرب وهو اسم لمن قام بتدبيره وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلاً كاملاً ، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك فذكر أنه ملك الناس .

ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه وأنه عبد مخلوق وإن خالقه إله معبود بين سبحانه أنه إله الناس، وكرر لفظ الناس في الثلاثة المواضع لأن عطف البيان يحتاج إلى مزية الإظهار والبيان ، ولأن التكرير يقتضي مزيد شرف الناس ، وقيل أراد بالأول الأطفال ، ومعنى الربوبية يدل عليه ، وبالثاني الشباب ولفظ الملك المنبىء عن السياسة يدل عليه ، وبالثالث الشيوخ ولفظ الإله المنبىء عن العبادة يدل عليه ، وبالرابع الصالحين إذ الشيطان مولع باغوائهم ، وبالخامس المفسدين لعطفه على المعوذ منه ، ذكره النسفي ، ولا وجه لهذا التخصيص وإنما هذا الكلام من لطائف البيان .

﴿ من شر الوسواس ﴾ قال الفراء هو بفتح الواو بمعنى الاسم أي الموسوس وبكسرها المصدر أي الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة ، وقيل هو بالفتح اسم لمعنى الوسوسة ، والوسوسة هي حديث النفس يقال وسوست إليه نفسه وسوسة أي حدثته حديثاً ، وأصلها الصوت الخفي ، ومنه قيل لأصوات الحلى وسواس .

قال الزجاج الوسواس هو الشيطان أي ذي الوسواس ويقال إن الوسواس ابن لإبليس وسمى بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه لأنها شغله الذي هو عاكف عليه ، وقد سبق تحقيق معنى الوسوسة في تفسير قوله ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾ ومعنى ﴿ الخناس ﴾ كثير الخنس وهو التأخر يقال خنس إذا تأخر ، قال مجاهد إذا ذكر الله خنس وانقبض وإذا لم يذكر انبسط على القلب.

ووصف بالخناس لأنه كثير الإختفاء ومنه قوله تعالى ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ يعني النجوم لاختفائها بعد ظهورها كما تقدم ، وقيل الخناس اسم لابن إبليس كما تقدم في الوسواس .

وعن ابن عباس في قوله الوسواس الخناس قال مثل الشيطان كمثل ابن عرس واضع فمه على فم القلب فيوسوس إليه ، فإن ذكر الله خنس وإن سكت عاد إليه فهو الوسواس الخناس .

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن نسيه التقم قلبه فذلك الوسواس الخناس » أخرجه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وأبو يعلى وابن شاهين والبيهقي في الشعب .

وعن ابن عباس في الآية قال الشيطان جاث على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس وإذا ذكر الله خنس وعنه قال ما من مولود يولد إلا على قلبه الوسواس فإذا ذكر الله خنس وإذا غفل وسوس ، فذلك قوله الوسواس الخناس .

وقد ورد في معنى هذا غيره وظاهره أن مطلق ذكر الله يطرد الشيطان وإن لم يكن على طريق الإستعاذة ، ولذكر الله سبحانه فوائد جليلة حاصلها الفوز بخيري الدنيا والآخرة .

﴿ الذي يوسوس في صدور الناس ﴾ قال قتادة أن الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان فإذا غفل ابن آدم عن ذكر الله وسوس له وإذا ذكر العبد ربه خنس .

قال مقاتل إن الشيطان في صورة خنزير يجري من ابن آدم مجرى الدم في عروقه سلطه الله على ذلك ، ووسوسته هي الدعاء إلى طاعته بكلام خفي يصل إلى القلب من غير سماع صوت .

والجملة في محل الجر على الصفة أو الرفع على تقدير مبتدأ والنصب على الذم ، وعلى هذين الوجهين يحسن الوقف على الخناس .

ثم بين سبحانه الذي يوسوس بأنه ضربان جني وإنسي فقال ﴿ من الجنة

والناس ﴾ أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس ، وأما شيطان الإنس فوسوسته ، في صدور الناس أنه يرى نفسه كالناصح المشفق فيوقع في الصدر من كلامه الذي أخرجه مخرج النصيحة ما يوقع الشيطان فيه بوسوسته كما قال سبحانه ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ ويجوز أن يكون متعلقاً بيوسوس أي يوسوس في صدورهم من جهة الجنة ومن جهة الناس ويجوز أن يكون بياناً للناس .

قال الرازي وقال قوم من الجنة والناس قسمان مندرجان تحت قوله ﴿ في صدور الناس ﴾ لأن القدر المشترك بين الجن والإنس سمي إنساناً ، والإنسان أيضاً سمى إنساناً فيكون لفظ الإنسان واقعاً على الجنس والنوع بالإشتراك .

والدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه لفظ الإنس والجن ما روي أنه جاء نفر من الجن فقيل لهم من أنتم قالوا ناس من الجن وأيضاً قد سماهم الله تعالى رجالاً في قوله ﴿ وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ﴾ وقيل يجوز أن يكون المراد أعوذ برب الناس من الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ، كأنه استعاذ ربه من ذلك الشيطان الواحد ثم استعاذ بربه من جميع الجنة والناس .

وقيل المراد بالناس « الناسي » وسقطت الياء كسقوطها في قوله يوم يدع الداع ، ثم بين بالجنة والناس لأن كل فرد من أفراد الفريقين في الغالب مبتلى بالنسيان .

وأحسن من هذا أن يكون قوله ﴿ والناس ﴾ معطوفاً على الوسواس أي من شر الوسواس ومن شر الناس كأنه أمر أن يستعيذ من شر الجن والإنس ، قال الحسن أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس مباشرة أما شيطان الإنس فيأتي علانية .

وقال قتادة : إن من الجن شياطين وإن من الإنس شياطين فنعوذ بالله من شياطين الجن والإنس ، وقيل إن إبليس يوسوس في صدور الإنس .

وواحد الجنة جني كما أن واحد الإنس إنسي والقول الأول هو أرجح هذه الأقوال وإن كان وسوسة الإنس في صدور الناس لا تكون إلا بالمعنى الذي قدمنا ويكون هذا البيان تذكر الثقلين للارشاد إلى ان من استعاذ بالله منهما ارتفعت عنه محن الدنيا والآخرة .

وعن ابن عباس قال : قيل يا رسول الله « أي الأعمال أحب إلى الله تعالى قال الحال المرتحل ، قيل وما الحال المرتحل ، قال الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل » ، أخرجه الترمذي .

الخاتمة

يقول العبد الضعيف الخامل المتواري ، مؤلف هذا التفسير صديق ابن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري ، ختم الله له بـالحسنى ، وأذاقه حلاوة رضوانه الأسنى .

وإلى هنا انتهى هذا التفسير الجامع بين فني الرواية والدراية ، الرافع من ألوية التحقيق والتنقيح أعظم راية ، وكان الفراغ منه في ضحوة يوم الجمعة لعله التاسع والعشرون من شهر ذي الحجة أحد شهور سنة تسع وثمانين بعد مائتين وألف من الهجرة النبوية ، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية ، وقد تم بتمامه ، وانتهى بانتهائه الأسبوع والشهر والسنة اللهم كما مننت علي باكمال هذا التفسير وأعنتني على تحصيله وتفضلت عليّ بالفراغ منه على ما أردت فامنن علي بقبوله واجعله لي ذخيرة خير عندك وأجزل لي المثوبة بما صرفت الوقت في تحريره كما قلتَ في كتابك ﴿ إني لا أضيع عمل عامل منكم ﴾ وكما قلت في هذا الباب .

كـل يجيء بكسبـه وكتـابـه ... يـوم القيـامـة آخـر الأزمـان
في حضـرة الرحمن جـل جلالـه ... عم الـورى بـالعفـو والغفـران
ويجيء هـذا العبـد وهـو مقصر ... بكتـابـه التفسـير فتـح بيـان

ثم اللهم انفع به من أخلفه من بعدي من ولدي ومن شئت من عبادك المؤمنين ليدوم لي الانتفاع به بعد موتي ، فإن هذا هو المقصد الجليل ، والمطلب الجميل ، من هذا الجمع والتأليف واجعله خالصاً لوجهك الكريم وتجاوز عني إذا خطر لي من خواطر السوء ما فيه شائبة تخالف الإخلاص والتوحيد ، واغفر لي مالايطابق مرادك ، فإني لم أقصد في جميع أبحاثي فيه إلا إصابة الحق وموافقة ما ترضاه ، فإن أخطأت فأنت غافر الخطيآت ومسبل ذيل الستر على الهفوات ، وإن أصبت فأنت قابل الطاعات ، ومـانح العـطيات يـا باريء

الباريات ، وقد جمعته في زمنٍ أَهْلُهُ بغير الكتاب والسنة يفخرون ، وصنعته كما صنع نوح عليه السلام الفلكَ ومنه يسخرون ، ولله در من يقول :

إذا رضيت علي كرام عشيرتي ... فلا زال غضباناً عليّ لئامها

ثم اللهم أحمدك على ما أوليتني من نعمك الوافرة من الأموال والأولاد والعلم النافع من الكتاب العزيز والسنة المطهّرة لا أحصى حمداً لك ، وأشكرك على مارزقتني من خلوص النية في القول والعمل والاعتقاد ، لا أحصى شكرك أنت كما أثنيت على نفسك ، وقد رويت في صحيح مسلم بن الحجاج بسنده المتصل إلى أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله عليه وآله وسلم « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » اللهم فهذا علم ينتفع به وقد علمت نيتي وعدم انتصاري في تفسير كتابك لمذهب ذاهب أو قول قائل ما عدا قولك وما صح عن رسولك[1] صلى الله عليه وآله وسلم فانفعني به في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وأجزني بما أنت له أهل يا أهل التقوى وأهل المغفرة ، وهذه اولادي فاجعلهم من عبادك الصالحين وممن يدعو لي بعد مماتي ووفقهم للعلم النافع والعمل الصالح ، واحفظهم من بين أيديهم ومن خلفهم مما لا تحبه ولا ترضاه واجعل لي ولهم لسان صدق في الآخرين ، رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين ، وقد طعنت في العشر الخامس من عمري و ﴿وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً﴾ فاعذرني ﴿فلم أكن بدعائك رب شقياً﴾ .

ولنختتم الكلام بالحمد لله رب العالمين كما بدأنا به أول مرة ، وصلى الله تعالى وسلم وبارك على خير خلقه محمد وآله وصحبه كرة بعد كرة .

انتهى الكتاب بعون الله

---

١ - قوله «وما صحّ عن رسولك» فيه نظر كما تقدم فهناك أحاديث ضعيفة واسرائيليات.



خاتمة الجزء
الخامس عشر
تم بعونه تعالى الجزء الخامس عشر من كتاب فتح البيان في مقاصد
القرآن وبذلك نكون قد اتممنا الكتاب بأجزائه الخمسة عشر.

ان المؤلف رحمه الله وضع بعض الحواشي ثم وضع الاستاذ المطيعي عند طبعه الكتاب الطبعة الأولى في الهند بعض الحواشي ووضعنا قربها كلمة المطيعي .

أما معظم الحواشي وتخريج الآيات والأحاديث من كتب الحديث وبعض التعليقات المفيدة التي وضعت في الكتاب فهي من كتابة فضيلة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري وقد قام عدة علماء أجلاء بقراءتها والموافقة عليها.

الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري .

فهرس الجزء الخامس عشر